# إليف شفق






# قصر القمل

رواية

ترجمة: عبد القادر عبد اللي

أليف شفق

# قصر القمل

روايــة

ترجمة عبد القادر عبداللي

# قصر القمل

**قصر القمل**
**تأليف**: إليف شفق
**ترجمة**: عبد القادر عبداللي
**التدقيق اللغوي**: مظهر اللحام
**تصميم الغلاف**: زياد مني
**إخراج**: زياد مني. **إخراج إلكتروني**: محمد غيث الحاج حسين
**الطّبعة الأولى**: شباط (2009 م)؛ 

**التوزيع في سوريَة**: **قَدْمُس للنشر والتوزيع**
شارع ميسلون، دار المهندسين (0905)، الفردوس
ص ب (6177)
دمشق، سوريَة
هاتف: (+11 963) 9836 222 برّاق: 7226 224
جوّال: (+944 0 963) 167 517
بريد إلكتروني ‹cadmus@net.sy›
**التوزيع في محافظة اللاذقية**: **مكتبة بالميرا**
هاتف: (+41 963) 975 468

**التوزيع في العالم**: **شركةُ قَدْمُس للنشر والتوزيع (ش م م)**
ص ب (6435/ 113)؛ شارع الحمرا، بناء رسامني
بيروت، لبنان
هاتف: (+1 961) 054 750، برّاق: 053 750
جوّال: (+3 0 961) 512 620
بريد إلكتروني: ‹daramwaj@inco.com.lb›

**التوزيع في الأردن**: **الأهلية للنشر والتوزيع**
وسط البلد، خلف مطعم القدس؛ ص ب (7772) عمّان 11118، الأردن
هاتف: (+6 962) 8688 463؛ برّاق: 7445 465
بريد إلكتروني: ‹alahlia@nets.jo›

**لابتياع نسخ إلكترونية ورقية من إصداراتنا على (الشبكة) انظر**: ‹www.arabicebook.com›
**عدد كلمات الكتاب (109477) تقريبًا**




**This book was published within the "South-South Translations" project of Next Page Foundation, with the support of the Open Society Institute (OSI) – Budapest."**

صدر هذا الكتاب ضمن إطار برنامج ترجمة جنوب–جنوب التابع لِ(نكست بيج فاوندشِن) وبدعم معهد (أوبن سُسيتي) في بودابست، الجر.

# الكاتبة

ولدت الكاتبة التركية أليف شفق في مدينة "ستارسبورغ" الألمانية عام 1971. درست في قسم العلاقات الدولية في جامعة الشرق الأوسط التقنية في أنقرة، وتخرجت فيه، وقدمت أطروحة الماجستير في قسم "الشؤون النسائية" من الجامعة نفسها في موضوع: "الأنثوية – الدوران في المكان في الفكر البكطاشي والمولوي"، وكرمتها عليه جمعية العلوم السياسية. مجموعتها القصصية الأولى: "الأناضول في عيون حاسدة– 1994"، وأولى رواياتها: "المخبوء – 1997"، وحازت عنها على جائزة مولانا جلال الدين الرومي الكبرى عام 1998. روايتها الثانية: "مرايا المدينة – 1999"، وفازت عن روايتها "محرم – 2000" بجائزة اتحاد الكتاب في تركيا. أما رواية "قصر القمل" فقد صدرت عام 2002.

تعيش أليف شفق في الولايات المتحدة منذ فترة، وتُلقي في جامعة "ميشيغن" محاضرات في "الهويات الهامشية في الشرق الأوسط" و"المرأة والأدب". كتبت روايتها "جبل الأعراف" بالإنكليزية عن دار نشر "فرار،

شتراوس وجيروكس" إحدى الدور المعروفة في الولايات المتحدة، وترجمتها إلى التركية "أصلي بيتشان" عام 2004.

يمكـــن أن تكون المقاطعة مكاناً آمناً ومريحاً، ولكن مهما يكـــن فـــإن الأمـــر الذي يجعل ذلك المكان مقاطعة هو اضـــطراركم للعـــيش هناك. وبما أن الجدران قد بدأت بالانهـــيار، أعـــتقد أنه من المفيد أن نقفز فوق الخرابات، ونواجه المدينة التي في الخارج.

**أورسولا ك. لوغوين**

**نساء، أحلام، تنينات**

يقولـون إنـني صـاحبة خيال قوي. وهذا أفضل أسلوب اكتشف حتى اليوم لقـول: "إنـك تقولـين هـراءً!". يمكـن أن يكونوا على حق. عندما أبدأ بالقلق، وعـندما أقـابل بضـرورة مـا أقـول وأيـن ومـتى، وعـندما أخـاف مـن نظـرات الآخرين، وعندما أحاول عدم إظهار أنني أخاف من نظرات الآخرين، وعندما أريـد أن أعـرف بنفسـي لشـخص أريـد أن أتعـرف علـيه، في الحقـيقة أنـني أتجـاهل مقـدار قلـة معرفتي بنفسي، وعندما يحرق الماضي روحـي، وعندما لا أسـتطيع قـبول أن المسـتقبل لـن يكون أفضل من اليوم، وعندما أهضم أن أكون في المكـان الـذي أوجـد فـيه أو الإنسان الذي أنا عليه... أبدأ بالهراء. بقدر ما الهراء بعيد عن الحقيقة، بقدر ما هو بعيد عن الكذب. الكذب يقلب الحقيقة. أمـا الهـراء فهـو يـلحم الكـذب بالحقـيقة حيث لا يمكن التمييز بينهما. يبدو الأمـر معقـداً، ولكـنه في الحقيقة بسيط جداً. إنه بسيط إلى حد إمكانية التعبير عنه بخط واحد.

لنقل إن الحقيقة يمكن أن تجسد بخط أفقي. أي على النحو التالي:

---

حينئذ يكون ما نسميه الكذب خطاً عمودياً، أي على النحو التالي:

وعندما نأتي للهراء، فهو شيء كهذا:

لا يوجد في الدائرة خط عمودي، ولا خط أفقي، ولا نهاية، ولا بداية.

يمكننا الولوج إلى الدائرة من أي مكان فيها ما دمنا لا نقع بعشق إيجاد البداية. ولكنكم لا تطلقون اسم بداية على المكان الذي تبدؤون منه. لا ميلاد، ولا عتبة، ولا آخر موقف... ثمة سابق مهما كانت نقطة الانطلاق. أنا لم أصادف هذا، بل سمعته من أحدهم. كان ثمة لعبة يلعبها شباب وصبايا مصطفون على الجدار، عندما كانت حاويات الزبالة في الشوارع أسطوانية يميل لونها إلى الرمادي، ولها أغطية دائرية من الصفيح. وثمة ضرورة لاجتماع عدد من الأشخاص للتمكن من لعب تلك اللعبة، ويجب أن لا يكون هؤلاء كثيرين إلى الحد الذي يجعلهم مزدحمين، ولا قليلين إلى الحد الذي يجعلهم متفرقين، بل في عدد معين، ولابد أن يكون ذاك العدد مزدوجاً.

بداية، تحدد أربع جهات مختلفة على غطاء حاوية الزبالة الصفيحية المدورة المائل لونها إلى الرمادي. تُكتب أربع كلمات بالطباشير حيث تكون كل واحدة منها جواباً عن سؤال: "متى؟" على الجهات المحددة: "فوراً- غداً- قريباً- أبداً". يضغط أحد اللاعبين عشوائياً بإصبعه على الغطاء المدور بسرعة من مقبضه الذي في المنتصف ليوقفه. يعيد هذا العمل كل لاعب مشارك في اللعبة، وهكذا يحدد بالتسلسل صاحب التاريخ الأقرب فالأبعد. في الجولة الثانية، تكتب أربعة أجوبة لسؤال: "لمن؟"، وفي هذه المرة يُكتب على ما يُقابل الجهات الأربع: "لي- لحبيبي- لصديقي الأقرب- لجميعنا". مرة أخرى

يدور غطاء دائري صفيحي مائل إلى الرمادي بأقصى سرعة. ومرة أخرى أصابع تمدد واحدة تلو الأخرى، وتوقف الدائرة في مكان غير متوقع. في الدور الثالث، يأتي الدور إلى إيجاد جواب لسؤال "ماذا سيحصل؟". وتُكتب في الفراغات الثمانية المتشكلة أربع كلمات جيدة، وأربع سيئة من أجل تحقيق العدالة: **"حب، زواج، سعادة، غنى، مرض، فراق، حادث، موت"**. يُدور الغطاء من جديد، وتتهاوى إجابات أسئلة **"متى؟ ولمن؟ وماذا سيحصل؟"** التي يدفع الفضول لمعرفتها بين أيدي اللاعبين: **"لي، غنى، قريباً"، "لحبيبي، سعادة، غداً"، "لصديقي الأقرب، زواج، فوراً"، "لجميعنا، فراق، أبداً"**...

البدء ليس صعباً. أنا أيضاً يمكنني استخدام المنطق نفسه بتغيير صغير في شكل اللعبة. بداية عليَّ إيجاد الأزمنة: **"البارحة- اليوم- غداً- لانهاية"**. بعد ذلك يجب أن أرتب الأمكنة: **"المكان الذي جئت منه- المكان الذي أنا فيه- المكان الذي أذهب إليه- لا مكان"**. بعد ذلك، يجب أن أسلسل بين فراغات تلك الأمور النهاياتِ أربعاً لأربع من دون إخلال بالتوازن. وهكذا إذا دورت غطاء حاوية الزبالة الصفيحي المائل إلى اللون الرمادي، يمكنني بناء جملة سليمة. وجملة واحدة تكفي للبدء، وتزيد: **"في ربيع 2002، في اسطنبول، أحدنا، وفي تمام الوقت، مات قبل اكتمال الدورة."**

* * *

في الساعة الثانية عشرة وعشرين دقيقة بتاريخ الأول من أيار من عام 2002، كان ثمة شاحنة صغيرة بلون أبيض وسخ عليها رسم فيه فأرة ضخمة ذات أسنان مدببة في طرف، وعنكبوت مغطاة تماماً بوبر أسود في الطرف الآخر، ويملأ أمام الرسم وخلفه، ووراءه وأمامه كتابات كبيرة وصغيرة، وجدت نفسها وسط زحام يتألف من ألفين ومائتي شخص في زقاق فرعي ضيق ينفتح على أحد شوارع المدينة الرئيسة الذي كثيراً ما غير شكله، وبقدر ما غير شكله غير اسمه، وقد قلبت حواجز مرورية وُضعت صباحاً، ولكنها لم تلاحظها عندما

حاولت متابعة طريقها. خمسمئة من هؤلاء عمال يريدون التظاهر بمناسبة الأول من أيار، وألف وثلاثمئة من الشرطة متمركزون يريدون عدم السماح لهؤلاء بالتظاهر، أما الباقون فهم أركان الدولة الذين يريدون وضع إكليل زهر على تمثال أتاتورك بمناسبة عيد الربيع، وتلاميذ مدارس ابتدائية دست أعلام بأيديهم، وملؤوا بهم الفراغات. غالبية التلاميذ تعلموا القراءة والكتابة تواً، وككل من يتعلم القراءة حديثاً، اعتاد هؤلاء على تهجئة الكلمات التي يرونها كلها بصوت مرتفع. عندما غاصت شاحنة الفارة والعنكبوت الصغيرة بين التلاميذ المتسمرين تحت الشمس صامتين، والمصابين بالحكة وهم يستمعون للخطب الحماسية، كانوا يصرخون جماعياً بصوت مرتفع: "ق و س– ق ز ح– ل خ د م ا ت– م ك ا ف ح ة– ا ل ح ش ر ا ت: ا ط ل ب و ن ا– ن ك ا ف ح ه ا– ل ك م."

السائق البرتقالي الشعر، الشراعي الأذنين، المضحك الوجه، وغير الظاهر عليه عمره الحقيقي، المعرقلة يداه ورجلاه إزاء هذا الهجوم المفاجئ، دوَّر المقود إلى الطرف الآخر محاولاً تجنب الأولاد، فشق دائرة التوتر الموشك على الانفجار التي تضم تجمع المتظاهرين في جهة والشرطة في جهة أخرى من نصفها تماماً. وعلى مدى دقائق عدة تجمد فيها، لم يعرف إلى أين يذهب، فأطلق نحوه المتظاهرون المتمترسون في زوايا مختلفة لأيديولوجية واحدة صيحات احتجاج فرحة، وقذفوه بالحجارة غاضبين في آن واحد. وعندما قاد الشاحنة الصغيرة نحو الطرف الآخر من الدائرة تحت تأثير حلاوة الروح، أوقفته الشرطة حينذاك. وإثر قرار مجموعة من مقدمة المتظاهرين الانطلاق بالمظاهرة في تلك اللحظة بالذات، وانزياح الشرطة كلها نحو ذاك الطرف، نفد سائق الشاحنة الصغيرة من الاعتقال في اللحظة الأخيرة. عندما نجح بالخروج من الساحة، كان يتصبب عرقاً من فرقه لقدمه. اسمه "حقسيزليك أوزتورك/ ظلم تركي أصيل". يكافح الحشرات منذ ثلاث وثلاثين سنة، ولم يكره عمله كما كرهه اليوم أبداً.

عبر من أزقة تتلوى كجلد أفعى آخذاً باعتباره إطالة الطريق كيلا يقع في مأزق آخر، وعندما نجح بالوصول إلى البناء الذي يبحث عنه نهاية، كان قد

تأخر عن موعده ساعة وخمساً وأربعين دقيقة. عندما صف سيارته بجانب الرصيف، وصحا قليلاً، وقليلاً جداً، وجد خمسة عشر إلى عشرين شخصاً واقفين في مدخل البناء يرمقونه بشبهة. وإذا لم يفهم سبب اجتماعهم، فقد اقتنع أنهم غير مضرين، ودقق بالعنوان الذي دسته بيده السكرتيرة الثرثارة دائماً أكثر من الضرورة: "زقاق جرنال، رقم 88، قصر بنبون". وقد كتبت سكرتيرته الثرثارة ملاحظة تحت العنوان: "يوجد في حديقة البناء شجيرة ورد حريري". أثناء مسح "ظلم أوزتورك" قطرات العرق المتجمعة على جبهته، نظر بإمعان إلى أغصان عليها أزهار مائلة إلى البنفسجي، وأخرى إلى الزهري سامقة من حديقة البناء الواقف أمامه. لابد أن هذه ما يسمونها الوردة الحريرية.

ولعدم ثقته ولو بمقدار ذرة بسكرتيرته التي يفكر باستبدالها في أقرب وقت ممكن، أراد أن يرى بنفسه، وبواسطة نظارته المقربة جداً لوحة البناء. ترك شاحنته واقفة بشكل مائل، وقفز منها. وما إن خطا خطوة، صرخت طفلة من ثلاثة أطفال يقفون إلى الأمام قليلاً بأعلى صوتها: "آآ، انظروا إلى هذا! جاء جني! يا جدي، انظر يا جدي، جاء جني!" التفت الرجل الطاعن بالسن، الأشيب اللحية، العريض الجبهة، والمعمم الرأس، وتشده الفتاة من بنطاله ناظراً بامتعاض إلى الشاحنة الواقفة وسط الزقاق بداية، ثم إلى سائقها. لابد أنه لم يُسر مما رأى، فقطب وجهه أكثر مما هو مقطب، وجذب أحفاده الثلاثة معاً نحوه.

ظُلم "ظلم أوزتورك". لم يكن جنياً أو ما شابه. إنه مجرد رجل قصير بخطوط وجه غير متناسقة، وأذنين كبيرتين جداً، ولون شعر نحس؛ أي قصير جداً. طوله متر وخمسة وأربعين سنتيمتراً. كان يُعتقد أنه قزم، ولكنها المرة الأولى التي يُتهم فيها أنه جني. حاول ألا يبدي اهتماماً. مشى بخطوات واثقة نحو البناء الرمادي شاقاً جمع الناس. أخرج نظارته الغليظة الزجاج والدقيقة الإطار التي يضعها في جيب بزة العمل البرتقالية أكثر من شعره، وليس على أرنبة أنفه كما نبهه الطبيب، ووضعها. رغم هذا، لم يستطع تمييز بروز الواجهة المعكر حتى اقترب من البناء، واندس بأسفله. كانت لوحة

نحت بارز لطاووس اسودً ريشه من الوسخ. ممكن أن يبدو جميلاً لو نُظّف. نظر إلى الكتابة بالحروف المزخرفة تحت النحت البارز مباشرة، وفوق باب بمصراعين: "قصر بنبون، 88". جاء إلى المكان الصحيح. لفت نظره وجود بطاقة تعريف مدسوسة بين صف الأجراس المتعامدة. إنها لمؤسسة منافسة بدأت العمل نفسه قبل شهرين في المنطقة نفسها. اغتنم فرصة عدم اهتمام الناس المجاورين به، وأخرج بطاقة التعريف من حيث دست، ووضع مكانها إحدى بطاقاته.

> **قوس قزح لخدمات مكافحة الحشرات**
> **لا تزعجوا أنفسكم**
> **اطلبونا نكافحها لكم**
> مضخات كهربائية وآلية وعناصر خبيرة ومجربة ضد القمل، والصراصير، والبراغيث، والبق، والنمل، والعناكب، والعقارب، والبعوض والحشرات كافة.
> نقوم بأعمال المكافحة بأجهزة كهربائية وآلية ويدوية، وبالرش أو التدخين بحسب المكان المفتوح أو المغلق، وبرائحة أو بغير رائحة.
> **هاتف: 40 242 258(0212)**

بعد طباعته بطاقات التعريف هذه، استأجر طالباً جامعياً ليوزعها له على الأبنية المجاورة كلها، ولكنه طرده من دون أن يدفع له الأجرة، لمحاولته خوزقته بعدم قيامه بعمله كما يجب. هكذا هي طبيعة "ظلم أوزتورك": "لا يثق بأحد". أخرج بطاقة تعريف أخرى من جيبه، ودسها في البناء الآخر، وعاد بحركة سريعة، ثم قفز إلى شاحنته. ولكن قبل أن يجد فرصة لإغلاق الباب، مطت نفسها نحو الأسفل امرأة شقراء ربطت مريلة نايلونية مخططة كنمر، ومدت رأسها من نافذة مفتوح نصفها، ونظرت إليه بعينين حوراوين.

قالت المرأة مقطبة حاجبيها المنتوفين الرفيعين جداً: "أتيتم بهذه فقط؟ لا تكفي. أما كانوا سيرسلون شاحنتين؟ بصعوبة كبيرة يمكن لشاحنتين حمل كل هذه الزبالة."

وقبل أن يفهم "ظلم أوزتورك" ما قالته، اندفعت شاحنتان حمراوان من طرفي "زقاق جرنال" كأنهما سمعتا طلبهما. اقتربت كل منهما مسرعة، وحاصرتا الشاحنة الصغيرة بينهما أمام "قصر بنبون". تماوج الزحام عندما رأى سيارة تلفزيون خاص مقتربة من خلف الشاحنتين. في تلك الأثناء كان "ظلم أزوتورك" يحاول ركن سيارته. عندما جعلت أعصابه المتوترة منذ الصباح لتعاقب الأحداث على رأسه شريان جبينه الأيمن يضرب بقوة على إيقاع طائش، رفع يديه ليضغط على الشريان، ففقد سيطرته على المقود. عندما حاول أن يتراجع بشاحنته إلى الوراء، غاص بأكياس زبالة مكومة عند جدار الحديقة الفاصل بين البناء والزقاق. نثرت الزبالة التي في الأكياس على الرصيف.

* * *

بناء "قصر بنبون" يشكو منذ فترة طويلة من الزبالة، ويشكو من زبالة الخارج أكثر من التي في الداخل. إفلاس الشركة التي تجمع الزبالة، وتوقفها عن جمعها من بداية شباط إلى منتصف حزيران، إضافة إلى الفترة التي مرت بعد أخذ شركة أخرى التعهد، جعل تل الزبالة، ورائحة التفسخ الصادرة عنها غير محتملة. ولكن الوضع لم يتغير كثيراً بعد تسلم الشركة الجديدة عملها. وحتى لو أمكن جمع زبالة سكان الحي، وزبالة المارة الذين يلقونها عند أسوار حدائق الأبنية بشكل منتظم كل مساء، فسيتمكنون من تكويمها مرة أخرى في اليوم التالي وكأن شيئاً لم يكن.

إذا دفعكم الفضول، وذهبتم اليوم إلى هناك، سترون أن كوم الزبالة المرتفع إلى مستوى سور الحديقة، والممسوح عن الأرض في نهاية اليوم، لم ينقص شيء من معايرته في اليوم التالي التي قيست قبل يوم. تُرمى أكياس زبالة، وترفع، ولكن "أهل البحث" القادمين لزيارة الصفائح وصناديق المقوى، وبقايا الطعام المشكلين من قطط- وغربان- ونوارس، والطويلة الوبر، والحادة تعبيرات الوجوه، والقطرانية السواد، مع ملكتها البيضاء الملتحية، تحافظ

على استقرار ذاك التل. وثمة حشرات أيضاً بالطبع. والقمل يلعب على هواه في "قصر بنبون". وصدقوني بأن القمل هو الأسوأ.

وبالطبع إنكم تحتاجون للبقاء هناك مدة من الزمن لملاحظة كل هذا. وإذا لم يكن لديكم وقت لهذا، عليكم أن تكتفوا بالاستماع للقصة من لساني. ولكنني أنا أيضاً أحكي بصوتي: ليس بإضافة الكثير من عندي، أي لم يكن هكذا بالضبط. سأحاول الابتعاد قدر الممكن عن الثبات الممل الذي أقف فيه حيث يلتحم خط الحقيقة الأفقي مع خط الكذب العمودي. لأنني أتضايق. لو أن أحداً يبشرني بأن حياتي ستكون غداً أقل مللاً من اليوم، لعلني كنت سأشعر بضيق أقل. مع أن الغد سيكون مثل اليوم، والأيام التي تلي أيضاً ستكون هكذا تماماً. ولكن حياتي ليست الوحيدة المعيدة نفسها بعناد. في الحقيقة أن الخط العمودي الذي يحاول التظاهر بالاختلاف قدر استطاعته، ملتزم باستمرارية لا تقل عن استمرارية الخط الأفقي. فالحقيقة عكس ما يُعتقد بأن ما يُسمى "التكرار اللانهائي" خاص بالخطوط، بل بالدوائر.

في الحقيقة أنني أعرف درباً ضيقاً واحداً يخرج عن نسق الخطوط: الدائر المتداخلة. ويمكن لنا أن نعد هذا نوعاً من مخرب اللعبة. إنه امتعاضنا، وإعادة تدويرنا غطاء حاوية الزبالة المدور المائل إلى الرمادي عندما يواجهنا تسلسل مفردات لا يرضينا. إنه الامتعاض، وتدويره مرات ومرات. اللعب بالفاعلات، والضمائر، والأفعال، والمصادفات، وسلواننا أنفسنا باللعب عدة مرات: "في ربيع 2002، في اسطنبول، سيكون هو/ أنا/ كلنا/ لا أحد منا سبباً بموتها.

كافح "ظلم أوزتورك" حشرات إحدى الشقق في ذلك اليوم، ثم حشرات شقق "بناء بنبون" كلها شقة شقة فيما بعد. وعندما عاد بعد خمسة عشر يوماً من أجل صغار الصراصير التي خرجت من البيض بعد موت أمهاتها، وجد باب أول شقة عالجها مغلقاً. ولكن من المبكر الآن الحديث عن هذا. لأن هنالك ما قبله، وما قبل قبله.

# ما قبـل...

في البدايات، كان ثمة مقبرتان قديمتان إحداهما صغيرة، وقريبة من شكل المربع، ومعتنى بها، والأخرى كبيرة، على شكل نصف دائرة، ومهملة؛ وكلاهما مزدحمتين جداً، وخاويتين أشد خواء؛ محاطتان بسياج متشابك وطلعات ظليلة، وأسندتا ظهريهما للجدران المنهارة ذاتها، وامتدتا متعاونتين في أراض واسعة لا متناهية. الكبيرة للمسلمين، والصغيرة للأرمن الأرثوذكس. ثُبِّت عمودياً على الجدار الفاصل بين المقبرتين البالغ علوه حوالي متر ونصف مسامير صدئة، وكسارة زجاج، إضافة إلى قطع مرايا من دون تردد حول ما تجلبه من نحس لجعل القفز من فوقه غير ممكن. ولأن بابي المقبرتين الضخمين المصنوعين من قضبان حديدية، والمؤلف كل منهما من مصراعين يقعان على زاوية تبلغ مئة وثمانين درجة من الجدار المشترك بينهما، ومن ثم أحدهما مطل على الجنوب، والآخر على الشمال، فإن أحد الزوار، إذا عزم على الذهاب من إحداهما إلى الأخرى، فلا يمكن له الذهاب إلا إذا خرج من إحداهما، ومشى على طول الجدار الممتد على طول المقبرتين معاً قاطعاً الطريق صعوداً أو نزولاً حسب الوضع. ولعدم وجود زائر دفن قريباً له في إحدى

المقبرتين قال لنفسه: "بما أنني أتيت، فلأزر المقبرة الأخرى"، فلم يحدث أن ولدت ضرورة لتحمل هذا العبء. رغم هذا فإنه ثمة أرواح تتقافز من واحدة إلى أخرى ليلاً نهاراً وعلى هواها: ثمة طرق عديدة لعبور الريح واللصوص والسحالي والقطط من فوق الجدار الفاصل أو وسطه أو من تحته.

لم يستمر هذا طويلاً. بقيت المقبرتان كجزيرتين هادئتين وسط بحر من الفوضى مع الهجرات المتعاقبة من دون انقطاع، وفيضان المدينة بأبنية تشبه جنود جيش إسمنتي مسلح اصطفت إحداها بجانب الأخرى متقدمة بخطوات متناسقة ومتشابهة كلها فيما بينها عند النظر إليها من بعيد. تُبنى أبنية وبيوت مصطفة جديدة مستمرة من جهة، وتتولد أزقة متلوية ومنحنية بحسب وضع الأبنية تبدو من الأعلى صغيرة جداً ومتقاطعة ومتداخلة كشرايين وأوردة المخ من جهة أخرى. وهكذا قاطعت البيوتُ الأزقةَ، والأزقةُ قدَّام البيوتِ، ونمت تلك المنطقة كلها، وسمنت، وانتفخت كسمكة جاهلة لا تعرف الشبع رغم شبعها. وفي النهاية عندما وصلت إلى مشارف التشقق، كان لابد من فتح جرح دقيق في بطنها المتوتر المنفوخ المنهك. هذا الجرح يعني طريقاً جديداً، شارعاً رئيساً.

بسبب النمو غير المخطط، وغير الممكن إيقافه؛ وبسبب انحصار أزقة المنطقة المفتوحة والمسدودة كلها في المنطقة كانحصار مياه الصرف التي لا مخرج لها في الحواف والزوايا؛ افتُرض شق شارع رئيس يؤمّن تدفقها كلها في جهة واحدة، ويربطها بمجرى واحد. ولكن عندما جاء دور التعيين على المسقط من أين وكيف يحدد مسار الطريق المذكور، توقع المسؤولون انحرافاً مزعجاً: ثمة أبنية حكومية أو أملاك أشخاص محسوبين الخاطر أو بيوت مزدحمة لذوي دخل محدود لا مشكلة بهدم بيوتهم فرادى، ولكن من الممكن بروز مشاكل كبيرة بهدم بيوتهم جماعياً في النقاط التي سيمر منها الطريق كلها، وكأن ثمة سوءاً في هذا الأمر. كان لابد من إيجاد سبيل لشق ذاك الطريق بداية.

بما أن اسطنبول مدينة تشق طرقها بحسب أبنيتها، ولا تبنى أبنيتها بحسب طرقها، فلابد أن يعني شق هذا الطريق هدم أقل عدد ممكن من البيوت. لهذا السبب بقي مسار واحد: الأرض ذات الطلعات التي توجد فيها المقبرتان.

عندما حظيت التقارير المعدة على هذا الأساس بالموافقة، تقررت إزالة المقبرتين من هناك خلال شهرين ونصف، وتسويتهما بحيث يمر الطريق منهما. ليس ثمة سبب للقلق من موتى المقبرتين المذكورتين. يمكن على كل حال نقل القبور كلها إلى مناطق مختلفة من المدينة. مثلاً من الممكن نقل قبور المسلمين إلى السفوح المطلة على الخليج، أما قبور غير المسلمين، فيمكن نقلها إلى مقابرهم الموجودة في مختلف الأحياء.

ولكن القبور قديمة إلى حد أن متبنيها المحتملين قد غيروا دنياهم مع تبديل أصحابها لها. ولبعض المتبقية متبنون لا يتبنونها. رغم هذا، ظهر أن عدد محاولي الاهتمام بمصير القبور عن قرب من معرقلي المسؤولين أكبر من العدد المتوقع بكثير. إذا كان ثمة من أراد ترك الموتى براحتهم، أو اكتشف أن المقابر التي حددت له مزدحمة جداً، فبحث عن طرق إلغاء القرار، فإن الغالبية التي أرادت أن يُعمل ما يجب عمله في أقرب فرصة ممكنة، بدأت بما يجب عليها من أعمال النقل وهي تكلم نفسها. وطوال الأيام التالية استضافت مقبرة المسلمين ضيوفاً متنوعين يغنّي كل منهم على ليلاه في ساعات مختلفة من اليوم. يأتي عند شروق الشمس حراس المقبرة النشيطون المتمعنون فيما حولهم بدقة لإغلاق القبور المفتوحة ليلاً وجمع العظام المتناثرة مزيلين آثار القادمين الليليين؛ وقريب الظهر مسؤولون من أجل مراقبة الحراس؛ وبعد الظهر عائلات تتوارد جماعات وزمر كبيرة تشكو همها متحدثة مع شواهد القبور، وقلقة من تدخل الآخرين بالقبور المدفون فيها أقرباؤهم.

تذهب بعض عجائز العائلات أو المتوسطات السن إلى هنالك كل يوم تقريباً حتى منع ذهاب الزوار رسمياً. عندما يتعبن من الوقوف على أقدامهن، يمددن بسطاً حول قبور أقربائهن، ويصطففن متجاورات هناك. وفور جلوسهن يبكين فرادى أو جماعات، ويدعون الأدعية. ويضغطن الأولاد الصغار الذين

يصطحبنهم معهن على صدورهن، ليجبرنهم على الصمت والاحترام. وهكذا يتقدم الوقت، ويمسي المساء، ويغط بعض الأولاد بالنوم، ويهرب بعضهم للعب. وتنسل غيمةُ تراخٍ متمايلة على النساء الجالسات على الأرض. ويمكننا تسمية هذا هبوط الروحانية على الأرض. ومهما يكن، فإن أكثر الخالات أخروية لسن متحررات تماماً من الجاذبية الأرضية. يخرجن من حقائبهن التي لا يعرف إلا الله متى اشتريت، والمهترئة منذ زمن طويل، ولم تأخذ لوناً آخر غير البني كعكاً وبسكويتاً باليانسون وشاياً في حافظات حرارية، يقدمنها لبعضهن بعضاً، وبعبوات كولونيا الليمون المتجولة من يد إلى أخرى يمسحن وجوهن المتعرقة وحلقات الأحمر الغض الذي يرسمه مطاط الجوارب النايلونية فوق ركبهن ممضيات المساء. في هذه الأثناء، تفتحن صفحات دفاتر قديمة ممتلئة عن آخرها، كتبت ملاحظات على أطراف صفحاتها بادئات بذكر أسماء الذين لم يُروا المرحوم يوماً جميلاً اسماً اسماً، وأثناء حديثهن عما يفعله الحي من هؤلاء، وأين يفعله يبتعدن بسرعة عن ذكر الميت، منتقلات إلى النميمة. بعد ذلك ينتهي الشاي، وتبقى من الكعك والبسكويت حفنة يانسون؛ ويذكر بأن المرحوم الذي عانى كل هذا العقوق لا يرى الراحة الآن في قبره أيضاً؛ وقسوة المكان تبعد غيمة الكسل. ويمكن تسمية هذا قدح شهاب المادية إلى السماء. مهما يكن فإن جاذبية قبة السماء ليست معزولة تماما في أكثر القضايا مادية. وهكذا فإن بعض عجائز العائلات والمتوسطات السن يعدن خطوةً خطوة إلى نقطة البداية على طريق انتقالهن من الدعاء للميت إلى دعاء على البعض، ومن الدعاء على البعض إلى النميمة.

فور عودتهن إلى البداية تبحث أعينهن عن الأولاد. يُبحث عن الأولاد المتفرقين بين شواهد القبور عشوائياً، والدائرين المقبرة عدة مرات قافزين ومنططين، ويحضرون، ويُجلبون إلى عند القبر من أجل التضرع الأخير. حينئذ يحضر الرجال الضجرون من محاولات شرح مقاصدهم للبيروقراطية الصماء، والمستطيعون حتى المساء الحصول على بعض الأوراق مع خريطة المقبرة الجديدة، ولكنهم لم يعرفوا بأي شكل أين سيدفنون ميتهم من تلك الخريطة.

ويقابل الرجال أسئلة أمهاتهم، وأخواتهم، وزوجاتهم، وحمواتهم، وأخواتهم الكبار، وعماتهم، وزوجات أعمامهم وأخوالهم، وخالاتهم، وبنات حمواتهم، وبناتهم الحادة وتفسيراتهم المتشائمة ببرودة أعصاب، ويعددون معلومات يبدون من خلالها أن كل شيء يتطور تحت سيطرتهم، وضمن معلوماتهم. أثناء جمع البسط، ووداع شاهدة القبر تنتبه بعض النساء للمتناقضات الواردة في كلام الرجال، فيطرحن أسئلة جديدة أو يلححن بإعادة طرح الأسئلة التي سألنها عدة مرات. وهذا يجعل أعصاب الرجال المشدودة إلى هذا الطرف وذاك بين مسننات البيروقراطية إلى حد وصولها إلى توتر خيط القوس المشدود تنقطع كلها؛ وأثناء صراخهم على زوجاتهم، وصراخ زوجاتهم عليهم، ووسط هذا الصخب المشارك فيه الجميع معاً تغادر العائلات المقبرة وكأنها لم تحل أي شيء. بعد ذلك يظلم الجو، ويغلق الباب الضخم ذو القضبان الحديدية، وتبدأ ساعات صمت لصوص المقبرة وكلابها الشاردة.

أما مقبرة الأرمن الأرثوذكس، فقد كانت تشهد في الأيام ذاتها فيضاً من الزوار أيضاً، مع فرق وحيد: كانت أكثرية هؤلاء الساحقة تأتي إلى قبورها من أجل وداعها، وليس من أجل نقلها. فحتى لو حصلوا على الإذن اللازم لعملية النقل، ففي أي مقبرة أرمن أرثوذكس من تلك المقابر الموجودة في الأحياء الأخرى، والتي قلت لتناقصها تدريجياً، وصغرت لتضيقها تدريجياً يمكنهم دفن موتاهم؟ نجحت بعض العائلات ذات النفوذ، وبعض الكنائس بنقل بعض شواهد القبور. ولكن هذا كل شيء. ثمة قبور لأشخاص مقطوعين ليس لها من يتبناها بين القبور المتبقية، وثمة قبور هي لكبار شخصيات العائلات الأصيلة؛ كما أن بعضها لأشخاص تفرق أبناؤهم وأحفادهم في أربع أرجاء الأرض، وبعضها مازال أبناؤهم وأحفادهم يعيشون في اسطنبول؛ وثمة قبور هي لأشخاص يحترمون دولتهم على عماها طوال حياتهم، ومنها لمرتبطين بقوة بدينهم، ومنها لمن لا يعترف بالدولة ولا بالرب أيضاً...

لأن الأمر هكذا. من أسباب سوء طالع الأقليات هو التشابه النوعي، وليس القلة أمام الأكثرية العددية. يمكن لك باعتبارك منتمياً إلى أقلية أن تعمل

كالنمل باذلاً جهوداً مضنية، وحتى يمكن أن تصيب معك فتجمع ثروة لا بأس بهـا، ولكنك يمكن أن تُعامل المعاملة ذاتها مع آخر قضى عمره متسكعاً، أو لم يـر يومـاً جيداً مـنذ كـان في المهـد ذات يوم لمجرد أنكما تنتميان إلى الجماعة نفسـها، وهكـذا ستبقيان. لهذا السبب فإن أغنياء الأقليات ليسوا أغنياء كفاية في أي زمـن، ولا هـم أصـحاب سـلطة، أو أصـحاب سلطة بما يكفي. في تركيا الخمسـينيات بشـكل خـاص، عـندما ينظر مسلم غني إلى مسلم فقير كان يرى "إنسـاناً لا يشبهه"، ولكن عندما ينظر غني ينتمي لأقلية إلى فقير من الأقلية، كـان يـرى أمامـه "إنسـاناً يمكـن أن يعـامل وإيـاه المعاملـة نفسـها رغـم عـدم تشـابههما". الـبؤس نفسـه يمكـن أن يـثير الإحسـاس بالشـفقة على أحدهما، ويمكـن أن يسـتثير قلـق الـتعرض للظلم لدى الآخر. مع أن الإنسان سيتوه عن هدفـه بسـهولة ويخلط بين الأسباب والنتائج إذا ظُلم. لهذا السبب تبدي طبقة القشـدة للأغلبـية رحمـة سـاذجة على البائسين بالمعنى الأوسع، وعلى البؤس بالمعـنى الأكـثر تجـريداً، ولكـن طبقة القشدة للأقلية تبدي تناولاً بارداً وخاملاً لفقر جماعتها على الصعيدين المادي والمعنوي.

ولكـن هذه التفاصيل كلها تصل إلى هذا الحد. عندما انتهت مهلة الشهرين ونصـف تم الـتمكن مـن نقل عدد قليل جداً من قبور مقبرة الأرمن الأرثوذكس: بقـي أغلبية من الأقلية. أما مقبرة المسلمين فقد نقل منها عدد أكبر من القبور: بقيـت أقلـية من الأغلبية. ورغم عدم وجود ولو مقدار ذرة من تشابه بين هذين الجـزأين عـلى صعيد الأسماء أو الأصول أو القصص، فقد وضعت آخر نقطة في صـفحة مـن صـفحات الأغنـياء في اسـطنبول بالشكل نفسه. يمكننا أن نعطيهم درجـة مشـتركة: عـدم مسـتطيعي الذهـاب. أسـوأ جانب لدى عدم مستطيعي الذهـاب هـو لـيس عـدم ذهابهم، بل هو في الحقيقة عدم استطاعة البقاء، لأن الذي ينهرك طارداً من هذه الأرض مازال يبحث عن ملجأ له فيها.

في تلـك المـرحلة بالضـبط ، وقـبل دخـول الجـرافات، دخلت المصادفات. سـلب اللصـوص شـواهد قـبور غـير القـادرين عـلى الذهـاب، وأخذت الكلابُ العظـامَ، وراحـت الـزوجات المدفونـات إلى جانـب أزواجهـن إلى هذا الطرف،

وأزواجهـن إلى ذاك. وبسبب تشابه بعض الأسماء، أو أخطاء الموظفين الذين لا يعـرفون قـراءة الكـتابة القديمـة حـدث خلط بين قبور وأخرى. والقسم الأعظم مـنها أزيلـت مـن دون حـس أو نبس. ولكن المصادفة وحدها حددت ما سيقع على رؤوس الذين لم يستطيعوا الذهاب.

بعـد انـتهاء كـل هذه الأعمال صارت الأرض الواسعة مثقبة كأنها تعرضت لهجـوم مـئات المـناجذ. عندما جاء دور تسوية الأرض ظهر لحدان على طرف كـل منهما شاهدة منحوتة من رخام أبيض له عروق بلون الشراب بارتفاع يبلغ مـن قاعدتهـا إلى قمـتها نحـو 146 سم، وعمامـتها بقدِّ عجلة تقريباً، مرصعة بـزخارف نباتـية هـي عـبارة عـن ثلاثـة عـروق نبـتة زهـرة الآلام، وبروزات، ومحاطـة بقضـبان مدبـبة الـرؤوس كالسـهام مدهونة بلون أخضر فاتح. رغم أن هذيـن القـبرين المتشـابهين تمامـاً يقعـان داخـل حـدود المقبرة الإسلامية، فإن أحدهمـا يقـع عـلى السـفح الجـنوبي، والآخـر في الشمال حيث يلاصق أسفل الجـدار الفاصـل مـع مقـبرة الأرمـن الأرثوذكس. كل ما فيهما متشابه عدا هذا التفصـيل الصـغير. يوجـد على السطح الخارجي لشاهدة القدمين في كل منهما زخـرفة لمزهرية يخرج منها سنابل وزنبق. يوجد فوق شاهدة الرأس لكل منهما عمامـة مـتطابقة تمامـاً مع الأخرى. ويوجد على محيط حوض كل منهما بروز مدبـب عليه لوحة كتب عليها العبارة نفسها بخط الثلث الجلي نفسه: "البقاء لوجـه ربـك الأكـرم". وغـرزت بجوار كل منهما لوحة صدئة يبدو أن الشخص نفسـه زرعهمـا. "يـنام في هـذا المكـان "الجـد فـالقتي غوتشيلدي/ نهض وهاجر" المقـاتل في جـيش أبـو حفـص الحداد، والمقدم بطولات عظيمة في سبيل الفتوحات الإسلامية، ولقي رحمة ربه قبل أن يشهد فتح اسطنبول. الفاتحة لروحه".

عـندما جـاء الدور إلى إزالة اللحدين، ترك سائق الجرافة عمله باكراً تحت تـأثير ألم أمعـاء شـديد. في الـيوم التالي هدأت آلام تشنج أمعائه، ولكنه رفض الجلـوس وراء مقـود الجـرافة هـذه المـرة. في الـيوم الثالـث ولج إلى الأرض جد العـامل الـذي حل محله. لم يبق في فمه سن، ولا في ركبتيه حال، ولكن يبدو علـيه أنه لم يفقد ذرة من قوة فكه. عندما حاول إزالة قبري الوليين، حدث له

ما يقشعر الجسد بحسب القصص التي يرويها كل شخص لمن يصادفه. في اليوم الرابع، لم يعد أحد من العمال يقترب من الجرافة. وفي الحقيقة أن أحداً سواهم لم يسأل عن عاقبة الجدين "ڤالقتي غوتشيلدي"، ولكن ظهور البعض، والهمس بآذان المسؤولين بأن الوضع يمكن أن يُفهم إساءة لكبار رجال الدين، ويمكن أن يستخدمه ضدهم السياسيون المنافسون، اهتموا بالأمر عن قرب. كان العام 1949، والتوازنات السياسية حساسة إلى أقصى الحدود. ليس ثمة اقتراب من الإساءة للدين في احتمالات المعارضة المبكرة، ودفاعات السلطة المكثفة جداً. في تلك النقطة بالضبط دخل ثلاثة مستشارين أحباء في الموضوع.

أول المستشارين الأحباء اقترح فكرة أن يحرف الطريق قليلاً عند كل موقع ولي من الموقعين. ولكن أحداً لم يعد يأخذ هذا الرجل المسكين مأخذ الجد منذ اليوم المشؤوم الذي عرفت فيه زوجته أنه أنفق أجرة البيت في ملهى ليلي في ليلة واحدة، وذهبت إلى مكان عمله، وأسمعته تقبيحاً من الوزن الثقيل، وأطعمته صفعة موجعة على وجهه، لهذا بقي اقتراحه معلقاً في الهواء. اقترح المستشار الثاني من المستشارين الثلاثة الأحباء أن يستمر الشارع الرئيسي مستقيماً كما كان مخططاً له، وعند كل ولي من الوليين يقطع الطريق بنتوءين كما يُقطع حز الجبن اللساني الشكل، بعد ذلك توحد القطعتان. الجميع يعرف أنه يفرض كلمته بشكل ما على زوجته في البيت، حتى إنه رفع صوته في البيت، وقذف الطعام الذي حضرته زوجته، ولم يعجبه إلى الجدار، ولكن فكرته لم تلق قبولاً، لأن أحداً لم يجرؤ على تحمل مسؤولية الحوادث المرورية المحتمل وقوعها مستقبلاً بسبب هذا الاقتراح. حينئذ اعتبر المستشار الثالث من المستشارين الثلاثة الأحباء أنه استُعجل بالأمر للوصول إلى النتيجة، لأنه لابد من تبيان الوضع بكل التفاصيل قبل إيجاد الحل الأصوب، وشرح مطولاً أن ثمة أكثر من غرابة في الأمر عندما ينظر إليه بتمعن، ثم أضاف واثقاً جداً بنفسه: "التشخيص أولاً، ثم العلاج!".

النقاط التي أراد المستشار الثالث من المستشارين الثلاثة الأحباء أن توضح هي:

1) من هو جيش أبي حفص الحداد؟ وما عمله في اسطنبول؟

2) إذا كان هذا الجيش أحد الجيوش التي وصلت إلى اسطنبول في سبيل الفتوح الإسلامية، فما عمل الجد "قالقتي غوتشيلدي" الذي لا يشبه اسمه الأسماء العربية أبداً في هذا الجيش؟

3) إذا كان الجد "قالقتي غوتشيلدي" قد سقط شهيداً أثناء خوضه الحرب مع العرب من أجل فتح اسطنبول، فلماذا يوجد له قبران؟

4) أي القبرين حقيقي؟

وبعد أن عبر المستشار الثالث من المستشارين الثلاثة الأحباء عن هذه الأمور، أبرز إمكانية تجاهل المواد الأولى من أجل كسب الوقت، ولكن الضرورة القصوى تقتضي معرفة أي القبرين حقيقي. كان خطيباً جيداً، وفوق هذا عازباً.

على صعيد القبول والتقدير، فقد لاقى هذا الاقتراح قبولاً وتقديراً ، ولكن الطريق الوحيد لمعرفة أي القبرين هو الحقيقي يمر عبر حفر القبرين. محاولة فتح قبر ولي في زمن كهذا، يشبه قبول هدية غير معروف مرسلها، ولا ما في داخلها: من المحتمل أن يوجد فيها شيء عندما تُفتح، ولكن ماذا لو وجد؟ شم الرائحة صحفي يبدو أنه عدواني، ويُقال إنه يفت الخبز في العرق ويفطره، ويلتقط الأخبار بسرعة، وزفر اللسان، ركّب مقالة لإحدى أهم صحف المعارضة بعنوان: "حفارو قبور الحكومة ذوو البزات الرسمية". في الحقيقة أن مضمون المقالة ليس اتهامياً بقدر عنوانها، ولم يُفهم ما قاله كثيراً، ولكن هذا يتجاوز أمر زم الصحفي فمه، ويمكن أن يكون ذلك الغموض ناجماً عن تسريب المقالة قبل إنهائها، وليس ثمة ضمانة ألا يكتب مقالة أخرى أكثر عدوانية عندما يصحو من سكره.

رغم هذا فُتِح القبران، وتم هذا على عجل. ولكي تُنجز هذه المهمة غير السارة على عجل، جُمِعَ موظفان، وثلاثة حراس، وخمسة عمال، وحقيبة أوراق، ومصابيح يدوية، وفؤوس ومجارف فجراً. حُفر قبرا الوليين تحت نظرات مندهشة لعدة مشردين مدوا بسطهم هناك منذ فترة بعد فراغ المقبرة

الناجم عن عدم مرور اللصوص والكلاب الشاردة ليلاً. لم يظهر في القبر الأول أي شيء، لا تابوت، ولا كفن، ولا عظام أو جمجمة، ولا أشياء شخصية للولي. ولكن على الأقل كان يوجد هنا جذور أشجار، وقطع صخور، وديدان. ففي القبر الثاني لم تكن موجودة حتى هذه الأشياء. كان خطأ المسؤولين في هذه النقطة هو إزالتهم اللحدين الحجريين، وهدم السياج المصنوع من القضبان سراً. في اليوم التالي، نُشرت في إحدى أهم صحف المعارضة مقالة من دون توقيع، بعنوان: "حفارو قبور الحكومة ذوو البزات الرسمية"، ولكن المقالة هذه المرة متماسكة البناء من أولها إلى آخرها. تقول المقالة بأن الحكومة التي لا تفوت الفرصة لإثبات أنها لا تحترم ولو بقدر ذرة الإرث الثقافي للعثمانيين أخذت على عاتقها الآن إزالة مقابر الأولياء التي في اسطنبول قبراً بعد قبر ممهدتها على الأرض؛ إن زمرة السياسيين التي تتظاهر بارتباطها بالعادات والتقاليد، تستهين باطنياً بكل ما يتعلق بالجماهير؛ وهي تعوق العقائد القادمة من أحضان الأمة في سبيل نموذج غربي مجرد؛ وهي تقوم بمناهضة الدين علناً باسم تخليص الدين من المعتقدات الخرافية؛ وكانت المقالة تدعو المسلمين جميعاً لتبني الأولياء.

إذا لم تؤد المقالة إلى انفجار جماهيري كما تم توقعه، فقد كانت كطلقة إشارة حركت في الوقت نفسه مختلف أنواع الجمعيات والشخصيات المشكلة للمعارضة في البلد. بدا أن الغاية الوحيدة لكل هؤلاء الناس هي معرفة ما حل بالوليين الذين كانا في القبرين المفرغين، ومحاسبة المسؤولين عن هذا الأمر. كان الموضوع حاداً إلى أبعد الحدود، ومرشحاً للاستمرار. يدخل المناقشون من باب التحديث الجاهل، ويخرجون من باب جهل الحداثة؛ وهم كحشرة فرس النبي التي تنطط من فوق الماء، قفزوا، ونطوا على الزنابق المكتوب على أطرافها: "عدم الإحساس القومي"، "مهينو الزمن"، "الفَرْنَجَةُ الإجبارية"، "مخاطر العلمانية السرية"... عابرين بحيرة كبيرة من دون أن يبتلوا. تقول الجرائد المطبوعة في الريف، والمهتمة عن كثب بقضايا اسطنبول رغم عدم توزيعها فيها: "ما يُسمى التغريب ليس سوى زواج الشرق من الغرب. وفي هذا

الزواج الذي يكون فيه الشرق ذكراً، والغرب أنثى يجب ألا يُنسى أن رب الأسرة هو الزوج. في هذه الحالة، علينا ألا ننسى أن تلك الطرق الملونة التي تشق من أجل أن تغنج عليها بضع نساء جميلات متراقصات، ويتبختر أصحاب السيارات المتأنقون حاملين خضارهم، والعاملين على اختلاق مختلف السبل لملء جيوبهم وبطونهم، مجبرة على احترام الأولياء، وليس احترام الأولياء للشوارع.

ولأن تحديد الذنب يتطلب فضح المذنب، فقد جاء دور احتراق البعض. دارت القرعة، وبرمت، وفي النهاية وقعت على رأس حراس المقبرة. ولأن حراس المقبرة الكادحين، والناجحون النهاريون منهم بإخفاء آثار الليليين، لم ينجحوا بإخفاء آثارهم هم، اعتبروا مذنبين في قضية استباحة قبري الوليين بأعين رؤسائهم، وفُصلوا من عملهم. اثنان من الحراس الثلاثة المفصولين من عملهم مسنان مؤمنان بوجود خير في كل مصيبة تحل بهما. أحدهما عاد إلى قريته، والثاني أغلق على نفسه باب بيته متشوقاً لأحفاده. ولكن الحارس الثالث الأكثر شباباً، وأقل قناعة بالنسبة للآخرين، لم يستطع تحمل الظلم. وقضى فترة طويلة يكتب رسائل مليئة بالتهكم لمديرية المقابر، ورئيس البلدية، والوزراء، ورئيس الوزارة، وكبار ضباط الجيش، ويشكو همه لكل من يصادفه أمامه، عرفه أم لم يعرفه. في هذه الأثناء سقط الذين كانوا في السلطة، ووصل إلى الحكم من كان في المعارضة. تغير الوضع، ولكن الرسائل بقيت من دون رد دائماً. أما الناس الذين تحدث إليهم، فلم يبالوا. ومع صممهم، خرس الحارس، وانطوى على نفسه. وذات يوم عندما نسوا، أو اعتُقد أنهم نسوا، فهدؤوا؛ بعد أن كان ينام من المساء إلى الصباح شاخراً كالفيل مما جعله يفصل فراشه عن فراش زوجته التي لم يمد يده إليها منذ سنوات، انتفض مهتاجاً، وبعد ملاحقة مصحوبة بالصياح والصراخ ألماً داخل البيت دامت نحو ساعة لم يعر فيها اهتماماً لانتقاد الجيران، وعيبهم عليه بقولهم ما هذه الشهوة بعد كل هذا العمر، استطاع الإمساك بها في النهاية، ومن دون مبالاة لتوسل زوجته ودعائها عليه، ساعده الحظ، فجعل زوجته تحمل بعد الخمسين. وفور ولادة الولد

هرع، ولم يلتقط أنفاسه إلا في دائرة النفوس. ولكي لا ينسى الظلم الذي حل به، ولا يدعه يُنسى، أسمى الولد الذي وهبه الله له بعد هذا العمر "ظلم" رغم اعتراضات زوجته كلها، دافعاً حفنات من الرشاوى للموظفين في دائرة النفوس.

* * *

مع أن حادثة الوليين تراخت، وقاربت على النسيان قبل أن يسقط "ظلم" في رحم أمه. وقبل مرور أسبوعين على إزالة قبري الجدين "قالقتي غوتشيلدي" تغير راهن الأحداث، وأعطت السلطة والمعارضة انتباهها كله للانتخابات المقتربة. في جو كهذا سرَّع المسؤولون في البلدية أعمال الشارع الرئيسي، واعتبروا أن القضية قد حُلت، ويمكنهم تمرير الطريق من دون أي عائق. مهما يكن فإن اللحدين قد فكا أثناء الحفر، وحدث ما حدث. مع أن المستشار الثالث من المستشارين الأحباء الثلاثة توج الحادثة في تلك الأيام الصاخبة بكلمة دعائية كما في كل حادثة يمكن أن تجمع أكثر من عشرة أشخاص مقنعاً زملاءه في العمل بإمكانية استخدام ملف الوليين أداة احتفالية.

قبل الانتخابات بعدة أسابيع، أقيم على سفح مقبرة المسلمين الجنوبي احتفال قصير أمام جمع كبير من المتفرجين. ولأن الأرض القريبة من الجدار الفاصل مع مقبرة الأرمن وعرة غير مناسبة للاحتفال، فقد وجد تلقائياً جواب سؤال أي من قبري الوليين سيلقى معاملة القبر الحقيقي، وأيهما المزور. جزء من الناس القادمين لمتابعة ذلك الحفل هم مستأجرون لهذا الأمر، أما الآخرون فهم إما فضوليون لا يعلمون بأي شيء عن الموضوع مروا من هناك مصادفة في تلك الأثناء، أو على العكس تماماً من هؤلاء، متفرجون واعون ممن أرادوا متابعة الموضوع الذي قرؤوا عنه في الجرائد عن قرب، ورؤية الأمر بأعينهم.

كان الحفل يتألف من ثلاثة أقسام رئيسة. في القسم الأول تلا حافظ مسن ولكن صوته شاب، وحافظ شاب عجوز الصوت آيات من القرآن. في القسم الثاني، ألقى مسؤول معتن بنفسه كثيراً كلمة اتهامية، ولكنها لا مبالية رداً على الاتهامات الموجهة. أما القسم الثالث فهو القسم الأكثر تعقيداً. ومن أجل

عدم تعقيد المسألة في رأس الذين لا يعرفون القضية وأجزاء اللحد، جُلب في اللحظة الأخيرة تابوتٌ، وحُمل على الأكتاف، ووضع في سيارة جنازة. بعد ذلك ركب الجميع الحافلات، وساروا خلف السيارة، ثم دخلوا إلى مقسم أرض فارغ مغطى بالطين القذر، وتحيط به أبنية خربة قرب جسر غلاطة. دفن تابوت الجد قالقتي غوتشيلدي الفارغ والناس يغوصون في الطين، ويخرجون برفقة الأدعية، والتمنيات، والكلمات، والتصفيق. بعد ذلك، أعيدت أحجار اللحد كما كانت، ونصبت الشاهدة، فبدت أعظم بكثير من السابق عندما أحيطت بسياج من قضبان خشبية مزخرفة بارتفاع ما يقارب المتر والنصف. كتب المستشار الثالث من المستشارين الثلاثة الأحياء كلمته التي سيلقيها هنا قبل أيام طويلة، ووضعها في جيبه. ولكنه لم يستطع اللحاق بالحفل جسداً أو كلمة في ذلك الصباح، عندما تلقى رداً سلبياً نهائياً على عرضه الزواج من ابنة خالته التي يعشقها سراً منذ زمن طويل، وتمكن في النهاية أن يستجمع قوته، ويعرضه عليها، وضيّع وقتاً طويلاً وهو يتجول في الشوارع على غير هدى غير عارف ما يفعله.

عندما وصل المستشار الثالث من المستشارين الثلاثة الأحياء إلى موقع الحفل بتأخير ساعة، لم يجد أحداً. لم يبق من ذلك الزحام الفائض بالناس إلا بعض أعقاب السجائر المتناثرة هنا وهناك، وآثار أقدام متداخلة فيما بينها. جلس القرفصاء بجوار المقبرة حزيناً، وأثناء مسح قطرات العرق المتجمعة على جبينه، أخرج نص الكلمة التي قضى أياماً بإعدادها، وبدأ بقراءتها لنفسه. في الحقيقة أنه لم يكن بحاجة للورقة، لأنه حفظ الكلمة سطراً سطراً عن ظهر قلب. قال بأن الشخص النائم في القبر من الدراويش، وأسر نفسه في حافظة خاتمه الفيروزي الذي في إصبعه كيلا يُخدع بنعم الدنيا، ولم ينم ليلتين تحت سقف واحد أو يضرب ملعقته مرتين في طبق واحد، وجعل من صبة طينية مخدة تحت رأسه قاضياً حياته بالعذاب، ولم يتزوج ويخلف أولاداً أو يترك نسباً أو مالاً وملكاً من ورائه، وتجول من ديار إلى ديار مفترشاً الأرض وملتحفاً السماء، وحصل الجد على لقب يعني "النهوض والهجرة" لأنه اشتهر

بعدم ضرب جذر له في أي مكان، لهذا السبب لن يكون نقل قبره من مكان إلى آخر مخالفاً لعاداته، ولابد من الشك في نيات أو عمق معلومات القائلين بعكس هذا الدينية. عندما أنهى كلمته، مر بيده على كتابة حوض القبر الحجري "البقاء" شارداً، وغاص مدة بأفكاره، بعد ذلك نهض فجأة، وغادر المكان راكضاً كما جاء.

حينئذ حصل قبر الجد قالقتي غوتشيلدي مرة أخرى على قبره الدائم بعد كل هذا الشوق. وعلى مدى ستة وثلاثين عاماً لم تعكر أي حادثة صفو راحته إذا لم نضع بالحسبان المارين به والداعين عند رأسه صامتين، أو ماسحي بطاقات سفرهم بالحافلة أو القطار أو السفينة أو الطائرة على شاهدة قبره. يبدو أن لقب نهض وهاجر الذي اقترن بالجد من النهوض والانتقال من مكان إلى آخر جعل العازمين على الذهاب في سفر طويل بالسلامة يعتادون على المرور عليه قبل يوم من سفرهم، وغط إصبعهم في الطين القذر المحيط به، وختم بطاقة السفر من زاويتها كأنهم يحصلون على موافقة موظف الجمارك. بدءاً من النصف الثاني من الستينيات حل المغتربون وأقرباؤهم محل المسافرين. في تلك السنوات كان أكثر زواره التزاماً من النساء اللواتي تركهن رجالهن خلفهم بعد ذهابهم خارج البلد للعمل. ولعدم وجود بطاقات سفر لتلك النسوة، فقد كن يدهنَّ رؤوس أصابعهن أو راحات أكفهن بالطين القذر الذي أخذ لونه لون الصدأ. ولكن غالبية تلك النسوة ذهبن إلى عند أزواجهن مع الزمن، ونقص عدد الزوار بالثلاثة والخمسة، ثم بالخمسة والعشرة. في نهاية السنوات الست والثلاثين ضيقت الدكاكين والورشات والمطاعم الدائرة على سياج القضبان الخشبية للقبر أولاً، وبعد ذلك على طينه القذر ورخامه ذي العروق الشرابية اللون، ثم ابتلعته من دون أن تلفت انتباه أحد. وهكذا انخفض عدد اثنين لقبر الجد قالقتي غوتشيلدي إلى واحد، وفي النهاية نزل إلى الصفر.

* * *

بالعودة إلى الأرض الصاعدة التي كانت توجد عليها المقبرتان القديمتان، فقد عيش أسرع تغيير فيها بعد الانتهاء من أعمال الطريق. بنيت أبنية لطيفة

ضخمة على طول السفح الباقي من شمال غرب مقبرة الأرمن. وعلقت بالأبنية مخازن ذات واجهات متلألئة الأضواء، وصُفت أمامها بسطات لجعل الأرصفة أسواقاً، ومطاعم فيها موسيقى ورقص، كما تعلق الأشرطة الملونة بالطائرات الورقية. حصل أصحاب البيوت والمقاسم هناك على مبالغ كبيرة خلال زمن قصير عندما ارتفعت أسعار الأبنية الواقعة على الشارع الرئيس ثلاثة أو خمسة أضعاف. قسم كبير من الشقق المطلة على الشارع أجِّرت لمكاتب عمل، وغالبيتها عيادات أو مكاتب. وتزايد عددها مع الزمن إلى حد أن لكل سيارة خدمة عاملة على الخط محامياً أو طبيباً. كثيراً ما يُصادف من له شكوى صحية أو واقع بهم حقوقي ونقوده شحيحة وقد قفز إلى إحدى سيارات الخدمة العاملة على هذا الخط، ويستشير الطبيب الواقعة عيادته على هذا الخط، أو المحامي الذي وراءه مجاناً. أصحاب الحافلات الصغيرة الذين يصغون من الصباح إلى المساء لأحاديث الطب والحقوق، جمعوا معلومات معقولة. أحد الأطباء الأكثر تداولاً على الألسن، والأكثر خروجاً عن العالم هو طبيب العصبية. ولكثرة ذهابه ومجيئه على الخط، تطورت علاقته من أحد سائقي سيارات الخدمة الشهوم، واعتاد على الانسلال بمهارة من موضوع سؤال مضايق لا يريد الولوج في نقاشه، وإرسال المرضى المجانيين فوراً إلى السائق. بدأ الطبيب المتوازن وصاحب المزاج المرح بهذه اللعبة لمجرد الضيق، ورغبة بالمرح قليلاً، ولكنها بدأت تمنحه متعة كبيرة. أما السائق الشاب فقد كان أحد الناس النادرين الذين لهم ذكاء متوقد يمكن أن يُضبط بحسب دقائق الوضع. ولعدم اهتمامه بالالتزام بآداب الطب، واضطراه لوزن كلامه بالغرام، يقول ما يخطر بباله مفصلاً المواضيع الأكثر حساسية ودقة إلى أجزاء دقيقة. يقود سيارة الخدمة من جهة، ويقلد السيدات صاحبات الوساوس والرجال أصحاب العقد مبالغاً مضحكاً لهم في أكثر الأحيان على أنفسهم من جهة ثانية. تأثر الطبيب المسن من هذا الاستعراض المهيج حتى إنه عرض على السائق أن يعمل عنده. ولكن عدم تناسب أحاديث هذين الصديقين الساخرة مع قواعد احترام العيادة جعلت السائق يعود إلى عمله بعد مدة.

خلال وقت ليس طويلاً، خمسة عشر عاماً على الأكثر، تغيرت ملامح الحي. لم يعد يوجد الآن على طول الشارع ذي الأبنية البيضاء النظيفة والمنتظمة والمصفوفة متجاورة ومبتسمة كالأسنان الخزفية، والمخازن القيمة جداً، والعيادات المعتبرة، ما يذكّر بأنه كان تحتها فيما مضى –وفي الحقيقة حتى الآن– مئات القبور، ولا من يتذكر هذا. لغالبية الأبنية مصاعد كهربائية ضيقة متداخلة مفروشة أرضياتها بالسجاد. لو أن تلك المصاعد لا تكتفي بالصعود والنزول بين الطابق الأرضي والطوابق العليا، واستطاعت النزول إلى الأسفل أكثر، يمكن الفرجة على الحياة المستمرة بشرائحها كلها كما لو أننا نتفرج على مقطع قالب كعك ضخم مقطع إلى حزوز. في الأسفل طبقة القشرة الأرضية ، وفوقها تراب على شكل كوم صغيرة، ثم قبور محطمة إلى قطع ناعمة جداً، وطبقة رقيقة من الأسفلت، وفوقها عدة شقق، وطابق ملحق مسقوف بقرميد أحمر، وفي قمتها كلها يوجد سماء مائلة امتدت على كل الأطراف لمجرد الزينة... يُسمع أحياناً أحدهم يقول: "كان المكان هنا كله مقبرة قديماً". ولكن كلمة "قديماً" التي تستعمل هنا تحمل دلالة خارج الواقع رغم أنها تدل على زمن لا يتجاوز خمسة عشر أو عشرين عاماً. تُقال كما لو أنها تذكر: "قصر السلطان ذا الغرف الألف الزجاجية، وعمل الفتيات الأجمل من الملائكة حمام ضوء ليلاً". كأنها تعود إلى ماض لم يُعش، أو قول سماوي اصطفت كلماته خارج الزمان.

أنشئ هذا الحي الذي صدم فيه "ظلم أوزتورك" زبالة بناء بنبون وهو يرجع بشاحنته إلى الخلف يوم الأربعاء في الأول من أيار عام 2002، والذي لا يقنع أحداً بأنه كان في يوم من الأيام حياً مطنطناً عام 1966. أما الزوجان اللذان بنيا هذا البناء فهما ممن سكنوا اسطنبول قبل وقت طويل، مهما كانا غريبين عنها.

# قبل ما قبل...

عـندما رأت "أغريبيـنا فيودوروفـنا أنتيـبوفا" اسـطنبول أول مـرة من سطح السفينة التجارية التي توجد عليها في خريف عام 1920 كان ثمة انتفاخ صغير في بطنها، وآخر كبير في ظهرها، وكانت جائعة جداً. تمكنت بمساعدة زوجـها وأنـاس انطلقـت معهـم مـن "القـرم" قـبل ثلاثة أيام وقوفاً على الأقدام بإفساح مكان لها بصعوبة لتلتصق بالحاجز، محاولة رؤية المدينة التي تنتظرهم. كانت منذ صغرها تحب اللعب بالألوان أكثر من اللعب بأي شيء. ولكي تشعر كأنها في بيـتها في أي مكـان تذهـب إلـيه، يجب أن ترى ألوان ذلك المكان قبل كل شـيء. "غـروزني" المكـان الـذي جـاءت فـيه إلى الدنـيا، ونشـأت فيه خمري اللـون؛ والكنيسـة الـتي تذهـب إليها كل أحد مع عائلتها كانت بصفرة الجلد مثلاً. وقـد كانـت الفيلا التي في "كيسلوفتسكي" ولم تشبع من الإقامة فيها في الأعـياد المسيحية باللون الأخضر اللامع الضارب على العين، أما البيت الذي عاشـت فـيه مـع زوجـها بعـد الـزواج فقـد كـان في ذهنها بلون برتقالي شمس الشـتاء. لـيس للأمكـنة ألوانهـا فقـط، بـل للناس والحيوانات وحتى للحظات أيضـاً ألوانهـا الخاصـة، وتؤمـن أنهـا إذا لمعـت عينـيها، ونظرت بدقة كبيرة

سترى تلك الألوان. هذا ما فعلته أيضاً. وحتى اغرورقت عيناها، وعكرت المشهد الذي تراه، ودون أن ترف بعينيها ولو مرة واحدة، أو تحرك بؤبؤي عينيها، نظرت إلى خيال المدينة التي أمامها لدقائق بفضول عميق بداية، ثم بتوتر لعدم حصولها على نتيجة. مع أن ضباباً كثيفاً كان قد هبط على اسطنبول في ذلك الصباح. وكما يعرف الاسطنبوليون جميعهم جيداً، فإن المدينة تُنسيهم لونها حتى لهم في الأيام الضبابية. رُفعت "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" على الراحات منذ ولادتها، واعتادت على التقدير، وآمنت أنها إذا لم يُلب طلب لها ذات مرة، فإن هذا نابع من تقصير الذي أمامها. لهذا السبب رأت إصرار اسطنبول على الانزواء وراء ستائر متتالية من الضباب كأنه خصومة مقصودة، وإهانة موجهة لها. ولكنها أرادت أن تمنح المدينة فرصة أخرى، لأنها تؤمن بقداسة العفو. رفعت أيقونة الأم مريم الفضية الصغيرة نحو المدينة باسمة: "التصرف الذي قمت به ليس صائباً، ولكنني أستطيع أن أتسامح معك، وحتى أعفو عنك. لأن هذا هو الصواب".

فجأة سمعت صوتاً يقول: "أعطيك مقابلها ماءً وخبزاً". عندما انحنت، ونظرت، رأت في الأسفل رجلاً نحيلاً بأنف كالمنقار في مركب يحمل خبزاً بيد وزجاجة ماء باليد الأخرى، ويشير إليها. وقبل أن تدرك "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" ما يحدث، دفعتها امرأة ضخمة شقراء شعرها مقصوص خصلات، وخداها ورديا اللون كانت تقف خلفها تماماً، وعبرت إلى أمامها بحركة واحدة، وأخرجت الخاتم الذهبي من إصبعها، وربطته بحزام فكته من خصر ابنتها، ودلته إلى الأسفل فوراً. أخذ الرجل الأسمر الذي في المركب الخاتم، وبعد أن رفعه إلى الهواء، وألقى عليه نظرة فاحصة غير ممتنة، ربط مكانه رغيفاً كروياً أسود، وأعاد إرسال الحزام. أثناء التهام المرأة الضخمة الشقراء التي قصت شعرها قصيراً عندما سرى القمل في السفينة مع ابنتها الخبز، نظرت "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" إلى البحر بعينين محملقتين دهشة، وحينئذ رأت أن السفنَ الراسية في الميناء كلها، وليست سفينتها وحدها قد تحلّقت حولها مراكب مشابهة. والماكرون الروم والأرمن والترك يمطون رؤوسهم من هذه المراكب،

ويعرضون الطعام والشراب الذي بأيديهم على الروس البيض الباقين على مدى أيام جوعانين وعطشانين، ويحاولون المساومة عليها. حين أدركت الوضع، انسحبت إلى الوراء بأيقونة الأم مريم الفضية الصغيرة وكأن هنالك من يحاول أخذها من يدها بالقوة، وتجاوزت بعينيها المراكب والباعة والأمواج ناظرة مرة أخرى إلى اسطنبول بدقة ومن أجل أن تفهم إلى أي مكان مبهم جاءت.

كانت اسطنبول في تلك اللحظة غارقة بهمومها، وفوق هذا ترزح تحت الاحتلال. نظرت بطرف عينها إلى المرأة الشابة البالغة التاسعة عشرة من عمرها شبه المندهشة وشبه الوقورة التي تختلس النظر إليها من سطح السفينة الراسية تواً. وهكذا كان قد مضى وقت طويل على تركها بذل الجهود بالأطفال الأنانيين. هزت كتفيها لا مبالية، وأدارتهما، وعادت إلى صخبها. تجمدت "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" مع ابتسامتها المتحجرة. من ناحية استطاعة رؤية تصرف الناس بفظاظة، فقد استطاعت رؤيتها، ولكنها هذه المرة الأولى التي ترى فيها فظاظة مدينة. بعد أن ألقت عنها دهشتها الأولى، أسدلت ستائر قلبها ونوافذه وأباجوراته إزاءها، وقاطعتها. نزلت من السفينة مقاطعة لها. حتى إنها بقيت مقاطعة اسطنبول إلى ما بعد شهرين، عندما كبر انتفاخ بطنها، وزال انتفاخ ظهرها، وبقيت اسطنبول غير مبالية، ومجهولة اللون.

أما الجنرال "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" فهو على عكس زوجته، لم يبد أي اهتمام خاص باسطنبول، لا في ذلك اليوم، ولا فيما بعد. فقد شعر طوال عمره أنه مسؤول عن آخرين، وكان واحداً من أولئك الناس الذين استطاعوا البقاء منتصبين على أقدامهم بهذه الطريقة. إنه من أولئك الرجال الذين يحبون النساء الضعيفات، أو يُضعفون النساء اللواتي يحببنهم. لهذا السبب احتضن "أغريبينا" بقوة وشفقة عند النزول من السفينة. لم يحتضن زوجته فقط بقوة، بل احتضن أيضاً طفلهما الذي سيولد، وثروتهما كلها التي استطاعا تهريبها من روسيا.

ولكن المجوهرات التي كانت مخبوءة في كورسية "أغريبينا" بيعت واحدة تلو الأخرى خلال زمن قصير، وبأقل من قيمتها بكثير. ملأ اسطنبولَ آلافُ

الـروس البـيض الهـاربين من روسيا بعد الثورة البلشفية، وبحسب ما يُشاع فإن هـنالك الآلاف أيضـاً في الطـريق إليهـا. وبينما تباع المجوهرات بالمزاد العلني، كانـت ميدالـيات الشـرف، وذكـريات العائلـة، وأوسمـة النـبل تجـد مشـترياً بصعوبة بالغة. في نهاية الشهرين، لم يبق شيء من الثروة التي كانا يأملان أن يعيشـا بهـا سنتين عـلى الأقـل. ذات صـباح، وجـدت "أغريبيـنا فيودوروفنا أنتيـبوفا" نفسـها في مهجـع محـول مـن سـجن أمـنّه لهـم الصـليب الأحمـر الفرنسـي، ويتشارك فيه خمسة وخمسون شخصاً، وعلى فرش مضغوطة ومليئة بـبقع صـفراء تجذب إليها بعنف زوجها الذي يكبرها بخمسة وثلاثين عاماً، وتفضـض رأسـه في أكـثر من مكان، ملصقة به بطنها الذي يكبر تدريجياً. كان "بافـيل بافلوفيـتش أنتيـبوف" يعـرف معـنى هذا. أمامه خياران: إما أن يجد عمـلاً في أقرب فرصة ممكنة، وإما يكتب رسالة إلى أخيه اللئيم الذي يعيش في فرنسا طالباً المساعدة. ولأن مجرد تذكر الخيار الثاني يكفي لقلب أعصابه رأساً على عقب، لا مناص له من اختار الخيار الثاني.

العسكرية ليست مهنة في الحقيقة، والجنرال مرتبة لا تمنح امتيازاً. عندما جـاء الدور إلى البحث عن عمل، كان "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" لا يعرف ما سيفعله، ويدرك أن ما يعرفه لن يستطيع العمل به. كل ما شهده، وعاشه منذ نشـأته في الحـياة إمـا أن يكـون قد جهز له من قبل، أو أعد بحسب ما يجب أن يـتطور، والتقطـته الـثورة لحظـة ترقيـته إلى رتبة الجنرال، وانقلبت حياته التي أسسها، والحظوة التي حظي بها سنة بعد سنة رأساً على عقب في لحظة واحـدة. حـتى في أيـام تعرضه للتهديد بالزوال لم يبق في مواجهة العلة المدعوة غموضـاً كمـا هو عليه اليوم. ومن أجل التغلب على الغموض، يجب عليه أولاً أن يعـرف أيـن يجـده. مـع أنـه في الحقيقة لا يتمترس في أي مكان، ولا يقف عـند أي تكتيك. يمكن أن يظهر في أي لحظة، وفي أي مكان، ويهاجم؛ ويغير سـلاحه كمـا يحلـو له. إذا كانـت ثمة حرب تخاض هنا، فليس لتلك الحرب مـيدان، ولا قواعد، ولا أخلاق. ولكن إذا لم تكن ثمة حرب، فهذا أسوأ، لأن "بافـيل بافلوفيـتش أنتيبوف" لا يعرف طرق الحياة الأخرى. فَقَدَ بشكل متتال

حتى الآن أمواله، وحظوته، وتمايزه، واحترامه، وأصدقاءه، وأقرباءه، وحجّابه، والجيش الذي يرتبط به، والمدن التي قضى فيها ماضيه، والبلد الذي اعتقد أنه سيمضي فيه مستقبله... ولكنه رغم كل شيء يفكر بما هو: جندي مؤمن.

مع أن آلاف الجنود من مختلف الرتب من جيش القيصر توزعوا منذ فترة طويلة على أعمال لا تخطر ببال، وغير متوقعة في الفنادق، والفرق الموسيقية، والأندية الليلية، وصالات القمار، والمطاعم، والبارات، ومقاهي الموسيقى التي تقدم مشروبات روحية، والسينمات، وشواطئ السباحة، والملاهي، والشوارع. كانوا يغسلون أطباقاً، ويحملون صينيات في مطاعم معتمة، ويديرون ألعاب القمار في صالات تعج بأسوأ الأحابيل، ويبيعون دمى في زوايا الشوارع، ويرافقون مغنيات "الكانتو" المغناجات بالعزف على البيانو في أمكنة صاخبة. امتلأت الأمكنة كلها، ويتدافع البعض إلى أي عمل بقي شاغراً. وسط تلك الفوضى حاول "الكونت بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" تلمس طريقه بخطوات متوجسة ومرتجفة لا يستطيع الوقوف على رجليه كمهر ولد تواً. بعد تردده على أماكن عديدة هنا وهناك أسابيع كان العمل الوحيد الذي وجده هو أمين قسم المعاطف والقبعات في مقهى موسيقى مع المشروبات الروحية يرتاده الضباط الفرنسيون والإنكليز أصحاب النظرات المغرورة مع عشيقاتهم حسناوات القد ذوات فراء السمور وأحمر الشفاه الكرزي الداكن؛ ورسامو محفورات الاستشراق الإيطاليون الساخرون الذين يرسمون النساء ممتلئات وبيضاوات دائماً، والأزقة ضيقة وظليلة؛ الصرافون اليهود المتشائمون الذين يقرضون القصر، ثم يقدمون ديوناً أكبر من أجل تحصيل الديون التي أدانوها؛ وشباب أتراك سفهاء شبعوا إرثاً، ولكنهم لم يشبعوا من تبذير الإرث؛ وجواسيس لا تنفك عقد ألسنتهم حتى عندما يشربون إلى الثمالة؛ وبوهيميون؛ وسفهاء؛ ومحط رحال الباحثين عن الشهوة أو المغامرة.

صاحب مقهى الموسيقى والمشروبات الروحية "ليفانتين" الأقرع، والمتهدل الوجنتين، وغدد رقبته طبقة تلو أخرى، والمحرك يديه وذراعيه من دون

توقف، لم يعجب منذ البداية بأمين المعاطف والقبعات، وهو يبحث عن بديل لـه مـنذ أن تدخل في شجار، وهشم وجهه. عندما رأى بنية "بافيل بافلوفيتش أنتيـبوف" المهيـبة، ووقفـته المحترمة، لم يتردد لحظة بتكليفه بالعمل. ولكن عـندما وقـف موظـف أمانـات المعـاطف والقـبعات أمامه بالسترة الحمراء ذات الكتافـيات بالشرابات اللامعة، والمتدلية على صدرها شرابات متقاطعة، حلت الاستهانة به محل الإعجاب:

"كم هي الحياة عجيبة، أليس كذلك يا مسيو أنتيبوف؟ نحن شهود انهيار إمـبراطوريتين ذائعـتي الصـيت عظيمـتين. أنتم بدأتم التغريب قبلنا بقرن على الأقـل. "بطـرس" المجـنون الكـبير! يقـال إنـه كـان يضـرب بالسوط الذين لا يعـرفون كيفية النهوض والجلوس، أصحيح هذا؟ راقب حتى الألبسة الداخلية للنسـاء، ولحـى الـرجال، هـل الأمـر هكـذا؟ يجـب أن تكون مدينة "بطرس" جمـيلة. إنهـا قصـر ينهض من قلب المستنقع. وانظروا إلى اسطنبول هذه أيضاً. مفـتوحة مـن جوانـبها الأربعـة، وتلعـب فـيها الـريح. إنهـا مديـنة أضـاعت بوصـلتها، وانخلعـت مسـاميرها! أتعـرفون، حـتى قـبل عشـر سـنوات، كان المـثقفون الشـباب الجريـئون الهـاربون مـن إمبراطوريتكم الأصيلة، مع المثقفون الشباب الجريئون الهاربون من إمبراطوريتنا الأصيلة يجلسون في مقاهي باريس إلى طـاولات مـتجاورة، ويتناقشـون مناقشـات حارة، والله أعلم بما اتخذوه من قـرارات فـيها عمـي بصيرة. النادلون الفرنسيون الذين كانوا يخدمونهم، كانوا يصغون للجالسين على هذه الطاولة، ومن ثم للجالسين على تلك. الهاربون من عـندكم، يتحدثون عن إسقاط الدولة مهما كلف الأمر. أما الهاربون من عندنا، فيـتحدثون عـن إنقاذ الدولة مهما كلف الأمر. وخلال عشر السنوات الأخيرة، نجـح جماعـتكم، أمـا جماعتـنا، فـلم ينجحوا. على من يجب أن نأسف أكثر الآن؟ لا أعـرف. كـم هي الحياة غريبة، أليس كذلك يا مسيو أنتيبوف؟ هربتم مـن إمـبراطورية مـنهارة إلى إمـبراطورية عـلى وشك الانـهيار. هربتم من الحمر ذوي الـبزات العسـكرية، فوجدتم أنفسكم ترتدون بزة حمراء. أخشى أن تكون هذه إحدى ألاعيب سوء الطالع".

أمسك "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" معاطف الزبائن القادمين، والذاهبين في ذلك المساء، ولم يسمع بأذنيه غير ذلك الهدير المتبقي مما قاله رب العمل. لم يستطع تحمل تلك البزة المخيفة والمضحكة أكثر من ثلاثة أيام، ثلاثة أيام ملعونة. بعد ذلك، ترك عمله، وترك كل شيء، ووقف حيث هو، وبالوضع الذي هو عليه. وقف فقط، وبقي على ما هو عليه، وكأنه ليس ثمة عمل يجب أن يبحث عنه، أو حياة يجب أن تُنقذ، أو غاية يجب أن يكافح من أجلها. بعد أسبوع، نظرت "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" إلى زوجها بدقة، وكأنها تريد رؤية لونه. وفجأة اضطرت لقبول أنه ثابت إلى حد عدم إمكانية تغييره. كان هكذا بسبب عمره (كان مسناً جداً. تقدم دائماً عدة خطوات أمام عمره. أما الآن فقد وقف في زاوية منتظراً أن يلحق به عمره)، كان هكذا بسبب مكانته (كان عالياً جداً، وركز دائماً على الارتقاء أكثر، وفجأة أدرك أنه لم يبق مكان يرقى إليه، فتسمر حيث هو)، كان هكذا بسبب بنيته الجسدية (كان مهيباً جداً، ولا ينحني أبداً إلى حد أنه يتجنب الولوج من الأبواب التي يجب أن ينحني ليلج منها، وهو صاحب بنية جسدية لا تنثني، ولا تتمطى). كان"بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" رجلاً ضعيفاً في جوهره، ويدرك هذا أكثر من اللازم، وتمسكه بالسلطة ليس من أجل أن يكون كالآخرين، بل لكي لا يكون مثل نفسه، ويعرف ما يريد جيداً، وكافح بكل ما استطاع طوال عمره في سبيل هذا، وتسلق خطوة تلو أخرى، وفوق هذا حقق نجاحاً كبيراً في النهاية. إنه آخر نوع من الأنواع التي يمكن أن تتماشى مع أي تغيير.

عدم قيام "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" بأي شيء وحدها عندما كانت شابة ويافعة، وعدم محاولتها القيام بأي شيء، جعلها صفراً مدوراً مؤكداً في قضية انسجامها مع حملها أثناء تقدمه. يمكن أن تبقى مكانها حيث تتركونها براحة، وتقف هناك إلى ما لا نهاية. ولكنها بالسهولة ذاتها يمكن أن تتدحرج مقذوفة إلى هنا وهناك بهبة ريح قوية. وبسبب جرأة النحل الخاصة بالجهلاء، وعدم استطاعتها في أي وقت الحصول على شيء بنفسها، ولأن كل ما لديها تبرع به لها من حولها، فعندها توقعٌ بكْرٌ بأن كل ما فقدته

سيعاد إليها في يوم ما، وبشكل ما. مازالت تمضي معظم وقتها بإعداد قوائم طويلة بما ستفعله عندما تعود إلى روسيا. يمكنها أن تعمل ببساطة حتى يأتي ذلك اليوم. وهكذا قررت أن تقوم بما لم تقم به من قبل، وأن تتخلى عن انتظار العون من زوجها، وتبحث بنفسها عن عمل.

وقف الحظ إلى جانبها، لأن الحظ يدوخ إعجاباً بجس نبض أمثال هؤلاء الذين يواجهونه بادعاء كهذا. وهكذا وجدت عمل نادلة في أهم محلات المعجنات في شارع "بيه أوغلو". كانت تقضي يومها في محل المعجنات المطرز بلوحات الزجاج المعشق والمرايا، غادية آيبة بشكل مكوكي بين المطبخ الفائحة منه رائحة القرفة والكريمة، والزبائن الكاملي الأناقة. التقطت بعض الكلمات المتقطعة من لغات مختلفة تتناهى إلى أذنيها بالدرجة نفسها من عدم الانسجام، ولكن بما يكفي لفهم طلبات الزبائن المتشابهة مع بعض الخلافات الصغيرة وما يوصون عليه... لم تحاول أن تتعلم أكثر من هذا أبداً. أساساً هي لا تفتح فمها إن لم يكن ثمة ضرورة لفتحه. لم يحدث أن رآها أحد مقطبة وجهها أو مشتكية ولو مرة واحدة رغم شح الأجر وكثافة العمل. كان رب العمل قد نبه النادلات أن يكن باسمات دائماً أثناء تقديم الخدمات، ولكن وجوه النادلات الأخريات تتغير تماماً فور خروجها من زاوية رؤية رب العمل أو الزبائن، أما ابتسامة "أغريبينا" فقد كانت ثابتة في كل لحظة من لحظات اليوم وكأنها مربوطة. غير هذا، بينما كانت الفتيات الأخريات يتحين الفرصة للتملص من العمل، أو إيجاد زبون صاحب مظهر مميز يخرجهن من هذا العذاب، كانت هي تعمل فقط، وباستمرار. كأن عملية إفناء ذاتها تلك تضحية في سبيل القهر، أكثر من محاولة لترك القهر؛ أما في تضحيتها فثمة فرض وصفة محظورات دينية. ولكن هذه الحال تخرج تدريجياً من كونها توكلاً يعتمد على الطاعة والخنوع، وتتحول إلى زوال يشبه كتابة مدائحية بعناد وعقدية. كأنها كانت تشعر بالفخر من العذاب الذي تعانيه، وتؤمن بأنها ستُفتقد كلما انزوت، وأنها تقترب من الرب كلما استسلمت لعباده. كلما كانت أقسى إزاء المصاعب التي تعترضها، ومتحملة أمام العقبات التي يجب

أن تتجاوزها، وبقدر ما يكون الناس الذين تخدمهم منحطين، كانت ديون الرب تتزايد. ستستعيد حقها عاجلاً أم آجلاً. كانت تقول لنفسها باسمة: "هذا امتحان. كلما كان سيئاً، فستكون نتيجته أجمل".

"لماذا تكشرون عن أسنانكم! ماذا يعني ضحككم في وجوهنا، وجوهنا؟"

نظرت "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" نظرة خاوية للمرأة المسلمة التي صرخت بوجهها. ولكن دهشتها لم تفد بأكثر من زيادة خروج بنت جنسها الغاضبة عن طورها. كانت تلك المرأة عضواً في جمعية تطالب بطرد الروسيات البيض خارج الحدود لأنهن يسلبن الرجال المسلمين عقولهم من رؤوسهم، ونقودهم من جيوبهم: "جمعية النساء العصريات". ومن بين المواد المدرجة على رأس جدول أعمالهن، رصد التصرفات المنافية للأخلاق التي تقوم بها الروسيات البيض ذوات الشعر الأشقر الناعم، والأعناق البيضاء، والنظرات الوقحة، والمتشبهات بالارستقراطيات، وتثبيتها في تقارير/ وطرق أبواب كبار الموظفين بهذه التقارير لجمع الدعم لقضيتهن/ وتأمين إغلاق الملاهي وبيوت الدعارة كلها التي ستجذب لعنة الآلهة "سودوم" و"غومورا"/ وطرد العاهرات المنتزعات من بيوت "كيف" و"أوديسة" للدعارة والساكنات في بيوت "غلاطة"/ وتنبيه الشباب المسلمين الذين مازالت رائحة حليب الأم تفوح من أفواههم، ولم يفتحوا أعينهم بعد على المخاطر المحيقة بهم من دون كلل أو ملل/ ونهج سياسة التيئيس بإمكانياتهن الذاتية بالتصرف السيئ مع كل من يرون من الروسيات البيض حتى يتخذ المسؤولون التدابير اللازمة للحيلولة دون هذا الأمر.

بعد أن ألقت "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" عنها دهشتها، مدت يدها إلى عنقها، وأغلقت يدها بقوة على القلادة التي تحمل صورة القديس "سيرافيم". وبالقوة التي استمدتها منه، ابتسمت للمرأة التي اعتبرتها آية جديدة من آيات الامتحان الإلهي المليء بالأذى، والمتكرر كثيراً. "ليس صحيحاً التصرف الذي تتصرفين، ولكنني أستطيع أن أسامحك وأعفو عنك. لأن هذا هو الصواب".

عندما عادت إلى البيت مساء، حكت لزوجها عن هذه الحادثة بشكل سطحي. ليس ثمة ما يسأل عنه هو أساساً. لا يريد أن يعرف أي شيء عما

يجري في الخارج، ويغبط زوجته من جهة ويحزن من جهة أخرى لأنها نجحت بالبقاء في تلك الحياة الباعثة على الجنون، والتي نفضته بعنف، ورمته جانباً. نادراً ما كان يخرج من البراكة التي يسمونها بيتاً، وسكنوها بعد أن اضطروا لمغادرة المهجع الذي أسسه الصليب الأحمر الفرنسي، ويمضي أيامه أمام النافذة وهو يكتب رسائلَ لن يرسلها أبداً لأخيه الذي في فرنسا، ويتفرج على المسلمين المارين من الزقاق غارقاً بأفكاره، ويتطلع إلى الطريق وكأنه ينتظر أحداً ما. ولدت طفلتهما في شهرها السابع وكأنها تريد أن تنهي هذا الانتظار الأحادي الطرز في أقرب فرصة.

لم تقابل "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" ابنتها فرحة كما قابلها زوجها. يمكن أن تكون هذه الولادة المبكرة والصعبة قد أكسبت الحياة روحاً جديدة، ولكن تلك الروح قد سرقت منها. أثناء الحمل كانت مختلفة كثيراً عن الإنسان الذي هي عليه اليوم، وأكثر من اختلاف. خلال هذا الزمن كله، وعظت نفسها بأن الرب اختارها من بين هؤلاء الناس كلهم، واعتبرت أن كل مصيبة أصابتها هي مرحلة صعبة من مراحل امتحان صعب. لم تتزعزع ثقتها بالرب وبنفسها أبداً، وآمنت بكل قلبها أنها بطلة أساسية لقصة لعنة وعبرة لن يستطيع الناس من حولها أن يفهموها، ولن يدركوها بالكامل مها حدث. كافحت وحدها، ولكن بالنيابة عن نفسها وعن زوجها من أجل إنقاذ نفسيهما من بين مخالب هذه الدنيا الفاسدة، وانتظرت اليوم الذي ستُنظف فيه، وتلمع كحبة لؤلؤ تمرغت على الطين. ولكنها الآن تتوهم أنها كانت واهمة خلال هذا الزمن كله، وأن الرب لم يكن يرعاها هي بل الطفلة التي في بطنها منذ البداية، ولهذا السبب تركها وحدها فور ولادتها. لم تستطع تخليص نفسها من شعور النقص، والترك مهما فعلت. لم يبق في وجهها من ذاك البريق المتكبر لمعة واحدة، فقد تراخت وتهدلت وكأن ماءً اندلق منها دلواً تلو الآخر. ثدياها فقط، هما فقط مازالا ممتلئين وضخمين، وكانا يفرزان حليباً مثل شفة تدمي بخط رفيع جداً. كانت تهرع بعد الظهر راكضة لإرضاع ابنتها، وتقابل دائماً المشهد المؤثر الظالم نفسه. كانت تجد زوجها وابنتها على الأريكة أمام

النافذة تحت ضوء الشمس الناثر نجوماً ذهبية اللون كأنها لا تأتي من الشمس، بل من السماء السابعة، ويحتضن أحدهما الآخر وهما نائمان أو يلعبان ببراءة لا متناهية. ويتألم قلبها في كل مرة نتيجة دفعها خارج الحالة المعنوية التي كان قلبها يفيض بها في زمن ما، وتؤمن بأنها جزء منها.

هذا يعني أن اسطنبول نهر أغبر معكر وجنوني. هذا يعني أن سبب غرقها وطوافها في المياه وسط هذا النهر طوال هذا الزمن هو تكليفها بحمل طفلتها الموجودة على هذا الشاطئ، وزوجها المنتظر على الشاطئ الآخر بشكل سليم. الحمل كالمركب الذاهب إلى الشاطئ المقابل من أجل أخذ الطفلة التي ترافقها الملائكة من الوسط، وحملها بداخله على عرض النهر. فور تحقيقها الولادة، وإيصالها الطفلة إلى الطرف الآخر، غدت من دون قيمة، ودُفعت إلى الخلف مع المياه متروكة لتدفقها. مهما خفقت فمن دون جدوى. فالتيار المجروفة معه، والمياه التي تعود إليها، تُبقي عليها بعيداً عن الشاطئ. كأن الطفلة أيضاً منتبهة لهذا الوضع. لحظة أخذها من بين ذراعي أبيها تغدو حمراء قانية وكأنها وقعت في نوبة غضب، وتقطب وجهها أثناء الرضاعة وكأنها تريد إظهار أنها ترضع من دون رغبتها، بل لأنها مجبورة على هذا الأمر، وفور شبعها تسحب فمها عن حلمة الثدي، وتبدأ بالبكاء. يأخذ الجنرال طفلته بين ذراعيه في تلك اللحظة، ويسكتها بحنان، ولكي لا تشهد "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" هذا المشهد الذي يؤلمها أكثر مع توالي حدوثه، تغادر البيت وكأنها هاربة منه. وعندما تعود إلى رأس عملها من جديد، تنتبه إلى نمو شعور مخيف بالظلم مع فراغ بداخلها. بدأت تكره جسدها أكثر مع توالي الأيام. ركز الجسد على هدف واحد وهو عجن كل لقمة تأكلها، وكل قطرة تشربها، وكل شعاع شمس تراه، وكل ذرة هواء تستنشقها، وخلطها، وتحويلها إلى حليب. ولكن الحليب لا يفيد إلا الطفلة فقط. وكلما امتلأ جسمها، كانت "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" تفقد حالها، وتمحى من الحياة.

ثمة أم في طبيعة كل امرأة ، والمؤمنات بأن الأمومة مقدسة وبراقة كأنهار الجنة لا يضعن في اعتبارهن مجرد احتمال عدم حب أطفالهن، ولكن "أغريبينا

فيودوروفنا أنتيبوفا" لم تحب هذا "الشيء" الذي ولدته. عندما تأتي وجهاً لوجه مع صغيرتها التي حملتها في بطنها على مدى هذا الزمن كله، واعتبرتها جزءاً منها من دون معرفة ما ستشبهه، وماذا ستلد، تخاف نُصُبَ الارتباط اللامتناهي الصغير هذا، ومن عدم إمكانية تراجع الزمن إلى الوراء، ومن اضطرارها لمحبتها، ومن عدم استطاعتها الهرب من نفسها، وعدم استطاعتها الهرب إلى أي مكان في الحقيقة راغبة بالتخلص منها في أقرب فرصة ممكنة، وبشكل حازم. إذا كان ثمة أم في طبيعة كل امرأة، والنساء يؤمنَّ من دون أدنى شك بأن الأمومة مقدسة وبراقة كأنهار الجنة فإن "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" ليست الاستثناء الوحيد. وإلا لما كان للأمومة تاريخ رسمي كما للأمم. سُرِبت الأعشاب البرية من تاريخ مخطوط كتب بعناية بدءاً من اليوم باتجاه الخلف، ورصفت حصاه. لأن الحب لا يأتي بسهولة دائماً، بل ينتش فيما بعد أحياناً، يُنثر تدريجياً مع الزمن قطرة تلو قطرة. تتمازج اهتمامات المجاورين ولحظة مؤثرة وحرارة لحظية وكثير من حثالة الحنان، وكمروحة نشيطة تطرد كل الأفكار غير اللائقة والأحاسيس غير الطيبة من الذهن بنسمة حادة الحلاوة. مع حركة المروحة، تبدأ الأم بحب هالة الأمومة المتطورة خطوة تلو خطوة مع الطفل قبل حبها للطفل ذاته. وتعجب بتلك الهالة بعمق إلى حد أنها تعجب بالطفل في النهاية، وتحب الطفل كثيراً إلى حد أنها تؤمن بأنها أحبته دائماً، وأنها أحبته بالنسبة ذاتها دائماً. ا- ل- ك- ر- ه الذي شعرت به وقتئذ سيئ إلى حد أنه لا يمكن أن يذكر، أو يؤتى على إدخاله في الكلام، ولا يُعترف به لأحد في أي ظرف. لا يُعترف به للزوج مثلاً: "ندمت لأنني ولدت طفلك في البداية، ولكن هذا مر فيما بعد"، ولا تقول للولد أيضاً: "لم أحبك في البداية، ولكنني شعرت بالدفء نحوك فيما بعد"، ولا تقول لنفسها: "أنا واحدة سيئة، ومتحجرة القلب إلى حد عدم حبي لابني". يحتاج تاريخ الأمومة الرسمي لتنظيف في زوايا الذاكرة المعتمة. سوء حظ "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" هو فقدانها لابنتها قبل أن تجد الفرصة لحبها، أي حبها بالتدريج سنة بعد سنة، وفي الحقيقة دون منحها فرصة لإقناع نفسها بأنها أحبتها، وأن تحبها بعمق.

عندما عادت إلى البيت بعد ظهر ذلك اليوم لإرضاع ابنتها، كانت مع زوجها على الأريكة أمام النافذة تحت ضوء الشمس الناثر نجوماً ذهبية اللون كأنها لا تأتي من الشمس، بل من السماء السابعة، ويحتضن أحدهما الآخر وهما نائمان. لفت درجات اللون الأصفر كل مكان. كان لون حزم الضوء المتسللة عبر الستائر بصفرة الكهرمان، ووجه الجنرال ليمونياً، وقماش الأرائك بلون المشمش المجفف، ولفة الطفلة بلون مرارة الكبد، أما الكرة الصغيرة التي فوقه فهي صفراء مائلة إلى البنفسجي. رفّت "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" عينيها بتأثير الشمس، واقتربت من الكرة العجيبة بفضول قلق. بعد عدة خطوات، توقفت، وفجأة أدركت ما تنظر إليه منذ قليل حتى الآن. كانت محقة في موضوع الألوان. للناس ألوانهم الخاصة كما للحظات والمواقف ألوانها الخاصة، وللموت أيضاً لونه الخاص. يختلف لون موت كل حي عن الآخر. وهذه طفلة ولدت تواً، فكان موتها بنفسجياً مائلاً للصفرة.

بعد قليل استيقظ "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف". وقبل أن ينتبه لوجود زوجته في الغرفة نهض مبدياً انتباهاً لكي لا يهز الطفلة التي بين ذراعيه، وتمطى بشكل خفيف، وتثاءب متكاسلاً، ونظر من النافذة. كان في الأسفل، في الزقاق، ثمة بائع رئات جوال وضعها في أقفاص شبك معدني على حصان غدا جلداً على عظم، وامرأتان مسلمتان صوت كل منهما أقوى من الأخرى يساومانه وكأنهما تتشاجران معه شجاراً حاداً. بائع الرئات يرد على مساومات المرأتين من جهة، ويطرد الذباب الملحاح الذي يرسم دوائر حول القفص متداخلاً فيما بينه من جهة أخرى. والحصان الذي يبدو أنه يمكن أن يتخلى عن حياته في أي لحظة يشاركهم بهز ذيله ببطء. سرى اليأس الذي ينثره الهواء النافث حرارة منذ الساعات الأولى للصباح لكل شخص، وكل شيء، إلى حد أن الصخب الذي يصدره بائع الرئات وزبونتاه لا يخرب صمت الخدر الحاكم على الزقاق. أغلق "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" النافذة شارداً، ثم استند إلى ظهره، ونظر إلى الطفلة. نظر، ولم يفهم بداية أي شيء. كانت شفتا الطفلة منفرجتين قليلاً، وعيناها مفتوحتين، أما حاجباها فقد كانا مقطبين كأن الطفلة سجنت وسط حلم

غير سعيد. غطت وجهها كله عروق دقيقة دقة الوبر على شكل خطوط مائلة إلى اللون البنفسجي. نجح بعدم سقوطه على الأرض بحدة، ولكنه كان يشبه وعاء خزفياً تشقق من طوله وعرضه عشرات الشقوق. وضع "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" الرأس الأصفر المكور والبارد والمائل لونه إلى البنفسجي بين يديه، وكأنه يضع كرة زجاجية سيرى منها المستقبل. وأطلق صوته قبل إطلاق دموعه كالناس الذين بكوا كثيراً على مدى السنوات إلى حد أنهم نسوا كيف يبكون. كان لابد له أن يعوي بداية لكي يبكي.

شعر البائع وهو يصف الرثات التي لم ينجح ببيعها للامرأتين العجوزين في القفص الشبكي بالشؤم الذي سينجم بعد إطلاق الصراخ الذي غطى على الجو فجأة، وسحب حصانه المخمر تماماً تحت الشمس من رسنه، وابتعد ساحباً وراءه الذباب ألوية، والقطط فصائل.

* * *

بعد العودة من الجنازة، كتب "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" رسالة أخرى لأخيه الأصغر الذي لم يره منذ سنوات طويلة لأنه ذهب إلى أوربا قبل الثورة بكثير، وأقام فيها مفضلاً التجارة على مهنة أبيه العسكرية، ويستهين به دائماً بشكل سري لأنه اختار خدمة النقود بدل خدمة القيصر، ورفض عروض مساعدته كلها المقدمة حتى الآن لأنه لم يستطع جعل كرامته تقبل بها، وطلب منه أن يأخذه إلى عنده في فرنسا، وعلى عكس الرسائل الأخرى، أرسل هذه.

لم يذكر الجنرال وزوجته ذلك الصباح المشؤوم في اسطنبول على مدى السنوات الطويلة التي قضياها في فرنسا، ومع مرور كل يوم ابتعد أحدهما عن الآخر من جهة، وخطا خطوة مبتعداً عن ثنائية الروح المشتركة بينهما من جهة أخرى. في الحقيقة إن مجيئهما إلى هذا البلد كان سهلاً وسريعاً أكثر مما توقعاه، ولكن حتى لو ظهرت مصاعب، فقد كانا مستعدين لأخذ أي مصاعب بعين الاعتبار من أجل أن يتخلصا من شرور اسطنبول فقط. بعد موت طفلته،

أدرك "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" كل شيء، وبشكل قطعي: كانا مضطرين لمغادرة مدينة الحداد في أقرب فرصة ممكنة. إما أن اسطنبول لم تفدهما وإما أنهما لم يستطيعا أن يحببا اسطنبول بهما. ولا معنى للضغط في هذا الموضوع، لأن أبواب حظ المدينة قد أغلقت منذ زمن طويل، أو من المحتمل أنها لم تُفتح أساساً. خياران فقط كل ما يوجد أمام الذين وقع طريقهم على هذه المدينة، وقضوا صفحة من صفحات حياتهم فيها من دون أن تضرب شجرة عائلتهم جذوراً فيها، أو تطرح أغصاناً: إما أن يصلوا إلى اسطنبول هاربين من شيء ما، وإما يأتي يوم يهربون منها.

* * *

عندما وصلت "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" إلى باريس في ربيع عام 1922، كانت تحمل في روحها ضيقاً مهيئاً للولادة. مازالت، تنظر إلى المدينة المتعبة حتى ذلك الوقت من الحرب بعينين لا مباليتين، ولم تحاول اكتشاف لونها. أصيبت عيناها بمرض غريب في آخر يوم لها في اسطنبول، وفقدتا عالم ألوانهما فوراً. غدا كل ما تراه من أزقة وأبنية وأناس ومرايا... وكل شيء مثل مربعات صور بالأسود والأبيض. كأن العالم بأسره أسدل ستائره، وأغلق نوافذه، وأنزل أباجوراته، وقاطعها. لم تكن مهتمة. وكما أنها غير مهتمة، فقد كانت ترى تصرف العالم هذا طفلياً ومضحكاً. وكما أنها لا تهتم له، فقد كانت لا ترغب أساساً أن تبذل جهداً معه، ومع مصائبه التي لا تنتهي كلها. كانت رغبتها الوحيدة هي رؤية الرب. لم تكن مبالية أو مهتمة لرؤية أو عدم رؤية ألوان العالم التي هي أصلاً عبارة عن مخاتلات وانعكاسات، قبل أن ترى لون الرب الذي أخذ من بين يديها طفلتها لأنها لم تحبها، ولم تعرف كيف تحبها، واختارها ليمتحنها، وامتحنها تاركاً لها في الوسط، وترى مع لونه نيته بشكل صحيح تماماً. كانت تقابل نصائح زوجها بإنجاب ولد ثان، والبدء بحياة جديدة جداً التي لا يمل من تكرارها، ومحاولة سلوانها بأن

الجـروح كـلـها ستندمل مع الزمن قَرفَةً. انتبهت "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" إلى شـبه الأطفـال الذيـن يموتـون قبل أن يكبروا، مع المدن التي تُغادر قبل أن يُسـكن فـيها. لا يوجد أي طفل يحول دون تذكر اسم أخيه المفقود، ولا مدينة تفتح ذراعيها لمن أرسلتهم مدينة سابقة إلى المنفى.

لم يهـتم "بافـيل بافلوفيـتش أنتيبوف" بباريس، لا في ذلك اليوم، ولا فيما بعـد. أمسـك بـيد أخـيه السـافل الأصـغر الـذي مدها للمساعدة من دون شعور بالامـتعاض شـاعراً بضرورة كبت امتعاضه، ولم يتركها قبل أن يكون واثقاً أنه تعـلم مـنه كـل مـا يجـب أن يتعـلمه، وأخذ منه كل ما يجب أن يأخذه. بدأ يـدرك مـع الوقت أن التجارة تشبه العسكرية، ووهب نفسه تماماً لهذا العمل. كان لديه عزيمة اللامبدئية للذين لفوا وداروا في مرحلة من مراحل حياتهم، ثم انخـرطوا في الطـريق الـذي كـانوا يـتعالون علـيه في فـترة معيـنة. كـان جريـئاً ومتمـلملاً كأنـه يريد تدارك الزمن الذي فقده في هذه الأثناء. ولكن انفراج حظه بكـل معـنى الكـلمة لم يكـن ممكـناً إلا فـيما بعـد، عـند نشـوب حرب عالمية جديـدة. اكتسـب طوال فترة الحرب ثروة ليست قليلة، وتقديراً متورماً. وعمل مـع الألمـان أحـياناً، وتدحرج ككرة مطاطية متمكناً من تجاوز خراب الحرب. كـيفما كـان فهـو لم يكن منتبهاً. فالحرب المستمرة ليست حربه. لم يعد يؤمن بانتصـار القضـايا والدول، بل بانتصار الأفراد فقط. ومهما كانت طريقة تحقيق الانتصـارات فـإن وجهـها لا يلتفـت إلى المسـتقبل، بـل إلى الماضـي. النصر في الحـياة لـيس خطـو خطـوة إلى المسـتقبل الذي لم يُعش أبداً، ولم يستبح حتى خـياله، بـل يعـني الخلاص من ماض صار خردة قبل أن يعاش، ومن الزاوية التي رمي فيها ذلك الماضي، والحصول على طزاجته القديمة.

هكذا فعل هو أيضاً. اتخذ لنفسه امرأة أخرى غير زوجته التي لم تعد تقوم بواجبات الزوجة معه، وطفلة بدل التي فقدها، وسلطة مكان التي سُلبت منه. كلها جديدة، وليس فيها ما هو جديد. عندما وضع بين ذراعيه الطفلة المولودة مـن الفرنسـية الشـابة الـتي يعيش معها كان قد بلغ التاسعة والخمسين تماماً. والمولـودة الجديـدة أيضـاً كانـت بنـتاً لون عينيها رمادي مثل لون عيني ابنته

الأولى. أخفى هذا عن "أغريبينا" على مدى سنوات. حسن، إذا لم يخف هذا عنها، فمن المشكوك به أنها يمكن أن تغيِّر شيئاً من هذا الوضع، وحتى أن تعيره اهتماماً. بحسب ما جاء في الرسائل الواردة من كبير الأطباء في المستشفى المقيمة فيه، فإنها لا مبالية إلى أبعد الحدود بما يجري من حولها. ولا تبدي أي مؤشر على التحسن، وتقضي يومها كله متفرجة على القرويين العاملين في حقول الكرمة الممتدة على مدى النظر من السفح الشمالي للمستشفى، وترسمهم بألوان مائية بالأسود والأبيض. يقرأ "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" هذه الرسائل بانتباه، وقلق، ويأس شديد، بعد ذلك ينساها في الدرج الذي يضعها فيه. هو ممتن إلى أبعد الحدود من علاقته الجديدة، وعازم على منح طفلته الثانية المحبة التي لم يستطع منحها للأولى. رغم هذا لم يحاول في أي وقت أن يطلِّق زوجته. وإذا كان قد تخلى منذ زمن بعيد عن زيارة "أغريبينا"، فقد اهتم بأن يكون على مسافة قريبة منها، حيث يمكنه الوصول إليها متى شاء. كانت زوجته في البداية عشيقته الصغيرة، وكان المعجب الأثبت بها. ولكنها مع الزمن تحولت إلى ضحية الضعف، ونقاط ضعفها، وغدت مرآة وحيدة تعكس من أين أتى، وإلى أين وصل، وما فقده على الطريق. لم تكن زوجة، ولا صديقة أيضاً، بل لعلها دفتر خط رحلة... وكما أن دفتر خط الرحلة لا يعرف ما هو مكتوب فيه، فإنه لا أهمية لمعرفة "أغريبينا" أو انتباهها لما شهدته بالضبط. كان "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" يحافظ على هذا الدفتر القيم في مكان أمين يمكنه أن يذهب إليه، ويأخذه عندما يحين الوقت المناسب.

ولكن "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" عاش كثيراً، وتقدم في السن كثيراً إلى حد أن عمره فاض كلباس أبليناه ، وغدا مزقاً لكثرة الاستعمال على مدى السنوات، ولهذا السبب نلبسه عندما نكون وحدنا مسرورين ومبتهجين، ولكننا نخجل منه، ونخلعه عندما يلتقطنا أحد ما أثناء ارتدائه. حقق أهدافه هدفاً تلو الآخر، وعوّض ما فقده، وعاش ما لم يعشه، ولكن الحياة لا تنتهي بأي شكل رغم أخذه منها ما يجب أخذه. لم يكن يوجد حوله من عاش طويلاً مثله. مع انسحاب الناس الأصغر منه عمراً بكثير، وكثير جداً ممن أحبهم،

ورعاهم، وتناحر معهم، وشحذ لهم أسنانه، ومغادرتهم واحداً تلو الآخر، فإن العذاب الذي شعر به إزاء موت كل منهم يتراكم على شكل حثالة في قفص صدره، ويزّن متحولاً ليلاً إلى ألم حاد ورفيع فوق قلبه. كان يتوهم أن أقرباء الموتى وحتى امرأته وابنته يدينونه سراً، وأن الجميع يكرهه لأنه عاش طويلاً إلى هذا الحد في عصر نجس لم تفقد فيها الحياة فقط سحرها، بل حتى الموت أيضاً فقده. كان في الرابعة والتسعين من عمره، ولكنه لم يهرم، حتى إنه لم يخرف أو يبدُ عليه التقدم في السن أبداً. لم يكن ثمة شيء بيده. يمكنه أن يعوض نقصه بالموت، ولكن كما أن الموت لا يأتي بمجرد الطلب، فهو لا يريد أن يموت أيضاً.

أحياناً يدين نفسه بلسان "ليفانتين" المتدلي الغدد عند الرقبة، وكان رب عمله ثلاثة أيام فقط، ولم ينس صوته الغليظ رغم مرور كل هذا الزمن: كم عمركم يا مسيو أنتيبوف؟ هذا يعني أنه قرابة القرن! وفي هذا القرن انهارت دول مثل قصور ورق اللعب، وتساقط أناس كما الذباب، وصدح صور إسرافيل في آذاننا ليس مرة واحدة، بل لعلها عشر مرات. حسن، هل دخلتم مصادفة من باب خارج الزمن، أم أنكم جلستم للمساومة مع إبليس عن سابق رغبة وتصميم؟ إلى متى تفكرون بالعيش يا مسيو أنتيبوف؟ احذروا أن تكون مغادرتكم بلدكم هرباً من الموت الذي جاء لأخذكم هناك، وجلوسكم منتظرين الموت كي يأخذكم في بلاد الآخرين هي من مهارات الحظ إياه؟".

* * *

في الأيام التي بدأ فيها "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" برمي نفسه خارج المدينة بتأثير انسحاقه تحت وطأة عيبه الذي لا يمكن أن يصحح، مبتعداً عن الناس، تلقى رسالة غير متوقعة من كبير الأطباء. ساءت حالة "أغريبينا" بشكل مفاجئ. صباح أحد الأيام ألقت بنفسها فجأة إلى الخارج تحت أنظار الأطباء والممرضات والمرضى المندهشة وهي تصرخ، وتعربد، وحاولت أن تتكلم مع القرويين فرادى في كروم العنب، ولكنها عندما وجدت أن أحداً لم يفهم

من كلامها شيئاً أصيبت بنوبة عصبية. وعندما أعيدت، وهُدِّئت قليلاً بواسطة الحقن، حاولت هذه المرة أن تشرح بكلماتها غير المفهومة لمن في المستشفى. عندما رأت أنها أخافت المرضى الآخرين، خافت من نفسها، وانطوت على نفسها تماماً من جديد. ويطلب كبير الأطباء من "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" أن يأتي إلى المستشفى في أقرب فرصة ليرى زوجته، لأن اللغة الأجنبية التي تحدثت بها أكثر مرضاه هدوءاً، وأقلهم مشاكل بعد كل هذه السنوات رغم عدم وجود ما يستفزها نحو هذا التغيير، وبثورة مفاجئة، بحسب ما فهمه هي اللغة الروسية.

حين رأت "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" أمامها "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" عانقته لا لأنها وجدت زوجها أمامها بعد كل هذه السنوات من عدم رؤيته، بل لأنها وجدت في النهاية من تستطيع أن تشرح له ما تريد، وبدأت الشرح. ليس ثمة معنى فيما قالته، ولا تسلسل. تحدثت عن الأغنيات التي يرددها القرويون العاملون في الكروم. بعد ذلك اشتكت من الغيرة الطفلية للمرضى الوقورين في المستشفى، ومن عدم مبالاة الرب. لم تتوقف. وتحدثت في ذلك اليوم حتى انتهاء موعد الزيارة، وأثناء شرحها لموضوع تغيره فوراً ذاكرة المطبخ الذي تفوح منه رائحة القرفة والكريمة، ومن دون إبداء أدنى إشارة فرح أو يأس، ومن دون إعطاء ذرة أهمية لردود فعل من يقابلها، وبصوت أحادي المستوى من دون أي صعود أو نزول يخنق تدريجياً. وقرب المساء، قبل أن يغادرها كأس الصبر المصغي إليها، سألته متى سيأتي في المرة القادمة بابتسامة حزينة، وغاصت بهدوء تحت تأثير الدواء المنوم الإجباري اللزج قبل أن تنتظر الإجابة.

في اليوم التالي جاء الزائر الصامت، وهذه المرة في يده وردة واحدة، وتحت إبطه صرة. لم تبد "أغريبينا" حتى أدنى اهتمام بالوردة. ولكنها عندما فتحت صرة الورق المزينة والمزركشة، قابلت البنبون التي فيها والصينية المدورة ذات الصورة المدهونة بالورنيش بفيض من السعادة. كانت تلك الصينية التي اشتراها "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" من بائع تحف قديمة حذق هي عمل فني من

إنتاج "فيشنياكوف". رسم عليها موضوع خطف نبيل لفتاة يحبها من بيتها. وبقدرة تفوق القدرة الإنسانية، يحتضن حبيبته بيد واحدة، ويمسك السلم الخشبي باليد الأخرى واقفاً قبل أن ينزل عن الدرجات الأخيرة، وينظر إلى الغابة الخضراء الفاتحة في أمكنة، والخضراء الداكنة في أخرى التي سيهرب إليها بعد قليل. انزوى "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" جانباً ينظر بفضول كيف ستؤثر الصينية على زوجته. أحد الأطباء الذين عرج عليهم قبل زيارته لها، قال له بأن الذاكرة يمكن أن تلعب ألعاباً حاقدة، وأثناء اقتراب الجسد من نهايته يمكن أن يُرجع الذاكرة إلى البدايات، وعندما تقترب الأعمار من نقطة معينة على الأغلب شوهد أن كثيراً من المرضى يعودون إلى لغة الطفولة. ويمكن لغرض واحد، أو ذكرى واحدة أن تكفي لاستفزاز هذه العودة بشكل خفي. والآن يستشعر "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" أن الشخص الوحيد الذي لا يحتمل موته قبله هو زوجته. يعود دفتر خط السير إلى الوراء سطراً تلو سطر ماحياً الكتابة التي فيه.

ولكن "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" بدت مهتمة بالبنبون أكثر مما هي مهتمة بصينية "فيشنياكوف". مدت نحو زوجها إحدى البنبونات التي اختارتها بشكل عشوائي، وسألته عن نكهتها من دون أن تعلم بمخاوفه. تلقت جوابه: "طالما أنها زهرية، فلا بد أنها بنكهة توت الأرض". زهرية! يا لما مر عليها من دون رؤية الزهري. فتحت غلافها النايلوني، وألقت البنبونة في فمها. زهري، رائحته لطيفة، وحلوة جداً.

أثناء ذوبان السكر في فمها، حدث أمر غريب، غريب جداً. بداية ارتبطت شفتاها بالصمت المقلق لحبيبة النبيل الجميلة التي في حضنه، بعد ذلك فجأة بدأ كل ما حولها من زهري يظهر نفسه بشكل فردي أو مزدوج. مدت "أغريبينا" يدها إلى البنبونات الأخريات فوراً. وكلما اختارت واحدة لابد لها من سؤال زوجها عن نكهتها. كانت الصفراء بنكهة الليمون، والحمراء بنكهة القرفة، والخضراء بنكهة النعنع، والبرتقالية بنكهة برتقال يوسف أفندي، والبنية بنكهة الكراميل، أما البيج فقد كانت بنكهة الفانيليا. بعد ذلك كانت

تـتذوقها. الأصـفر لون حامض، أما الأحمر فقد كان حاداً، الأخضر لاذعاً، أما البـرتقالي فمـز، والـبني له أثـر الطعـم الحامض مع المر، أما البيج فيلف على اللسـان. وهكـذا اسـتعادت "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" مع كل طعم لوناً من الألوان التي افتقدتها في اسطنبول. وتتبعت انبعاث الحيوية في سريرها المستند إلى الجـدار، وطاولـة الكـتابة والكرسـي الموضـوعة أمـام الـنافذة، والكوميديـنة المصـنوعة مـن خشـب الكرز والموضوع عليها مختلف أنواع الدواء، وأيقونة الأم مـريم وملامـح وجـه القديـس "سـرافيم" في العقـد المتدلي من رقبتها. لدهشتها تعـثرت قدماها بيديها وهي تهرع إلى النافذة، وهناك تجمدت أمام المنظر الذي رأتـه. كانـت الألـوان في كـل مكان. أشجار الكرمة الممتدة من السفح الذي يقع علـيه المستشـفى إلى خـط الأفق لاذعة، ألبسة الفلاحات اللواتي يملأن السلال بعناقـيد العنـب الضـخمة ذات القشـور الغلـيظة وهـن يـرددن الأغنـيات مزة، والأشـجار الـتي تـؤوي الشـحارير صـاحبة الصـوت الرفـيع الحـاد حادة، أما الشـمس الـتي في السـماء فحامضـة. كانـت الألـوان في كـل مكان، ولكن ألوان الداخـل لم تكـن كـثيرة كـألوان الخـارج. في تلك اللحظة خطرت ببالها فكرة. عـادت، وجمعـت أوراق لـف البنـبونات النايلونية. نظرت إلى المستشفى الذي قضـت فيه سنين عمرها عبر نايلون التغليف. تترك إحدى أوراق التغليف التي تصـبغ بلونهـا أحاديـة بـياض ممـرات هـذا البـناء الحجـري البارد، وجدران غـرفه، وصدريات أطبائه، ووجوه ممرضاته الشاحبة المتوجة بابتسامة صابرة، وفي الحـبوب التي تضطر لابتلاع اثنتين منها يومياً في الصباح والمساء، وأغطية الفـرش الـتي تبدلها الخادمات مرة كل يومين، وأنواع الطعام التي لا طعم لها ولا مـلح، وتتـناول أخـرى، فـلا تلون ما يحيط بها فقط بمختلف الألوان، بل تلـون الـرجل المسـن الواقـف أمامهـا والـذي لا يـرفع بصـره عنها أيضاً. الأمر الوحيد الثابت هو تعبير القلق الذي يطفح به وجه الرجل.

لم تـتوقف "أغريبينا". وكما لم تتوقف، فقد بدأت تضع أوراق لف البنبون اثنـتين أو ثلاثـاً إحداهـا فـوق الأخـرى محاولـة إيجاد ألوان جديدة. بعد عدة محاولات مختلفة، وضعت أمام عينها الزرقاء والحمراء إحداهما فوق الأخرى،

وشـهدت بـأن العـالم كلـه مـن فـرقه إلى قدمـه غدا بنفسجياً. انطلقت من بين شـفتيها صـرخة مصـحوبة بشـخير: ا- س- ط- ن- ب- و- ل! وجدتـه. وجـدت اللـون الـذي لم تـره لأنـه كان مختبئاً خلف الضباب وهي في التاسعة عشـرة مـن عمـرها، وفي بطـنها انـتفاخ كـبير، وآخـر صغير في ظهرها، عندما نظـرت إلـيها مـن سـطح تلـك السـفينة القـذرة الرائحة. في مجموعتها للألوان والأمكـنة كان لون اسطنبول بنفسجياً. إنه بنفسجي متموج بقّعته أشعة الشمس المبهرة المنعكسة عن القباب الرصاصية قطرة إثر قطرة، وشوته قطعة إثر قطعة. كانـت تـتذكر ذلـك اللون اللعين. بدأت بالهذيان بشكل لف ودوران، وتكرار: اسـطنبول! وكأنها لا تكرر الاسم ذاته مئات المرات، بل تهجئ اسماً مؤلفاً من مـئات الـتكرارات صـابرة. لم يسـتطع "بافـيل بافلوفيـتش أنتيبوف" التحمل، فاحتضن زوجته بين يديه، وقال: "يا أغريبينا، هل تذكرت اسطنبول؟".

في الأيـام التالـية، اعتقدت "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" أنها شابة، وأن المكـان الـذي هـي فـيه هـو اسـطنبول. كانـت تتدفق من لسانها كلمات تركية أحـياناً. تتصبب عرقاً، ويغيب وعيها، ويعود. عندما يذهب تشعر أنها عادت إلى اسـطنبول بعد سنين طويلة، أما عندما يعود، فتشعر أنها تركت شيئاً منها هناك. لا يسجل وضعها أي تحسن، وبينما يكرر كل يوم ما قبله بثبات، كان يهمس بأنه لن تكون هناك مصفوفة حرفية أخرى، وستتصل إلى النهاية قريباً.

يجـب ألا تمـوت هكذا، وألا تغادر هذه الدنيا مبكرة هكذا، وتاركة خلفها أحمـالاً لا تُحـتمل. ذات صـباح، بعـد لـيلة أرق قضـاها "بافـيل بافلوفيـتش أنتيبوف" الذي لم يعد له ما يفعله في هذه الدنيا، وعاش أكثر من اللازم، جاء إلى المستشـفى قـبل شروق الشمس، وقال: "أغريبينا، لنذهب إلى اسطنبول من جديـد، أتـريدين هـذا؟" وعـندما رأى أنها احمرت مبتسمة كأنها سمعت أمراً إباحـياً، قـرر أن هـذا يعـني "نعم" ضمنية. كان عليه أن يفعل شيئاً لزوجته، يجعـل موتها أجمل من الحياة التي عاشتها إلى اليوم حتى وإن كان هذا الموت قـبل موعـده، وأبكر من موته بكثير. لهذا السبب عليه أن يوفر لها على الأقل فرصـة العـودة إلى تلك المدينة من أجل الانتقام من تلك الأيام التي قضتها فيها

شابة مهانة مسحوقة مهزومة مستصغرة، وإن كان هذا متأخراً سنوات طويلة. عليه أن يحقق لها فرصة إكمال تلك القصة المشروخة الناقصة وهي في حال من الطمأنينة، واضعاً بين يديها المتع التي حرمت منها، والرفاهية التي لم تتذوقها، والفرح الذي لم تصل إليه. أعطى قراره. يجب أن لا تمضي "أغريبينا" بقية عمرها في هذا المستشفى، بل في اسطنبول. وفوق هذا ليس بصفة لاجئة أو منفية، ولا بصفة غريبة أو ضيفة أو مستأجرة. يجب ألا تكون في اسطنبول الآخرين، بل في اسطنبولها، وفي وضع صاحبة البيت.

* * *

وصلا. وصلا، ولكن المدينة لم تستطع التعرف إليهما، كما لم يستطيعا التعرف إلى المدينة. "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" الذي لم يرغب بالبقاء يوماً واحداً زيادة في الفندق، بدأ بالبحث عن بيت مناسب دون أن يضيع أي وقت. لم يكن يعرف بعد ما إن كانت القوانين السائدة في هذا المكان تمنع الأجانب من تملك بيت أم لا. وإن لم يكن يعرف، فطالما هنالك في هذه الدنيا كل هؤلاء الناس الجاهزين للعب بحسب المصلحة أو الفائدة، وكما تتطلب الظروف، لم يكن لديه شبهة بأن طريقه لن يُسد، وأنه سيجد بشكل ما مسلكاً يسير فيه. ولكنه خلال عشرة أيام، كانت الفرصة السانحة له أكبر بكثير من توقعه. عندما ذكر مرابيٌ وقع مكانه إلى جواره على مائدة طعام عشاء دعاه إليها صاحب الفندق الذي يقيمان فيه بناءً في أفضل أحياء المدينة بدأ أحدهم ببنائه، ولم يستطع أن يكمله صاحبه لأنه أفلس قبل فترة قصيرة بشكل مفاجئ، فهم فوراً أنه يجب ألا يفوت هذه الفرصة القادمة إلى عند قدميه. كان أول عمل له في اليوم الثاني هو الذهاب إلى موقع البناء المذكور. ولكن البناء لم يكن غير مكتمل كما ذكر المرابي، إذ لم يكن هنالك أكثر من حفرة أساس. ولكن هذا أفضل، وأفضل بكثير. بعد ذلك بدأ باقتفاء آثار الروس البيض الذين قاسمهم القدر نفسه في مطلع العشرينات من القرن العشرين، ولكنهم بقوا، وحصلوا على المواطنة التركية. كان من الأفضل وجود اسم مواطن تركي على الورق من أجل تسيير

العاملة القانونية بسهولة، ولكنه لم يكن يثق بغير المنحدر معهم من أصل واحد. في النهاية اتفق مع زوجين هادئين، لا مشاكل لهما، فتحا دكاناً في منطقة "الجامع المعلق" يبيعان فيه مصابيح النوم الظريفة التي يصنعانها مؤمنين حياتهما، وحصلا على المواطنة التركية قبل عشرين عاماً. وبني البناء باسم شركة ستارة يمتلكان فيها صفراً من الأسهم. لم يكن لدى "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" نية لأن يطأ على خشبة منخورة. كان يعمل حسابات دقيقة، ويدفع كثيراً. سرّع الأعمال التي تتطلب في شروط أخرى زمناً أطول ومشقة أكبر، بفتحه فم كيس نقوده. وترك مبلغاً كبيراً من المال لامرأته التي تركها في فرنسا كي يرضيها، ويجعلها تصدق كذبه الذي قدمه لها بسهولة أكبر. لم يكن متذمراً. إنها المرة الأولى في حياته التي ينثر فيها النقود يميناً ويساراً من دون حساب وكتاب. اتفق مع معمار أرمني في اسطنبول كان قد أسس عملاً مع عائلته في فرنسا. لم يتهرب من النفقات. كان يتفحص كل المواد المستخدمة، ويريد أن يعلم بوصولها فوراً. وإذا كان يأخذ رأي زوجته أحياناً حول ما يجب أن يكون عليه الباب الرئيس، وجدران الحديقة، وحديد الشرفات، وتزيينات الواجهة، والتواءات السلالم أو رخام المدخل، فإنه عمل ما رغب به دائماً.

لم تكن "أغريبينا" تبدو تواقة للتدخل بتفصيلات من هذا النوع أصلاً. منذ أتت إلى اسطنبول وهي تمضي معظم وقتها بالاستماع لمهاترات خادمتها الزنجية التي لا تبرحها لحظة واحدة مع المدبرة "الألاسكية"، أو الفرجة على البحر من نافذة الفندق. لم يكن التعبير المسيطر على وجهها أثناء فرجتها على مياه البوسفور يختلف عن التعبير الذي كان يتخذه وجهها أثناء فرجتها على الكروم من نافذة المستشفى في فرنسا. وكما أنها غير ممتنة للعودة إلى الأرض التي دفنت فيها ابنتها، كانت تخلط أحياناً أي مدينة هذه. ولكنها لا تبدو تعيسة. كانت تتفرج على اسطنبول من فوقها مثل غيمة مرتجفة متوجسة محملة بالمطر، تكاد تبكي من جهة، ولا تلمس أي شيء من جهة أخرى.

أما بالنسبة إلى "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" فإن تجرد زوجته عن الحياة هو دليل براءة، وليس دليل مرض. شهد مرات عديدة في الحروب التي رآها

وخاضها أن الجنود المسوقين إلى الجبهة من أمم مختلفة يؤمنون بأنه لن يحل بهم مكروه إذا كان بينهم بريء واحد، وأنه كرما لهذا البريء ستنقذ أرواحهم جميعاً. والآن في هذا السفر العجيب الذي انطلق به من أجل إراحة ضميره الذي يقوم بمحاسبة عمره كله، يلتجئ خلف زوجته بإيمان مشابه.

صبغ الجدران الخارجية من أولها إلى آخرها باللون الرمادي، وإطارات النوافذ وحديد الشرفات بدرجتين مختلفتين من الرمادي إحداهما فاتحة والأخرى داكنة، وعندما أكمل هذا بزخارف ناعمة لإطار الباب الخارجي ذي المصراعين على شكل عريشتين بريتين ظهر البناء بجمال مبهر للأبصار، وجدة لم تمسها الأيدي. ونتيجة إصرار "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" كانت الخصوصية الأبرز للبناء المبني على طريقة فن الحداثة التي انقضى طرزها أن كل طابق لا يشبه الآخر. نوافذ شقق الطابق الأرضي كبيرة جداً كأنها تعوض عدم وجود الشرفات. أما الشرفات فهي تختلف من طابق إلى آخر. بينما تمتد شرفات الطابق الثاني نحو الخارج على شكل نصف دائرة، فإن شرفات الطابق الثالث يمكن أن يجلس عليها براحة من دون قلق الظهور لأحد من الخارج لأنها بنيت بشكل غائر إلى داخل البناء. وضع على حواف شرفات الطابق الرابع نحت بارز لأزهار مكان القضبان الحديدية التي على شرفات الطابق الثاني، وفي نهاية كل طرف من طرفيها وضع حوض رخامي كبير يمكن أن تُزرع فيه أزهار حقيقية، وأحيطت بجدار حجري. كانت الفروق بينها لافتة للأنظار إلى حد أن الإنسان الناظر إلى البناء لا يستطيع إلا أن يفكر بأن سكان البناء يتقاسمون المكان نفسه من جهة، ولا يعيشون في المكان نفسه من جهة أخرى.

النحت البارز بين نوافذ الطابقين الأول والثاني على الواجهة الأمامية لافت للأنظار بشكل خاص. يوجد هنا طاووس صغير الرأس ضخم الجسم موضوع داخل دائرة. تتجه اثنتان من خمس الريشات البارزة من رأس الطاووس نحو اليسار، وأخريان نحو اليمين، لتشير إلى خمس جهات مختلفة. رسمت على رؤوس الريشات عيون واسعة، وأحيطت العيون بخطوط

دقـيقة متواضـعة تذكّر بالرموش. وكان رأس الطاووس منحنياً إلى الأمام مطأطئاً إلى الأرض عـلى عكس الريشـات التي تنظر إحداها إلى السماء، وتشير الأربع الأخـرى إلى جهات الأرض الأربع. ويوجد حيث ينظر عند قائمتيه ضمن إطار بيضـوي منقوش الحرفين الأولين من اسمي الزوج والزوجة لا يميزهما العابرون من الأسفل بسهولة.

عـندما فرّج لزوجته البناء مباهياً، قال لها: "ماذا تريدين أن تسميه؟". دخلت بيـنهما نسـمة بـرية محملة برائحة الياسمين قالت ما لم يكن يستطيع قوله "بافيل بافلوفيـتش أنتيـبوف": "هـذه هـي ابنـتك ذات العيـنين الرماديـتين يـا أغريبيـنا. سـتحبك كـثيراً دائمـاً، ولكـنها لـن تنـتظر مـنك بالمقـابل حباً أكثر مما يمكنك أن تمنحـيها إيـاه. ستكون كلها لك وحدك، ولكنها لن تطلب منك أن تهبيها نفسك. لـن تـتدلل أو تبكي أو تمرض أو تموت أبداً. لن تكبر أبداً. ولن تتركك طالما أنك لا تتركيها. وما تقولينه سيذكر بالضبط. ماذا تريدين أن تسميها؟".

اسـتمعت "أغريبيـنا فيودوروفـنا أنتيبوفا" لما قالته النسمة البرية منفعلة. بعد أن بقيت عدة دقائق صامتة، وفكرت جيداً، أجابت عيناها بارقتين: "بنبون!".

نظـر "بافـيل بافلوفيـتش أنتيـبوف" لحظـة طويلة إلى زوجته مندهشاً. بعد ذلـك قـدر أنـه لم يفهـم علـيها مـا قالـته، فأعاد سؤاله. ولكنه في هذه المرة لم يهمـل أن يقـترح علـيها عـدة أسمـاء. يمكـنها أن تختار أسماء ترتبط بوطنهما الأم، أو كـلمة تذكـر باسـطنبول عـام 1920، أو ذكرى تلك الأيام، أو الأفضل اختـيار أسمـاء تشـير إلى الاختلاف الكبير بين قدومهما هذا وقدومهما السابق. مـثلاً سـيكون اسـم: "نصـر" اسمـاً مناسباً أو "كرامة"، "محظوظ"، "شقيقة"، "ذكـرى" أو "مغامـرة" أو "عاقـبة" أو "فدائـي". كذلـك يمكـن أن يُسـمى: "لا تنسـني يـا بـناء"، أو "الملاقـي"، "المصـالح"، "المفـرح". يمكن لهما أن يتوجا نجاحهما بمئات الأسماء المحملة بالمعاني، فثمة كل هذا الجهد والتعب والمال خلفـه. استمعت "أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" إلى الأسماء التي سكبها زوجها بابتسامة مطيعة. ولكنها لم تغير جوابها أبداً.

* * *

عـندما انـتقل "بافـيل بافلوفيتش أنتيبوف" و"أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا" إلى الشقة رقم 10 في بناء قصر بنبون بتاريخ الأول من أيلول عام 1966، كانت السـماء كـلها مغطـاة بغـيوم سميـنة متثاقلة رصاصية اللون. وكأن الرب لم يبق عـنده أوراق تغلـيف سكاكر ملونة أبداً، فلف العالم كله باللون الأحادي نفسه. بعـد أن تجولت "أغريبينا" جولة عامة في الشقة لاحقة بها خادمتها الزنجية، والمدبـرة الألاسـكية المقطبة الوجه، ذهبت مباشرة إلى الشرفة. فتحت الباب ذا المصـراعين، وخرجت إلى الشرفة. كانت المدينة مقابلها تماماً. تغيرت، وكثيراً جـداً. نظـرت إلى اسـطنبول كأنهـا بنـت جنسها التي تغير من جمالها بشكل خفـي، وعـندما التقتها بعد سنوات طويلة، كانت نظرتها إليها بامتنان ناقص لامـرأة ذوت، وانهـارت، وتجعد جلدها. بعد ذلك، هبت عاصفة شمال شرقية قويـة بـاردة، عـبر وجـهها من أمام عينيها، وتعكر ذهنها، واغرورقت عيناها. ولكـنها انتبهـت إلى أنهـا مازالـت تبتسـم تلـك الابتسـامة السـعيدة نفسـها، وبالشكل نفسه رغم كل هذا. في تلك اللحظة خرج "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" أيضـاً إلى الشرفة، وتفرج على الابتسامة الراسخة على وجه زوجته مباهياً. كم تـبدو مسـرورة! أفادتهـا، لقـد أفادتهـا العـودة إلى هـذه المديـنة بعـد كـل هذه السـنوات. الـرجال، وخاصـة مـن نوعـية "بافـيل بافلوفيـتش أنتيبوف" الذين ينتظرون تحديد قيمهم التي يعتبرونها صحيحة وسط تعقيدات الحياة، يحبون أن يـروا سـعادة الإشـباع الـتي تشـعر بهـا المـرأة الـتي بجانـبهم دلـيلاً عـلى نجـاحهم. عـندما كـان "بافـيل بافلوفيـتش أنتيـبوف" ينظر إلى زوجته في ذلك المسـاء الاسـطنبولي وقـد حلـت العاصـفة شمـال الشـرقية الباردة محل النسمة المحملة برائحة الياسمين قبل عدة أيام، كان يشعر بالفخر بنفسه.

* * *

أثبـت الوقـت بـأن "بافـيل بافلوفيتش أنتيبوف" على حق بمخاوفه. ماتت زوجـته قـبله. وعادت الخادمة الزنجية والمدبرة الألاسـكية من بعدها إلى فرنسا فـوراً. ولكن "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" لم يغادر إلى أي مكان. سكن وحده في

الشقة رقم عشرة من بناء بنبون سنتان بعد فقده "أغريبينا". عندما مات كان في المئة من عمره لا زيادة ولا نقصان.

وهكذا بقي بناء قصر بنبون في عام 1972 لابنة "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" غير الشرعية. تسكن "فاليري غيرماين" في بيت ريفي كبير جوار باريس مع زوجها وأولادها الأربعة الذين ولدت الأخير منهم في الأربعين من عمرها. لم تحضر جنازة أبيها الذي كان وجوده عبارة عن فراغ من دون صدى، وكما أنها لم تطأ المقبرة التي دفن فيها بجوار "أغريبينا"، فقد بقيت بالشكل ذاته لا مبالية إزاء هذا الإرث غير المتوقع. لم يدفعها الفضول في ذلك الوقت، ولا فيما بعد لرؤية البناء. وبمساعدة وسيط عقاري تركي حاذق جداً، وخبير بعمله بالقدر نفسه أجّرت الشقق كلها، ولم تتدخل بأي شيء طالما أن النقود تودع في حسابها شهرياً بشكل منتظم، وفضلت أن تسير الأمور من بعيد. ولكنها بعد ثلاثة أسابيع من تأجير الشقة رقم عشرة تلقت من مستأجرتها رسالة قصيرة مكتوبة بخط يد جميل معتنى به، وبفرنسية سليمة. تخبرها المرأة المستأجرة الشقة بأن أغراض "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" وزوجته الخاصة مازالت في البيت. ولأن الأغراض كثيرة وقيمة جداً تُخبرها المستأجرة بضرورة مجيء صاحبة البيت شخصياً لرؤيتها، أما إذا كان هذا غير ممكن، فيمكن لها أن تتفق مع شركة شحن، وترسل لها الأغراض كلها من دون أي نقص إلى فرنسا، وأضافت أنها تستطيع أن تساعدها في هذا الأمر أيضاً.

في الرسالة الجوابية التي أرسلتها "فاليري غيرماين" شكرتها على هذا الاهتمام الذي أبدته، وبعد أن عبرت لها عن أسفها لإدخالها في هم كهذا عن غير قصد، أخبرتها بلغة حازمة أنها لا تفكر بأخذ أياً غرض من الأغراض الموجودة في البيت. ويمكن للمستأجرة أن تستخدم أي من تلك الأغراض التي ترغب بها، أو تعطيها لآخرين، كما يمكنها أن ترفعٍ الأغراض التي لا تريدها، وترميها في الزبالة. تدع اتخاذ القرار لها كاملاً. وبالطبع إذا تطلب إخراج الأغراض من البيت أي نفقات، فهي جاهزة لقبول اقتطاع ذلك المبلغ من الإيجار.

وقبل مرور وقت طويل، جاءت رسالة أخرى. تقول فيها المرأة المستأجرة الشقة رقم عشرة بأن نفسها لم تطاوعها لرمي الأغراض في الزبالة، وأنه لابد من المحافظة عليها، وأنها مؤمنة أن صاحبة البيت ستعطيها الحق بهذا عندما ترى الأغراض. وهي جاهزة للمحافظة عليها باعتبارها أمانة عندها حتى يحين موعد ذلك اليوم. وفي نهاية الرسالة أضافت قائمة بالأغراض الموجودة كلها غرضاً غرضاً، وتألفت القائمة من مئة وواحدة وثمانين مادة، ودست معها صورة بالأسود والأبيض. كانت تلك الصورة صورة بناء قصر بنبون، وهي ملتقطة بعد إنهاء البناء مباشرة، وقبل سكن أحد فيه، ومن المحتمل أن "بافيل بافلوفيتش أنتيبوف" قد التقطها.

كان البناء في الصورة من دون ألوان أو ملامح. لا يوجد بداخله إنسان أبداً، ولا على نوافذه، ولا على شرفاته، ولا على الرصيف الذي أمامه، ولا في الشارع. كان كطفل حرب فقد أقرباءه كلهم، وبقي محروماً من العيون التي ستراه عندما كبر. وبدا كأنه من دون موقع محدد. فلا تقدم الصورة ولو رأس خيط واحد حول ما يحيط به، أو ما توحي به المدينة التي هو فيها. يمكن أن يكون هذا المكان أي مكان من العالم. ويمكن أن يكون في أي زمن خارج الزمن الحاضر.

سُرَّت "فاليري غيرماين" من تلك الصورة. احتفظت بها مدة طويلة معلقة على غطاء الثلاجة حيث تحتفظ بقوائم التسوق، والفواتير التي يجب أن تدفعها، وجداول السعات الحرورية، وتعريفات الطعام، وبطاقات النزهات البريدية، والرسوم التي رسمها الأطفال. بعد ذلك كبر الأولاد، وتقدمت في السن. وأضاعت صورة بناء قصر بنبون في زمن ما، وفي مكان ما.

الآن...

# الرقم 3: مصففا الشعر جمال وجلال

"أي ذنب ارتكبناه يا الله لكي تبعث هذه الرائحة إلينا. إننا نعيش وسط مزبلة بكل معنى الكلمة. سنتعرض لطفرة قريباً، ونبدأ بالنبش كالديوك".

جمال هو قائل هذا، ومتى ما شرح جمال أموراً ما، رافقته ضحكة امرأة قلبية أحياناً، ومجاملة أحياناً. ولكن هذا لم يحدث هذه المرة. على العكس من هذا تماماً، ما إن أنهى كلامه حتى هبط صمت ككرة حديدية على صالون تصفيف الشعر.

من النادر أن يُعاش صمت مطبق كهذا هنا. لكي يتحقق هذا، فإنه يجب أن تُصادف أحداثٌ كثيرة معاً تشكل كل واحدة منها وحدها مستحيلاً إعجازياً. مثلاً يجب أن تنقطع، وبشكل مفاجئ أصوات مزامير السيارات المخرشة للآذان العابرة من زقاق "جرنال" لكي لا تعلق بزحام مواصلات الشارع الرئيس محولة هذا المكان أيضاً إلى فوضى لا يمكن الخروج منها، وصوت بائع البطيخ الفاتح بسطته عند زاوية الشارع، ومكبر صوت منافسه بشاحنته العتيقة الذي يقوم بجولة في الحي، ويعود إلى النقطة ذاتها كل عشرين دقيقة، وبالطبع أصوات الأولاد المتشاجرين في حديقة الأطفال

المدسوسة بين الأبنية على مبعدة عشرة أمتار والمؤلفة من أرجوحتين وحصاني توازن معدنيين، وزلاقة بسيطة يحمى صفيحها كثيراً صيفاً فيحرق مؤخرات الأطفال. ولأن الصخب داخل صالة تصفيف الشعر كثير حيث لا يقل عن صخب الخارج، فإن تخييم صمت حقيقي هنا ولو لفترة قصيرة يجب أن يكون أمراً من الأمور فوق العادية. مثلاً يجب أن يصمت التلفزيون المفتوح دائماً في الزاوية على القناة الموسيقية نفسها، وهذا لا يتم إلا في الفترة الممتدة عدة دقائق التي تفصل بين انقطاع الكهرباء وتشغيل المولد، أو يمكن أن يحدث عند جلوس أحد الزبائن بالخطأ على جهاز التحكم عن بعد. يجب أن تنقطع فجأة وفي اللحظة ذاتها أصوت نفث آلات تجفيف الشعر الصاخبة، والهدير الأحادي المستوى الذي تصدره مجففات الشعر الشفافة الشبيهة بعمامات الصدر الأعظم التي تدخل فيها رؤوس الزبائن، وبقبقة الماء في السماور الذي يغلي من دون توقف في المطبخ الواقع في الداخل، والطقطقة الميكانيكية للمروحة السقفية الدائمة الدوران، وحفيف ورق الألمنيوم الذي تُلف فيه خصلات الشعر المصبوغة والموجة اللون، وخرير الماء عندما يأتي الدور إلى غسيل الشعر، وتأفف زبونة عند وضع رأسها تحت الصنبور فجأة لشعورها أنه حار جداً أو بارد جداً، والأزيز المقشعر الذي يصدر عندما تبرد الأظافر من أجل طلائها، والصوت الصادر من غرفة معقود السكر في العمق، وحفيف المكنسة والفراشي التي تخرج كل برهة من أجل تنظيف قصاصة الشعر الساقطة على الأرض، والأحاديث المتأججة أحياناً بانضمام متحدثات جديدات أو الهادئة أحياناً بتكاسل وغير الواصلة إلى نتيجة في أي وقت، وغير المنتهية تماماً في أي وقت لكي تتحقق إمكانية إحلال صمت تام لا تشوبه شائبة في صالة تصفيف الشعر. وبالطبع لابد من قطع جمال للسانه فوق كل هذا في حال تحقق كل هذه الأمور، أو إمكانية تحققها.

ولكن العالم مكان مليء بالمعجزات، أو أن بناء قصر بنبون هكذا على الأقل. فجأة ملأت المكان سحب الصمت القادمة من مكان مجهول عبر النوافذ المفتوحة على مصاريعها، وكأن ستارة كاتمة للصوت أسدلت على مصادر

الصوت كلها. في ذلك الصمت الرطب تنفس جلال الصعداء بهدوء وطمأنينة. لم يكن يحب التلاسن والصخب والحديث غير المتوقف من الصباح إلى المساء. ولكن ليس بيده شيء. مهما يكن فإن أخاه الحقيقي بالدم وتوءمه من بويضة واحدة مؤجج الصخب الطويل والمؤسف الذي يعاني منه طوال النهار. كان جمال يتكلم كثيراً. عنده هوس للكلام دائماً، وما يمكن أن يتحدث به. فهو يثرثر طوال اليوم مع الزبائن بلكنته المكسرة التي لم يستطع إصلاحها، ويبدو أنه ليس من السهل عليه بعد الآن أن يصلحها، وعينه دائماً على التلفزيون، وينتقد (كليبات) الموسيقى المذاعة كلها، ويصرخ على الأجراء دائماً، ويصغي لأحاديث الآخرين، ويرد على هذا وذاك في الوقت نفسه، ولا يقوم بكل هذا وفق تسلسل معين، بل يقوم بها كلها في آن واحد.

ولكن جلالاً لا يستطيع الغضب منه كثيراً. وككثير من الناس الذي يعتبرون أن إخوتهم الأصغر منهم قضوا طفولة أصعب من طفولتهم، فإن جلالاً يكن لأخيه التوءم الذي جاء بعده إلى الدنيا بثلاث دقائق ونصف محبة محملة بالشفقة. انفصل أحدهما عن الآخر وهما مازالا طفلين. بقي جلالٌ مع أمه في القرية، فهو في رحم خانق ولكنه طافح بالحب، وعصبي ولكنه حذر بحماية نفسه، أما جمال فقد ذهب إلى أستراليا مع أبيه، وكان دائماً يعيش وحيداً في عالم لا متناهٍ، وحراً ولكنه من دون دفاع، وشبه متنقل، وشبه مقيم في وسط لغة يستغربها. بعد افتراق طريقيهما بشكل فظ، ومرور فترة شبابهما دون معرفة أحدهما شيئاً عن الآخر، التقيا عند عودة جمال المفاجئة. الأقرباء كلهم قرروا أنه عاد تحت تأثير الشوق للبلد، وهكذا عفوا عنه ولو قليلاً لعدم حضوره جنازة أمه قبل سنوات طويلة. تتغير أحوال البلد بحسب رؤية المواطنين. بعد أن يعيش أناس الدول النامية في دول متطورة، خاصة إذا كانوا يشعرون إنهم يعودون إلى تلك الأماكن، يرغبون بمحبة المنضمين إليهم. فقد حصل جمال فور عودته إلى اسطنبول على حصة كبيرة من ذاك الحب الخاص المميز الذي يحظى به المسيحيون الذين غيروا دينهم إلى الإسلام، والأجانب الساكنون في تركيا، والسائحون الذين يأتون إلى هنا كل سنة من دون انقطاع،

وخصوصاً العرائس الغربيات اللواتي يتزوجن من أتراك، ويقبلون تسمية أولادهم أسماء تركية.

مع أن حقيقة الأمر هو أنه يعتبر أستراليا وطنه، كما أنه لا يحب تركيا، ولا الأتراك كثيراً. وخاصة النساء التركيات! فإن أكتافهن الضيقة، وأوراكهن العريضة، وبنياتهن النازلة عرضاً من الأعلى إلى الأسفل بشكل غير متوازن، يجعل كلاً منهن أجاصة صغيرة غير معتنى بها. كما أنهن يُعتبرن محافظات جداً في موضوع الشعر. فالقصات دائما هي نفسها، وكذلك الأصباغ أيضاً. لم يُصادف بعد واحدة تطلب قص شعرها قصيراً كالرجال. يا لغرابة أولئك اللواتي لا يتحملن وجود شعرة واحدة في أجسامهن، ولكنهن لا يقتربن من تقصير شعرهن. لا، إن جمال غير ممتن من وجوده في تركيا. ولكن السبب الوحيد لعدم ذهابه إلى أي مكان هو تسمر توءمه في تركيا. فقد عاد كرما لخاطر أخيه، نصفه الآخر الذي يختلف اسماهما بحرف واحد. إذا استطاع انتزاعه من هذه الأرض، فلا شك أنه سيأخذه إلى أستراليا. ولكن لأنه يستشعر ضمنياً أن جلالاً لن يأتي معه، ولن يستطيع العيش في مكان أخر غير بلده، لم يجد مناصاً غير جمع ما لديه من مال وملك، والسكن في اسطنبول.

أما بالنسبة إلى جلال، فقد شعر بغيرة عميقة فور لقائه توءمه، حتى وإن كان لن يعترف له بهذا أبداً في أي وقت. أثناء وقوفه في صالة انتظار ركاب الخطوط الخارجية في المطار، شعر بالدهشة بداية، ونظر خجلاً بعد ذلك إلى الرجل الضخم البطن والكبير الأنف، والمجعد الشعر الراكض نحوه فاتحاً ذراعيه مطلقاً صيحات الفرح. يا لغرابة ما ارتداه: قميص قطني غير مفتوح وغير جدي مرسوم عليه كناغر مختلفة الأبعاد، وتحته بنطال قصير أخضر صارخ، والمخيف أكثر ذانك النعلان الزهريتان البشعتان الصادمتان لبصر الإنسان في قدميه المشعرتين. يا لكثرة حركته: كان يحرك يديه وذراعيه عشر حركات لقول كلمة واحدة، ويصطدم بهذا وذاك، ويقلب أشياء ما. يا لكثرة كلامه: كان يقسم أيماناً معظمة وسط الدموع بأنه لن يتركه مرة أخرى، ويتحدث عن مخططات لا يمكن أن تترابط برابط. والعلة أنه لا يصمت أبداً.

بالنظر إلى ما قاله، فهو ينوي تأسيس شراكة عمل معه بالنقود التي جلبها. وبعد أن عانق أخاه الذي يحمل حقائبه، وألصق على خديه قبلات مثل محجمة، حرك ذراعيه يميناً ويساراً في الهواء مثل بهلوان غر يحاول أن يحافظ على توازنه على الحبل، صرخ وسط المطار: "ها هما التوءمان الرائعان، غير مهم نوعية عملك، يكفي ألا ننفصل بعد الآن. إذا صعدنا، فسنصعد سوية، وإذا غرقنا، نغرق سوية!". أما جلال الغائر إلى عمق الأرض، فقد غرق منذ الآن. وقد تسمر مكانه بقلق شديد ناظراً إلى انعكاسه الذي لم يعرفه أبداً؛ وهو غريب أكثر من الغريب.

لم يكن جلال من النوع الذي يدخل مجاهيل كهذه مغمض العينين، ولكنه لم يقاوم كثيراً إزاء انفعال توءمه بسبب رقة قلبه. وعندما جاء دور حديث كل منهما عما يمكن له أن يعمله، اهتز الاثنان بمصادفة غير متوقعة: خلال الزمن الذي قضياه منفصلين أحدهما عن الآخر، فقد عملا في المهنة نفسها، حتى ولو كانت الأسباب والطرق مختلفة. كان جلال مصففَ شعر نسائي، أما جمال فقد قضى سنوات عمره لدى مصفف شعر لا يفصل بالعمل بين النساء والرجال. هذا الاكتشاف ضاعف انفعال جمال الفائض فوراً. صرخ مباهياً: "مصففا الشعر التوءمين." بعد ذلك، ردد بانفعال أكبر، وكأنه يقول أمراً آخر: "مصففا الشعر التوءمين!" ومن ير الامتنان على وجهه، يعتقد أن قائمة مطالبه الطويلة التي كتبها، وأرسلها لله قد تحققت فوراً بموادها كلها مادةً مادة. لم يدخل الشقيق البارد الدم في قضية البحث بإيجابيات فتح دكان مصفف شعر وسلبياته، بل شمر عن ذراعيه بهمة عالية، وحتى إنه بدأ البحث عن دكان. ثمة احتمال ضعيف لأن يخطو جمال خطواته بانتباه اليوم، وهذا أكثر من مستحيل، لأنه عندما يجد فكرة تعجبه يطيش اندفاعاً، ويتحرق للقيام بما يجب أن يقوم به في أسرع وقت ممكن، ولا يعرف أي مدينة غامضة هي اسطنبول، كما لم يكن يشعر بضرورة لمعرفة هذا في تلك الأيام. وقبل مرور أسبوع كان قد استأجر المحل اللازم لفتح صالون تصفيف شعر، وحتى إنه دفع أجرة سنة مقدماً. وكان هذا المكان شقة في بناء مخالف منشأ على أرض

مـرتفعة قلـيلاً، عـندما يُـنظر إلـيه مـن الأمام فهو في الطابق الثاني، أما عندما يُـنظر إلـيه مـن الخلف فهو في الطابق الأرضي، يطل على البوسفور. فور رؤية جـلال المحـل حـاول مـن دون جـدوى أن يشـرح لـتوءمه أن الإطلالـة، وهـي السـبب الأسـاسي الذي جعله يستأجره، لا تحمل أي أهمية بالنسبة إلى زبائنه مـن النسـاء. انـتقلا إلـيه، وكشـا ذبابـاً عـلى مـدى أشهر. فجأة بدأت تهطل الأمطـار الغزيـرة، وداهمـت المياه المحـل أربـع مـرات، ومجموعـة مخلوقات اعـتقدا مـن آثارهـا الباقـية خلفهـا أنها قطط شـاردة ذات مرة. في نهاية الشهر الخامس، جمعا ما أنقذاه من أغراض نافدة من الماء والوبر، والنقود المتبقية من اسـتثمار جمـال المسـتعجل، وقـررا أن يبدأا مرة أخرى. سيختار جلال المحل هـذه المـرة. وهـذا أيضـاً بعـد بحـث طويـل، وموازنـة الخيارات ضمن الشروط الموجودة كلها بدقة، قرر أن الشقة المعدة للإيجار في طابق أرضي له حديقة من بـناء رمـادي اللون واقع على زقاق معبر أقدام مفتوح على شـارع كثير الحركة، قديـم جـداً، وغـير معتـنى به، ولكنه من الواضح أنه كان فخماً جداً في زمانه هي المكان الأنسب بالنسبة إليهما.

في الـيوم الأول لعملهما هنا، قال جمال: "ما أغرب هذا، أليس كذلك؟ أنا واحـد ثـرثار، ولكـنني ذهبـت إلى حـي قفـر، ووجـدت مكانـاً فـيه. أمـا أنت فصـامت، ولكـنك اخـترت مكاناً صاخباً. هذا يعني أننا لسنا متعاكسين أحدنا مع الآخر فقط، بل كل منا متعاكس مع نفسه!"

مـع أن هـذا التضـاد لم يظهـر كـاملاً في الصـورة الملـتقطة في مسـابقة مصففي الشـعر التقلـيدية التاسعة عشرة لمنطقة بحر مرمرة، والتي شاركا فيها قبل ثلاث سـنوات، ثـم كبرت نتيجة إلحاح جمال بقياس 50 × 60، وأطرت، وعلقت في صـدر المدخـل تماماً. في الحقيقة أن جمالاً كان يرتدي قميصاً من دون أزرار عليه رسـوم بـبغاوات برتقالـية، أما جلال فقد ارتدى قميصاً بلون عسكري غير لامع، ولكـنهما في النتـيجة تسابقا بتصفيف زي الشعر نفسه، وخرجا من المسابقة قبل الوصـول إلى النهائـيات. مـع أن ذلـك الـزي كان الأحب لهما: خصلة شعر عند الرقـبة معقوصة على شكل كتلة رخوة ذات جدلة غليظة وبحمرة النحاس. الشبه

بينهما في الصورتين الملتقطتين أثناء عمل كل منهما تصفيفة الشعر ذاتها في زمانين مختلفين تماماً، ومع عارضتين مختلفتين أيضاً مدهش. كانت الزبونات تدخن إعجاباً بالنظر إلى تينك الصورتين مطولاً، وإيجاد الفوارق بينهما واحداً تلو الآخر. ويتكرر كل شيء عند مصففي الشعر النسائيين، كما يكرر نفسه كل شخص باستمرار. الزمن الذي يطارده ذيله منهمكاً في الخارج يتثاقل فور دخوله من الباب، ويبطئ، ويطول كلما شددناه مثل علكة قذرة ملتصقة بأرض قدمنا في حر الصيف، ويطول كلما شددناه، كلما شددناه... الجانب الأجمل فيما يكرر نفسه هو المعارف، يشعر الإنسان وسطهم أنه في مكان مألوف، وبطمأنينة كأنه وسط أصدقاء لأربعين سنة. يُدين التثاقل في محلات مصففي الشعر الذي لا يكون من نصيب أي مكان عمل آخر بسهولة للدوران المستمر للمسنن ذاته. وكما أن كل ما تقوم به الزبونات عندما يكن في هذا المكان يمكن أن يكن قد عملنه من قبل مرات عديدة، يمكن لهن أن يعملنه إلى ما لانهاية. "كتالوكات" مصففي الشعر كلها متشابهة، ولكن ليكن، يُدقق بها صفحة تلو أخرى من جديد. مجلات النساء المتجولة من يد إلى يد لا تقرأ إلى النهاية أبداً، وتقلب صفحاتها بشكل عشوائي. ولا مانع من العودة إلى الأجزاء نفسها مرات ومرات. ترمق النساء الواقفات أمام المرآة إحداهن الأخرى بطرف عينها دائماً. ليس ثمة تغيير كبير لدى النساء المنظور إليهن بين نظرتين، ولكن غير مهم، يعاد النظر إليهن مرة تلو مرة. لا تقرأ الجرائد صفحة صفحة، تمشط من البداية إلى النهاية، ومن النهاية إلى البداية، وتمشط. وتحكى الأمور نفسها بعد أن يوقف في مكان ما، وتبث "الكليبات" نفسها من التلفزيون، وتشاهد بشكل متقطع. ويُلف ويدار، ويلف ويدار، وتُقدم الرؤى نفسها حول المغنين والأغاني... ليس ثمة ضرورة للقيام بشيء من البداية إلى النهاية، وبشكل كامل. مهما يكن فإن العيش سلسلة تكرر نفسها، ولا أول لها أو آخر. سيستمر المعتاد. إذا كان للدنيا نهاية، و للقيامة مجيء، وكنتم في محل تصفيف الشعر فإن إسرافيل لن ينفخ في الصور. يمكنكم أن تتوقعوا زلزالاً في كل لحظة في اسطنبول، ولكن هذا ليس عندما تكونون في محل تصفيف الشعر. ليس هناك.

وتقوم الزبونات بتحديد الفروق بين الصورتين المعلقتين على الجدار باستمرار. كما أن أعين النساء تميل لرصد الفروق أكثر من التشابه في أكثر الأحيان. اعرضوا صورة خمس عارضات أزياء مصطفات إحداهن بجانب الأخرى، وشعرهن ذيل حصان، مرتديات مايوهات سباحة زرقاء عند طرف بركة سباحة على رجل مدة ثلاث ثوان. من المحتمل أن تكون الصورة التي رآها هي: "عارضة شابة جميلة ذات مايو سباحة أزرق وربطة شعر ذيل حصان واقفة بجانب بركة سباحة" × "5". اعرضوا الصورة نفسها لمدة ثلاثة ثوان على امرأة هذه المرة. من المحتمل أن تكون الصورة التي رأتها على النحو التالي: خمس عارضات أزياء بجانب بركة سباحة منهن المنتصبة، ومنهن المنحنية، وربطة شعر ذيل الحصان تليق لمنهن، ولم تلق لأخرى، والمايوهات الزرقاء أظهرت سيقان بعضهن نحيفة، وأخريات سمينة، منهن الجميلة، ومنهن الأكثر جمالاً.

ولكن عندما يكون الموضوع هو صورة جمال وجلال الملتقطة في مسابقة مصففي الشعر التقليدية التاسعة عشرة لمنطقة مرمرة، فحتى أعين النساء تجد صعوبة بإيجاد الفروق بينهما. لو تركنا جانباً الألبسة التي ارتداها كل منهما، والحلي الفضية التي لبسها جمال، فقد كان كل شيء متطابقاً بما في ذلك تعبير الوجه: من انحناءة رأسيهما جانباً بالشكل نفسه إلى زاوية انحناء كل منهما نحو عارضة الأزياء التي يصفف شعرها، ومن تقطيب كل منهما حاجبيه، وتجعيد جبينه لإبداء كم هو جدي بالعمل الذي يقوم به إلى انحناءات أصابع كل منهما... رغم هذا ثمة فرق لن يغيب عن الأعين: كان جمال يعض على شفته السفلى بشكل خفيف، ولعل هذا بسبب معرفته أنه ليس مصفف شعر جيد بقدر شقيقه أو لعدم حبه تصفيفة الشعر بحمرة النحاس والجدلة الغليظة بقدر شقيقه أو لأن عقله وفكره في تلك اللحظة كانا محصورين بإنهاء عمله بأسرع وقت ممكن، وإيجاد ما يأكله. كيف يحدث أن يكون جسم جمال المتعلق ببطنه كثيراً منذ أتى إلى تركيا، ويبتلع كل أنواع مأكولات العجين بنهم مثل جسم جلال الذي لا يفهم من الطعام عندما يذكر سوى

الحسـاء، و لا يكـاد يـأكل إلا بقدر طائر، وبل متطابقان تقريباً، فهذه أحجية لا تعتقد حتى المداومات على صالون تصفيف الشعر أنهن يستطعن حلها.

ولكن عندما يأتي الأمر إلى كيفية قيام كل منهما بعمله، تنتهي التشابهات بـين الـتوءمين، وتـبرز الفـروق. لهـذا السـبب فإن زبونات جمال غير زبونات جـلال. مثلاً حتى اللواتي يدخن إعجاباً بالثرثرة مع جمال دائماً، لا يردن أن يصـفف شـعرهن إلا جـلال في أزمـنة معيـنة. وعـندما يكـون الأمـر أمر مناسبة خاصـة مـثل خطوبـة وعـرس ومـباركة، وموعد غير عادي بشكل خاص، فإن خـيار الـزبونات كلهن له. إضافة إلى الأحداث المهمة، كان جلال العنوان غير المخيـب لـلحالات المستعجلة. اللواتي يحاولن قص شعرهن بأنفسهن في البيت فيجعلـنه مـتعرجاً، واللواتـي يحـاولن لفه بلفافات شعر رخيصة فيجعلنه أسوأ ممـا لـو أن صـاعقة ضـربته، واللواتـي لففنه ولففنه حتى جعلنه كعش الطير، والمجففـات له بأدوية سمعنها من نساء عجائز فقصفنه، والمحاولات فتح لونه بالأوكسـجين فغـدا مـثل شـعر عرانيس الذرة الصفراء، واللواتي صبغنه صباحاً ولم يعجـبهن لونـه مساء، والذاهبات ضحية محاولات مصففي الشعر المبتدئين الارتجالـية، والمختارات قصة غريبة والنادمات ألف مرة في اليوم التالي يسلمن رؤوسهن وهن متحرقات متلويات ليدي جلال. يتدخل فوراً وهو الذي لا يشبه مـزاجه مـزاج أخـيه ولـو بمقـدار ذرة، ويبرد قلوب جميع زبوناته الواقعات في مـأزق. صـمته المتعقل، واحترامه لعمله، ومهارته المعترف بها، تجعل الجميع يـتفقن عـلى عـدم وجـود شـعر لا يسـتطيع إنقـاذه، وعدم وجود زي لا يمكنه تحويله مهما كان في وضع سيئ.

لم تُحـدث قضـية مـن سيصـفف شـعر من، ومتى سيصففه أي خلاف بين الشـقيقين في أي وقـت. وكما في كثير من المواضيع، في هذا الموضوع أيضاً، ثمة اتفـاق ضـمني بينهما، ولا أحد منهما يغضب من الآخر طالما أن توزيع الأدوار بيـنهما لا يخـرقه أحـد منهما. غالباً يُفهم ما تريده المرأة فوراً خلال الدقيقتين التاليـتين لولوجها الباب، وتستقبل على هذا الأساس. إذا ولجت زبونة وعلى وجههـا تعـبير الـيأس قارعـة أجـراس الباب بعنف وهي تفتحه، يترك جلال

عملـه، ويستقبلها بخطوات بطيئة، وفي ذات الوقت تكون عينه على شعر القادمة محاولاً تحديد حجم المشكلة التي تنتظره. إذا كانت المشكلة عادية، ليست من النوع الذي يفرض ارتباكاً، فتقع عملية الاستقبال على عاتق جمال. وهذا يقطع الحديث الذي من المحتمل أنه يتحدث به في تلك الأثناء، ويستقبل الزبونة منحنياً ومتلوياً بعيار ظرافة لم يتمكن من ضبطه بأي شكل، وإذا كانت المستقبلة من المعارف، فلا يهمل إطلاق عدة عبارات توحي بالزعل لأنها أطالت الفترة الفاصلة بين آخر مجيء لها، وهذه الزيارة. إذا كان الأمر بيد جمال، فإن كل امرأة يجب أن تقضي ساعة على الأقل عند مصفف الشعر كل يوم.

ثمة شخصية لم تدع غير جلال يصفف شعرها ولو مرة واحدة من البداية حتى الآن رغم أنها يمكن أن تعتبر من مداومي صالون تصفيف الشعر. الشخصية التي شعرت بالطمأنينة من الصمت النادر المخيم على المكان بما لا يقل عنه هي: "المدام الخالة". هذه المرأة العجوز الضئيلة الحجم الساكنة وحدها في الشقة رقم عشرة في الطابق الأعلى من بناء "قصر بنبون" تأتي كل خمسة عشر يوماً من دون انقطاع، وتقص رؤوس شعرها الخفيف والضعيف، وتمشطه بشكل منتظم، وتصبغه مرة كل شهر بلون صفرة البلاتين. صار هذا الموضوع هماً، ومادة لحديث مستدام للمداومات على صالون تصفيف الشعر. وهي عجوز أكثر من اللازم لاستخدام لون صفرة البلاتين. كانت في الثامنة والسبعين من عمرها. إنه عمر غير مناسب لتبدو شقراء. بفرض أن هذا الأمر قد حدث، ولكن لو أنها ليست جدية ومهيبة إلى هذا الحد. إنها نموذج للوقار. لو أنها عجوز طريفة قليلاً، أو لها تعليقات ظريفة على الأقل، ولم تصل إلى حالة المحاسبة مع الله لأنها لم تستطع بأي شكل مطابقة حسابها مع الدنيا، تُقرأ من عينيها آثار بريق الحياة البوهيمية التي عاشتها في زمن ما، غير معترفة بالعيب والممنوع، ولا بأحد أيضاً، مرحة، ثرثارة، سعيدة مثلاً، بدل أن تكون على هذا النحو. حينئذ سيكون هذا الشعر لائقاً بها. ولكنها بعيدة عن التراخي مثل الجدات الصائمات الداعيات، ثم إنها ملتزمة بانضباط

مرسوم بالمسطرة، وثقيل مثل سبيكة، وفوق هذا صفرة البلاتين! كانت هذه المرأة أكثر من أن تُتحمل بالنسبة لمداومي صالون تصفيف الشعر.

كانت لا تحتمل لأن القواعد في عالم الألوان والأصبغة المرمّز حازمة. الجميع يعرفون هذا. الشعر المصبوغ بالأصفر لا يتناسب مع الاحترام. لا يمكن إلا لامرأة شقراء أن تخرق هذه القاعدة: إذا كانت شقراء حقيقية! التمايز أمر خاص بالشقراوات فقط. يمكن للحمراوات والسمراوات والحنطيات والبيضاوات أن يصبغن شعرهن بقدر ما يشأن، وبألوان مختلفة بقدر ما يشأن، ولكنهن لا يقابلن سؤال ما إن كان هذا اللون حقيقياً أم لا خمسين مرة في اليوم أبداً. الهوس بالشقرة يجعل النساء مضطرات للكذب، وميالات للمكر. مع أن ألاعيبهن سرعان ما تظهر. لندع محاولة إقناع الذين أمامهن جانباً، فإن الحقيقة تبتسم ساخرة من جذور الشعر بمكر. الشقرة تجعل المهووسة بها محتالة، والحقيقية غير اجتماعية.

ولكن لون شعر "المدام الخالة" أو زينة وجهها في هذا العمر لا تقلل من الاحترام الذي تثيره لدى المحيطين بها. تعقلها المضاعف، وصمتها المحترم أوضح منذ اليوم الأول أنها ستكون زبونة جلال، وستبقى هكذا حتى النهاية. وبالنظر إلى بريق أعينهما عندما يرى أحدهما الآخر، فهما متفقان بمنتهى الجودة، ورغم أن أحدهما نادراً ما يفتح فمه، وينطق بعدة كلمات، فمن الصعب معرفة كيف انسجما فيما بينهما. لو أن الأمر أمرهما فإن الكلمات يجب أن توزع على الناس بموجب بطاقة تقنين شهرية. يجب أن يعرف كل شخص أن الكلمات الخارجة من فمه تخرج من مصدر شحيح كالماء الذي نشربه، والتراب الذي نحرثه، وكلما تحدثنا نستهلك من حصتنا المحدودة.

ولكن صمت التوازن المتقابل للثنائي لم يستمر أكثر من أربع دقائق بعد ظهر هذا اليوم مع الأسف. دُفِعَ الباب فجأة بقوة، واهتزت الأجراس. ومع صوت بائع البطيخ الآلي الصادر عن مكبر الصوت الشبيه بنثر الأوامر يميناً ويساراً، ولجت امرأة شابة إلى الداخل بخطوات سريعة، ولكنها غير مرتبكة. النساء الثلاث المرتخيات، الجالسات على المقاعد الدوارة أمام الجدار المركب

عليه مرايا من أوله إلى آخره، المربوط على رقابهن أغطية نايلونية لها رسم جلد النمر، وكلهن من زبائن جمال، أدرن رؤوسهن التي عليها لفافات الشعر، وحبساته، وأغطيته النايلونية، ولفاته المصنوعة من الألمنيوم، ورمقن المنضمة إليهن حديثاً من فرقها إلى قدميها. وفور إدراكهن من تكون، رمقنها من جديد من قدميها إلى فرقها بفضول أكبر. كانت تلك لحظة هامة. لأن "الخليلة الزرقاء" لم تخط إلى محل مصفف الشعر حتى الآن مرة.

ألقى جلال بطرف عينه نظرة نحو الباب، وعاد إلى عمله. لم يكن عنده نية للانشغال بأمر غير أمر صفرة بلاتين صديقته العجوز، ثم إن هذه زبونة جديدة، ولا تقف بشكل يوحي بأنها زبونة أحد منهما. ولكن جمالاً لم يكن مبالياً بقدر توءمه، ولا جاهلاً بقدره. فهو على العكس منه حصل على معلومات مكثفة وكثيرة حول "الخليلة الزرقاء" من إصغائه للنميمة الدائرة في صالون تصفيف الشعر من الصباح حتى المساء وصيفاً شتاء. مثلاً كان يعرف أن عمرها لا يتجاوز الثانية والعشرين. وكذلك سمع أنها هاجمت شاباً حاول التحرش بها عند أول الزقاق، وعندما تمادى الشاب المذكور في الأمر، فتحت كيس الزبالة الذي كانت تحمله حينئذ لترميه في حاوية الزبالة، وسكبت ما فيه على رأس المتحرش بها. كما يعرف أنها تشاجرت مع الحاج مدير البناء عندما قسم مبلغ إيصال الماء الذي يأتي مشتركاً للبناء كله على عدد الأشخاص، وحسب ما يقع على كل شقة، وحسب شقتها شخصين وليس شخصاً واحداً. ورغم أنها استأجرت الشقة رقم ثمانية وحدها، وقالت إنها تسكن وحدها، فهي بالطبع تعيش فيها باعتبارها خليلة تاجر زيت زيتون بعمر والدها، ولا يخرج من بيتها أربعة أيام على الأقل في الأسبوع، كما أنها دائمة العبوس. يعرف كل هذا، وفي الحقيقة يتوق جداً لمعرفة المزيد.

ناول فرشاة صباغ الشعر للأجير المحبحب الوجه، وأثناء توجهه نحو الباب مبتسماً ابتسامة ساذجة التقط صورة طولية فورية لهذه الزبونة غير المتوقعة. ليس لديها ذلك القد المتميز. وإذا لم يكن جسمها كالأجاصة، فهو يشبهها قليلاً. كانت ترتدي ثوباً طويلاً، مهفهفاً له شيالان على الكتفين. إنه

محتشم أكثر من اللازم بالنسبة لخليلة. ولكن ساقيها ظهرتا كاملتين من خلاله تحت أشعة الشمس المتسللة من الباب الزجاجي بسبب عدم ارتدائها بطانة تحته. كأنها تريد أن تعرض جسدها، وتستره في آن واحد. ولعلها مضطربة العقل فقط. ووجهها... كان وجهها هو الغريب. وجوه بعض الناس تشبه مغناطيساً لُبس بشرة. كأن نتوءات شخصية الإنسان وبروزاته ونزلاته وطلعاته واختزالاته وجوهره تجتمع هناك. وهؤلاء يفكرون بوجوههم، ويتحدثون بها، ويمشون، ويناقشون، ويتألمون، ويفرحون، ويحبون أو يمارسون الحب كذلك. أجسادهم عبارة عن قاعدة موضوعة لحمل وجوههم، وهي ضرورية، ولكنها زائدة بالقدر ذاته. هؤلاء في الحقيقة وجوه ماشية. لهذا السبب لا يستطيعون إخفاء مشاعرهم في أي وقت. ينعكس شعورهم، مهما كان، وفي تلك اللحظة تماماً، على وجوههم. وجه "الخليلة الزرقاء" الشاحب المزين بخزام صغير أزرق يصرخ بأعلى صوت إنه يريد إخفاء ضيقه الشديد في تلك اللحظة. خطا جمال خطوة أخرى نحو "الخليلة الزرقاء"، وصافحها من دون أن تكون هذه الحركة من عاداته، ومستبيحاً قواعد استقبال مصففي الشعر النسائيين. وهو مثل كثير من مزدوجي الجنس السريين لا يجد صعوبة أساساً بفتح حديث مع الجنس اللطيف، ولكنهم يستهينون بهم سراً، ويشعرون باهتمام خاص نحو النساء المنبوذات بمزيج شبه الكره، وشبه الغيرة.

تقدمت "الخليلة الزرقاء" نحو الكرسي الدوار الذي أشار إليه جمال بخطوات خجولة ومتضايقة وسريعة محاولة التملص من نظرات الفضول الحادة السريعة والسيئة المتوجهة إليها من مختلف أمكنة صالون تصفيف الشعر. عندما جلست مكانها مع بقية النساء أمام المرآة الطويلة والعريضة تكاثرت النظرات متضاعفة ومنعكسة. حملقت كل من الشقراء الحوراء العين التي تأتي مرة في الأسبوع لصباغ منابت شعرها، ولم تقتنع بعدم ضرورة القيام بهذا العمل بهذه الكثافة، والحنطية العصبية التي تطفئ سيجارتها وتشعل أخرى منتظرة جفاف مثبت شعرها المصفف، والهازة قدمها المطلية الأظافر المدسوس بين أصابعها قطن؛ والحمراء السمينة القصيرة الجالسة وفوق عينيها

خطان كلما جفا يغدوان برتقاليين لأنها صبغت حاجبيها مع شعرها، والمرأة العجوز الضئيلة عند أقصى الطرف وكأنهن ينتظرن أن يُقدمن إليها للتعارف.

ربط الأجير المحبحب الوجه على رقبة "الخليلة الزرقاء" نايلوناً مرسوماً عليه جلد نمر مليئ ببقع صباغ محاولاً عدم لمسها بقدر ما يستطيع، وابتعد من هناك بسرعة. من سوء حظ الأجير الذي لم تبق سخرية جنسية لم يسمعها بسبب حبٍّ وجهه، وغدا وجهه عدواً له، ويرتعب من صراخ واحمرار ما ارتكبته يداه ليلاً من محرمات معلناً هذا لكل من يأتي أمامه، أن يضطر للعمل في محل تصفيف شعر نسائي في هذه المرحلة الحرجة من عمره. أثناء ذهاب الولد خلفاً بخطوات مرتجفة لم يتمكن من الانتباه لدخول قط بهدوء من النافذة المفتوحة. وإزاء الصوت الحاد الذي أصدره القط عندما ديس على ذيله، تحول انتباه النساء جميعهن إلى تلك الجهة.

كان قطاً طويلَ الوبر، خبيثَ تعبير الوجه، وضخمَ البنية، وقطراني السواد. إنه من تلك القطط التي تغمض عينيها قليلاً ناظرة إلى الإنسان وكأن بينها وبينه صراع أزلي دموي، وكمن ينظر إلى براز. مع هذا فلأن خصلة الشعر البيضاء المدورة الممتدة من جانب أنفه نزولاً إلى أسفل ذقنه تظهر وجهه كأنه قد غُط في وعاء لبن، وأخرج، فله جانب محبب رغم كل شيء.

عندما انتبه جمال إلى أن "الخليلة الزرقاء" تحب القطط، نادى قائلاً: "تعال يا مزبلة! تعال يا بلية على رأسنا!"

سألت "الخليلة الزرقاء" قائلة: "لماذا تقول لهذا القط مزبلة؟" بعد ذلك انتبه الحيوان لمن سيأتي منه قبول، وبدأ منذ زمن بفرك قائمتيه الخلفيتين، ورفع الأماميتين في الهواء فوراً. وبنبرة دلع كتلك التي تستخدم مع الأطفال الصغار، وجهت المرأة السؤال نفسه للقط: "لماذا ينادونك مزبلة؟ لماذا يا جميلي؟ أينادى قط جميل كهذا يا مزبلة؟"

قال جمال فرحاً: "لا يخرج السيد الأفندي أنفه من المزبلة". بدا "المزبلة" محبباً أكثر من أي وقت مضى من أجل كسب رضا "الخليلة الزرقاء". "لا يوجد في اسطنبول كلها، وكبرها قط محظوظ إلى هذا الحد على كل حال. ليس

لـه ذلـك الجمـال العظـيم، انظـروا إلى هذا الوجه كرما لله. هل رأيتم قطاً آخر يـنظر بقذارة إلى هذه الدرجة؟ كان سيغدو أفعى، ولكنه لم يجد جلداً يناسبه، فجـاء مضـطراً إلى هذه الدنيا قطاً. ولكنه رغم هذا، يفعل ما يفعله ليجد طريقة يحبـب بهـا بنفسـه. هل فيه شعرة من الشيطان أم ماذا؟ لابد له أن ينهش ما يمكـن أكلـه مـن أي شـخص يذهـب إلى عنده. ولكنه لا يشبع، لا يشبع أبداً. يملأ بطنه، ويملؤه، ولكنه يلتقط أنفاسه بعد ذلك في المزبلة. المزبلة التي تحت الجـدار هـي مملكـته أساساً. والله، بالله لا أصدق هذا لو لم أره بعيني. كنا قد اسـتأجرنا هـذا الصالون حديثاً. ما إن أتممنا دهانه، ونقوم بآخر التحضيرات، وأنهكـنا تعـباً مـن العمل طوال اليوم، حتى جعنا كالذئاب. ماذا نفعل، وماذا نحضـر؟ قلـنا من الأفضل أن نوصي على فروج من عند بائع الفراريج المجاور. تعـرفون كـيف يعـد الوجبات كبيرة؟ ويشكل الفروج مع الأرز المطبوخ والسلطة والـبطاطا المقلـية تـلاً. المهـم، علـينا ألا نطـيل الحديـث. حـدث شيء ما، أو لخـبطة، فأرسـلوا فـروجاً زيـادة. ونحـن لم نعـده. نحـن جائعون ياه، زاغت عيونـنا، واعـتقدنا أننا يمكن أن نأكله. طبعاً لم نستطع أكله. كل منا أنهى ما أمامـه بصـعوبة. خاصـة جمـال، فقـد نقـر بقدر ما ينقر طائر مرة أخرى. أثناء تناولـنا الطعـام، شـم قطـك هـذا الـرائحة، فـأتى. لم أكـن أعرف حينئذ أنهم يـنادونه مزبلة. جاء هذا إلى أمامنا، وبدأ يلعق نفسه. تظنين أن المسكين جائع مـنذ أيـام. أشـفقنا علـيه، وأمسـكنا الفروج، ووضعناه أمامه. ليمسخني الله إن كنـت أكـذب، دس رأسـه، وبدأ يلهط مخرجاً صوت شخير من انهماكه، كأن كـلاب الدبـرمان تلاحقـه. لم يترك حتى عظماً خلفه. أمام أعيننا كنس صحناً سليـئاً مـن الدجاج، ومسحه. في تلك الأثناء كان يسكن "رسول القطط" في الرقم اثـنين. وهـو أيضـاً مجـنون من نوع آخر! قولي عنده عشرين، وأنا أقول عنده ثلاثـين قطـاً. كانـت تفـوح من كل مكان رائحة بول قطط نفوذ. مهما يكن فقد كانـت تلـك الـرائحة أفضـل مـن رائحـة هذه الزبالة اليوم ياه. كنا نكلمه قبل مجيـئكم إلى هنا. كنت أقول لجلال إننا لطول عيشنا وسط زبالة كهذه سننبش الأرض مثل الديوك. أليس كذلك يا جلال؟"

اكتفى جلال بالموافقة بهز الرأس.

"بعد كل ذلك الطعام، انخرط هذا المزبلة بالتهام أكل القطط عند صاحب الشقة رقم اثنين. ولكنه عاد حزيناً إلينا بعد أن ضربته عشيرة رسول القطط علقة قوية. جاء، ومسح ما بقي عندنا. ولعق بقايا جلال أيضاً، وابتلعها. وضعنا أمامه البطاطا المقلية، لم تعجبه كثيراً، ولكنه التهمها. تركنا عملنا كلنا، وتفرجنا على الحيوان مندهشين، وراهنّا على زمن انفجاره."

لم تستمع لهذه القصة النساء المصفوفات أمام المرآة فقط، بل استمع إليها الأجراء وفتاة طلاء الأظافر أربعين مرة على الأقل، ولكنهم رغم هذا، استمعوا لجمال بانتباه شديد. يمكن ألا يكون مصفف شعر جيداً بقدر أخيه الأكبر، ولكن أحداً لا يستطيع أن يصب الماء على يديه في قضية الحديث. يمتلك مهارة مدهشة في موضوع اللغة. إذا أُخذ من هنا، ووضع في بلد لا يُستطاع إيجاده على الخريطة الآن، سيتعلم لغة ذلك المكان كرج الماء، وبسرعة قصوى، ليفهم ما يقوله الذين من حوله، ويلحق لهم الرد. كذلك الأمر، استطاع خلال خمس سنوات أن يصلح لغته التركية التي تساقط وبرها لطول عيشه في أستراليا من فرقها إلى قدمها، ونجح بتلميعها لتغدو براقة. مشكلته الوحيدة هي لكنته التي تسقطه بأيدي الآخرين. ولكن جلالاً غير متأكد تماماً مما إذا كان أخوه الأصغر منه بثلاث دقائق ونصف يستمر بالتكلم بهذه اللكنة لعدم تمكنه من إصلاحها بأي شكل، أم لاعتقاده بأن حديثه بهذا الشكل يعجب الزبائن أكثر.

"التهم، والتهم، ثم نهض في النهاية، وبدأ يتمطى. لم يكن يستطيع المشي. صار الحيوان بطناً صافياً! لم يعد يستطيع خطو خطوة من ثقله، فذهب وهو يجر بطنه جراً. وتفرجنا نحن عليه وهو ذاهب. خرج هذا إلى الخارج، فألقى بنفسه على جدار تلك الحديقة المجاورة. ولكن أي قفزة؟ صار ثقيلاً إلى حد أنه لم يبق إلا القليل لكي يسقط. اعتقدنا أنه سيتكور، وينام ليومين من دون أن يصحو. ولكن أين هذا منه؟ أتعرفون ماذا فعل؟ قفز إلى الجانب الآخر من جدار الحديقة. يوجد هناك أكياس الزبالة التي يرمونها

ياه. صرنا نعيش في المزبلة مع الأسف. دس هذا رأسه هكذا، وبدأ بنبش الزبالة. نظرنا، وإذ به قد وجد عدداً من رؤوس السمك. بدأ يلتهمها وهو يشخر. لا أعرف ما أكل بعدها. شعرنا بالغثيان. كلما استمر هو بالأكل كانت تسوء حالنا. لم نستطع التحمل، فهربنا إلى الداخل. والله أنا أخاف من هذا القط منذ ذلك اليوم. سمعنا كثيراً عن قطط أكلت أصحابها عندما جاعت، ولكن هذا المزبلة يأكلنا كلنا وهو شبعان. وفوق هذا يكمر ما أكله بشكل جيد بما يجده في الزبالة!"

قالت الحمراء الممتلئة محاولة أن تحافظ على ثبات حاجبيها لأنها تخشى من تجعد جبينها وهي تضحك، ولا تستطيع البقاء من دون أن تضحك: "والله فهم أن الحديث يدور حوله."

قال جمال وهو يهمر: "ليفهم. كأن ما نقوله كذب. ما بداخله ليس معدة، بل مزبلة! اسمه مزبلة، ومعدته مزبلة!" والتفت إلى القط الذي يغم عينيه قليلاً ناظراً إليه منذ فترة، وهز آلة تجفيف الشعر التي بيده.

آلة تجفيف الشعر! القط الذي يعرف بالتجربة أن الوقوع في دلو مليء بالماء ليس مخيفاً بقدر التعرض لهواء هذا الوحش الهادر، انسل من حضن "الخليلة الزرقاء" بغمضة عين، وقفز عبر النافذة المفتوحة. تدحرج نحو الفراغ كدمية ذات وبر ملئت بالتباهي بدل الإسفنج بعد أن وقف هناك لحظة، ورمق الذين عند مصفف الشعر بنظرة غير ممتنة للمرة الأخيرة. ولكن أمراً غريباً وقع له قبل أن تلامس قائمتاه الأماميتان الأرض. ثوب طفل كحلي مخملي يهبط منذ خمس ثوان بهدوء من الطابق الأخير لبناء قصر بنبون كورقة نبات جافة أو ورقة عادية، وحوافه مكشكشة، وياقته منشاة، وعليه عشرات الرسوم الدقيقة لحورية بحر، سقط فوق القط الذي وجده في طريقه فجأة قبيل وصوله إلى الأرض. حطا معاً على الأرض.

صرخت فتاة طلاء الأظافر منفعلة: "أي، انظروا، انظروا! تمطر ألبسة من فوق" وقد كانت تبحث في الخزانة التي أمام النافذة عن طلاء خمري بدرجة 113 في تلك الأثناء.

صار جمال والحمراء الممتلئة، والشقراء الحوراء أمام النافذة في تلك اللحظة تماماً. بعد قليل نهضت الخليلة الزرقاء، وسارت بخطوات مترددة، والحنطية العصبية وهي تعرج محاولة ألا تطأ على قدمها المطلية أظافرها، وجثن إلى أمام النافذة. حقيقة كانت تمطر ثياباً من الأعلى، ثياب أطفال مختلفة الألوان والأزياء. بالنظر إلى المجموعة المؤلفة من ثمانية أو عشرة أشخاص والمجتمعة على الرصيف، فإن هنالك متفرجين غيرهم على هذا العرض. الجميع رفعوا رؤوسهم إلى الأعلى، وثبتوا أعينهم على نقطة معينة محاولين رؤية من ألقى الألبسة. ولكن مرتكب الحادث لا يظهر بأي شكل. ذراع عارية لامرأة من دون حلي ناصع البياض يظهر تارة، ويختفي أخرى بفاصل زمني معين من نافذة بناء قصر بنبون المطلة على الحديقة في الطابق الأعلى، وفي كل ظهور يترك نحو الفراغ قطعة ألبسة أخرى.

بينما كانت تمطر الألبسة قطعة تلو أخرى، دلّت نفسها فتاة طلاء الأظافر نحو الخارج، وبفرح من يحاول لمس أول ثلج يهطل في الموسم، حاولت الإمساك بأحد الألبسة. ومن بين الصدريات والأثواب والجوارب والكنزات والقمصان والسترات، لم تنجح إلا بالتقاط شريطة بصفرة الصمغ.

قالت "المدام الخالة" التي لم تخرب موقفها منذ البداية: "لا تفعلوا هذا، عيب". ارتفع صوتها الميت غير الواضح كأنه صادر عن جدار خشن، مثل حفيف ورقة ذات بروزات.

ولحظة وصول فتاة طلاء الأظافر إلى الاستمتاع بطعم الشهادة على جنون آخر بشكل خبيث اضطرت لأن تخمد بإحساس التعاسة العميقة لتكون صاحبة قيم. وبوجه عابس جداً ألقت الشريط فوق كوم الألبسة الذي في الحديقة. لم يستمر طويلاً. بعد دقيقة أو دقيقتين توقف هطول الملابس تلقائياً. قدمت الختام صدرية مدرسية من قماش أزرق. فتحت كمظلة خجولة، ونزلت من دون صوت أو ضجيج فوق أسلافها. أغلقت نافذة الطابق العلوي بصخب، وهربت الذراع البيضاء نحو الداخل. وبينما كان المتفرجون على الرصيف يتفرقون فرادى ومثنى، عاد الذين في الداخل إلى أماكنهم.

قـال جمـال للأجـير المحبحـب الوجـه: "يـا ابني، اعمل لنا جميعاً قهوة. انتفضت أعصابنا والله" وأرخى نفسه على الأريكة الثلاثية الموضوعة جانباً. شعر فجـأة أنـه تعب. "سئمنا ومللنا والله. لم يبق ما لم يهطل على رأسنا منذ مجيئنا إلى هنا. لم تترك المرأة المخبولة شيئاً سليماً في البيت، كلما جاءتها نوبة عصب، تفـتح الـنوافذ، وطـاخ، تـرمي كـل مـا يوجـد. سـيأتي يوم ترفع التلفزيون أو ما شابه، وتلقيه، وسنذهب من دون ثمن إذا أتى فوق رأس أحد."

شـرد لحظـة. شـعر بالضـيق فجأة. ولكنه استجمع نفسه فوراً، ومنذ عهده بالحياة يخاف من الهم الذي يحل به من دون سبب.

"كـم هي مبدعة أيضاً! إذا ألقت شيئاً، فلا تلقيه مرة أخرى. هل تتذكر يا جـلال، فقد رمت ربطات عنق زوجها في إحدى المرات، وبقيت ربطات العنق معلقة على الوردة الحريرية لأيام"

لم يلتفـت إلى أخـيه لأنـه لم يـتوقع أن يتلقى جواباً منه، بل إلى الزبائن، واسـتمر بالحديـث: "خرج جلال، وأنزل ربطات العنق. لم يخرج ولداً خشية أن يكسـر الـوردة الحريـرية. تسـلق بنفسـه. لولاه لبقيت تتأرجح ربطات عنق ذلك المخبول أياماً".

ابتسـم جـلال بضـيق، وتمـتم قائلاً: "لو يخرج أحد، ليجمع الثياب على الأقـل. الجـو يظلم، والله يسرقونها" محاولاً تخليص نفسه من أن يكون محور الموضوع.

قالـت فـتاة طـلاء الأظافـر: "تجمعهـا، تجمعهـا. نزلـت الخادمـة المياومة الجديـدة إلى الأسـفل، وهـي تجمعهـا كلها. يا للأسف، صارت المرأة المسكينة حمراء قانية من خجلها، كأنها هي التي ألقتها".

تمتمـت الحنطية العصبية نافثة دخان سيجارتها: "لن تستمر طويلاً. وهذه أيضـاً سـتترك هـذا العمـل قريـباً" وانحنـت نحـو المـرآة في الوقت نفسه لتدقق بخصـلات الشـعر الملفوفـة بعـد فـك الأجير المحبحب الوجه اللفافات الرفيعة واحدة تلو أخرى.

قال جمال: "أوووه، وهل تتحمل خادمةٌ مياومة تيجين؟ القادمة تهرب"

قالت الشقراء الحوراء مقهقهة: "هيجين تيجين! هيجين تيجين! لم تخط المرأة خطوة خارج بيتها منذ أربعة أشهر. هل تستطيعون تخيل هذا؟ لم تعد تخرج إلى الزقاق قائلة أخشى أن أتلوث بالمكروبات. طيرت ما تبقى من عقلها في هذه الأيام".

قالت فتاة طلاء الأظافر صارخة: "لا يا روحي، أي أيام هذه كرما لله؟ يحكي الذين يعرفونها، بأنها طيرته منذ عهدها بالحياة. السيدة الخالة تعرفهم عندما جاؤوا إلى هذا البناء. أليس كذلك يا مدام خالة؟" وهي أيضاً مثل كثير من بنات جيلها تشعر بضرورة رفع صوتها عندما تتحدث مع امرأة عجوز لزم هذا أم لم يلزم.

التفتت الرؤوس كلها نحو المرأة العجوز. وفي الحقيقة أن أحداً لا يعرف سبب مناداتها بالمدام الخالة. ولم يفكر أحد حتى الآن إن كانت غير مسلمة أم لا. ولكن عندما يسأل عنها أحد من المحتمل أن يقال إنها تركية ومسلمة. ولكن مناداتهم لها "مدام" غير نابع من شبهة بدين المرأة العجوز أو قوميتها، بل نابع من شعور داخلي باختلافها، ولا يستطيعون تفسير هذا بدقة. ليس عمرها أو تصرفاتها فقط ما يجعلها مختلفة عن الآخرين، بل كأن حالة من الأجنبية أو الغربة في أعماقها الداخلية الأعمق، وفي جوهرها. خميرتها مختلفة لهذا السبب هي "مدام". من جهة أخرى فهي هنا منذ سنوات طويلة، وضربت جذوراً في هذا المكان أكثر من أي شخص آخر. هي الوحيدة بينهم من مواليد اسطنبول، ونشأتها. ورغم أن غالبية الجيران نهضوا، وأتوا مهاجرين من أمكنة معينة إلى اسطنبول، فقد قضت عمرها في هذا الحي. وهي ليست كالآخرين انتهت هنا فجأة، أو أشاحت بوجهها عن مستقبل لن يأتي، أو أدارت ظهرها لماض لم يمض بأي شكل، وكما أنها لم تتجرجر وراء أحد، ولم تجرجر أحداً خلفها، واكتسب اسم "مدام" شخصيته من دون زيادة أو نقص خلال التقدم في الأعوام. وهي باقية من ماض لم يعشه أحد، أو أن وجودها يمتد إلى ذلك الماضي، لهذا السبب فاسمها "خالة".

أطرقـت المـدام الخالة رأسها مبتسمة ابتسامة غير مماشية لعمرها. نظرت إلى يديهـا المغطـاتين ببقع بنية اللون، وعروق زرقاء وبنفسجية وكحلية. البقع الأدق والأفـتح لونـاً منـثورة مـن صـدغيها نحـو خديها. لو أن الألوان الأكثر صراخاً في بشـرتها هـي عـبارة عـن هذه البقع، لبدت عجوزاً إلى حد أنها لن تتقدم أكثر في السـن، مثـلها مـثل كثير من بنات عمرها. ولكن أحمر الشفاه المائل إلى البرتقالي الـذي يـبدو كلصـاقة عـلى شـفتيها الدقيقـتين لكـثرة طلائـه، والأصـفر الشمسي لقرطـيها الذهبـيين عـلى شـكل ورقـة نباتـية، وحمـرة الخدين التي توضح أكثر تجاعيدها المتداخلة لتظهر على شكل طرق، ودرجات بنفسجي الظل المتجمع في بعض الأمكنة على جفنيها، وبريق عينيها الزرقاوين المائل إلى الكحلي والفضي، وصـفرة الـبلاتين المصـبوغ بهـا شـعرها بالطـبع فـتح في مـنظرها ثقوب السفاهة، ومسـارب الانفـلات. صـباغها إلى هـذا الحـد مـن دون الـنظر إلى عمرها وحالتها مـنحها حالـة عظـيمة مـن إثارة الضحك. وككل المضحكين العظماء، ثمة جانب مخيف لديهم في الوقت نفسه.

حالـتها تلـك جعلـت منها إسـفيناً حياً قطع طريق الحديث. عندما تكون موجودة يصعب تناول أشخاص معينين، ولا يبق أي طعم أو نكهة لفن المبالغة والافـتراء. ولكـن العكـس أيضـاً ممكـن الحـدوث. ثقـل المـدام الخالة بالقناطير يجعـلها بالنسـبة إلى النسـاء اللواتـي في صالة تصفيف الشعر مثل المتعة المعقدة الـتي يمكـن تذوقهـا في الصفوف الأخيرة من الثانوية، وهي تشكيل جبهة ضد المعـلمة المـتخذة هيئة صرح الصدق والاستقامة، والعمل على التقرب منها أثناء القيام بهذا. وهذا يتم عبر اللف والدوران حول الشعراء الذين تأتي على ذكرهم دائمـاً، والقـيم الـتي تدافـع عـنها، والتسـلل مـن تحـت ومـن فـوق، يعطـي الأحاديـث المكثفة تنظيماً، ويمنحها تركيزاً. فوق هذا تزداد المتعة درجات إذا أدخلوا في الحديث مراميهم. لأن المتعة رائعة في عملية تحمل النظيفين للقذرين المهمومـين، أو تحمـلهم عمومـاً، والنظر إليهم كالآخرين، وبحجم الآخرين. لم تسـتطع الحمراء الممتلئة أن تتحمل، فوقفت مساندة لفتاة طلاء الأظافر محاولة

إقناع المرأة العجوز: "يقال إنها كانت هكذا وهي فتاة شابة، وصارت أسوأ بعد أن تزوجت. إنها مريضة نظافة."

حاولت المدام الخالة تجاوز الأمر قائلة: " أهذا سيئ يا روحي؟ امرأة دقيقة".

وبالجرأة التي استمدتها فتاة طلاء الأظافر من قوى دعمها، صرخت قائلة: "هذه ليست دقة يا خالتي العزيزة، بل مرض. ولعله أسوأ من المرض. إذا كنت مريضة، تعرفين أنك مريضة. تذهبين إلى الطبيب، وتتعالجين، أليس كذلك؟ ولكن ليس لمرض النظافة دواء! وإن وجد فإن السيدة تيجين لا تدخله في فمها، وتقرف منه على أنه قذر".

قالت الشقراء الحوراء: "يا للأسف! يقع ما يقع على رأس الولد".

تدخلت المدام الخالة: "لا تقولوا هذا. تيجين متعلقة بابنتها كثيراً. وهل ترغب أم بأن يحدث سوء لأبنائها؟".

قالت فتاة طلاء الأظافر صارخة: "حسن يا عزيزتي المدام الخالة، ما الذي نفهمه من حب كهذا؟ انظري، هاهي ترمي ألبسة البنت المسكينة إلى تحت".

قالت المدام الخالة مستغربة: "أهكذا؟".

صرخت فتاة طلاء الأظافر بانفعال قولها شيئاً لم تستطع المرأة العجوز الاعتراض عليه: "طبعاً ياه، ما كان يمطر على رؤوسنا منذ قليل ألبسة المسكينة. هل ترمي ألبستها هي؟ ثمة شيء ما في عقل المرأة، ولكنها ليست مجنونة. عندما يكون الأمر أمر عمل لها، فإن عقلها في مكانه تماماً ما شاء الله".

زمت العجوز شفتيها الدقيقتين بشك: "ياه، هذا يعني أنها رمت ألبسة ابنتها. لماذا يا ترى؟".

"لماذا سيكون؟ من طيران عقلها..."

انكمش وجه المدام الخالة. أدركت فتاة طلاء الأظافر أنها تمادت، فصمتت، ولكنها كانت مسرورة لأنها قالت ما يجب أن تقوله.

قال جمال هادراً: "أرجوكم، ما لنا، إذا كانت خفيفة العقل، فلتكن!".

وإذا كان يستمتع بالنميمة فقد كان يخشى من إزعاج ثرثرة فتاة طلاء الأظافر

للمرأة العجوز، ومن ثم إغضاب جلال. "ما شغلنا نحن بهموم كل من خف عقله؟ أصلاً ماذا يوجد في اسطنبول أكثر من خفيفي العقول؟ ها هم قطيع من خفيفي العقل، وحفنة من البرغل. إذا حاولت أن تتحدث عن كل واحد منهم، فإن عمرك لا يكفيك والله. ماذا جرى للقهوة يا ابني؟ هاتها، فقد جفت ألسنتنا وحلوقنا."

استلم جلال الحديث مرة أخرى محاولاً تغيير مجراه: "ازدادت رائحة هذه الزبالة من جديد. كم مرة اشتكينا للبلدية. لم يفدنا بشيء."

نط جمال الذي يدوخ إعجاباً بإكمال حديث توءمه المنقطع: "ماذا يا سيدي، يُقال إنهم أعطوا عمل جمع القمامة لشركة خاصة. وجدنا رقم هاتف الشركة اتصلنا بهم، وهؤلاء أيضاً فظون. يخرجون الشاحنة مساء عند عودة الناس من أعمالهم. كأنهم يعملون هذا لمجرد العناد."

لملم جلال الحديث قائلاً: "إنهم يأتون لجمع القمامة بشكل منتظم حتى وإن كان هذا في زمن خاطئ."

قال جمال متوتراً: "طبعاً إننا ننقذ. طالما يوجد في الوسط كل هذا البرغل، ننقذ من الزبالة، ومن التخلف أيضاً. أتؤمنين بهذا يا مدام خالة؟ يمضي يومنا بتأنيب الذين يلقون الزبالة تحت ذلك الجدار. كل الجهلاء والجاهلات في هذه الأطراف يأتون لإلقاء الزبالة عند جدار حديقتنا. وهم دائماً الشخصيات نفسها. لا يفهمون الكلام. نبت الشعر على لساني من كثرة الكلام! هنالك واحدة، لا تسألوا عنها. بيت المرأة في نهاية الزقاق. لا تهمل أو تتكاسل، فتمشي كل يوم ثلاثمئة متر، وتأتي إلى هنا لإلقاء زبالتها. أنا فكرت بهذا كثيراً، لماذا يقوم إنسان بعمل كهذا؟ لم أستطع الوصول إلى نتيجة. في النهاية، وجدت تفسيراً على النحو التالي: لابد أن مقسماً كان هنا قبل بناء هذا البناء، وجدة تلك المرأة كانت ترمي زبالتها هنا بشكل دائم. راح زمان، وجاء زمان، وصار عند تلك المرأة ابنة. وعندما كبرت تلك البنت، صارت ترمي زبالتها دائماً هنا. وهكذا صار عند هذه أيضاً ابنة. وهي تلك التي أتشاجر معها كل يوم من أيام الله وأعدها من البرغل. فضول الزبالة عند هؤلاء

أمر وراثي ينتقل من الأم إلى البنت. إنه نوع من التقليد العائلي! وماذا ستعمل هذه التي أحكي عنها؟ ستستمر بما رأته بالضبط. ولكنها لا تصبه بالدلو مثل أجدادها، بل تضعه بمناديل، وترميه. إنها برغل حديث!"

بينما كان جمال يصدر أصواتاً توحي بالتوتر، ويضحك الآخرون، هزت المدام الخالة رأسها مفكرة. قالت: "ولكن يا جمال، لم يكن يوجد هنا في زمن ما مقسم أو ما شابه، كان تحت هذا الحي كله مقبرة..."

جمال غير المستعد ولو أدنى استعداد لاعتراض كهذا، سحب كل الكلمات التي كانت حاضرة للانطلاق عن رأس لسانه مبتلعاً لها. تلفت فيما حوله متضايقاً كأنه ينتظر مساعدة، فتوقف عند سواد صغير يتحرك من دون توقف عند عمق الرف الطويل أمام المرآة. كان ذلك صرصار. صعد إلى سلة حبسات الشعر، ويحرك قرنيه الاستشعاريين كأنه يستمع للأحاديث. مهما يكن، فلم يلفت نظر أحد بعد. ولكنه إذا حاول الخروج من السلة، وبدأ بالسير على طول الرف، فهذا يعني أنه سيقوم بعرض رسمي أمام الزبونات كلهن. التقط جمال فرشاة الشعر الكبيرة، واقترب وهو يمشي جانبياً. من جهة أخرى استمر بالحديث بصوت أكثر انفعالاً من السابق كيلا يلفت النظر.

كنت أقول: "يا هذه، يا امرأة! هل أذهب وألقي زبالتي على سجادتك؟ بأي حق ترمين زبالتك عند جدار الآخرين؟ انتظري مجيء سيارة الزبالة مساء، حينئذ تخرجين زبالتك، وترمينها أمام باب بيتك، ويأخذها الزبالون. لا إنها لا تفهم أبداً. بسبب البرغل."

قال الأجير المحبحب الوجه: "برغل ماذا؟" ماداً رأسه من فوق أخبار الصفحة الثالثة للجريدة التي تختبئ وراءها الخليلة الزرقاء من نظرات الآخرين المقلقة.

قال جمال من دون أن يرفع عينيه عن الصرصار: "آه، أنتم لا تعرفون نظريتي حول البرغل؟ لأشرحها لكم. إنها بسيطة جداً في الحقيقة، يا سيداتي هل يوجد تنظيم أسرة في تركيا؟ لا يوجد! آه، هبة الله، أولدوا، وتكاثروا، وافلتوا في الزقاق. لنفترض أنكم أفلتموهم، فكيف ستطعمون كل هذا العدد من

الأولاد؟ تغذون شخصاً باللحم، وخمسة أشخاص بالبرغل باللحم، وعشرة أشخاص بالبرغل فقط. حسن، هل لهذا البرغل أي مساهمة بزيادة ذكاء الإنسان؟ لا يوجد! بعد ذلك اطلب من المرأة بأن تقف بقدر ما تريد. أصرخ بأعلى صوتي: يا هذه لا ترمي زبالتك على حديقتي! تنظر إلى وجهي بخبل. في اليوم الثاني تأتي أيضاً وكأنها مضبوطة على ساعة، وترمي الزبالة من جديد. إنها لم تفهم، إنه ذكاء البرغل."

كح جلال بشك غير ناجح. تلقى جمال الرسالة من ناحية تلقيها، ولكنه حافظ على أسلوبه لأنه لفت انتباه الخليلة الزرقاء، وهي تميل لإعطاء الحق للتوءمين.

"أنا هاجمت المرأة في الشهر الماضي فقط. في مساء كهذا، وفي وقت متأخر، كنا نحضر رأس عروس. العروس في طرف، وأقرباؤها في طرف آخر، وينتهي لف شعر إحداهن، ونبدأ بالأخرى. نحن على أقدامنا منذ الصباح، ونضجنا. نظرت، وإذ بتلك المرأة قادمة وهي تتمايل حاملة أكياس الزبالة. فتحت النافذة، ومددت رأسي، وانتظرت. قلت لعلها تراني، فتخجل، وتعود. أين هذا منها؟ جاءت هذه وهي تنظر إلى عيني، وألقت زبالتها. نعم، لو أنني أستطيع أن أشرح هذا! من أعلن أن جدار حديقتنا مزبلة؟ من قال لهؤلاء الناس: تعالوا، وألقوا زبالتكم أمام بيت جيرانكم؟ أمسكني الأجراء بصعوبة. كنت سأثار نحو المرأة. كانت قد توترت أعصابي إلى الآخر، وكنت أصرخ بأعلى صوتي، وأهينها. لابد للإنسان أن يخجل، أو يستحي ممن حوله، أليس كذلك؟ أين هذا منها؟ إنها تنظر إلى وجهي بخبل. والله، بالله لم تفهم سبب توتري. لابد أنها اعتقدت أنني هارب من مستشفى الأمراض العقلية. قلت حتى لو لم تفهم، لابد أن تخاف من المجيء مرة أخرى. ولكنها ألا تأتي في اليوم التالي، وفي الساعة نفسها حاملة الزبالة؟ ثم إنها حملقت بعينيها الجاحظتين ناظرة إليَّ ببلاهة. ماذا سأفعل. ستجعلني قاتلاً. هيه يا الله، لا يُمكن التدخل في عملك، ولكن لماذا تخلق كهؤلاء؟ ماذا يجب أن يُعمل بهؤلاء البرغل؟ لا أعرف. لم يعد من الممكن العبور إلى البناء بسببهم،

وسبب الزبالة. بهذا المسار لن يخطو أحد خطوة إلى البناء. سيكون هذا على حساب عملنا ولقمة عيشنا. بخ قليلاً يا ابني!"

هطل عطر "شكريز" الخفيف المنبعث من بخاخ عليه رسم شاطئ رملي قفر مظلل بظلال النخيل مع بحر تركوازي اللون على أربع أرجاء الصالون على شكل رذاذ، وتتداخل مع الأنواع المتعددة للروائح. ألقى جمال نظرة خاطفة إلى الصرصار آملاً أن يتسمم من ملطف جو الغرف. ولكنه كما لم يتأثر من الرذاذ الساقط فوقه، فقد نجح بالوصول إلى ذروة مجموعة حبسات الشعر، ويحضر نفسه للهرب إلى علبة ملمع الشعر المجاورة.

نطت الحنطية العصبية قائلة: "والله معكم حق، زبائنكم كلهم سيهربون لهذا السبب، وبالطبع لابد أنكم اعتدتم على الرائحة لأنكم تقضون يومكم كله هنا، ولكنني أشعر بوخز شديد في أنفي عندما أدخل إلى هذا البناء أحياناً" وهي تنظر إلى طلاء أظافر يديها الآن بالطلاء الخمري رقم 113، بعد أن جف طلاء أظافر قدميها منذ زمن.

صرخت فتاة طلاء الأظافر وهي تحمل الطلاء: "النوافذ مفتوحة على مصاريعها طوال اليوم، والهواء يتدفق دفقاً ولكن الرائحة لا تذهب. يقال إنها تزداد في الطوابق العليا. هل هذا صحيح يا مدام خالة؟"

تدخل جمال قائلاً: "البرغل الذي مقابلنا أيضاً يصر على أننا نأخذ زبالته. ولاه، هل أنت مجنون؟ ماذا أفعل أنا بزبالتكم المقرفة؟" وهو ينظر إلى فتاة طلاء الأظافر بين حين وحين كي تفهم أن المرأة العجوز تنزعج من الأسئلة التي تطرحها.

قالت "الخليلة الزرقاء": "كيف ياه؟ ماذا يعني هذا؟" قاطعة الأسف على مشهدها الجديد البادي في المرآة. ومثلها مثل كثيرات من بنات جنسها اللواتي اعتدن على إطالة شعرهن، وقصصن قليلا من أطرافه، بدأت تشعر بالندم قبل أن تنهض عن كرسي مصفف الشعر.

قال جمال: "ياه، أنتم لا تعرفون أننا متشاجرون مع المجانين المقيمين في الشقة رقم 4. كنت أعتقد أنه لم يبق أحد لم يسمع بهذا. جاؤوا في أحد

الأيـام، فقلـت لهـم تفضلوا. لماذا يأتي الإنسان إلى مصفف الشعر؟ اعتقدت من أجـل تصـفيف شـعره. وإذ في نيـتهم غير هذا. تلك المرأة المجنونة في المقدمة، وخلفهـا المجنون الأعظم زوجها، ومعهما ابنتهما الكبرى العانس، وفي الخلف ابنتهما الصغرى العانس. انتصبوا أربعتهم مقابل أخي. خرجوا إلى النفير العام بشـكل أسـري. بدايـة لم أفهـم أي خراء مما قالوه. وإذ هؤلاء قد ربطوا أكياس زبالـتهم، ووضـعوها أمـام الـباب، وبعد خمس دقائق، نظروا وإذ بزبالتهم غير موجـودة! ألا يقولـون: أيـن زبالتـنا؟ قلـت لهـم: أخذتها مريم. لا يا سيدي، ذهـب الـبوابون إلى القـرية في ذلك اليوم. قلت لابد أن الزبال أخذها. قالوا أي زبـال يدخـل إلى البـناء؟ كـيف أعـرف أين زبالتكم. أصروا قائلين إنكم أخذتم زبالتـنا، أعـيدوها لـنا. وأي حـظ لـنا نحـن. وكـأن مكانـاً آخـر لا يوجـد في اسطنبول، فجئنا إلى بنائهم، وفتحنا محل تصفيف شعر."

عندما غاص في الحديث، أبعد الصرصار عن زاوية الرؤية دون لفت انتباه. التفت، ونظر إليه، ولكنه لم يجده حيث تركه.

تمتمـت الحنطية العصبية وهي تشعل سيجارة جديدة: "دخلكم، ليأخذها من يأخذها يا روحي. لماذا الزبالة قيمة إلى هذا الحد؟"

قـال جمـال وهو ينظر إلى تحت سلة حبسات الشعر، وداخلها، وجانبها، ومحـيطها: "يـاه، الأمـر لـيس كما تظنين. الرجل فصامي. وإذا قلت زوجته، فهـي أسـوأ مـنه. مـن يعـلم مـاذا تخيلوا في عقولهم؟ لابد أنهم اعتقدوا بأن الـ CIA أخذتهـا أو أن الإرهابـيين ومـا شـابههم اخـتطفوها. وصـلت إلى رأس لسـاني، ولكـنني ابتلعـتها. ولاه، مـن تكـون أنت لكي يسرقوا زبالتك؟ آه كم الأمر محزن! ستكون برغلاً مسكيناً، وتعتقد أنك من النعم كالفاصولياء."

بـدأ الأجـير المحبحـب الوجـه بجمـع أقداح الشاي المتراكمة على الرف، المبقعة بـألوان أحمر الشفاه المختلفة. بينما كان جمال ينظر بعينين ثابتتين إلى تحـت كـل قـدح مـرفوع خشـية خـروج صرصار الحمام من تحته، كان أجيره أيضاً يـنظر بعيـنين ثابتـتين لا تقل عن ثبات عيني جمال إلى حلمتي الخليلة الزرقاء.

لم تستطع الخليلة الزرقاء المتحررة في النهاية من الغطاء النايلوني الانتباه في تلك الأثناء لنظرات الأجير، ولا لتجمد جمال بسبب انشغالها بالتدقيق بطراز شعرها الجديد. في الحقيقة أنها كانت تريد أن تستجمع جرأتها، وتقص شعرها قصيراً جداً. ولكن تاجر زيت الزيتون لا يصوب أمراً كهذا نهائياً. أخبرها أربعين مرة أنه يحب الشعر الطويل للمرأة. الله يعلم أنه سيلحق لها حمل شاحنة من الكلام لمجرد أنها قصرته بهذا القدر الضئيل فقط. نظرت إلى ساعتها. كانت قد تأخرت، وتأخرت كثيراً أيضاً. لديها كثير من الأعمال التي يجب أن تنجزها. فسرت القلق البادي على وجه جمال الواقف خلفها تماماً ممسكاً بفرشاة الشعر أنه لم يعجب بالشعر الذي قصته. ولكي ترضيه من جهة، ولأنها قررت أن تُودع بالطريقة التي استقبلت بها من جهة أخرى، تجاوزت قواعد وداع زبونة مصفف الشعر النسائي، وصافحت يد المصفف بحرارة.

وقبل أن تنفصل يد "الخليلة الزرقاء" عن يد جمال، فتح الباب الخارجي بصخب. أثناء اهتزاز الأجراس مقرقعة، وارتفاع صوت بائع البطيخ الفاتح بسطته في الزاوية الذي قرر أن يغطي على صوت مكبر صوت منافسه، انخرطت امرأة يقطر القلق من كل جزء من جسمها إلى محل تصفيف الشعر. توجهت أنظار كل من في الصالون نحو الباب لرؤية المنضمة إليهم تواً. نظروا، وتجمدوا في اللحظة ذاتها وكأنهم تلقوا أمراً جماعياً بذلك، وبقوا كذلك. أغلق الباب، وصدى الجرس الذي في الأخير لحق بالأصداء الأخرى بصوته الضعيف، ثم توقف تلقائياً. لم تكن سوى "هيجين تيجين".

# الرقم 1: موسى، مريم، محمد

صرخ محمد بأعلى صوته من حيث انحصر: "لن أذهب، ها!" وأنزل قبضته بكل ما أوتي من قوة على أقرب أريكة من الأرائك المخملية التي لم يعد يدرك لونها من الخارج بعد أن كانت بداية بلون صفار البيض، ثم باللون الكرزي الداكن، وبعده بالأخضر المائل إلى الزرقة، ومن ثم غُطيت بقماش مزهر. في الحقيقة إنه لم يكن يفضل استخدام قبضته، بل قدمه. وقد اعتاد في الفترة الأخيرة على ركل كل ما يأتي أمامه. ولكن جسمه غير المباهي في السادسة من عمره قد انحصر بشكل سيئ بين الأريكة والجدار إلى حد أنه لم يستطع تحريك رجليه بشكل معقول. أمسك أطول قافلتي شتائم يعرفهما من ذيليهما، وأطلقهما بكل قوته. حَمَتْ مريم التي سمعت هذا بطنها المنتفخ بيديها، ونجحت بدفع الأرائك الثلاثة المصفوفة إحداها بجانب الأخرى بواسطة قدمها، وبهذا ألصقت ابنها بالجدار. غدا محمد المحصور في الزاوية بكل معنى الكلمة أحمر قانياً من الغضب، وفتح فمه. ولكنه فهم أنه لن يستطيع الشتم من جديد. ولأن عزة نفسه لا تقبل بالاستسلام من دون عمل شيء، غرز أسنانه بحافة الأريكة الضاغطة على خصره برغبة جامحة بعد أن

بقـي فمـه مفـتوحاً هكـذا لمدة دقيقتين. الغطاء المصنوع من القماش المزهر هو في الحقـيقة يحمـي المخمـل مـن المؤثـرات الخارجية، ولكنه إذا عضه بما يكفي، يمكن أن يترك آثار الأسنان عليه...

يمـتد مـاض هـذا التـناحر المكـرر يومـياً طـوال أيام الأسبوع عدا العطلة إلى خمسـة أشـهر وأسـبوع مضـت، عندما سُجل محمد في الشعبة ج-1 من الصف الأول في مدرسـة الحـي الابتدائـية الوحـيدة. الأمـر الوحيد المتبقي في عقله من الـيوم الأول للمدرسـة هو قلق الأمهات، وخجل الأولاد، وتكشير ابتسام وجوه المعـلمين. مع مرور الزمن تناقص قلق الأمهات، وخجل الأولاد، وحتى تكشير ابتسـام المعـلمين جـزءاً تلـو جـزء، ولكـن بدل أن تزول هذه الأجزاء الصغيرة، انتقلت كلها إلى محمد. وهكذا يُعتبر محمد اليوم بعد خمسة أشهر وأسبوع ولداً قلقاً وخجولاً ومكشراً لا يريد الذهاب إلى المدرسة.

يـتزامن بـدؤه المدرسـة الابتدائية وحب أمه لتلك الأرائك. سمعت مريم من مصـدر مـا أن ابـن عمهـا الـذي كـان مقـيماً في إحـدى بلـدات مـنطقة إيجـة السـاحلية، ويعمـل بإصـلاح المراكـب مـع أبـيه لتأمين حياته، قد اتخذ موقفاً مفاجـئاً بالإقامـة في اسـطنبول، وتشـمير كمـيه لامتهان عمل المفروشات. وقبل مـرور 36 سـاعة عـلى سماعهـا الخـبر، التقطـت أنفاسها في ورشة ابن عمها، وأوصـته عـلى مجموعة أرائك من دون أن تستشير أحداً بشكلها أو لونـها. كان الاتفـاق عـلى هـذا الـنحو: سـيخفض ابـن العـم الـذي لم يسـتفتح بعـد السعر للقريـبة، وبالمقـابل ستسلم مريم مبلغاً قليلاً مع الأرائك القديمة. الأمر الذي لم يكـن يعـرفه الطـرفان في تلـك اللحظة هو أن مريم حامل منذ ثلاثة أسابيع. لم يكـن جوهـر هذه المعلومة بعيد عن الموضوع كما يبدو. لأنه مما لوحظ على مريم أثـناء حملها بمحمد أن حملها يجعلها عنيدة جداً، ومتوهمة كثيراً، و"غريبة" قلـيلاً. عـندما أكمـل ابن العم مجموعة الأرائك كانت مريم في الشهر الثاني من حملها، وهو يتقدم بسرعة قصوى.

ذهبـت إلى الورشـة مـن أجـل رؤيـة العمـل في حالـته المنتهـية، رأت لـون الأرائك، وتقيأت هناك. أصفر البيض! بينما كان مجرد التفكير بالبيض يجعل

معدتها تنط إلى فمها، فإن جعل الأرائك التي تضعها في صالون البيت بلون أصفر البيض هو من المستحيلات. وعندما حاول ابن العم أن يطلع بالعالي عليها مذكراً بأنها هي التي اختارت لون أصفر البيض، فقد تقيأت مريم يائسة. تقيأت بعد ظهر ذلك اليوم كثيراً، مما جعل الأمر في النهاية يحدث كما أرادت. الاتفاق الجديد كان على النحو التالي: ابن العم الذي لم يستفتح بعد سيغير وجه الأرائك، وبالمقابل فإن مريم ستعطيه الأرائك القديمة، وفق ذلك نقوداً أكثر من التي اتفقا عليها في الحديث الأول.

عندما أرسل ابن العم خبر إنهائه الأرائك باللون الكرزي الداكن، كان حمل مريم على وشك الوصول إلى شهره الثالث. في تلك الأثناء كانت نوبات التوتر قد قلت كثيراً. ذهبت إلى الورشة لرؤية العمل منتهياً، ونظرت إلى لون الأرائك، وبدأت تبكي هناك. اللون الكرزي الداكن! منظر كرزة واحدة سقطت عن الغصن كانت تكفيها لتتذكر الموت قبل أوانه، فلا يمكن أن يكون وضع أرائك بلون الكرز الداكن في صالونها موضوع بحث. حاول ابن العم الدفاع عن نفسه. وعندما ذكرها بأنها هي التي اختارت هذا اللون، بكت مريم من جديد يائسة. بكت بعد ظهر ذلك اليوم كثيراً مما جعل قولها في النهاية هو المفروض. كان الاتفاق الجديد على النحو التالي: ابن العم الذي لم يستفتح بعد سيغير وجوه الأرائك مرة أخرى، وبالمقابل فإن مريم ستعطيه الأرائك القديمة، وفق ذلك ضعف النقود التي اتفقا عليها في الحديث الأول. ولكنه لكي يضمن الأمر هذه المرة، سيُختار لوناً أقل ضرراً، وأكثر تعقلاً: أخضر مائل إلى الأزرق!

أفاد هذا الأمر. عندما رأت مريم الأرائك الخضراء المائلة إلى الأزرق لم تتقيأ، ولم تبك. في تلك الليلة نام ابن العم مطمئناً أول مرة منذ ليال طويلة. في اليوم التالي ألقى الأرائك الخضراء المائلة إلى الأزرق على شاحنة صغيرة، ولأن أجيره الضخم البنية قد مرض فجأة، فحملها مع حمالين نحيفين إلى الشقة رقم واحد في بناء بنبون. كانت مريم تنتظرها بانفعال منذ الصباح وأذنها على الباب، ويداها على بطنها الذي لم يكبر بعد.

في البهو الصغير جداً أساساً، ولم يعد ممكناً خطو خطوة فيه بعد مجيء الأرائك الجديدة، والممتلئ أغراضاً أحدها فوق الآخر قفز الحمالون مع ابن العم من فوق الطاولات الصغيرة، وجلسوا في أمكنة وجدوها، واحتسوا قهوة التعب. بعد ذلك حل وقت الذهاب، فأنزل ابن العمل الأجرة المتفق عليها إلى جيبه، وحمّل الأرائك القديمة المهترئة بلون قلب البطيخ الأصفر الكبيرة منها على ظهر الحمالين، وأحدها على ظهره، وتوجه نحو الباب. ولكنهم قبل أن يخطوا خطوة واحدة اضطروا للتوقف فجأة. يمكن أن تُعاش لحظات كهذه على الطرق البرية. تشاهدون وسائط النقل التي أمامكم قد توقفت فجأة، وسدت الطرق. ولكنكم تبقون واقفين هكذا لعدم معرفة ما يحدث أمامكم دون معرفة المشكلة، وبالتالي توقع موعد حلها. كان ابن العم والحمالون تحت الأحمال التي على ظهورهم أكثر حظاً قليلاً. فإذا كانوا لا يعرفون سبب انسداد طريقهم، فهم يرون ما الذي يسدها. انتصبت مريم ببنيتها الضخمة وبطنها الذي بدا قد انتفخ أكثر في بضع الدقائق تلك وعيناها المتوهجتان بالنحس عند عتبة الباب، ولا تسمح لهم بالمرور.

كان أول من فهم هموم مريم هو زوجها موسى. انزوى جانباً بتوكل صامت، وانتظر رؤية ما سيجري. موسى مصاب بالقرحة المعدية. عندما تتوتر أعصابه تبدأ معدته بحرقة حامضة. وهكذا وجد الحل بقبول زوجته كما هي عليه. ولا ينوي الاصطدام معها أبداً، خاصة في وقت حملها. ولكنه بسبب إشفاقه على حال الرجال، وجد ضرورة لأن يلتفت، ويقدم تفسيراً على الأقل:

"لم تستطع التخلي عن أرائكها. لا تستطيع التخلي، أنا أعرف هذا."

في الحقيقة إن كلمة "أعرف" هي تنبيه في غاية الوضوح لمن يفهمها. إنها تعني "طالما الطريق قريب، فتراجعوا عما تعملونه!" أو ما يشبه هذا. ولكن الحمالين وابن العم لم يستطيعوا فهم هذا. ولأنهم لم يستطيعوا الفهم، أنزلوا الأرائك عن ظهورهم، وبدؤوا شجاراً بالألسن. مع أن غضبهم المتأجج لم يفد مريم إلا إصراراً على التمسك بدعواها. كانت الأرائك بلون قلب البطيخ الأصفر مهترئة من ناحية الاهتراء، ولكن لها ماضياً مشتركاً بالنسبة إليهما. اشترت

تلك الأرائك بعد أن قضت خمس سنوات حزينة مع حماها وحماتها، وانتقلت نهاية إلى بيتها الخاص. قضى محمود طفولته الأولى عليها. الثقوب السوداء الصغيرة على حواف الأريكة الثنائية هي ذكرى حروق رماد سيجارة إحدى القريبات القادمة لرؤية الطفل. لم تعد تلك القريبة على قيد الحياة. تنبعث خيوط صوتها من ثقوب حروق السيجارة أحياناً. أساساً إن شيئاً كهذا هو ماض. لم تكن تشبه الفتات الذي يتساقط على البساط. لا يستطيع الإنسان أن يفتح النافذة عندما يريد، وينفض الماضي.

قال ابن العم: "في هذه الحال نعيد هذه" محاولاً وضع إحدى الأرائك على ظهره. تمثل به الحمالون الذين رأوه، فهموا بإمساك قطع مجموعة الأرائك الخضراء المائلة إلى الأزرق. نظرت مريم بعينين من الحزن الصافي مثل طفل أطعم خروفاً على مدى أيام بمحبة، ويشهد على أخذه للذبح. على مدى ساعة إثر هذا الأمر أطلق ابن العم الذي وصلت معه الأمور إلى رأس أنفه، والحمالين اللذين أدركا أنهما لن يحصلا على أجرتهما كلاماً من دون جدوى. وطوال مدة النقاش التي تطول باستمرار بقي الجميع واقفين (عدا موسى) لعدم الوصول إلى قرار حول أي المجموعتين ستبقى وأيهما ستذهب. وهذا ما جعل أعصاب الجميع (عدا موسى) تتوتر أكثر. اغرورقت عينا مريم مرات عديدة، وتقلبت معدتها فجأة. وإذا لم يعتبروا لبكائها، فتوحي بأن تقيؤها رسالة من الولد الذي في بطنها، فتقول: "أرأيتم؟" واضعة يديها على بطنها، ثم تضيف: "حتى قلب هذا الولد الذي لم يلد بعد لم يرض بأخذ الأرائك". بكت كثيراً في ذلك المساء، وتقيأت كثيراً إلى حد أن النصر في نهاية اليوم سيكون لمريم بشكل أكيد. ثوران ابن العم صانع المفروشات من نفسه لأن خرق قاعدة تاريخ التجارة القائلة: "لا تقم بأي عمل للأقرباء بأي شكل!"، واحتجاج الحمالين اللذين انخفضت أجرتهما شكل صخباً شديداً عند خروجهم من الشقة رقم واحد في بناء بنبون وكأنهم يودعون بالولولات.

النصر لمريم من ناحية النصر، ولكن ثمة مشكلة هامة في الوسط. المحير هو سؤال كيف يمكن أن توضع مجموعتا أرائك مع طاولاتهما في بهو صغير أصلاً

وواطئ السقف لشقة بواب. ولكن مريم لم تيئس. نجحت بجعله يتسع لأريكتين ثلاثيتين، وأريكتين ثنائيتين، وست أرائك مفردة مع طاولاتها الصغيرة مستفيدة من كل سنتيمتر مربع في البهو البالغة مساحته عشرين متراً، صافة الواحدة أمام الأخرى كمقطورة القطار. الخطأ الأكبر الذي ارتكبه محمد هذا الصباح هو إعلانه عن نيته بعدم الذهاب إلى المدرسة، ومحاولته التمترس وراء إحدى أرائك المقطورات تلك.

قالت مريم: "ستروح وأنت على ما يرام" أثناء استمرارها بدفع الأرائك بإحدى قدميها، كانت تحضر حقيبة الغذاء لابنها في ذات الوقت.

كانت تحضر له لفافة بالجبن مرة أخرى بوضع جبن أبيض بين طبقتي خبز، وقطعة بندورة، وثلاثة عروق بقدونس. وبحسب اليوم تضع له حبة فاكهة، ومعها ثمن لبن رائب لا زيادة ولا نقصاً. كان محمد يشتري بتلك النقود لبناً رائباً من ندوة المدرسة. وكانوا يصنعون لفافات الجبن في ندوة المدرسة أيضاً، فوق هذا فإن تلك اللفافات تغدو أفضل، وهي ساخنة، وإذا كان قد قال لأمه ألا تعمل له لفافة ألف مرة، فلم يستطع جعلها تسمع له. لو أنها لا تضع بندورة على الأقل. لنقل إنها وضعت بندورة، فما عمل ذلك البقدونس؟ ولكن مريم إذا وضعت شيئاً في عقلها فلا تحيد عما قررته وتعرف أنه صحيح. وإذا حدث وتعرضت لإنذار من الطرف المقابل، فور إدراكها أنها ستتعرض لهجوم معاكس، فلا يعود ممكناً الوصولُ إليها كحيوان بحري يلجأ إلى صمت الصم في قوقعته، ولا تخرج من هناك حتى يستسلم الذي مقابلها. لا أحد يعرف في أي صفحة من صفحات عمرها تعلمت أن لفات الجبن تحضر هكذا، فلم يعد من الممكن تغيير رأيها. كل صباح على مدى خمسة أشهر وأسبوع تحضر لفافات الجبن بقطعة بندورة وثلاثة عروق بقدونس. بالنسبة إلى محمد فإن لفافات الجبن تلك التي يضطر لحملها خمسة أيام في الأسبوع، ويستهلكها حيث لا يترك منها ولو قطعة صغيرة، لا يوجد بداخلها البندورة والبقدونس فقط، بل عين أمه وأذنها. كان لا يستطيع منع نفسه من الاعتقاد بأنه إذا لم يأكل تلك اللفافة، أو إذا ارتكب

ذنباً أكبر بكثير وهرب من المدرسة، فإن تلك العين الحمراء والأذن الخضراء ستطيّر خبراً لأمه فوراً.

ولكنه كان يأخذ لفافات الخبز بمحبة وليس بخوف حتى بدئه المدرسة. في ذلك الوقت كان طرفا الخبز الموضوع على الإفطار له. حين كانت مريم تمد وجهي الخبز لابنها على المائدة لا تهمل اقتلاع لصاقة الورق التي عليها. قطعة الورق المقصقصة الحواف تلك هي رسالة من ابنة الخباز. كانت توضع تلك الرسالة جانباً حتى انتهاء الإفطار. وعندما يأكل محمد ما يوضع أمامه من دون نقص أو ترك بقية، يكسب حق قراءة ما كتب فيها. وكان يأكل من دون دلال أو شطط. ورغم أنه مضطر لإنهاء بيضة مسلوقة كل صباح، كان ينهي إفطاره من دون أن ينبس من أجل خاطر رسالة ابنة الخباز فقط. وعندما يحل الوقت، تتباطأ مريم بعملها قدر الممكن شاعرة بسعادة خبيثة من مضاعفة فضول ابنها فتصب لنفسها كأس شاي بعد أن تجمع السفرة، وتبدأ بقراءة الرسالة وكأن الكلمات سكاكر تذوبها في الفم قبل أن تقولها ببطء.

ابنة الخباز طفلة فقط، ليس لها صديق أو أخ. أثناء شواء أبيها الخبز ليلاً تجلس بين أكياس الدقيق وحدها، وتكتب لمحمود رسائل سراً. ماتت أمها عندما كانت في المهد، وتزوج أبوها من جديد. ولأن موضع القلب عند خالتها زوجة أبيها يوجد حجر فهي تذيق يتيمة بقد كف عذاباً فوق العذاب. يا لما هربت الفتاة اليائسة من البيت في كل فرصة سنحت لها لتقضي يومها عند أبيها في المخبز. كان يُصنع في المخبز خبزٌ طازجٌ تفوح منه رائحة زكية، وكذلك كعكٌ هشٌ بالسمسم. لندع قراءة تلك الرسائل جانباً، فقد كان لا يخطر ببال محمد مجرد خاطر كيف يمكن أن تتسع ورقة بمقياس 3×1 سم كل هذه المعلومات. في مرحلة عمر 0-5 يكون الخبز مقدساً، وكل قطعة ورق مكتوبة تعتبر سراً متكاملاً وحدها، أما عندما يجتمعان معاً في الرسالة التي على خلف قطعة الخبز فيغدوان أحجية ملتفة بهالة سحرية تلمع منها بنت الخباز براقة.

كان محمد يريد أن يعرف كل شيء عنها: كيف هو المخبز، وماذا تعمل هناك، وما إذا كانت تحب النوم نهاراً، والبقاء على قدميها ليلاً في حين أن

الذيـن يعمـرها كـلهم يضطرون للنوم باكراً، والألعاب التي تلعبها، وأكثر شيء إذا كانـت جمـيلة أم لا... كانـت مـريم تصـف الفـتاة قائلـة: "مثل زنبق الماء صـفراء ورقـيقة." شـعرها طويـل جـداً. تـتمايل عـلى جانبيها بطتان صفراوان يصـلان إلى خصـرها. وكـان لمحمـد شـعر طويل في ذلك الوقت. الذين يروه في الطريق يعتقدون أنه فتاة.

تـتحدث رسـائل ابـنة الخـباز على الأغلب عن الناس الذين يعرجون على المخـبز طوال اليوم. كان يأتي مسنون يتوكؤون على عكاكيزهم، ويغطون الكعك الكـثير الـذي يأخذونه بأكياس في الشاي، ويذيبونه في أفواههم وهم يمضغونه. كمـا كـان الأولاد باعة الكعك يأتون وعلى رؤوسهم بسطاتهم في الصباح الباكر. تـريد ابـنة الخباز أن تقيم معهم صداقة، ولكن بعضهم يتصرف معها بفظاظة، ويُسمعها كلمات بذيئة. ولكن رغم هذا يوجد بينهم من لهم قلوب ذهبية. مثلاً كـان هـناك ولـد أنمـش الوجـه يضـم الكعـك في قضـيبين رفـيعين مثل حلقات اللعـب، وبيـنما يدورهـا بـيديه بسـرعة، يسـتطيع القفز والقيام بحركات خفة عـلى قـدم واحـدة. كان محمد يغضب من حديث ابنة الخباز عن مهارات هذا الولـد بكـل ذلـك الإسـهاب، ولكنه لم يكن ينبس. بعد ذلك كان باعة الفطائر يمـرون بعـرباتهم اليدوية. وثمة نساء يصنعن الفطائر بما يحضرنه من حشوة في البيـت. وهـؤلاء يتصـرفن بشـكل جـيد جـداً مـع ابنة الخباز. قبل أن يأخذن صـوانيهن الـتي غـدت أثقـل، ويذهـبن، لابـد أن يقدمـن فطيرة لابنة الخباز. كانـت ابـنة الخباز تشرح كل هذا بإسهاب، وتقرؤها مريم ببطء شديد، وكلمة تلـو أخـرى، فـيمر الـزمن أعـرجَ بطيـئاً. ولكـن بـراءة محمـد كميـناء الحليـب تحطمـت بشـكل فظـيع في الخـريف مـع تسـجيله في الشـعبة ج-1 في مدرسة الحـي الابتدائية الوحيدة. قص شعره بداية. لم يعد أحد يشبهه بالبنات. بعد ذلك قصر وقت الإفطار. وبعد خمسة أشهر وأسبوع صار يستطيع قراءة رسائله. مـن ناحـية القراءة، فقد استطاع القراءة، ولكنه منذ أن فك الحروف، وفهم أن تلـك الورقـة الصـغيرة الموجـودة على خلف كل رغيف خبز، والتي اعتقد أنها رسـائل تـأتي من ابنة الخباز، هي لصاقة المخبز التي تخرج منه لم تبق رسالة

تقرأ، ولا حبيبة ملائكية ابنة خباز تُنتظر بشوق. تعلم القراءة يعني فقدان الكتابة سحرها أبدياً.

قال محمد بصوت رفيع وحاد: "لن أذهب، ها!" من دون أن يشيح بعينه عن حقيبة الغذاء. كان يقول الجملة للمرة الثالثة، ولكن صوته خرج ضعيفاً. مع أن مريم فهمت أن ابنها قد استسلم عندما سمعت أنيناً مسحوقاً يشبه صوت جرو كلب صغير قبل مرور دقيقتين، فتركت دفع الأرائك. عندما كان محمد خارجاً من زاويته وهو منكمش على نفسه، نظر إلى أمه نظرة حامضة.

كان يشكل حجماً ضئيلاً جداً بجانب جسم أمه الضخم الذي يشبه حرف "Ö" عليه نقطة واحدة. عندما يولد أخوه سيكون النقطة الثانية. مع أن محمداً مازال في السادسة من عمره، وكل الأولاد في هذا العمر يعرفون أنهم أصغر من أمهاتهم، ولكنه يختلف عن بقية الأولاد أنه أدرك وقَبلَ منذ زمن بعيد بأنه مهما كبر، ومهما بلغ من العمر، ومهما كان المستقبل البعيد الذي يصل إليه بعيداً فسيبقى صغيراً بالنسبة إلى أمه. أمه بجبينها المتجعد فور شعورها بالغضب، ووجهها المدور بخديها المحمرين كأنهما يجمعان الدم فيهما، وعينيها الشهلاوين المحملقتين واسعاً عندما ينط عنادها، وثدياها المنتفخان كبالونين، وذراعاها اللاحمان السمينان بالغمازتين، ولحمها الفائض كتلاً، وقدميها التي يبلغ كل منهما حجم قبر طفل، وعقائدها الخرافية التي لا تنتهي، وطاقتها المحيرة كانت ضخمة جداً إلى حد أنها يمكن أن تسحق كل من يأتي في طريقها إلى قطع ناعمة، وستبقى هكذا دائماً.

وضع لفافة الجبن بالبقدونس في حقيبة التغذية، وداس على جسم صرصار الحمام المفلطح الذي سحقه هذا الصباح، وانطلق في طريق المدرسة وهو يجر قدميه جراً.

# الرقم 4: آل أطِشميزاج أوغلو(*)

سكان الشقة الواقعة على اليمين في مدخل بناء قصر بنبون، مثلهم مثل الأسر التي تسكن في الطوابق الأرضية كلها يشتكون من كونهم على مرأى من العيون كلها. عندما يقترب الداخلون والخارجون من سكان البناء وضيوفهم المتنوعين، والباعة الجوالون غير المهتمين للكتابات التي تبين منع دخولهم منعاً باتاً، لابد لهم من إلقاء نظرة عبر نافذة بهو الشقة رقم أربعة. وبإضافة زبائن صالون تصفيف الشعر المقابل إلى كل هؤلاء فإن النظرات التي تحاول التسلل عبر النافذة تضاعف توترَ مَنْ في الداخل. ولكن بعض العائلات التي تعيش في الطوابق الأرضية يمكن أن تعتاد على الفرجة بعد مدة، حتى إنه يظهر بينها من يعتبر الفرجة عليها فرصة لتتفرج على الذين في الخارج. ويعد هذا نوعاً من القصاص: إذا لم يكن سناً بسن، فهو عيناً بعين على الأقل! وإزاء هذه الحالة من غير الممكن اعتبار ظهور أكثر أصحاب المعلومات من المراقبين للبناء من هذه الطوابق أمراً شاذاً. ولكن آل أطِشميزاج أوغلو ليسوا من هذه النوعية. فهؤلاء لا

(*) كنية عائلة، وتعني "أبناء الفضول للنار"........................ م

يستطيعون تحمل رؤية الداخلين والخارجين لهم، لا ينوون مراقبة القادم والعابر. ويعتبرون العالم خارج بيتهم في نظرهم مصدراً لمخاوف لا تنتهي. في الحقيقة إنه لو وضع بعين الاعتبار خصوصية العائلات عند اختيار ألقابها، وليس ما تختاره هي عندما صدر قانون الألقاب في البلد، لكان من الممكن أن يكون قد كتب اليوم على جرس الشقة رقم أربعة من بناء قصر بنبون : "آل أبناء المخاوف التي لا تنتهي ولا تنضب" بدل كتابة "آل أطشميزاج أوغلو".

تغطي نوافذ الشقة العريضة ستائر غربولية صباحاً، وفي الساعات التي ترتفع فيها الشمس يسدل واق من القماش القطني الأبيض بشكل محكم. وعندما يتأخر الوقت، ويبدأ الجو بالإظلام قليلاً تُسدل ستائر مخملية رمادية بلون واجهة البناء سميكة ذات شرابات بإحكام. حينئذ يختبئ سكان الشقة رقم أربعة عن العالم الخارجي، ويحذرون منه بستائر البهو مثل حيوان حذر يتلون بلون التراب المحيط كيلا تلاحظه عيون العدو. ولكن فرجة رفيعة تبقى في أقصى الطرف الأيمن حتى في اللحظات التي تسدل فيها الستائر الغربولية أو واقية الشمس أو المخملية مهما بلغ إحكام الإسدال. يجلس على الأريكة التي في تلك الزاوية "زيا أطشميزاج أوغلو" (56 عاماً) والذي ثبت أكله رشوة أثناء عمله في إدارة المياه، وفصل منها، وأثناء قراءته جريدته أو متابعته برامج التلفزيون وهو يحتسي قهوته ويتناول حلوى القرع، يمد رأسه أحياناً من تلك الفرجة، ويجول بعينيه الشكاكتين في المنطقة من دون أن يعرف لماذا ينظر، وإلى ماذا. وفي الأوقات التي نادراً ما ينهض فيها زيا عن تلك الأريكة تأخذ مكانه "زران أطشميزاج أوغلو" (55 عاماً) مدرسة الكيمياء العضوية المتقاعدة. وهذه أيضاً تمد رأسها أحياناً من الفرجة، ولكنها تعمل هذا لفتح عينيها وقلبها مراقبة عصفور الكناري الذي تضعه مع قفصه بجوار النافذة، أكثر من مراقبة الخارج. وعدم تغريد هذا الكناري ولو مرة واحدة على عكس سابقه يضايق "زران أطشميزاج أوغلو". تقول دائماً بأنه يجب فتح النافذة من أجل أن يغرد الكناري، ولكنها لا تجرؤ على فتحها بأي شكل. مازالت ذكرى إيجادها كناريها في ذلك الصباح مضرجاً بدمه طازجة في عقلها. في الحقيقة إن

لـلمة الرجل المدعو رسول القطط أغراضه وماله مع عشيرته من القطط، ورحيله مـن بـناء بـنبون أبعـد مـرتكبي هـذه القضـية أيضـاً، ولكنها تشعر بالقلق على كـناريها الجديـد مـن تعرضه إلى نهـاية سلفه طالما أن هنالك كل هذا العدد من القطـط الشـاردة الـتي تـتجول هـازة ذيولهـا. خاصـة أنهـا تشك بالقط الضخم المـتجول حول البناء من الصباح إلى المساء بمكر، والمنفوش الوبر كأنه سلخ جلد أربعة قطط وارتداها، الأسود القطراني، النمرودي الوجه.

في الحقـيقة إنـه لم يكـن لــ "زران أطشـميزاج أوغلـو" أي مـيل نحو تربية الكـناري أو أي طائـر آخـر قـبل أن يكسر "زكريا أطشميزاج أوغلو" (33 عاماً) أنفـه لـلمرة الـرابعة. كـم كان أنف ابنها عديم المشاكل قديماً جداً، عندما كان عبارة عن بروز لطيف على غضروف هش لم يأخذ شكله بعد. ولكن فيما بعد، عـندما خطـا خطوتـه الأولى إلى الـيفاعة، وأثـناء زوال تعرجات وجـهه الناعمة كـلها تعـرض أنفـه لتغـيير غـير مـتوقع، فقد طال بشكل فظ، ثم انعطف نحو الأسـفل بشـكل حـاد آخـذاً شـكلاً شبيهاً بالخطاف. خمدت زران "أطشميزاج أوغلـو" في زاويـة، وهـي تـتابع هـذا التغـيير كأنها تتبع اقتراب غريب مهدد خطـوةً خطوة. كانت مسرورة جداً من أنفها الذي يعد جميلاً إلى أبعد حد، أما بالنسـبة إلى زوجهـا، فقـد كانت تعتقد أن أنفه يعتبر منتظماً على الأقل إذا لم يُعـد جمـيلاً. في هـذا الوضـع، اضـطرت للتسـلق عـلى أغصـان شـجرة العائلة الأعـلى، لأن "زران أطشـميزاج أوغلـو" تعـتقد أن كل نوع من أنواع التشوهات ناجم عن جينات وراثية خربة. وهكذا عندما أدركت بألم أن تحول أنف ابنها قـد اكـتمل، وأنـه لـن يعـود إلى أصله أبداً، تناولت خريطة الجينات، وبدأت عملـية البحـث لعلها تحدد المسؤول على الأقل. عادت خطوة خطوة إلى الوراء مركـزة على جذور زوجهـا أكثر من تركيزها على جذورها العائلية مدققة بوضع الأقـرباء الذيـن تعـرفهم واحـداً واحـداً. وعـندما لم تجـد شيئاً، اعتكفت على البحـث في ألـبومات الصـور القديمـة ألـبوماً تلـو آخـر، ولكنها خرجت خالية الوفـاض في رحلاتهـا غـير المحـدودة عبر خارطة الجينات كلها. بعد ذلك مر الزمن، وتخلت عن البحث.

وهكـذا دخـل زكـريا عامه الرابع عشر، وطار بسرعةِ مرحلة البلوغ، وأثناء طيرانـه نازلاً من أعلى الطريق على دراجة هوائية هشم عظم أنفه. عندما تلقت "زران أطشـميزاج أوغلـو" هـذا الخـبر، شـعرت بـراحة داخلـية لـن تسـتطيع الاعتراف بها لأحد. ولكنها أملت أن تكون تلك الحادثة المشؤومة نقطة تحول على صعيد تحسين حال ابنها وأنفه وسيرهما، ولكن ما حدث بعد ذلك هو أن كـل شـيء قـد سـاء أكـثر. ونتيجة العملية الجراحية التي علموا فيما بعد أنها عملت لمجرد صرفهم حصل أنفه البشع أصلاً على اعوجاج لا يمكن إصلاحه، وبقـي عـلى هـذا الـنحو. الأمـر الغريب أن زكريا بدأ بالدخول في طرق معوجة وملـتوية في تلـك الأيـام بالضـبط. كـان زكـريا "أطشـميزاج أوغلو" ينحرف عن الطـريق الرئيس الذي تحاول أمه إدخاله فيه في كل فرصة، ويلج في كل مفارق الطـرق الفرعـية الـتي يصـادفها، ولكـثرة إضـاعته طـريقه سـيخرج في الـنهاية باعتـباره مصدر خجل وعذاب. في السنة التي كسر أنفه فيها بدأ بسرقة النقود مـن محفظـة جدتـه لأبـيه، وفي الخامسـة عشـرة من عمره بقضاء أوقات فراغه كـلها بالاسـتمناء، وفي السادسـة عشرة برؤية المدرسة ساحة لسحق كل من هم أضـعف مـنه، وفي السـابعة عشـرة بـتدخين علـبتي سجائر يومياً، وفي الثامنة عشرة بفضول الحصول على الغنى من أقصر الطرق المكنة، وصار يدس أنفه في كـل مسـتنقع يلـتقط رائحـته بأنفـه الذي صار يوتر أمه أكثر تدريجياً. العملية الجراحـية الثانـية الـتي أخضـع لها أنفه في تلك الأثناء، جعلتهم يبحثون عن الأولى بسـراج، ووصلت مخاوف "زران أطشميزاج أوغلو" إلى ذروتها الصارخة، وبدأت تنضب آمالها التي علقتها على ابنها.

وبـالقوة الـتي اسـتجمعها زكـريا أطشـميزاج أوغلو خلال فترة النقاهة، وفي الثانـية والعشـرين مـن عمره، تواصل مع مافيات مرائب السيارات في مختلف أحـياء الطـرف الأناضـولي مـن اسطنبول، وعشق في الثالثة والعشرين من عمره موظفـة مصـرف أرملـة وأمـاً لطفلـين، وفي الـرابعة والعشـرين طعن موظف أمن المصـرف الـذي دفعه لمهاجمة عشيقته السابقة في كتفه بالسكين، وألقي القبض علـيه، وفي السادسـة والعشـرين كسـر أنـف رئـيس "رابطـة تجمـيل حـي

قوزقونجوق" الذي حاول تنظيم أهل الحي لإيقاف بناء مرآب سيارات في حديقة قصر تاريخي منتقماً من الحياة بشكل سافل، وفي السابعة والعشرين ضيع أثره على عائلته، وحدد مكانه في الثامنة والعشرين من عمره، وزوج على عجل من إحدى قريباته التي وجدها كبار رجال العائلة مناسبة له، وأنجب ولداً فوراً، في السنة ذاتها. وبحسب ما تحكيه زوجته المياسة كغصن مصببة دموعها مشتكية من همومها فإن الزواج لم يصحح ولو قليلاً من طباعه. ممكن أنه لم يعد يتجرجر في الأزقة ليلاً ونهاراً كما كان في السابق، ولكنه تحول إلى جام من التوتر الخالص. في نهاية إحدى نوبات توتره تلك ضرب سيدة تقود سيارتها خلفه عندما صدمته من الخلف على الشارة الصفراء، وفي اليوم الثاني أكل علقة فظيعة من زوج السائقة الضخم الرهيب، وحدث هذا على حساب أنفه للمرة الثالثة.

خلال هذا الزمن كله انتظرت "زران أطشميزاج أوغلو" وضع كنتها المولود الجديد بفارغ الصبر. لأن الأطفال الذين يسقطون في الرحم في فترة تعثر علاقات الأب والأم، ويخرجون من مكانهم، هم على مدى الدهر مثل كيس الإسمنت. فهم أكياس إسمنت صغيرة يسدون التشققات الظاهرة، ويحافظون على انتصاب أعمدة البيت، ويعيدون تلصيق حالات الزواج المهتزة إلى حد تعرضها للانهيار، ولكنها تجاوزت هذه الاهتزازات! عندما جاء مولود "زكريا أطشميزاج أوغلو" إلى الدنيا كان له دور ككل كيس إسمنت، وهذا الدور على مرحلتين: الحيلولة دون تهشيم أنف أبيه بداية، ودون تهشيم زواج أبويه.

وهذا ما حدث، لمدة على الأقل: مرت سنة وخمسة أشهر ونصف بالضبط من دون أي حادث. ولكن فيما بعد وصل ذلك الخبر المعلوم. أثناء تنزيه زكريا الطفل بعربته في البيت، تدحرج في بيت الدرج. حضّرت "زران أطشميزاج أوغلو" نفسها لمواجهة المشهد نفسه للمرة الرابعة، وبأسف أقل بكثير هذه المرة ذهبت إلى المستشفى الذي ذكرت اسمه الكنة وسط البكاء والشهشهة من دون أن يُفهم منها ما قالته على الهاتف. ولجت الغرفة بغضب شديد، ونظرت متعجبة إلى ولدها الواقف أمامها سليماً معافى. من ناحية كسر أنف في البيت أثناء

الحادث فقد كُسر، ولكن هذا لم يكن أنف زكريا، بل أنف الطفل الذي كان نائماً في عربة الأطفال التي يجرها زكريا في البيت، وسقطت في بيت الدرج. عندما رأت "زران أطشميزاج أوغلو" الضماد الذي اعتادت على رؤيته وسط وجه ابنها على مدى سنوات، والمرفرف في كل مرة كأنه راية التمرد على نظامها، اقتنعت بوجود انتقال جينات مخيف من مكان ما، ولا يمكن إصلاح هذا الأمر نهائياً. قطعت أملها من ابنها ومن نسله نهائياً.

كان أول عمل لها فور عودتها إلى بناء قصر بنبون بتلك التعاسة هو إغلاق غرفة النوم عليها، والانكباب على إعادة تنظيم الخزانة الجوزية التي تخبئ في أحد أدراجها أغراض ابنها عندما كان طفلاً. لأننا عندما نقرر عدم حب أحد ما بقرار ذاتي، ندخل عملية محاسبة مع أغراضه الآيلة إلينا بداية. ولأن "زران أطشميزاج أوغلو" لا ترمي شيئاً يعود لعائلتها أبداً، وتعارض رميه بشدة، فإن أشد حساباتها حدة يمكن أن تظهر على شكل إفراغ أغراض ابنها في الوسط، وتقليبها، والتدقيق فيها غرضاً غرضاً، ثم إعادتها إلى أماكنها. وبعد أن قلبت الخزانة الجوزية رأساً على عقب، فجأة ظهر أمامها المتهم بنقل الجينات الذي بحثت عنه على مدى سنوات طويلة بين صفحات كتاب "آداب المعاشرة" القديم التالف المدسوس خلف الدرج الأسفل. في جزء **"كيف يتم الحديث مع امرأة غريبة في مقصورة قطار"** من الكتاب الذي تحوي كل صفحة من صفحاته صورة، دُست صورة من يعلم منذ متى، ومن الذي دسها؟ الجواب الذي بحثت عنه "زران أطشميزاج أوغلو" متحرقة على مدى سنوات مخبوء في هذه الصورة المصفرة. لأن أنف الأخ الأصغر الرابع لجد زوجها، المتشبه بالنساء، والمتلوي بحركات يحاول تحسين مظهره عبرها، والمخبول، ذاك الذي يُذكر بالسوء دائماً، ويسميه الجميع "هدهد" باعتباره المسؤول الأول عن كثير من المشاجرات الناشبة في العائلة، يتطابق بالضبط مع أنف زكريا. وقف "حمدي الهدهد" في الصورة الملتقطة له في سنوات تقدمه في السن بشكل جانبي كأنه يريد إبراز بشاعة أنفه جيداً، وعلى رأسه قبعة مدورة، وبيده مشرب سجائر طويل، ينظر من فوق أكتاف أفراد عائلته المتحلقين حوله نحو

البعيد حالماً وهو ينفث دخان سيجارته. الخطأ الأساسي الذي ارتكبته "زران أطشميزاج أوغلو" في معجم سلالة العائلة هو أن عدم اهتمامها بطائر الهدهد الذي لم ينقل خبراً من أحد إلى أحد غير ذاك الذي نقله من النبي سليمان إلى بلقيس. ما همها فقط هو الرجل الذي يحمل ذلك اللقب. من الظلم الفظيع أن يحط أنف أحد الأقرباء البعيدين جداً المسنين الخرفانين، والذي يحمل مورثات هي الأسفل في سلالة العائلة كلها، وهو مجرد مزلاج الباب الخارجي في العائلة، وسط وجه ابنها الوحيد حبها الأول الذي لم يره ولو مرة واحدة في حياته تاركاً مورثات أبيه وأمه. المخيف أكثر هو أن يكون حفيدها ابن السنة والنصف حلقة جديدة في سلسلة المورثات نفسها.

وبدافع لحظي، حملت هذه الوثيقة الكريهة مع كتاب "آداب المعاشرة"، ورمتهما في الزبالة. ورغم أنها سمعت كلاماً كثيراً من الحاج مدير البناء بأن وضع الزبالة في مدخل البناء في ساعات مختلفة من اليوم يبشع منظره، أخرجت الكيس الأصفر، ووضعته أمام الباب.

خمس دقائق، عشر، ثلاث عشرة... بعد سبعة عشر دقيقة بالضبط شعرت بندم عميق. يجب عليها أن تحتفظ بهذه الصورة القديمة حتى ولو كانت غير محببة وهي التي تحتفظ بكل ما يتعلق بسلالاتها باهتمام حتى اليوم. ولكنها عندما فتحت الباب من جديد، وجدت أن الريح تصفر مكان كيس الزبالة. في تلك اللحظة خطرت ببالها قصة سمعتها من أمها في وقت ما. وضع أبواها قطاً ربياه سنوات طويلة، ولم يعودا يريدانه في كيس، وألقياه في سيارة، بعد ذلك ابتعدا بقدر ما استطاعا، وتركا الكيس في مكان قفر خارج المدينة. عندما عادا إلى البيت مساء، وجدا القط أمام بيتهما ينتظرهما بائساً. حين نظرت "زران أطشميزاج أوغلو" إلى الفراغ مكان كيس الزبالة شعرت بتلك الرجفة الباردة التي شعرت بها أمها لحظة رؤيتها ذلك القط المخطط أمامها. ثمة اقتران بين حال بوء الأحلام بالفشل عند رؤية شيء تعلق بنا أردنا التخلص منه لحظة اعتقادنا بأننا تخلصنا منه، وضياع شيء منا لحظة اعتقادنا بأننا سنسترده فوراً.

حدثت أمور مشابهة من قبل أيضاً. فقد سرقت أكياس الزبالة من أمام بيت مريم قبل أن تجد فرصة لجمعها. ولكن من يمكن أن يكون قد أخذ تلك الزبالة التي نريد أن نتخلص منها، ولا نهتم بها ولو بمقدار ذرة، وبأي نية أخذها؟ مع أن الوضع مختلف هذه المرة. الآن تريد أن تستعيد زبالتها. فجأة بدا كيس الزبالة المفقود بعينها حافظة أسرار، أو رسالة مختومة. إزالتها بسرعة من دون تقليبها والتنقيب فيها عمل لم ير غريباً قام به... أمر شخصي خاص، وله حرمة. زبالتنا لها حرمة طالما بقيت أمام بيتنا. إنها لنا، وهي عنا بشكل خاص. فور إلقائها في براميل الزبالة لا يبقى لها علاقة بنا، وتغدو ملكاً جماعياً. يمكن للذين يكسبون حياتهم من الزبالة أن يدسوا أصابعهم القذرة في براميلها التي وسط الزقاق بقدر ما يشاؤون، وفي كوم الزبالة المرتفعة في الزوايا والأطراف، أو المزابل خارج المدينة. ولكنهم يُعدون مستبيحين حرمتنا عندما يفتحون أكياس الزبالة التي أمام بيوتنا، وخاصة إذا حاولوا سرقتها.

على مدى الساعة التي تلت ركضت من أسفل البناء إلى أعلاه، ومن أعلاه إلى أسفله ناظرة إلى كل مكان يمكن أن تكون الزبالة فيه، واشتبهت بالجميع. وانطلاقاً من الاعتقاد بأن الزبالة التي أمام الأبواب يمكن أن تتوجه إلى مجرى رئيس كالوديان التي تصب في مجرى نهر، خرجت، وقلبت كوم الزبالة المتراكم عند جدار حديقة البناء. ولكن الأرض انشقت، وغار كيس الزبالة الأصفر المربوط فمه ربطة فراشة في ذلك الشق، وضاع من دون حس أو نبس. وطالما أن البوابين قد ذهبوا إلى القرية، فلم يبق إلا احتمال واحد: الشقة المقابلة! ولكنها عادت من صالون تصفيف الشعر الذي ولجت إليه مع زوجها وابنتها خالية الوفاض ومتوترة الأعصاب. لم تكتف بتحويل كيس الزبالة بما فيه صورة "حمدي الهدهد" إلى سر، فوق هذا عادت بعد أن سمعت حفنة من الإهانات من مصفف الشعر الشرير جمال.

صادف ذلك اليوم شراء "زران أطشميزاج أوغلو" طائر كناري مغرداً. مع أن أسماكاً كانت لديها من قبل. أسماك مختلفة الألوان والأنواع...

أصل الأمر أن ابنة "زران أطشميزاج أوغلو" الكبرى مريضة مرضاً عصبياً، ولم يكن عندها أدنى ميل للأسماك حتى يوم قبولها بمرض ابنتها. كانت تحب ابنتها الكبرى، ولعلها أحبتها أكثر من أي شيء آخر في فترة من الفترات. في الأيام التي بدأ أنف ابنها المعوج والمعجرف ينتصب أمامها، بدأت تحول اهتمامها وحبها كله إلى ابنتها الكبرى. كانت "زينب أطشميزاج أوغلو" (31 عاماً) كما هي اليوم أكثر حركة ومبادرة من أخويها. عندما وصلت إلى الحادية عشرة من عمرها كانت تريد في الوقت نفسه أن تكون مديرة في المدرسة التي تعمل فيها أمها، وعاملة إطفاء تضخ مياه إدارة المياه فوق أسطح المدينة كلها، وطائشة على هواها مثل أخيها الأكبر من جهة، وتحبك بالصنارة المفردة مثل أختها من جهة أخرى، ومسرحية مثل والد صديقتها الأقرب في المدرسة. لم يتغير شيء عندما وصلت إلى سن الحادية والعشرين. مازالت تعمل على أن تكون أكثر من الأشخاص المجتمعين حولها كلهم. في أحد الأيام قسمت الزمن إلى أقسام صغيرة بلغت العشرات، ودست في كل قسم من أقسام الزمن عملاً مختلفاً، وتعمل هذا حيناً، وذاك أحياناً، والجانب الغريب في الأمر أنها تنجح في تلك الأعمال كلها. كان ذكاؤها حاداً إلى حد مداعبته كبرياء أمها الوراثي. ولكنها كانت تعيسة بقدر ذلك الذكاء أيضاً. لم يكن أي شيء تمتلكه كافياً، ولا تكتفي به. كما أنها لم تحصل على شيء تام أبداً في الحياة. ما تسمى "الكلية" هي مفردة معجمية مفرغة. مثلاً ليس ثمة بحر، بل ثمة بحار لا متناهية، ولا نهائية العدد كل منها يتدفق في جهة معينة حتى داخل بحر واحد. تصل الأمواج التي نراها إلى الشواطئ بالارتفاع والكثافة المتبقية من فضلات مجموع الحروب بين البحار. تصل وتتفتت رغوة وذرات. وكذلك الأمر لم تكن اسطنبول موجودة. كان ثمة عشرات، ومئات، وآلاف، وملايين الزمر والجماعات والمجموعات التي تسير كل منها في مسارها الخاص. السلبيات تذهب الإيجابيات، والرياح المتعاكسة توقف جريان إحداها الأخرى، ولأن قوة إحداها لم تتفوق على الأخرى، تنجح المدينة بالمحافظة على نفسها، ولكنها تتناقص في هذه الأثناء من دون توقف.

واسطنبول كالأمواج تماماً هي ما تبقى من نقص المجموع في الحقيقة. فهي الشيء المتبقي مما تقرضه الفئران، وتنقره النوارس، ومما يعرفه سكانها، ومما تحتُّه السيارات، ومما تنقله السفن، ومن الهواء الأول الذي يستنشقه مواليد لا أحد يعلم كم منهم يأتي إلى الحياة في الساعة... ومما يتناثر متفرقاً بهذا الشكل، وينقص ويكتمل. عندما تعرضت "زينب أطشميزاج أوغلو" لأول نوبة عصبية كانت في الثانية والعشرين من عمرها.

لم تتأثر "زران أطشميزاج أوغلو" بما قاله الطبيب أبداً، لأن الطبيب أيضاً لم يأخذ ما قالته على محمل الجد. لم يُصادف في أي ورقة من أوراق شجرة العائلة أمراضاً "كهذه". هاهو "حمدي الهدهد" البقعة الأشد سواداً، فقد كان عقله سليماً جداً، وعلى ما يرام. بقي أن ابنتها الكبيرة هي الأذكى، والألمع بين أولادها الثلاثة. لم تكن النوبة التي مرت بها سوى إحدى نوبات مرحلة البلوغ التي جاءت متأخرة.

استجماع زينب أطشميزاج أوغلو نفسها خلال مدة قصيرة أقنع الأم أكثر بأنها على حق. ولكن مع هذا، سيتبين خلال فترة قصيرة جداً أن هذا التحسن ليس دائماً بل مؤقت. ستقسم الحياة بالنسبة لابنة أطشميزاج أوغلو الكبرى إلى فصلين مختلفين اعتباراً من ذلك الوقت: عندما تمرض، تمرض وكأنها لن تتحسن أبداً. وعندما تتحسن، تغدو جيدة كأنها لن تمرض مرة أخرى. ليس ثمة حالة وسط بينهما. ولا أحد يستطيع تحديد متى تنتقل من حالة إلى أخرى. ردة فعلها إزاء الأخبار السيئة تشكل الفرق الأوضح بين تانك المرحلتين. في الأوقات التي تكون مريضة لا تختار إلا ألواناً معينة مثل المصابة بعمى الألوان، فلا تهتم إلا بخبر سيئ واحد، وتقرأ الجرائد من أجل هذا النوع من الأخبار فقط. قضايا الاغتصاب، وقضايا الشرف، وأحداث الانتحار، والبنات المجبرات على الدعارة، وأطفال الإدمان على التنر، والانتحاريين المشكلين قنابل حية، والأطفال المخطوفين من المستشفيات فور ولادتهم، والشباب الميتين بتأثير المخدرات... إضافة إلى الجريدة تمشط ملاحق المدينة بانتباه: حفر الصرف الصحي التي لم تغلق، أنابيب المياه المنفجرة، الزبالة

التي لم تجمع، الطرق المسدودة، النشالون المسعورون، محلات المعجنات المهورة بالشمع الأحمر نتيجة القذارة، والجزارون الذين يبيعون لحم خيل، البقالون الذين يبيعون مسحوق غسيل مهرب، عصابات مرائب السيارات، البيوت الخشبية المحروقة لأسباب مجهولة متحولة إلى رماد، انفجارات أسطوانات الغاز، تسربات الغاز، وحوادث السرقة القسرية... لا تكتفي زينب أطشميزاج أوغلو بمتابعة أخبار الجرائم هذه، بل تحكي عنها مزينة لها وملونة للجميع. في الأوقات التي تكون فيها جيدة، تقرأ الجرائد قافزة على أخبار الكوارث ذات الصور الكثيرة. على كل حال هي الوحيدة بين آل أطشميزاج أوغلو التي تقرأ الجرائد باستمرار.

عندما يخرش صوت ابنتها الكبرى المتحدث عن الكوارث، تستمع زران أطشميزاج أوغلو لصوت بقبقة مياه حوض السمك المليء بأسماك ملونة، وأحجار لامعة وغير لامعة، وأدوات فورسفورية. مع أنه كان لديها نباتات زينة قبل الأسماك. نباتات زينة متنوعة...

زيليش أطشميزاج أوغلو (23 عاماً). ليست ذكية كأختها الكبرى أو لا مبالية كأخيها الكبير. في الحقيقة لا يمكن القول إنها تشبه أفراد عائلتها على صعيد الشخصية أو المزاج، ولكن الاختلاف يأخذ حالاً صادمة عند مقارنتها بأختها الكبرى. وكما ينمو فطر كسول متراخ بجوار نبتة مشاغبة برية تتفتح أزهار تداعب البصر ساحباً أشعة الشمس والماء كله، فقد التصقت بأختها مندسة بحافة حياتها. كانت في حال وسط ومنكمشة وكسولة وقليلة الانتباه. كأنها اختارت مكاناً في الوسط، ووقفت على عتبة آمنة أثناء ذهاب أختها الكبرى بين قطبي الذكاء والجاذبية من جهة، والطيش والبكاء من جهة أخرى. بينما أراد أخوها الكبير "أن يكون شيئاً"، وأختها الكبرى "أن تكون كل شيء"، فهي أرادت طوال هذه السنوات "ألا تكون شيئاً".

وكانت الأقل تحملاً للمخاوف بين آل أطشميزاج أوغلو. كانت المخاوف بالنسبة إلى بقية أفراد الأسرة عبارة عن تهديدات قادمة من الخارج. ورغم أن أسباب تلك التهديدات متنوعة، ولكن العنوان الذي تأتي منه هو نفسه دائماً:

العالم خارج الستائر المخملية السميكة الرمادية اللون. يشعر زيا أطشميزاج أوغلو بالخوف دائماً من إعادة رفع دعوى قضية الرشوة، ومن توقيفه، وإلقائه في السجن، ومن الوقوع في الجرائد، والسقوط على ألسنة الناس. أما المخاوف الأساسية التي تعاني منها زران أطشميزاج أوغلو فهم أولادها. بروز التطرف الديني من بعدها، والتعرض لاعتداء نشال أثناء المرور في الطريق، والوقوع تحت مصيبة. أما زكريا أطشميزاج أوغلو فيخاف من الفشل في السرير، والعجز في الحياة، ومن الذين لهم عليه دين قمار، ومن الخوف ذاته على الأغلب. عندما نأتي إلى زينب أطشميزاج أوغلو فهي أساساً مطيرة عقلها ذاهبة وآيبة بين الآبار المخيفة والموجسة والوهمية، والمحيطات الجريئة وغير القلقة والحقيقية.

أما المخاوف بالنسبة إلى زيليش أطشميزاج أوغلو فهي قبل كل شيء أمر مجرد. فهي كالهواء تماماً، موجودة في كل مكان، ولا يمكن لمسها أو القبض عليها باليد. فهي أبعد من أن تعرف باحتمالات إعادة رفع دعوى الرشوة، والمسمرة في المكان نتيجة ديون القمار، أو وصول المتدينين المتطرفين إلى السلطة. أولاً، إن المخاوف ليست خارج الإنسان، بل هو الذي يؤويها في داخله. لأن "الخوف، والقلق، والهواجس" تُغذى من "احتمال أن يكون كل شيء مختلفاً". (ها هو بيتك، وأصدقاؤك، وجسدك، وعائلتك... هي لك، ولكنها مع الأسف ستؤخذ منك في يوم ما!) وعندما نأتي إلى المخاوف، فهي تتغذى على "الخوف من احتمال ألا يكون أي شيء مختلفاً". (هاهو بيتك، وأصدقاؤك، وجسدك، وعائلتك... هي لك، ولكنها مع الأسف يمكن أن تبقى هكذا!) عندما كانت في المدرسة المتوسطة، ذهبت عدة مرات إلى بيوت زميلاتها. حتى ذلك الوقت كانت عندما تذكر الأم، تفهم زيليش أطشميزاج أوغلو أنها أمها، ويذكر الأب، فتفهم أنه أبوها، وتذكر العائلة، فتفهم أنها نسخة ورق كربون عن عائلتها، ولهذا كانت تلك الزيارات نقطة تحول في حياتها، لأنها منحتها فرصة رؤية أمهات وآباء وعائلات لا تشبه ولو بمقدار ذرة التي لها. فالخجل الذي بدأت تشعر به من عائلتها صار مثل عقوبة نقدية تنمو فائدتها بشكل ماكر، وتكبر متضاعفة.

كانت التأتأة في حروف معينة في مدرسة الدروس الخصوصية هي قرط في أذن زيليش أطشميزاج أوغلو: "ضضضعوا سائلين بالكثافة نفسها، والمستوى نفسه في وعائين، وللنصل الوعائين فيما بينهما. وللننتظر انتقال السائل من أحدهما إلى الآخر" كانت تتحدث هكذا بالضبط. تقول هذا ثم تضيف: "للللنلا ننتظر بلا جدوى إن أردتم. لا لا لا تن تن تنسوا يا أولاد. دددائماً من العالي إلى الواطئ، ومن الكثير إلى القليل... في الحالة العكسية، لن يكون هناك نقل أو ما نقل بين المتشابهات". بالنسبة إلى زيليش أطشميزاج أوغلو فإن مستوى المخاوف وكثافتها هي نفسها داخل البيت وخارجه. رغم هذا فهي لا تجد الجرأة لمغادرة الشقة رقم أربعة في بناء قصر بنبون على ألا تعود. عملت كثيراً من المخططات حتى الآن. ولأن تلك المخططات كانت مخططات خروج من البيت أكثر منها مخططات هرب، فلم يكن عندها أدنى فكرة حول المكان الذي تذهب إليه، وماذا تفعل بعد خروجها من البيت.

ولكن زران أطشميزاج أوغلو لم يكن عندها أي توقع من ابنتها الصغرى التي لا تجد لديها خصوصية غير أنها تفقد وعيها من رؤية الدم أو لونه. المشكلة الوحيدة هي حاجة نباتات الزينة الرهيفة الجذابة الموزعة في أربعة أرجاء البهو لمزيد من أشعة الشمس.

ولأن أشعة الشمس لا تتسلل بسهولة من ستائر الشقة رقم أربعة مثلها مثل نظرات الغرباء، فإن نباتات الزينة تلك كلها ذوت فرادى ومثنى. كما قدمت الأسماك في الحوض أيضاً خسائر كبيرة في وقت ما. وعشيرة رسول القطط مزّقت الكناري أيضاً. في الحقيقة إن كنارياً جديداً في القفص نفسه الآن، ولكنه لم يغرد ولو مرة واحدة لسبب غير مفهوم.

# الرقم 3: مصففا الشعر جمال وجلال

تلفع الذين كانوا في صالون تصفيف الشعر بالصمت المتوجس الخاص بمن قبض عليهم متلبسين عندما رأوا المرأة التي يتحدثون عنها متمادين منذ فترة داخلة من الباب. إيجادكم شخصاً أمامكم كنتم تتحدثون عنه طالعاً ونازلاً قبل دقيقة أو دقيقتين، والنظر إلى عينيه، واضطراركم للضحك في وجهه، يثير في داخل الإنسان شعوراً غريباً بأن مجموعة من الأحابيل تحبك له. بدت هيجين تيجين في أعين الذين في الداخل كمن يظهر عند ذكره وهو غائب. ولكن سبب شعور الذين في مواجهتها بالقلق ليس ناجماً عن عدم استطاعتهم ترتيب تعابير وجوههم المتراخية والسكرانة من تبادل النميمة فقط، فقد حل عليهم دهشة رؤية من لم تخرج من بيتها منذ أشهر طويلة هنا الآن، أي في زيارة نهاية نهاية "قائمة الأماكن التي من المحتمل أن تزورها".

كان جمال أول المتملصين من هذا الجمود. ومن دون أن ينتبه إلى القطيعة التي يخلقها خطابه الموحي بأنه يحدث من لا يعرفه أبداً، ولا يعرف حتى اسمه، قال بصوت صادح فرح: "أهلاً بكم، تفضلي يا سيدة تيجان!" وتوجه إلى الباب. للإدمان على النميمة تأثيرات جانبية على هذا النحو: بقدر ما

تتناولون شخصاً ما بالنميمة بقدر ما تشعرون أنكم قريبون من هذا الشخص، وتبدؤون بالاعتقاد أنكم تعرفونه منذ زمن طويل. مع أنه من الممكن أن لا يكون يعرفكم أبداً. لو أن جمالاً قد حصل على قليل من الاستجابة نحو حميميته، لعله ينجرف، ويري هيجين تيجين غاضباً منها لعدم مجيئها على مدى كل هذا الوقت. ولكن لم يحدث هذا. بعد أن رمقته المرأة التي أمامه بنظرة جامدة توحي بعدم امتنانها ولو مقدار ذرة من فرقه إلى قدمه، التفتت من دون أن تقول شيئاً، وبدأت تدقق يميناً ويساراً. تعلقت عيناها مرات ومرات بقصاصات الشعر التي على الأرض منتظرة كنسها، واهتراء المناشف الفاقدة لونها لكثرة غسيلها، والبقع التي على أغطية النايلون ذات رسم جلد النمر المربوطة على الرقاب، والتشقق الرفيع الممتد في حافة المرآة من أولها إلى آخرها، والبعوضات الميتة على حافة الرف الممتد بالتوازي مع المرآة، وعلب مثبت الشعر الموضوعة إحداها فوق الأخرى من علامة تجارية واحدة، وغبار الرفوف المصفوفة عليها علب رغوة الشعر والملمع، وكبب الشعر المحشورة بفراشي الشعر، والإسفنج المثقب الظاهر من شقوق الأرائك، والمياه العكرة ذات الفقاعات على طاولة طلاء الأظافر ذات الطوابق الثلاثة. كان الامتعاض الذي تشعر به نتيجة ما تراه عميقاً، ورغبتها بترك المكان فوراً واضحة إلى حد جعل جمال الشاعر بإهانته مع مكان عمله يسحب كلمات ترحيبه التي جهزها على رأس لسانه، ويصمت.

ولكن هيجين تيجين لم تلتفت إلى الخلف، وتذهب غاضبة كما توقع جمال. بعد ثوان عديدة من وقوفها مسمرة لا تتقدم خطوة ولا تتأخر، قطعت تفتيشها لهذا العالم الثقيل والدنيء لكي لا تشهد مزيداً من تفاصيله، وزحلقت بصرها نحو النافذة المفتوحة المطلة على الخارج. حينئذ رأت الخادمة المياومة التي نزلت إلى الحديقة لتجمع الألبسة. وفي اللحظة ذاتها رأتها الخادمة بعينيها الرمصاوين اللتين يقرأ فيهما الامتعاض لاضطرارها جمعَ ألبسة تملأ حقائب عدة، وكأنه لا يكفيها عدم استطاعتها التملص من عبء التنظيف طوال اليوم. كانت المرأة المسكينة متعبة إلى حد أنها لا تمتلك الطاقة الكافية لإبداء الدهشة من وجود هيجين تيجين في هذا المكان. وضعت سلة الغسيل

المليئة إلى ذروتها على الأرض، وبقي جسمها الضئيل في الحديقة مادة رأسها المغطى بغطاء بلون عفن الليمون عبر نافذة مصفف الشعر، وتمتمت بصوت يائس: "أنا ذاهبة يا سيدة تيجين، عندي أولاد ينتظرونني." ولكنها بدت غير مستطيعة إيجاد رابط يحمل معنى بين الكلمات الخارجة من لسانها وحالتها مما جعلها تشعر بالحاجة لشرح يلخص الوضع: "هذه هي السلة الأخيرة، جمعتها كلها. سأصعد بها إلى الأعلى الآن، وأدعها في البيت. نزلت وصعدت خمس مرات أصلاً. لا تنتظرينني يوم الخميس. لم يعد هذا الحي على طريقي."

إذا كانت السيدة تيجين قد قطبت حاجبيها قليلاً، ولكنها اكتفت بالموافقة على ما قالته بهز رأسها من دون أن تنبس. ولكن تعبير وجهها لم يشي بقلقها وما كان يخطر ببالها في تلك اللحظة، أما شعورها بالضيق لوجودها هنا بين أناس لا تعرفهم أبداً فلم يكن خافياً. ولكي يُنقذ جلال توءمه من هذا العذاب، اقترب منه محاولاً ترميم الجسر الذي طحنه أخوه طحناً، وانتصب واقفاً هكذا أمامها حتى سألها بصوت يوحي بالثقة عما تريد أن تفعله بشعرها. وفي النهاية نقلت بصرها من الفراغ المتشكل في الحديقة بعد ذهاب الخادمة المياومة إلى جلال، واستطاعت القول: "لست أنا، بل ابنتي." ولكي يُفهم ما قصدته بقولها، انزوت جانباً. في تلك اللحظة فقط استطاع من في صالة تصفيف الشعر توجيه عيونهم السوداء تماماً نحو الوجهة الصحيحة قبل أن تتلون بالبني أو الرمادي أو أي لون آخر، ومن دون الانحراف إلى أي طريق فرعي لتنتبه للفتاة الصغيرة الضعيفة الرهيفة. كان شعرها رطباً، وتتساقط من تجاعيده عند مستوى الكتفين قطرات كبيرة كأنها وقعت تحت مطر صيف غزير أثناء مرورها في الطريق.

أثناء اصطحاب جلال زبونته الصغيرة إلى أمام المرآة، عمل على ابتلاع المعاملة التي رآها قبل قليل، ودعا أمها للجلوس على إحدى الأرائك الجانبية. لم تجلس هيجين تيجين فوراً. استمرت بالوقوف ممتعضة وقلقة على مدى خمس أو عشر ثوان. استسلمت بعد ذلك، وجلست على أقرب أريكة من

الأرائك المشار إليها لتجلس. عندما وصلت إلى جوارها فتاة طلاء الأظافر المعتادة على سؤال أي زبونة عما إذا كانت تريد أن تطلي أظافرها، كانت عيناها مستمرتين بالنظر إلى الأرض، أما عقلها فمن المحتمل أن يكون في جغرافيا أخرى ناظرة إلى بقعة متطاولة إلى الأمام قليلاً على الأرض. لحظة سماعها السؤال الموجه لها، سحبت يديها نحو الخلف قرفة كأنها لمست فأرة غير مرئية، وأخفتهما في ذات الوقت خلفها. فتاة طلاء الأظافر غير المتوقعة ردة فعل آنية ووحشية إلى هذا الحد مشت القهقرى متراجعة غاضبة. ولكن الشك دب في داخلها فور جلوسها. ترى هل زل لسانها! ترى هل خرج من لسانها قول: "السيدة هيجين" مكان قول: "السيدة تيجين". ألهذا يا ترى تقطب وجه المرأة هكذا فجأة؟ مع إمعانها بالتفكير قويت قناعتها بإمكانية أن تكون قد قلبت شجرة صنوبر. لأن العقل عضو متشائم بتكوينه الأساسي. عندما يتردد بين احتمالين متعاكسين، يميل إلى الاحتمال السلبي دائماً. مع إمعان فتاة طلاء الأظافر بالتفكير بالأمر وتقليبه، وثقت بأنها كسرت صنماً كبيراً. فكرت لحظة بالالتفات نحوها والاعتذار منها. ولكن الأمر الوحيد الذي فعلته هو الانكماش خلف طاولة طلاء الأظافر ذات الطوابق الثلاثة متوترة، والنظر فيما حولها عاملة على فهم ما إذا كان ثمة من سمع الخطأ الذي وقعت به.

في هذه الأثناء كانت "صو" التي أجلسها جلال على المقعد الواقع إلى يمين العجوز أمام المرآة الطويلة تدور مقعدها مدققة فيما حولها بفضول الدخول أول مرة إلى مصفف شعر نسائي. ولكنها اضطرت لتقصير مدة التدقيق فيمن حولها عندما قابلت أحداقاً أنثوية ترمقها بدقة، وشفاهاً محمرة تبتسم لها بظرافة أينما نظرت. الشخص الوحيد الذي لم تشعر بنظراته الدبقة عليها في هذا المكان الغريب هي المرأة العجوز التي تجلس بجانبها. كانت تعرفها. إنها جارتهم التي مقابلهم في الطابق، والتي تراها أحياناً عند دخولها إلى البيت وخروجها منه، والمتعاملة معها معاملة جيدة دائماً. كان جسمها المغطى أغلبه بنايلون حتى الرقبة ووجهها الصغير المصبغ بشكل كثيف بارزاً من تحت الغطاء، يبدو كأنه تمثالاً نصفياً موضوعاً على قاعدة مائلة ولونه أشخاص طرفاء بألوان كثيرة.

عندما انتبهت المدام الخالة لنظر الطفلة إليها، التفتت نحوها، وابتسمت. كادت تقول لها شيئاً ما، ولكنها عندما رأت جلالاً قادماً بقطعة خشب عريضة مربعة الشكل التفتت إلى أمامها. يكره التوءمان العمل وهما محنيان طاقين، لذلك يضعان هذه الخشبة على مسندي الكرسي عندما تأتي زبونة طفلة، ويطيلانها بإجلاسها على تلك الخشبة. ولكن صو فور إدراكها نية جلال هزت رأسها بحرارة إلى الجانبين من دون أن ترفع عينيها عن المرأة العجوز الجالسة بجوارها، وجرش صوتها بشكل واثق قائلة: "ولكنني أطول من هذه. فلماذا لا تجلس على خشبة؟"

ذهل جلال الذي لم يكن عنده إجابة جاهزة ولو مرة واحدة في حياته، ولم ينجح نهائياً بتسميع أحد ما كلاماً، وامتقع إزاء اعتراض كهذا. وعندما رأى أن المدام الخالة لم تغضب من هذه العبارة، بل على العكس من هذا، فقد ضحكت مقهقهة معطية الحق للفتاة بقولها، أعطى الخشبة للأجير غير المحبحب الوجه ليعيدها. ولكنه بعد ذلك مباشرة التفت كأنه استشعر بحكمة سرية في قول الطفلة، ناظراً بدقة إلى انعكاس وجهي زبونتيه شريكتيه بالأسرار. كم تبدوان متطابقتين وكأنهما شخصية واحدة أمام المرآة العريضة وهما جالستان متجاورتين، ومربوط الغطاء النايلوني برقبة كل منهما ولم يبق منهما غير رأسين صغيرين فقط. مع أنهما على طرفي نقيض زمني —إحداهما كانت في الحادية عشرة، أما الأخرى ففي الثامنة والسبعين— ولكن كلاً منهما في حدود طول عمر الإنسان. في الحقيقة إن الفتاة قد أخطأت، فهي لم تكن أطول من المرأة العجوز. إنهما بالطول نفسه بالضبط، ولعلهما بالوزن نفسه. كم هو غريب تساوي جسم امرأة عجوز جداً وصلت إليه معانية، وجسم طفلة وصلت إليه نامية. كان هذا يشبه مصعدين أحدهما صاعد والآخر نازل كل منهما في طريقه، وللحظة، وفي تلك اللحظة فقط وصل أحدهما إلى جوار الآخر. بعد ثانية، أو ساعة، أو شهر... ولكن بعد شريحة زمنية معينة بالتأكيد، سيبقى أحدهما منخفضاً والآخر مرتفعاً، وبعد ذلك مباشرة سيتباعدان تماماً. ليس بعد زمن طويل، بعد حركة واحدة فقط، ستذوب عظام

العجـوز قلـيلاً أيضـاً، وستنمو عظام الطفلة الصغيرة قليلاً. الغريب في الأمر أن إحداهما وجدت الأخرى في لحظة تلك المساواة الهوائية، والتقيا هنا.

لحظة شعور جلال بالتشابه بين المرأة والطفلة الصغيرة فصًل، وخيط محبة مطابقة لتلك التي يكنها للمدام الخالة من أجل الطفلة. لهذا السبب قام بنفسه بتحضـير شـعر الطفلـة الصـغيرة للقـص، كمـا قصـه بنفسه. فلت الشعر القوي المجعـد الأحمر المربوط عشوائياً بشريط بلون صفرة الصمغ. بدأ بمشط خصلاته الـتي مـازال المـاء يقطر منها بعناية. وفي هذه الأثناء لم يهمل سؤال الطفلة عن اسمها، لأن الكبار عندما يريدون إقامة تواصل مع ولد يبدؤون الحديث بسؤاله عـن اسمه، بعد ذلك يشعرون بضرورة مديح هذا الاسم. وجمال أيضاً قال: "ما أجمل هذا الاسم الذي لك؟". ولكن عقل صو في تلك الأثناء لم يكن هناك لأنها كانـت غائصـة في مجلـة نسـائية عـلى كـل صفحة من صفحاتها صورة عارضة لـنموذج شـعر غرائبـية. كما تبدو أنها لن ترفع رأسها بسهولة عن المجلة لولا صراخ أمها الحاد جداً.

كمـا يـندس الكلاب بالذين يخافون منهم، أو تخرج الشعرة في طاس حساء الأكـثر قـرفاً مـنها فـإن الصرصار الذي فقد أثره جمال أثناء شروده في الحديث اخـتار مـن بـين كـل هـذا العـدد مـن الناس الموجودين في المحل أن يدخل في زاويـة رؤيـة "هـيجين تيجين". الأجير غير المحبحب الوجه العازم على ملء عين معلميه تدخل في الوضع في تلك اللحظة بالضبط. حول الصرصار إلى حثالة قرف مسطحة تماماً تحت حذائه.

قـال جمـال متأتئاً: "ملأت هذه الصراصير كل مكان." ولكنه لم يستطع أن يكمـل جملـته. كـان يـرى مؤخـراً في الأطـراف صراصـير غريبة جداً لا يعرف اسمهـا ولا شـكلها. كـأن أنواعهـا تـزداد مع ازدياد أعدادها. تفوح من بعضها روائـح كـريهة عـندما تموت. هرع الأجير غير المحبحب الوجه لجلب ملطف الجو.

قالـت المـدام الخالـة بتعبير خوف مختلف عن الذي كان تواً: "لا تنتظري إن رغبت يا سيدة تيجين. لا تقلقي على ابنتك. نصعد معاً إلى الأعلى."

كانت هيجين تيجين يائسة إلى حد أنها لم تجعلها تعيد العرض مرة ثانية. قفزت من فوق جثة الصرصار، وأودعت أجرة القص في الصندوق، والتقطت أنفاسها عند الباب ذي الأجراس. ولكنها قبل أن تخرج من الباب، توقفت لحظة، ولوحت بيدها بامتنان للمرأة العجوز، وبمحبة لابنتها.

فور خروجها من الباب، انتفضت فتاة طلاء الأظافر التي كانت تجلس منذ فترة كأنها بالعة عكازاً. قالت مقطبة وجهها: "قرفت. حتى إنها لم تشرب القهوة شاكّة بأنها قذرة. فوق هذا ألا تقربها من أنفها، وتشمها؟ لم تعجبها لأن رائحة الكلور لا تفوح منها."

تدخلت الشقراء الشهلاء العينين المستمرة بالجلوس رغم انتهاء شعرها منذ زمن طويل مع الحميراء البدينة في الحديث. أمر جمال برفع صوت التلفزيون عندما رأى كليباً ينتظره بفضول منذ فترة قد بُث في النهاية، فجُدد الشاي، وأشعلت السجائر، ودفنت رخاوة صالة تصفيف الشعر الدائمة بسرعة مدهشة. فور خروج التي كانوا يتحدثون عنها طالعاً ونازلاً عندما دخلت ليجدوها أمامهم فجأة من دون مقدمات، وأدى دخولها إلى حقنهم بشيء من الشعور بالذنب غير الواضح عبر وريد الرقبة، وغيابها عن زاوية رؤيتهم، واقتناعهم بأن مقالب القضايا السرية قد انتهت، لف الحديث، ودار، ووصل إلى هيجين تيجين الآن. يمكننا القول عن هذا بأنه: "انعطاف إلى الجهة المعاكسة بأقصى سرعة لمن ضغط عليه." وبالشكل الذي تكره فيه الطبيعة الإنسانية الفراغ، فإن غرابة النميمة هي إرادتها إكمال الأجزاء الناقصة. وجود طفلة في الصالة، حتى كون هذه الطفلة ابنة التي يرمونها بالكلام، لم يمنع الذين في صالة تصفيف الشعر من الكلام. لأن النساء عندما يبدأن بالنميمة بشكل حقيقي، ومن كل قلوبهن، وعن قصد، وليس لمجرد الكلام فإنهن يعتبرن أن أصواتهن مبحوحة أو أن الطفل الذي بجوارهن أصم.

أما بالنسبة إلى صو فقد بدت كأنها غير منتبهة إلى أن الكلام والتشبيهات المطلقة هي بحق أمها، ومازالت تقلب صفحات الجرنال بكل ما تملكه من

انتباه. تعلقت عيناها بصورة امرأة هجينة عارية من الخصر إلى الأعلى، رفعت خصلات شعرها القصير إلى الأعلى، ولونت كل خصلة بلون فوسفوري.

قال جمال المتضايق من النميمة والقلق من حزن الطفلة: "هل أعجبك؟ لنعمل لك شعرك هكذا أن أردت. ستغدين مباهية كبيرة في المدرسة."

قالت صو بوجه عابس: "غير ممكن! سيكون شعري أقصر من هذا."

كاد جلال يعترض قائلاً: "لئلا يكون قصيراً أكثر من هذا يا روحي."

رفعت صو رأسها عن المجلة، ورمقت جلالاً بعينها. توهج ضوء صغير جداً ماكر، صغير بقدر رأس دبوس، وانطفأ في بئري عينيها الأسودين.

كادت تصرخ وهي تقول: "مستحيل! حينئذ لن تتساقط قملاتي."

الحنطية العصبية التي تدقق بشعرها في المرآة وهو رطب، وقد فُكت لفافاته كلها أشارت بعينها وحاجبها فوراً للشقراء الشهلاء. ولكن صو رفعت صوتها أكثر عندما فهمت أن ثمة مستمعين لها.

"نادتني المعلمة في المدرسة إلى عندها. وكتبت ورقة، وقالت: 'خذي هذه واقرئيها لأمك' وأرسلوني إلى البيت. غضبت أمي كثيراً عندما قرأت الورقة. قالت بأن قملاً يوجد في رأسي. دخلنا إلى الحمام، وغسلناه بالدواء. قالت: 'أنت ابقي، لا تخرجي!' وأنا جلست في حوض الحمام. بعد ذلك أخرجت ثيابي من الخزانة. ألقت ألبستي كلها من النافذة على أن فيها قملاً. رمت أغطية الأسرة أيضاً. ورمت حقيبتي التي أحملها على ظهري."

قالت فتاة طلاء الأظافر: "لم نر حقيبة ظهر" مبدية دهشة كمن علم بعد خروجه من السينما أنه فوت أهم تفصيل في الفيلم.

حاول جمال تمرير الأمر بقول: "أصيبت بالعدوى من المدرسة. تحدث أمور كهذه."

قالت صو هازة كتفيها: "لم أصب بالعدوى من المدرسة. لا يوجد في المدرسة غيري مقملة أساساً."

تبادلت النساء نظرات محملة بالمعنى. معروف للجميع أن هيجين تيجين عاندت لإرسال ابنتها إلى مدرسة باهظة التكاليف جداً لا أحد يذهب إليها في

هـذه الأنحـاء، وصـرفت كل ما بين يديها من نقود في هذا السبيل غير مترددة بتوتير زوجها فقط، بل بتعريض زواجها للانهيار من أساساته.

قالـت الفتاة ضاحكة: "لا يوجد عند أحد قمل في الصف. ستصاب المدرسة كـلها بـالعدوى مـني الآن." كـان ثمـة دلال مظـلم في ضـحكتها. كانـت تلـك الضـحكة ضحكة دلال لا تعـرف أين تتوقف، لا مبالية بردود فعل الناس من حولهـا، تـنطلق تلقائـياً، ولا تصـب إلا في ذاتهـا، ولعـلها تعاني من نقص في الـلهو فقـط. وكانت ضحكة مظلمة تنطلق منفلتة بأقصى سرعتها مثيرة نفسها، وفـاقدة ضـبطها مع تسارعها، وممكن أن تسقط في خندق في أي لحظة متحولة إلى ألم. كانـت غـير متجانسـة، ومتناقضـة. وكانـت مـنقطعة قـدر المكـن عن مضـمون مـا تقولـه. كانـت ضـحكة مبالغاً بها أكثر من اللازم، وثقيلة أكثر من المعهود، وزائدة بالنسبة إلى طفلة في عمرها.

"تقـول أمـي بأن القمل سرى إلي من أبي. وقد سرى إلى أبي من ساقطاته، بعد ذلك سرى إلي عندما احتضنني."

كـأن الباب والنافذة قد فتحا على مصراعيهما في اللحظة ذاتها، فاقشعرت النسـاء مـن رؤوسهن إلى أقدامهن كأنهن وقعن بين يدي ريح منفلتة من عقالها فاصـطففن إحداهـن بجـوار الأخرى أمام المرآة العريضة. لأنه من المدهش سماع أسـرار العائلـة الأخفى من لسان طفل بهذا الشكل. وهذا يشبه أخذ فاكهة من حديقـة الجيران من دون القيام بسرقة. لعله ثمة ذنب، ولكنه لا يوجد مذنب. مـتى عُـد الانـزواء جانـباً والإفسـاح لـلماء القـذر الجاري أصلاً بالجريان ذنباً؟ والذيـن في صـالة تصـفيف الشـعر أيضـاً انـزووا جانـباً كـي يفسحوا في المجال للطفلـة كـي تتكـلم بـراحة، وتتكـلم كـثيراً. كانوا ينتظرون مجيء تتمة الكلام نـافدات الصبر من أجل الحصول على أكبر كمية ممكنة من المادة الأولية، ومن دون أن يلوثـوا أيديهـم مـا أمكـن، ومـن دون الـتدخل في الأمـر، أو توسـيخ أنفسـهم، قـدر المكـن. حـتى جمـال الذي لا يستطيع البقاء أكثر من دقيقتين هادئـاً، وعدم المتمكن من عدم دس أنفه في أي حديث يدور من حوله، وإذا لم يفعـل هـذا يـنفجر مـن الضـيق لا تسـتطيع السكين أن تفتح فمه. المدام الخالة

فقط، هي وحدها التي شعرت بضرورة التدخل من أجل إغلاق هذا الحديث غير المحبب. ولكن كل ما استطاعت عمله بسبب عدم معرفتها ما ستفعله هو انكماشها في المقعد الذي تجلس عليه بعد أن نبهت جلالاً لضرورة إنجازه عمله في أسرع وقت ممكن. وفجأة انتفضت قليلاً. أخرجت طرف العقد الفضي الذي كان مخبوءاً داخل بلوزتها، وعصرت صورة القديس سيرافيم في راحة يدها شاردة.

ألقت صو نظرة على وجوه الجميع مدورة مقعدها دورة كاملة وكأنها تريد التأكد من التأثير الذي خلقته كلماتها. عندما أكملت دائرتها وعادت إلى مكانها السابق، التقت عيناها السوداوان اللتان لا تتلونان بالبني أو الفضي أو أي لون آخر بعيني المرأة العجوز الكحليتين الرماديتين البارقتين في المرآة كالخرزتين. أثناء إطلاق المدام الخالة الهواء الذي سحبته مهمومة بشكل خفيف من أنفها الدقيق من الصعب تحديد ما إن كانت قد ابتسمت بخجل يؤوي في مكان ما عذراً، أم أنها على العكس تماماً، أم اعتذرت من الطفلة لوجود مستمعين فضوليين من حولها. ورغم عدم استطاعة صو فك معنى هذه الابتسامة المعكرة، فقد ابتسمت لها أيضاً.

نادى جمال أجيريه ليساعداه حين أدرك أنه يجب أن يتحرك بسرعة. خلال عدة دقائق عمل الثلاثة من ثلاثة أطراف معاً فأنهيا كلاً من المرأة العجوز والطفلة معاً. بعد ذلك أمسك كل من الأجيرين مرآة بيضاوية خلف رأس كل منهما بشكل يريهما كيف صار شعرهما من الخلف. وهكذا عندما حوصرتا بالمرايا من الأمام والخلف تكاثر وجهاهما، وتداخلت شبيهاتهما متكاثرة.

* * *

ولكنه ظهر بشكل قاطع فرق العمر بينهما عندما ودعهما جلال حتى الباب، وصعدا درج بناء بنبون. كثيراً ما وقفت الطفلة منتظرة التي خلفها، ورجعت أحياناً عن الدرجات التي صعدتها، وصعدتها معها. وعندما وصلا إلى الطابق الثالث بهذا الشكل، توقفت المدام الخالة من أجل أن تلتقط أنفاسها.

صو أيضاً أسندت ظهرها إلى الجدار، وبعد أن رفعت إحدى رجليها، وجذبتها نحوها كأنها معاقبة، وجدت هذه الاستراحة فرصة لتحكي أموراً جديدة لصديقتها العجوز التي أنجزت تسخين نفسها.

"يوجد في الصف ثلاث بنات أطلقن علي لقباً. ألا يوجد على الدفتر لصاقة الاسم والكنية. كتبن هناك صو المقملة بحروف كبيرة. مع أن اسمي بنغي صو/ الماء الخالد، ولكنني أختصره."

رغم القلق الذي شعرت به المدام الخالة من ضحكة الطفلة قالت: "أتعرفين، أنا أيضاً قملت عندما كنت صغيرة."

قالت صو: "حقاً؟ وهل أطلقوا عليك لقباً؟" ومن جهة أخرى كانت تحاول معرفة من يكون الجد المقطب الحاجبين البرتقالي اللحية المعلق في عقد المرأة العجوز.

"لا لم يطلقوا علي لقباً. كان عندنا امرأة تغسل لنا الغسيل، تضجع أولادها بالدور على ركبتها، وتطقطق القمل. وهي التي فلّتني. اضطربت أمي مع الأسف. كانت امرأة رقيقة، لا تستطيع القيام بأعمال كهذه. هكذا رُبيت، ماذا تفعل؟ إذا اصفرت إحدى الورود في الحديقة وذوت، تغدو طريحة الفراش من حزنها مع الأسف. يغيب صوابها على مدى أيام إذا رأت فأراً ميتاً. من الواضح أنها أتت في الفترة الخاطئة إلى الحياة..."

تجمدت عينا المرأة العجوز الكحليتان الرماديتان. ولكن هذه الحال لم تستمر طويلاً. انتبهت إلى أنها على وشك الولوج إلى حديقة الذاكرة المحظورة بغريزة الناس الذين حرموا على أنفسهم منذ وقت طويل جداً تذكر بعض الأحداث أو ذكر بعض الأسماء، تراجعت فوراً. غمزت بعينها ممازحة كأنها تشارك أسرارها الطفلة التي بدا رأسها أصغر عندما قص شعرها.

"لا تهتمي لمناداتك صو المقملة. كل شخص يُقمل عندما يكون صغيراً. وليس عندما يكون صغيراً فقط. يقمل الإنسان عندما يكبر أيضاً. من أين ستعرفين أن هذا مقملاً أو ذاك؟ وهل يُرى القمل بالعين. الجميع يتظاهرون كأنهم ملاعق بيضاء خرجت تواً من الحليب، ولكن ثمة قمل فيهم بالتأكيد!"

عندما وصلت صو المسرورة بالطيب الكامن وراء تلك الكلمات أكثر من سرورها بمضمون الكلمات التي سمعتها إلى الطابق الرابع، قرعت جرس بيتها طويلاً جداً. وأثناء ولوجها إلى الداخل، صرخت: "أنا جئت!". وإذا بدت هيجين تيجين قلقة من تأخرهما، فيبدو عليها أنها تخلصت من التوتر الذي كانت عليه بعد الظهر. شكرت جارتها. ردت عليها المدام الخالة قائلة: "انظري كم صار جميلاً. إنه قصير وأنيق جداً في آن واحد" بعد ذلك تبادلتا النظرات بضيق لعدم وجود ما تتكلمان به وضرورة إيجاد ما تتكلمان به.

قالت هيجين تيجين: "كنت سأقول لك تفضلي، ولكنني لم أتخلص من همِّ التنظيف بعد. عندما ذهبت الخادمة المياومة بقي كل شيء غير مكتمل." أخذت شخصية المرأة المنطوية على نفسها الخجولة محل العصبية المتوترة التي كانت في صالة الحلاقة.

"طبعاً، طبعاً. أنجزي عملك بالتنظيف. ولكن لا تتعبي نفسك كثيراً. اضطجعي، وأريحي نفسك قليلاً فقد تعبت اليوم. وأنا أصلاً عندي شغل."

لم تذهب إحداهما إلى بيت الأخرى حتى الآن. تلتقيان أحياناً عند الباب هكذا، وتتبادلان بعض العبارات المتفرقة.

ردت "هيجين تيجين" منفعلة: "وهل النوم ممكن؟ انغرزت الآلام في رأسي بسبب هذه الروائح المقرفة. يقول زوجي إنني أبالغ. هل ترون أنني أبالغ؟ وأنتم أيضاً تشمون الرائحة، أليس كذلك؟ ألا تشمون يا مدام خانم رائحة الزبالة؟"

عبرت وجه المدام الخالة سحابة غير واضحة تماماً. عندما بدأت الكلام من جديد، كان صوتها وعراً مثل يديها الشاحبتين التي نفرت عروقهما.

"ذهب أخي إلى القاهرة قبل سنوات طويلة. بحسب ما قاله فإن الإنسان يسمع هديراً لحظة نزوله من الطائرة. إنه هدير القاهرة. مع أن المطار بعيد جداً عن المدينة. وإذ بالمدينة ترسل صخبها إلى مسافات بعيدة. فكروا بهذا أولاً. أي مدينة تلك، وأي أناس أولئك الناس الذين لم تستطع قواقعهم الاتساع لهم ففاضوا منها. أليست اسطنبولنا مدينة كهذه يا سيدة تيجين؟

القاهرة هادرة، ولكن اسطنبول فواحة. يلتقط الغرباء رائحة اسطنبول قبل أن يقتربوا منها وهم بعيدون. نحن لا نشمها. يقال إن الأفاعي تحب الحليب، أينما كان هنالك حليب تتبعه الأفعى متعقبة رائحته. ولكنها هل تشم رائحة الحليب وهي سابحة في قدره. وكما لا يسمع القاهريون صخبهم في أي حال، فإن الاسطنبوليين لا يشمون روائحهم. ويا لشيخوخة هاتين المدينتين أيضاً. لم أعرف أن اسطنبول عجوز إلى هذا الحد عندما كنت شابة. تتكاثر زبالتها في واقع الحال مع تقدمها بالسن. لم أعد أغضب. وأنت يا سيدة تيجين لا تغضبي أيضاً."

عندما رمشت تيجين هيجين بعينيها الأبنوسيتي اللون الواسعتين الطويلتي الأهداب التي أهدت مثلهما لابنتها من دون أي معنى غير عارفة ما ستفعله، صمتت المرأتان. لحظات الصمت الموحشة المنثورة بينهما هي نغمات الأحاديث الدائرة بين الذين لا يتكلمون اللغة نفسها. وتكررت خلال فواصل زمنية معينة. تحدثا أحاديث عامة وحول الزبالة قليلاً أيضاً، وتبادلا الأمنيات بأيام سعيدة بظرافة. أُغلق البابان بهدوء في محاولة عدم صفعهما. ولكن المرأتين لم تعودا إلى صخبهما الخاص بعد إغلاق كل منهما بابها. كل منهما وضعت أذنها على الباب لمدة عشر ثوان تقريباً موجهة نحو الخارج عاملة على معرفة ما تفعله الأخرى من خلال وقع حركتها. ولم تسمع أي منهما شيئاً.

# الرقم 5: الحاج حاج وابنه وكنته وأحفاده

"كان هنالك في قديم الزمان ولي عظيم..."

قال الذي في السابعة والنصف من عمره: "أما كانت حقيقية؟ لماذا بدأت كالحكاية؟"

نظر الحاج حاج إلى الولد متضايقاً. كان يغضب من حفيده هذا أكثر من أحفاده الثلاثة، ولا يستطيع أن يغضب. لم يكن هذا الولد من بني الإنس، بل جني أو أسوأ من الجني. إنه أصل سلالة الجان. لهذا السبب صار عجيباً إلى هذا الحد ياه، رأسه كالحوجلة... ولكنه خجل من نفسه فوراً لتفكيره بهذا. قال في داخله التوبة، وطرد هذه الأفكار الخبيثة من عقله. أخذت التوبة حالة من ردة الفعل عنده. يُطلق التوبة خارج إرادته بما يُشبه التشنج العضلي الآني لحظة جزعه من شيء. هذا ما فعله حينئذ، وثلاث مرات أيضاً. توبته الأولى لأنه حاول بعقله المحدود فهم مخلوق من مخلوقات الله، ولماذا، وحقق في هذا الأمر. وذكر الثانية لأنه اعتبر نفسه شك بشرف كنته ولو عن غير قصد حين فكر بتتبع سلالة الجان. وأطلق التوبة الثالثة لأنه فكر بأمور سيئة بحق ولد مريض. ولكنه أطلق الأخيرة هذه بصوت

مـرتفع، جهـراً من دون أن ينتبه. عندما سمع الذي في السابعة والنصف من عمـره هـذا، أمعـن بغم عينيه الخضراوين الطحلبيتي اللون المسحوبتين كخط أكـثر مما همـا مغمومـتان، ونظر إلى الرجل المسن منتبهاً. هرب الحاج حاج بعينـيه المرتبكـتين. إن لم يكـن هـذا الولـد جنياً فهو شبيه الجان. فالوسامة الـتي حـرمه مـنها الله وزعهـا على أخويه، ولكن من أجل إحقاق الحق فقد وهبه ذكاء أكثر من مجموع ذكاء أخويه، وحتى أكثر من ذكاء السلالة كلها. مـاذا سيكون عندما يكبر يا ترى؟ ليس جسده فقط هو الذي ينمو بشكل غير مـتوازن، بـل عـدم التناسـب بين جسده ورأسه أيضا ينمو كل يوم أكثر. إلى أيـن سيصـل رأسـه الـذي كـبر حـتى الـيوم فقط إلى أكبر من مرة ونصف من حجمه الطبيعي؟ لم تكن ذراعاه تلفان نحو الخلف، فهما محنيتان إلى الأمام كـأذرع القـردة. كـم سـيعيش بهـاتين اليدين الشبيهتين بالمخلبين، وأعراض Ma- ro- te- aux- la- my الـذي لم يسـتطع أحـد لفظـه بشكل صحيح؟ تألم قلبه فجأة. ابتسم بشكل غير ناجح.

قـال بتعـبير مؤنس: "هذه ليست حكاية، بل حقيقة. إنها قصة ولي عاش في زمـن قديـم جـداً، لذلـك انزلقـت مـن لساني هكذا مثل الحكاية. هذه أمور حدثت حقيقة. وللولي قبره. يمكنك أن تذهب، وتراه إذا لم تصدقني."

فجـأة أدرك الـزلة الـتي زلهـا، فـانكمش صـامتاً. لم يعـد حفـيده الذي في السـابعة والنصـف مـن عمـره يسـتطيع الخـروج من البيت. ثمة فائدة من عدم خـروجه. فهـو عـلى عكـس إخوتـه وأقرانه، عالمه كله عبارة عن مئة وخمسة أمـتار البيست هـذه. طبطـب الحـاج حـاج عـلى رقـبة الولد من الخلف بعطف مستمد من الرحمة.

"قـبل أن يغـدو ذلـك الولي ولياً كان درويشاً. عندما حاصر حضرة السلطان محمـد الفـاتح مديـنة اسطنبول هـرع فـوراً لمسـاعدته. قـرعوا الأسـوار بقذائف المدافـع. بذلوا جهودهم لأيام طويلة، ولكن الكفرة البيزنطيين لم يستسلموا بأي شـكل. وفي ذلـك الوقـت بـالذات صـعد هـذا الدرويـش إلى حضـرة سـلطان السـلاطين، وقال له: اسمحوا لي يا سلطاني لأفتح شقاً كبيراً في تلك الأسوار،

بعد ذلك يدخل جنودكم من تلك الفتحة، ويقطعون رؤوسهم كما لو أنهم يقطعون فخذ دجاجة. نظر سلطان السلاطين: إنه درويش رث الهيئة. ماذا يمكن لدرويش كهذا أن يفعله. لم يصدقه، وطرده من حضرته. مرت على هذا الأمر أسابيع ولم يستطيعوا أخذ اسطنبول بأي شكل. أنهك جيش العثمانيين العظيم من التعب والعطش. في ذلك الوقت تذكر سلطان السلاطين هذا الدرويش، وطلبه ليأتي إليه. قال له: ها هو إذنك معك، اذهب لنرى. فرح الدرويش كثيراً، وقبل يدي حضرة السلطان محمد الفاتح وأثوابه. ذهب إلى الدراويش الآخرين، واستسمح منهم. بعد ذلك دار دورة حول الأسوار، وفكر بالمكان الذي سيختاره. بعد ذلك حدد المكان. الأسوار في ذلك المكان أثخن، ويوجد جنود أكثر. لأن قصر ملك البيزنطيين وراء هذا الجدار مباشرة. قال الدرويش: هيا أطلقوني نحو الأسوار في تلك الناحية. دهشوا طبعاً، ولكنهم رغم هذا فعلوا ما طلب. وضعوا الدرويش في المدفع، وأطلقوه."

قال الولد الذي في السابعة والنصف من عمره مبتسماً ابتسامة لا قرار لها: "هيا ياه، قتلوا الرجل!"

"لم يمت. إنه ليس مثلك ومثلي. لم يغد ولياً من لا شيء على كل حال." ورقق صوته من أجل التوبات التي أطلقها قبل قليل. "أطلقوا الدرويش. وبالسرعة القصوى ذهب إلى تلك الأسوار، والتصق بها. أي إنه لم يسقط. فتح ذراعيه ورجليه جيداً، وتمسك بتلك الجدران كالعنكبوت. كان جنود البيزنطيين ينبعون فوق الأسوار كالرمل. عندما رأوا الدرويش، قذفوه بالنبال المسمومة. لم يصبه أي منها. أمطروه بنبال ملتهبة هذه المرة. وكانت النبال تحدث حريقاً حيث تسقط. أشعلوا العشب، وأحرقوا الأشجار، واحترق المكان بلهيب عظيم، ولكن شيئاً ولو صغيراً لم يحدث للدرويش. لم تحترق ولو شعرة من شعره. وقف وسط النيران مثل السمندر. نظر من بعيد، وابتسم لجنود الفاتح. دعا حتى المساء. وعندما غربت الشمس صلى أيضاً."

قال الذي في السابعة والنصف من عمره بصوت ناشز: "كيف يصلي إذا كان قد التصق بالجدار؟"

قال الحاج حاج ممعناً النظر: "صلى بعينيه. كانت المرحومة جدتك أيضاً تصلي بعينيها. هكذا يفعل الذين لا يستطيعون الانحناء والنهوض. بعد ذلك، قال عند انتهاء الصلاة: خذ روحي يا الله، وحولها إلى فراغ! قبل الله دعاءه، وقدح برق في السماء فوراً. أما أطلق البيزنطيون نبالاً كالمطر نحوه من مسافة قريبة إلى ذلك الحد، ولم يصبه واحد منها؟ ولكن البرق الذي انطلق من بعد لا يعرفه أحد قادماً من السماء، أصابه بالضبط. صار الدرويش رماداً. حينئذ تشكل مكان وقوفه على الجدار فتحة كبيرة. لم يصدق محاربو الفاتح أعينهم. الفتحة التي لم يستطيعوا فتحها في الأسوار على مدى أيام طويلة، فتحت بفضل الدرويش فوراً. ولجوا عبر تلك الفتحة بسرعة. وأنزلوا السيف على قائد الكفرة، وأخذوا المدينة. لم يلمسوا النساء والأطفال والخوارنة البيض اللحى. بعد ذلك عندما سكن حضرة السلطان محمد الفاتح اسطنبول، لم ينس تضحية ذلك الدرويش. أراد أن يعمل له قبراً. ولكن لم يكن للدرويش جسد. تمتم الجنود: كيف سيكون قبره إذا لم يكن له جسد، ماذا سيُدفن؟"

البنت المعتادة على مص آخر قطرة من التمايز الذي يمنحها إياه كونها وحيدة في البيت، وأصغر الأولاد، والتي في الخامسة والنصف من عمرها كانت تنظر إلى جدها بعينين غدتا كالزجاج. إضافة إلى الكلمات التي تتعلم كل يوم بعضاً منها، وتضعها في قعر حقيبة معلومات اللغة المزخرفة، ثمة كلمات راكمتها في مكان آخر، ووضعتها في محفظة ذات فتحة شريط لاصق. مثلاً: "روح"، "قيامة" أو "شبح". كذلك الأمر: "دابة الأرض"، "إبليس"، "المرحوم"، "أشباح الظلام" أو "زبانية". كلمة "محاربي" التي سمعتها قبل قليل، كورتها بين أصابعها الصغيرة، ورفعتها إلى المكان نفسه. لتلك الكلمات كلها معنى واحد عندها: جان! أما عندما نأتي إلى ما تعنيه الجان، فهي لا تعرف هذا بالضبط، وحين تشعر بضرورة معرفتها، تنسحب يدها إلى الخلف، وتمدها إلى محفظة الشريط اللاصق التي داخل حقيبة العقل ومعلومات اللغة المزخرفة، وتخرج كلمة لا على التعيين. وهكذا، إذا كانت عشرات الكلمات قد وجدت معنى في مكان ما من خلف الدماغ، فثمة شخصية جني خيالي

شفاف صنع من قماش شبكي ناعم كجناح ذبابة لم يكتسب جسداً تتغذى من جميع الجهات منتفخة باستمرار، وتتوسع كل يوم قليلاً مثل ستارة ضباب وقحة لتغطي ساحة أكبر.

تابع الحاج حاج كلامه بعد أن قطعه ليرتشف رشفة شاي، قائلاً: "أقاموا صلاة جنازة الغائب من أجله. بعد ذلك حملوا التابوت الفارغ على أكتافهم. بدؤوا يمشون، ولكن إلى أين يذهبون؟ لم يستطيعوا أن يقرروا إلى أين يذهبون بأي شكل. ولكن ألا يطير التابوت فجأة كطائر! بدأ يذهب أمامهم من تلقاء نفسه. وهكذا صعدوا ست قمم من قمم اسطنبول السبع، ونزلوها ماشين خلفه. عندما وصلوا إلى القمة السابعة، نظروا وإذ بقبر فارغ على مبعدة منهم إلى الأمام قليلاً. كان قبراً محفوراً عميقاً إلى حد ما، داخله فارغ، ومكشوف. انزلق التابوت نحو تلك الجهة فوراً. وعندما وصل إلى فوق القبر، انخفض، وانخفض، وبقي معلقاً على ارتفاع شبر. في تلك اللحظة ارتفع صوت هدير من داخل المقبرة."

ابتلعت التي في الخامسة والنصف من عمرها ريقها مصدرة صوتاً. ولكن الحاج حاج لم ينتبه لهذا، لأن جزءاً كبيراً من انتباهه كان مركزاً على ما يحكيه، وعلى ردود أفعال حفيده الأكبر.

"حينئذ أنزلوا التابوت إلى ذلك القبر. وأقاموا فوقه مزاراً. بقي اسم الولي الجد فراغ. ولم يحرمه من الدعاء كل قادم وذاهب من ناحيته."

"حسن، ولكن الرجل ليس هناك. ألا يعرفون أن القبر فارغ؟ لمن يدعو هؤلاء؟"

قال الحاج حاج متظاهراً بعدم السمع: "تذهب الآن النساء العاقرات إلى الجد فراغ. إذا ذهبت عروس فارغة الرحم إلى مزار الجد فراغ، ودعت، وجلست وحدها عند القبر ليلة كاملة من دون أن تنام، يُستجاب دعاؤها قبل شروق الشمس. وتلد ولداً ككرة النور قبل انقضاء سنة على هذا."

أبدى الأولاد الثلاثة ردة فعل مختلفة على هذا الكلام. التي في الخامسة والنصف من عمرها فتحت محفظتها، ووضعت بصمت كلمة "فراغ" بين

الكلمات المرادفة لكلمة "جني". ولأن الذي في السادسة والنصف من عمره يشعر بفضول خاص نحو ربط أي موضوع بالجنس بشكل ما، تعلق بجزء العرائس أكثر من جزء الولي. أما بالنسبة إلى الذي في السابعة والنصف من عمره، فثمة أسئلة يريد أن يسألها، واعتراضات يريد أن يقدمها. ولكنه رغم هذا لم ينبس. حل وقت قيلولته، حتى إنه مر. وبالنسبة إليه فإن هذا أهم بكثير من تثبيت أخطاء المنطق التي في حكاية جده.

يتباطأ الزمن خطوة تلو خطوة في هذه الساعات من بعد ظهر كل يوم في الشقة رقم خمسة. كل يوم يتكرر كل شيء، وبالتسلسل نفسه، وبشكل غير قابل للخطأ أبداً. في الصباح الباكر عندما تذهب أمهم إلى العمل، ويذهب أبوهم للبحث عن عمل، يعتني الجد بالأولاد طوال اليوم. عندما يبقون وحدهم ينشب شجار بينهم صباح كل يوم من دون استثناء في الساعة نفسها بسبب التلفزيون. الحاج حاج لا يحب لأحفاده أن يشاهدوا برامج التلفزيون، ولكنهم إذا أصروا على مشاهدة التلفزيون فيجعلهم يشاهدون إما أحد برامج الأطفال العبثية التي تبث من عدة قنوات تلفزيونية في آن واحد، أو الأفضل أن يشاهدوا أفلام الرسوم المتحركة. ولكن الصغار يصرون على مشاهدة برامج الصباح التي تقدمها مذيعات ثرثارات، إحداهن موشوم على بطنها زنبقة حمراء، أو التي ترتدي أثواباً من غير أثواب تاركة جيب صدرها مفتوحاً بحسب اليوم الذي تقدم فيه تلك المذيعات، وإذا لم تُلب مطالبهم فإما أن يثوروا، ويتشاجروا، وإما أن يتدللوا، ويقاطعوا جدهم. وردة فعل الحاج حاج تختلف بحسب اليوم. أحياناً يتقبل الأمر، وأثناء مشاهدة الأطفال التلفزيون يقرأ أحد الكتب الأربعة التي لم يتغير عددها على مدى سنوات طويلة، وأحياناً يسيطر على جهاز التحكم عن بعد، ويثبت الشاشة على أول فيلم رسوم متحركة يجده رغم طنين الاعتراض كله من حوله، وأحياناً يعمل على جذب انتباه أحفاده إلى جهة أخرى عبر ألعاب كل منها مفتعلة أكثر من الأخرى ضاغطاً على قوة خياله. ولكنه مهما فعل فإنه لا يستطيع انتزاع السلطة من يد أحفاده، وبشكل خاص من يد حفيده الأكبر. تغدو الأمور قريب

الظهر أسوأ بكثير بالنسبة إلى الرجل المسن. لأنه منذ شهرين، وفي ذلك الوقت من كل يوم يكوم الأغطية والمخدات التي في البيت كلها وسط البهو، ويبدأ بلعب "عثمان".

قبل شهرين من الآن قرأ الحاج حاج ثلاثة فصول من كتاب: **"كيف ولدت إمبراطورية رفيعة، ولماذا انهارت؟"** أحد كتبه الأربعة الثابت عددها عبر سنوات طويلة. وكان عندما يأخذ استراحة يتلقى ردود فعل مختلفة من كل حفيد من أحفاده. مثلا ثمة جوانب عدة أساسية تدفع الذي في السابعة والنصف من عمره لمعرفتها: "ترى بكم خيمة جاء الأتراك إلى الأناضول؟" رمى الحاج حاج رقم "ألف!" من عقله. ولكن هذا الجواب الذي أريد منه التملص من الأمر لم يفد سوى بإثارة فضول الولد أكثر. "ترى كم شخصاً كان مجموع الذين في تلك الخيام؟" هدر الحاج حاج بصوته قائلاً: "عشرة آلاف!". ولكن الغضب الذي يقطر من صوته، أجج فضول حفيده الأكبر أكثر. ترى عندما جاء الأتراك بخيامهم، ألم يكن هنالك غيرهم في الأناضول؟" زأر الحاج حاج قائلاً: "لم يكن هناك أحد، كانت خاوية، هم أيضاً هربوا ذاهبين.". "حسن، هل سكن الأتراك في بيوتهم؟ أم أنهم عاشوا فترة أخرى في خيامهم. ترى هل أسسوا أولى مدنهم بالخيام؟ ترى كيف ترسم مدينة متنقلة بشكل دائم في الخريطة؟ ترى...؟ قال الحاج حاج: "اصمت!". صمت الولد. صمت ولكن الأسئلة المتراكمة على لسانه كانت تدور في فمه، وتصعد إلى مجاري الأنف، ومن هناك تسلقت إلى الأعلى، ولأنها تسربت إلى ينابيع العينين، استمر تلامع أسئلة الاتهام الفضولية الصارمة بالاشتعال والانطفاء في بؤبؤي عينيه الطحلبيتي الخضرة كما تدور حشرة القنديل متلامعة في أمسيات الصيف.

التفت الرجل المسن نحو الذي في السادسة والنصف من عمره منتظراً بشحوب لكي لا ينظر إليه أكثر. ولكنة بالنظر إلى التعبير غير المحدد في وجهه، فإن الشيء الوحيد المتبقي في عقل هذا الولد هو وجود عدد كبير من الجواري في الحرم، وإن المجيء إلى الدنيا كأخ لسلطان السلاطين أمر ليس جيداً. وببقايا آخر أمل عند الحاج حاج أدار عينيه نحو حفيدته الأصغر التي

في الخامسة والنصف من عمرها. قفزت البنت الصغيرة التي يلمع الانفعال في وجهها إلى حضن جدها، وضغطت بمرفقيها البيضاويين الزهريين على بطنه، وقالت بشخصية البنت بنبون التي تتقمصها عندما تريد شيئاً من الكبار: "هيا يا جدي العزيز، لننصب خيمة نحن أيضاً!"

لو لم يكن الحاج حاج مستاء إلى هذا الحد من حفيديه الذكرين، لكان قد تردد قليلاً قبل أن يقفز فوق هذه الفكرة. ولكنه من أجل أن يعاقب الولدين الآخرين، وجد نفسه بعد عدة دقائق من طرح فكرة البنت وسط البهو ينصب خيمة بين كوم الأغطية والمخدات محولاً حنانه كله إلى مهارة يدوية. سيكون عندهم خيمة مثل أبناء عثمان بالضبط.

كانت الخيمة الأولى تلك التي نصبوها بدائية جداً بالنسبة إلى اللاحقات. حصل الجد والحفيدة على ساحة صغيرة مغلقة عبر وضع أربع كراس على شكل مربع، وفتح أغطية فوقها. بعد ذلك ملؤوا تلك الساحة بالمخدات. ولكن هذه الخيمة بحالها البسيطة نجحت بجذب اهتمام الولدين غير المشاركين باللعب، الباقيان جانباً يتفرجان بشك. لم يتحملا هما أيضاً بعد مدة، فأفرجا الغطاء الموضوع على أنه باب من أجل أن يستطيعا رؤية ذلك العالم المخبوء والواطئ، ودخلا، وجلسا متربعين بين المخدات مع جدهما. حينئذ شعر الحاج حاج بفخر اشتاق له منذ زمن طويل وقد ارتاح ضميره أضعافاً مضاعفة مما جعله يحتضن أحفاده طوال اليوم لأنه فرض عليهم كلمته في هذه اللعبة. ولكنه بدا بعد زمن ليس طويلاً، أي بعد يوم واحد فقط، أن السلطة التي فرضها الرجل المسن في البيت بهذه الوسيلة قد تأسست على أسس متأرجحة.

في الساعة نفسها من اليوم التالي، جلست التي في الخامسة والنصف من عمرها في حضن جدها بالأداء ذاته: "هيا يا جدي، لنعمل عثمان!" عندما سمع الرجل المسن الذي لم يلق عنه تعب رياضة نصب الخيمة السابقة، وتشنج عضلات ظهره باسم عثمان اقشعر جسده. ولكن تنبيهه لها بشكل حلو، وغضبه وفورانه لم يفيدا في شيء. وكانت عادة التي في الخامسة والنصف من عمرها هكذا. فهي إضافة إلى أنها لا يمكن أن تضع كلمة مكان

كلمة، فإن أي قوة في الحياة لا يمكن أن تجعلها تقطع هذا الرابط اللغوي الذي في ذهنها. الأشباح، الأرواح، الفراغات، الزبانية، المرحومون، المحاربون... وكيف هو الجني، فإن الخيمة وعثمان هكذا.

منذ ذلك اليوم غدا عثمان جزءاً لا يتجزأ من حياتهم. ففي الوقت نفسه من كل يوم، يبدأ الأولاد بالنقيق كأهل الخراب الذين حل وقت اشمئزازهم. قبل مرور نصف ساعة تكون مخدات البيت وأغطيته ولحفه وفرشه كلها مكومة وسط البهو. بأمل يائس انتظر الحاج حاج فقدان أحفاده ذوي شهية القرود هوسهم للعبة عثمان، إذا إنهم يملون أي لعبة بعد لعبها ثلاث أو أربع مرات، ولكنهم كانوا ثابتين إلى أقصى الحدود، ومبدعين فيها. وسعوا حدود خيمتهم تدريجياً، وأضافوا إليها غرفاً وأقساماً وكهوفاً. صاروا يعيشون حياة رحل حقيقية على مساحة تتراوح بين خمسة إلى عشرة أمتار. وتؤسس خيمة عثمان ظهر كل يوم، وتبقى حتى المساء وسط البهو، بعد ذلك، أي قبل نصف ساعة من عودة الأم والأب من عملهما تفك بسرعة.

ثمة حوادث أخرى غير لعبة خيمة عثمان تعاد كل يوم من دون استثناء. مثلاً، يرن جرس الهاتف كل يوم في الوقت ذاته، في الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة، بعد أن يجلس متفرجو الدقيقة الأخيرة للحفلة الأولى في أمكنتهم. وفي كل مرة يرفع سماعة الهاتف الولد الأكبر بين الصغار. ويقدم تقريراً لأمه مجيباً الإجابة نفسها على الأسئلة نفسها دائماً: نعم، أنهوا إفطارهم. لا، لا يعملون أي أذى. نعم، يشاهدون التلفزيون. لا، الجد لا يحكي لهم حكاية. لا، لم يفتحوا الغاز. لا، لم يعبثوا بأغراض البيت. لا، إنهم لا يتدلون من شرفة البيت. لا، لا يلعبون بالنار. لا، لم يدخلوا إلى غرفة النوم. والله لا يحكي حكاية. كانت الكنة تشك بصدق ابنها الكبير بشكل خفي، ولكنها تكتفي بما تسمعه لأنها لا تقترب من طلب حميها إلى الهاتف. في هذه الأثناء، عندما تكون السماعة بيد الذي في السابعة والنصف من عمره، ويعدد الإجابات المتعاقبة وفي صوته مكر خفي، لا يرفع عينه ولو لحظة واحدة عن جده. كان منتبهاً أكثر من اللازم للتوتر المستمر بين راشدين، وعند الضرورة

يحمي أحدهما الآخر، ويدافع عنه، لأنه اكتشف منذ زمن طويل أن هذا يقوي سلطته الذاتية، ويثبتها.

وكما يتناولون طعامهم داخل خيمة عثمان، فهم يحكون حكاياتهم فيها. بعد طعام الغداء كل يوم، وقبل التحلية، تنضم شخصيات جديدة باستمرار إليهم. خالات زوجات آباء من دون قلوب، أيتام منحوسون، وزبانية خارجون من جهنم، ولصوص قطاع طرق، جنيات تنصبن فخاخاً للرجال بجمالهن، محاربون ملوثة أيديهم بالدماء، مجانين بقرارات سلطانية، أفاع سامة، وطاعنون بالسن تهدلت عضلاتهم، وعفاريت جلد على عظم، أشباح فظيعة جاحظة العيون... تتجول من دون توقف داخل الخيمة. إذا جاؤوا لا يعرفون الذهاب بأي شكل. يحل عليهم ثقل عندما يكون بخار الجمل الأخيرة من الحكاية مازال يتصاعد. ينكمش كل شخص حيث هو. وكان الحاج حاج أسرع، وأسهل من يغط في النوم دائماً. ثم يأتي بعده بالترتيب التي في الخامسة والنصف من عمرها، والذي في السادسة والنصف من عمره. ينهض الذي في السابعة والنصف من عمره بهدوء عندما يتعالى صوت شخير جده، وتنفيخ أخويه. بداية يمر بالتأكيد بجانب جده، ويتفرج على الرجل المسن. كان يتفرج على الحاج حاج، وعلى منديله الصاعد والنازل تحت تأثير شهيقه وزفيره، ولحيته الشائبة، وسبحة الكهرمان المنزلقة من بين أصابعه، والشعر المبيض الصاعد من صدره إلى رقبته، وشفتيه المتشققتين، وتجعدات جبينه العميقة التي تفتح طرقاً متفرعة وكأنه يتفرج على حي لا يعرفه، أو يدقق متفحصاً فاكهة مدارية لا يستطيع الإمساك بها، أو محارة تملأ الأسرار داخلها... بدأ التدقيق بجده قبل هذا بسنتين ونصف، وهو على وشك إكمال اكتشافه.

كان لذلك اليوم الدافئ العطر الذي تعرف إليه فيه أهمية كبيرة بالنسبة إلى الولد: كان اليوم الأخير الذي استطاع فيه أن يتجول في الخارج. بعد ذلك تقدم المرض، وصار ملاحظاً إلى حد أنه لم يخرج إلى الشارع مرة أخرى، ولم يستطع أن يخرج.

في القطرة الأخيرة لذلك الماضي البعيد الذي كان فيه ولداً طبيعياً، أو يبدو هكذا، أخذه أبوه وأمه معهما إلى المطار من أجل استقبال جده. لم يكن قد سمع كثيراً حتى ذلك اليوم عن الرجل المسن. يعرف أن اسمه حاج، وهو يعيش مع زوجته في مدينة بعيدة، ووقع له حادث سير على الطريق عندما كان قادماً لرؤية أحفاده الذين لا يعرفهم إلا بالصور، وأن الجدة ماتت في الحادث. وقيل إن الجد حاج قد بكى كثيراً بعد فقدانه زوجته، وبقي فترة طريح المستشفى، وفور خروجه منه ذهب إلى الحج. والآن أكمل زيارته للحج، وعاد. هذا كل ما عرفه عنه الذي في السابعة والنصف من عمره حينئذ عندما كان في الخامسة. ولكنه حصل على معلومة تستحق التوقف عندها في الطريق إلى المطار: سيعيش الجد حاج بعد الآن في اسطنبول معهم.

كان الجزء المفتوح لأقارب المسافرين من المطار يغص بالناس. بعد أن ينزل العائدون من الحج من الطائرة التي كانت تحملهم، وينهون معاملتهم، يعبرون من باب آلي ينفتح إلى جانبين، ويلاقون أقرباءهم الذين ينتظرونهم في الخارج. أثناء إمساك الصغير أباه وأمه من أيديهما بقوة منتظراً وسط زحام أولئك الناس، نظر إلى كل من عبر ذلك الباب بدقة. كان هؤلاء القادمون من الحج جميعاً متشابهين إلى درجة مدهشة، وكأن أحدهم نسخة عن الآخر. وسبب هذا التشابه ليس ارتداءهم الألوان نفسها وكونهم بالطول نفسه والعمر نفسه، والبنية نفسها، ولهم كلهم شعر صدغين شائب فقط، بل لأنهم يقومون بالحركات نفسها بالتسلسل بشكل مدهش فور عبورهم الباب. عندما يُفتح الباب الآلي يرفون بأعينهم كأنهم واجهوا حزمة ضوء بشكل مفاجئ، وينظرون إلى الزحام، ويخطون خطوتان أو ثلاث خطوات بهذا الشكل، وفجأة يراهم أحدهم أو بعضهم، فينزلقون نحو تلك الجهة، فيتركون الحقائب التي بأيديهم على الأرض، ويحتضنون القادمين إليهم بانفعال. وكلما نسخ الداخلون أحدهم الآخر يبدو أن العابرين من الباب ليسوا ملء طائرة من الرجال بل رجل واحد يعبر مرة بعد مرة.

فجأة فُتح الباب مرة أخرى، ودخل رجل توقع من ردود فعل أبيه وأمه أنه جده. ما الذي يوجد في هذا الرجل؟ إنه يذكر بغريب اختلط بهم بالخطأ

رغم أنه يرتدي كالآخرين. حتى كأنه ليس مسناً، كأنه تقليد ناجح لرجل ولج فجأة إلى غرفة تبديل الألبسة، وارتدى أحد ألبسة الآخرين. كان ناجحاً، لأنه يكاد يشبه الآخرين. ولكنه كان تقليداً، لأنه ثمة ما ينقصه. عندما رف الصغير برمشـي عينيه الخضراوين كالطحلب، ونظر مرة أخرى، أدرك مصدر النقص: لم يكـن لهـذا الـرجل المسـن لحية. وفي المكان الذي يجب أن تكون ثمة لحية فيه، يوجد هلال أبيض غير ناصع يشع منعطفاً نحو الأعلى. أما الجزء الباقي داخـل الهـلال فقـد تحول إلى ما يشبه الطقس الذي يكون شماله معتماً قليلاً، وجنوبه نهاراً مشمساً لأنه أخذ نصيبه من الشمس بشكل كبير.

احتضن الرجل الناقص الوجه حفيده الذي يراه لأول مرة بشوق شديد. بعد ذلـك احتضـن بالترتيـب ابنه أولاً، وحفيده مرة أخرى، بعد ذلك كنته، ومرة أخـرى حفيده، ومرة جديدة ابنه، ومرة أخرى أيضاً حفيده. لم يكونوا وحدهم يـتعانقون في تلـك الأثـناء، بـل لأن الأشـخاص مـن حولهم كلهم يتعانقون فقد امـتلأ قسـم الانـتظار مـن المطـار بكـوم نـاس يتـباكون ويتشمشـمون ويـتعانقون ويتصـادمون. عـندما يُـروح المسـنون العـائدون مـن الحج شوقهم قليلاً، ولأنهم ينشـغلون بـتعريف كـل مـنهم عائلـته بالأخـرى، بـدأت هـذه المـرة مصـافحة واحتضـان وعناق بشك قطري. وفي تلك الفوضى رصد الصغير المنتقل من حضن إلى حضـن ملاحظة أخرى: كان يقال لمحمد العائد من الحج "الحاج محمد"، ولأحمـد "الحـاج أحمـد". السـؤال الذي شغل عقله، طرحه على أبيه في طريق العـودة: "إذا كان من الضروري الذهاب إلى الحج من أجل الحصول على لقب حاج، كيف صار اسم جده حاج قبل أن يذهب إلى الحج؟" وبالشكل الذي بدا فـيه وجهه ناقصاً، كان اسمه زائداً. قال أبوه: "آه منك!" قيل للولد آه منك، ولكـن عدم تلقيه جواباً، ولكن هذا لم يفده في النتيجة سوى تقوية قناعته بعدم شـبه جـده ببقـية الحجـاج. ومـنذ ذلك اليوم يعتقد أنه "غريب" قليلاً. اضطر الـرجل المسـن لحلق لحيته قبل يوم من عودته من الحج لإصابته بحك شديد، ولكن إطلاقه لها بعد فترة قصيرة، وشبهه ولو من الناحية الجسدية على الأقل ببقية الحجاج الذين في المطار لم يهز انطباع الولد الأول عنه.

إنه مازال يدقق بجده من ناحية التدقيق، ولكن لأنه لم يعد يجده غريباً كما في الماضي، فقد كان يجعل تدقيقه فيه كل يوم أقصر قليلاً من قبل. عندما يمل من النظر إليه، يخرج من خيمة عثمان صامتاً، ويبدأ بالتجول في البيت كله على رؤوس أصابعه. الاستيقاظ عندما يكون الجميع نياماً تمايز مدهش. يغدو البيت في تلك اللحظة كما في حكاية "الجميلة النائمة". الولد الذي في السابعة والنصف من عمره على عكس إخوته يتذكر الحكايات التي كانت تحكيها له أمه قبل أن تعمل في مركز تسوق ضخم وقاطعة تذاكر في السينمات، ويستطيع ملاحظة الفرق العميق بينها وبين الحكايات التي يحكيها له جده.

أثناء نوم الآخرين يذهب إلى المطبخ، ويلعب بالثقاب، ويقلب صفحات كتب جده الأربعة الثابتة العدد على مدى سنوات، ويدخل إلى غرفة نوم أبيه وأمه، ويعبث في الخزانة، ويفرغ حلي أمه على السرير، ويعد النقود التي يخبئها أبوه في زاوية الخزانة... ويتلذذ بطعم عمل كل ما هو ممنوع عليه عمله. بعد ذلك عندما يحين موعد استيقاظ الآخرين، يندس إلى الخيمة على رؤوس أصابعه من جديد، وينزوي في زاوية، ويبدأ الانتظار. لم يكن ثمة ضرورة لانتظاره كثيراً. كانت تدخل شاحنة الزبالة إلى الزقاق يومياً حوالي الساعة السابعة عشرة والنصف. يرتفع صوت الزبالين، وقرقعة البراميل المفرغة، وهدير المحرك من الأسفل. لا تستطيع شاحنة الزبالة الدوران بسهولة بسبب وقوف السيارات على جانبي الطريق، ومن المؤكد أن الطريق سيغلق. وفور وصول صوت المزامير إلى الشقة رقم خمسة من بناء قصر بنبون يقفز الحاج حاج من نومه مرتعداً صارخاً. في الحقيقة إن بناء قصر بنبون آخر مكان يمكن لهذا الرجل المسن الذي يحمل آثار حادث السيارة مع تجاعيد جبينه في وجهه وقلبه أن يقضي فيه قيلولة براحة.

يستيقظ الأولاد على صراخ الحاج حاج أيضاً. تستيقظ التي في الخامسة والنصف من عمرها بداية وهي تطلق أصواتَ دلال. بعد ذلك يستيقظ الذي في السادسة والنصف متثائباً بضعف. أما بالنسبة إلى الذي في السابعة والنصف من عمره فلا ينهض فوراً من المكان الذي تكور فيه قبل عدة دقائق، فيعد في

داخلـه إلى العشـرين أولاً معطـياً للآخـرين فرصـة الاسـتيقاظ تمامـاً، بعـد ذلك يـنهض مخمـوراً، وبعد أن تقدح عيناه اللتان بخضرة الطحلب بعد أن يفركهما مطـولاً، يقـترب مـن الـنافذة المتروكـة مفـتوحة، ويمـد رأسه، وينظر إلى كأس أسرار العالم الذي يجد أنه يمكن أن يكون أكثر دهشة من حكايات جده كلها.

# الرقم 7: أنـــا

حـدث هذا الصباح أمر غريب. استيقظت من دون مساعدة الساعة المنبهة. وهـذا يعـد أمـراً غريـباً بما يكفي بالنسبة إلي، ولكن الأغرب هو أنني وجدت نفسـي مسـتيقظاً عـندما اسـتيقظت.كانت عيناي مفتوحتين. استيقظت عيناي قـبلي، ومـن دون عـلمي، كأنهما استيقظتا، وخرجتا للقيام بجولة في السقف. اعتقدت للحظة أنني أتفرج على نفسي من الأعلى. لم أحب ما رأيته.

قدمـاي تمـتدان دائماً خارج الأريكة، ولكن حذائي كان في قدمي هذه المرة. انـزلق رأسي عن المخدة، وتصلبت رقبتي. وسال من طرف فمي، وبقدر كبير، ومـا يمكـن فـرزه عـبر الحفرة الممتدة حتى أذني اليسرى سائل رغوي مائل إلى اللـون الأبيض لا يفرز إلا في ثلاث حالات، وهي الكَلَب، وتقيؤ الطفل الصغير كـل مـا أكلـه، ونوبـة الصرع، على الأريكة، وقميصي الذي صار مجعداً. وأثَّر الـنوم تكويـراً عـلى ظهـري، وجف فمي ولساني. كما أنني تقيأت على حافة السـجادة. المهـم أنـني فطنـت لخلع بنطالي. وبحسب نصيحة الساقطة "إثل" فإن جاذبية خلع الرجل البنطال مع بقاء القميص والجوارب والحذاء يمكن أن تكـون كجاذبية مصاصة التفاح المأكول نصفها، واسود الجزء الظاهر من قضمها

أو شيء كهذا. من هذه الزاوية فإنني يجب أن أعتبر نفسي محظوظاً لأنني استيقظت هذا الصباح أيضاً مثل الصباحات الستة والستين الماضية وحدي.

بسبب هذا البيت دائماً. مضى على انتقالي شهران وخمسة أيام. تعلمت هنا أن الزمن يمكن قياسه بالدرهم. أعد كل يوم يمر. يجب أن أكون خلال هذا الزمن قد رتبت أموري، وأسست نظاماً ما حسناً كان أم سيئاً منذ زمن طويل. ولكنني لم أرتب نفسي، كما أنني أعيش وكأنني سأنتفض من جديد في أي لحظة. مازال البيت لا يبدو مختلفاً عن يوم انتقالي. حياة عشوائية بين صناديق متراكمة أحدها فوق الآخر ورزم لم تفتح بعد، وهي انتقالية، وتمشية حال... ونظام في بيت كالألعاب التي يمكن أن تفك وتركب في كل لحظة، وهو طيار ومؤقت وزائل كمعطرات الجو... عندما يكون الإنسان عازباً يعيش وسط أغراض في بيت، وسط أغراض عائدة له لها ماض وحكاية وأهمية شخصية وقيمة رمزية. عندما يتزوج يبدأ العيش في بيت وسط الأشياء، في بيت مؤسس على المستقبل أكثر من الماضي، وعلى التوقعات أكثر من الذكريات، ومعرفة ما يعود إليه وما لا يعود أمر غائم. أما الطلاق فهو يعني جلوسنا إما في بيوت من دون أغراض وإما وسط أغراض من دون بيت مرتبطين بالذاهب أم القادم، وبمسح كل شيء، والبدء من جديد.

هذا بسبب البيت من جهة، والساقطة إثل من جهة أخرى. يوم انتقلت إلى هذا البيت لم أستطع إقناع إثل بعدم مساعدتي رغم كل ما فعلت. عندما جلست في مقدمة الشاحنة البرتقالية العائدة لشركة النقل التي اتفقت معها بعد صراع وشجار على نقل ألبستي وبعض أغراضي الصغيرة وكتبي التي انتقيتها من بيت زوجيتي المفروش بمتعة فائقة مع المفروشات الرخيصة والبسيطة التي اشتريتها حديثاً، كانت السيدة الخانم على ما يرام بجانبي. وكأن وجودها ليس مقلقاً بما فيه الكفاية، فأضافت اتفاقها طوال الطريق مع السائق المتراخي الذي قدمت له سيجاراً من النوعية الممتازة، وسألته أسئلة عبثية متتالية أفقدته صوابه، ودخلت معه حديثاً عبثياً حول الحي الذي يكون نقل الأمتعة منه أصعب. عندما وصلنا في النهاية إلى بناء قصر بنبون،

اندمجت مع الحمالين القادمين خلف الشاحنة، وتراكضت بكل ما فيها بينهم بتنورتها الرخيصة القصيرة بقدر منديل المتسولة التي تظهر مؤخرتها الكبيرة القبيحة. هي التي أمرت أين سيوضع أي صندوق، وأين ستودع كل رزمة كتب، وأين ستكوّم الرفوف العديمة الخصوصية والعناية التي جعلتني أشتريها من قسم "أحب مكتبتي لأنني نجارها!" في واحد من مراكز التسوق التي تتردد عليها العائلات مع أولادها، وبالتفصيل. الحمالون الذين يعرفون بالتجربة أن الكلمة الفصل في أوضاع كهذه هي للنساء تجاهلوا أنني صاحب الأغراض الحقيقية، وأن إثل مجرد واحدة تدس أنفها فيما لا يعنيها، فلم يأخذوا كلامي على محمل الأهمية إلا في صفحة الشكوى من قلة أجرتهم، وطلب نقود أكثر مما كان متفقاً عليه في نهاية اليوم. لم أكن أنا محسوبكم الذي عمل على تمرير قضية صدمهم صندوق المقوى الذي توجد فيه أنواع من الكؤوس والأطباق بشكل ملائم، فاعتبروا المسؤولة إثل التي أنبتهم إزاء احتمال وجود خسائر، فاعتذروا منها.

اكتفيت في ذلك اليوم بالفرجة على ما هو أفضل بالنسبة إلي من على طرف. كان نبذي في أوجه عند نصب السرير المزدوج الصحي ذي نظام النوابض المذهبة 180× 2 إحدى غنيمتين قيمتين استطعت انتزاعهما من بيتي القديم. عندما فهم بشكل قطعي أن السرير الضخم لن تتسع له الغرفة الخلفية البشعة التي قررت إثل أن تكون غرفة نوم بعد خمس أو ست محاولات، نشب شجار بينهم. تريد إثل أن تُدخل السرير على جنب، وتدافع عن إمكانية التضحية بقسم الرأسية المزين أكثر من اللازم من أجل هذا. كان الحمالون يؤيدون إدخال السرير على سيفه أيضاً، ولكنه لا يترك حينئذ مكان للحركة في الغرفة. في هذه الأثناء لم يأخذ أحد رأيي، ولم يكن لي رأي حتى لو أراد أحد أن يأخذه. كما أنني لم أشتك عندما أدخلوا السرير على سيفه، ولم يعد من الممكن خطو خطوة في الغرفة. ذلك السرير كبير جداً علي أساساً. ولم أنم عليه ولو مرة واحدة منذ انتقلت حتى الآن. أصر على النوم على هذه الأريكة الضيقة التي تؤذي رقبتي، وتؤلم ظهري. قبل سنوات طويلة حكت

لـي إثـل في موسـم المثـنويات عـن محاسبة مولانا جلال الدين لجسده. وإن لم يكـن تصرفي هـذا صـوفياً فأنـا لم أفعـل القلـيل بنفسـي خلال هذين الشهرين الأخيريـن. لا أسـتطيع الانفصـال عـن هـذه الأريكـة الظالمة كعاشق يتعلق بمن يظلمه أكثر أو تابع ذليل اشتاق إلى التعذيب. وقبل أن ينتهي الفصل يجب أن أدرس لمجموعة يوم الخميس "**حديث حول العبودية الطوعية**".

بالطـبع فـإن السبب الأساسي لتفضيلي النوم هنا هو وجود التلفزيون مقابل الأريكـة. وفي هـذه الأثـناء، مـع كـثرة نومي بشكل فردي ألجأ للتلفزيون، ولا أسـتطيع الـنومِ إلا والـتلفزيون مفـتوح. ولـيلة الـبارحة، رغـم مجيـئي مـتأخراً كـثيراً، وثمـلاً إلى حـد كـبير، يجـب أن يكـون أول عمـل قمـت بـه هـو فتح الـتلفزيون. والآن عـلى الشاشة فتاة شابة طائشة ترتدي بلوزاً قصيراً جداً يضج بـالألوان علـيه طـيور وبـبغاء، وعـلى بطنها المكشوف المكور وشم زنبقة حمراء بلـون الدم تكاد تكون بقدر قبضة يد، صبغت شعرها باللون البرتقالي، وربطت كـل خصـلة مـنه بشـريط فوسـفوري أخضـر اللـون، وتـثرثر في هذه الساعة من الصـباح بمـتعة لـن تكـون من نصيب الجميع. ورغم وقوف المذيعة التي لا تعد سميـنة في مكـان واحـد، وتحريك يديها وذراعيها بحركات ثابتة وهي تتكلم، فإن ثدييها يخفقان بشكل فاضح كامرأة تركض وسط الشارع عاملة على اللحاق بالحافلة في آخر لحظة. بالنسبة لي فإن هذا ليس مبالغاً. كانت خياراتي دائماً تمـيل إلى التضـاد: أحـب أن تكـون صـغيرة بقـدر راحـة كـف في الأجسـاد الضخمة، وضخمة في الأجساد الضئيلة.

عـندما جـاءت إثـل لتفتيش البيت بعد عشرة أيام، رأت أن كل شيء بقي كمـا تركـته، واحتفظـت بتفسـيرها لنفسـها. لم يكـن ثمـة مـا تغير في الأسبوع الثالـث. لم يفـتح أي طـرد حـتى ذلـك الوقـت، ولم يركـب أي رف. عـندما عرَّجـت بعـد شـهر وخمسة أيام، كنت أريدها أن تصمت. ولكنها قالت وعلى وجههـا ابتسـامة شـؤم كمـا تفعـل عـندما تعتقد أنها تتحدث عن أشياء مهمة جـداً، مطقطقة أصابعها الطويلة الأظافر، والمطلية بطلاء برّاق: "انظر يا حلو! أنـا لا أجـد مانعاً إن أردت أن تتصرف في بيتك الجديد كما كنت تتصرف مع

زوجتك السابقة. إنك تهمل بيتك قائلاً لنفسك إنه بيتي، لا يمكن أن يذهب إلى أي مكان، ولكن في النهاية، أبعد الله هذا عنك، سيأخذونه من يدك أيضاً." لم أجب. أكره أظافرها الطويلة المطلية.

تدوخ إثل إعجاباً باستخدامها لسانها كلسان ضفدع يلتقط بعوضاً. تقول ما يأتي على لسانها فوراً، وفي لحظة غير متوقعة، وقبل أن يستطيع الذي مقابلها فهم ما يجري تبيض كل شيء خلال عدة ثوان، وتلتقط الدهشة اللحظية المتشكلة على وجه الذي أمامها بلسانها الأحمر الفاتح، وتلقيه فوراً إلى فمها، وتبتلعه بمتعة كبيرة من دون مضغ. رغم أنني ضحيت بكل فرد من أفراد محيطي من الأصدقاء من دون أن يرف لي جفن بعد طلاقي، لا أعرف لماذا أحافظ عليها في محيطي، وبجانبي، ولا أريد أن أعرف. لا أبذل جهداً خاصاً من أجل أن ألتقي بها، ولكنني لا أقترب أيضاً من خطو خطوة نحو قطع اللقاء بها. ليست المسألة هي عدم حبي لها بعد الآن، لأنني لم أحبها أكثر من الآن في أي وقت. إذا كان ثمة رابط يربط أحدنا بالآخر على مدى هذا الزمن كله، فإنني لا أعتقد بأن هذا الرابط هو الحب، ولا الصداقة، ولا الثقة. أنا وإثل متوافقان بقدر ما يتوافق جناحا فراشتين مختلفتين فقد كل منهما نصفه متجاورين تحت مكبر جامع مجموعات. الشكلان، والكينونة نصفان يكادان يكونان متطابقين، ولكن الزخارف والألوان مختلفة. يمكن أن نجتمع على مدى سنوات إذا كانت الريح مساعدة، ولكن أحدنا لا يمكن أن يكمل الآخر باجتماعنا، أو لا يمكن لنا أن نخرج تكاملاً يحمل معنى إلى الوسط. لا أشتاق إليها إذا لم أرها مدة شهر، ومن المحتمل أنني لا أشعر بغيابها، ولكننا عندما نلتقي بعد شهر، لا أشعر بأقل ضيق من قضاء وقتنا معاً، ولا يخطر ببالي ولو مجرد خاطر بأن أتركها باكراً. وكما بعض الأشياء هي عبارة عن الأشياء التي هي عليه، فإن إثل هي إثل. رغم هذا، أو لهذا السبب بالذات فإنني ألتقي بها بقدر ما لا ألتقي أحداً، وأشاركها ما لا أشارك به أحداً أبداً. وهذا مستمر منذ سنوات. ولعل هذه العلاقة الواهنة ستستمر هكذا لسنوات، ولعلها كالظفر الذي جمع تحته الدم سيسقط يوماً ما من تلقاء نفسه.

يدفعني الفضول أحياناً لمعرفة أي منا سينتبه أولاً إذا حدث شيء ما، إذا كان سيسقط الظفر، طبعاً بعد كم من الزمن؟

عندما نهضتُ، تعثرت قدمي بشريط الهاتف. خرجت السماعة من تحت المخدة التي كنت أضع رأسي عليها. كأنني أردت أن أتصل هاتفياً بذلك الثمل. شعرت بالضيق. بحسب المعطيات التي بين يدي كلها فإنني لم أحتمل قبل النوم، واتصلت بها.

من الخطر على الثملين أن يقودوا السيارة. ويسلم الجميع بهذا. ولكن رغم أن استخدام الثملين للهاتف يمكن أن يؤدي إلى نتائج مميتة أكثر، فإنه لا يوجد تنظيم ما حول هذا الأمر. الذين يقودون السيارات ثملين، يمكن أن يصدموا أهدافاً لا على التعيين: شجرة منحوسة تظهر أمامهم فجأة، واسطة نقل لا علاقة لها تسير بحالها... لا يوجد قصد في هذه الحوادث، ولا هدف. أما الذين يستخدمون الهاتف ثملين فيصطدمون بمن يحبونهم بالتأكيد.

الاتصال بها وأنا ثمل يعذب بما يكفي. ولكن الأسوأ هو عدم استطاعة التذكر ما إن عمل هذا أم لا عندما يُستيقظ صباح اليوم التالي، والعمل على إقناع النفس أن هذا لم يعمل أثناء التذكر. هذا المشهد يتكرر بشكل منتظم تقريباً منذ طلاقنا حتى الآن. ولكنني لم أتصل بعد بآيشن من هاتفي الجديد. يجب أن تكون على غير علم بأنني حصلت على هذا الرقم. طبعاً إذا كنت لم أتكلم مساء البارحة... واحد، اثنان، ثلاثة... عند طلب الرقم السادس فتح الهاتف. إنها هي بالذات! يخرج صوتها في الصباح هكذا دائماً كأنه يخرج من قعر الطابق السابع لبئر. كانت متعلقة بالنوم. وعندما تستيقظ، تكون في غاية البشاعة. لا يمكن أن تصحو من دون شرب قهوتها المصفاة من دون سكر ولا حليب. خرج "الألو" الثاني أكثر حدة من الأول. أغلقت.

حاولت لملمة ذهني، والتفكير بعقل هادئ. مازال ثمة أمل رغم كل شيء. اتصالي بها لا يعني أننا تكلمنا بالتأكيد. لعل الهاتف لم يُفتح أبداً. لو أن آيشن فتحت الهاتف مساء البارحة؛ فتحت، وتكلمت، لو أنها أطلقت بعض العبارات جيدة كانت أم سيئة، لكنت تذكرت على الأقل بعض أطراف

الحديث الذي تكلمنا به عندما استيقظت. وبما أنني لم أتذكر أي كلمة، فمن المحتمل أنه لم يجر ما يمكن تذكره. ولكن البحث عن سلوان في هذا الاحتمال المتفائل يشبه الهروب من تحت المطر إلى تحت المزراب. التفسير الأكثر قرباً للعقل لعدم فتحها الهاتف مساء البارحة هو عدم وجودها في البيت في تلك الأثناء. خارج البيت في تلك الساعة... في تلك الساعة خارج البيت...

يتمدد على الأرض في الحمام صرصوران ميتان تفصل بينهما مسافة نصف متر. يجب أن يكون هذان من مهاراتي مساء البارحة. ولكنني لم أصادف تفسيراً في هذا الموضوع في سجلات ذاكرتي المعكرة. خلعت قميصي. تغلغلت فيَّ رائحة نفوذ. تداخل ما أكلته من سمك درعي مقلي وأنواع المقبلات تلك كلها والعرق الذي شربته، والسيجار الفاخر من النوع الأول الذي دخنته، فوق هذا مُشطت المعدة بالحموضة التي ثقبتها في منبع رائحة لا تحتمل تتشكل بمساعدة الروائح التي صارت لا يمكن أن تعرف... الغسالة هي هدية إثل بمناسبة الطلاق. إثل امرأة عملية، عملية وكريمة. ألقيت بنطالي الكحلي الكتاني إلى الغسالة. تعلمت بعد كل هذا، يكفي للكتان أربعون درجة حرارة، والبرنامج الثاني الأقصر. ولكنني حتى لو استطعت التخلص من حثالة مساء البارحة غير السعيدة، فمن الواضح تماما أنني لن أستطيع التخلص من رائحة الزبالة المقرفة التي تلف هذا البناء. أنا نادم ألف مرة لأنني خرجت مستعجلاً بالبحث عن بيت أثناء استمرار عملية الطلاق. وقبل أن أجري قياساً ومقارنة صحيحة بغاية الابتعاد في أسرع وقت ممكن، ولو أنني لم أرتمِ في أول شقة بعيدة بما يكفي، ورخيصة قدر الممكن، لكنت الآن أعيش في مكان أكثر تنظيماً. أفتقد للراحة التي كانت في بيتي السابق. القضية ليست الراحة المفقودة الزائلة أو الحسرة للجنة الضائعة التي حضرت بنفسي للسقوط منها. البيت في الحقيقة كان ملك آيشن أو في الأصح كان لعائلة آيشن. ولكنني بعد أن أمضيت فيه ثلاث سنوات ونصفاً، وجمعت كتبي وتحضير دروسي وشفرات حلاقتي، وعدت لألقي نظرة لأعرف إن كنت قد نسيت شيئاً أم لا في لحظة الشؤم تلك، اعتقدت بأن البيت ملك لي أيضاً. حلية صغيرة جداً:

"*أيضاً!*" وكالبنت التي تأمل بحصولها على حلية صغيرة مثل تلك التي رأتها في يد أختها، تقول بهوس: "لـي أيضاً، لي أيضاً!" مع أن الذي يفهم بأن كلاً مـن الطـرفين يعطـي أحدهمـا الآخـر مـن تلك الحلي الصغيرة أكثر من ذلك في الـزواج كمـا في العلاقـة بـين الإخـوة تمامـاً. وكمـا تُسـحب أعقـاب الفاصوليـاء بسـهولة تُسحب آثار الإنسان، وما عاشه، وحتى المكان الذي اعتقد بأنه عائد لـه. مـا ألاقـي صعوبة بهضـمه، والقضـية التي انغرزت ألماً في بطني هي جزء الحسـكة تلـك. يوتـر أعصابي التفكير بأن آيشن تضطجع على هواها مستمتعة وحدهـا الآن في ذلـك البيت الذي اعتقدت أنه لي في وقت ما. على الإنسان أن يعرف كيف يحمد الله في كل وقت. لأنه ثمة أسوأ من السيئ: يمكن ألا تكون تستمتع في ذلك البيت وحدها...

وتحـت مرش الحمام الذي يغدو كالثلج عندما يبرد، ويغلي عندما يسخن، ولكـنه لا يغـدو فاتراً أبداً، وبينما كنت أتجمد من البرد تارة، وأسلق من الحر تـارة أخرى، أجريت تقييماً للوضع. بينما كانت طريقة إيجادي البيت وأنا في غايـة السـكر مسـاء البـارحة أمـراً مجهـولاً، فقد اكتسب اتصالي بآيشن حالة أكـيدة. حسن، ماذا بعد؟ لو كنا قد تكلمنا، يجب أن تبقى ولو لحظة، لحظة واحـدة على الأقل. جملة واحدة... أثناء فرك وجهي بالصابون شوهدت جملة تـتطابق ملامحها مع ملامح المتهمة التي أبحث عنها تتجول في الجوار، وجاء خـبر القـبض علـيها إلى مقـر قيادة عقلي. "ألا ترى أنني سأبرد من ناحيتك إذا اسـتمريت بالاتصـال بـي هكـذا؟ طالمـا أن احترامـاً قائمـاً بيننا.." ليس ثمة ما رأيـته. وإذا كنـت قـد حاولـت فـتح عـيني وسط الرغوة، فقد أعدت إغماضها عـندما أحـرقها الصـابون. لا، تبين أن البلاغ لا صحة له. الجملة التي أبحث عـنها ليسـت هـذه. تذكرت. لم أسمع هذه الجملة مساء البارحة، بل في وقت أقدم. قبل أن تحاول آيشن تغيير رقم هاتفها.

خرجت من الحمام عندما بدأ مرش الماء يضغط على حدود تحملي. الحرقة الـتي في معدتـي ليسـت من النوع المحتمل. لا يُعتبر المطبخ صغيراً، ولكن منذ وضـع الـثلاجة الـتي بحجـم الـبراكات الـتي يبنيها المصيفون أصحاب الدخل

المحـدود ويملؤونهـا بـالأولاد والنساء على طول الساحل تقريباً وسطه بعظمتها ضـاق طولـه وعرضـه. بـدل أن أصـر عـلى إخـراج هـذه الثلاجة الشبيهة بفرخ السـبع الأمريكـية الـتي صـممت لتشـبع أعشـاش العـائلات الصـغيرة المفتوحة نفسـها عـلى الاسـتهلاك مـن بيتي القديم، كان علي أن أشتري لنفسـي ثلاجة بارتفـاع الركـبة مـن تلـك الـتي توضع في غرف الفنادق أو شـقق الأبنية التي في طوكـيو والمؤلفـة مـن غـرفة بقـدر حـبة الحمص، وبهو بقدر حبة الفول. لو أن آيشـن لم تعـترض قائلة: "هذه كبيرة أكثر من اللازم بالنسبة إليك." لكان ثمة احـتمال كبير أن أفعل هذا. سمعت منها هذه العبارة مرتين متلاحقتين: الأولى مـن أجـل السـرير المـزدوج، والثانـية مـن أجـل الـثلاجة. لم أشعر إلا في ذلك الوقـت بوجـود شـخص آخـر في حـياتها، وأنهـا ستملأ مكاني بسرعة. عندما فهمـت بـأن الشيء الكبير أكثر من اللازم بالنسبة إلي، هو ليس كبيراً بالنسبة إلى آيشـن. لم يعـط أحد معنى لعدم تقديمي تنازلات في قضية السرير والثلاجة بمـن في ذلـك إثل رغم عدم عرقلتي أي أمر آخر، وتصرفي بتعقل أكثر من الحد اللازم من أجل إنهاء معاملة الطلاق بسرعة.

غنـيمتي أصـيلة، ومـا يجعلها أصيلة هو أن داخلها مليء تماماً. إنـها تبدو مؤلمـة بحـالهـا الفارغـة هـذه. الثلاجات الكبيرة هي من أقرباء مقطورات الفحم الـتي تطـح وتـنح طـيلة الطـريق بملـئها إلى الآخر، وهي مثلها تماماً لا تعرف الشـبع، وكـلما ملأتهـا، تطلـب المـزيد. أمـا التي لي فهي ليست محرومة من الفحـم أكياسـاً فقـط، بـل محـرومة حتى من مجرفة مسحوق فحم. يوجد على الـرف الأعلى علبة جبن كريم تركت مفتوحة بنى عليها عفن ناعم، وفي الباب خمـس علـب جعـة مـن الصـفيح ونصـف زجاجـة كبيرة من العرق، وفي مكان الخضـراوات ثـلاث حـبات بـندورة وورقـات خـس ذابلـة. هذا كل شيء. كما يوجـد عـلى الـرف السفلي قطعة بيتزا بالفطر أرسلتها تلك الجارة العجوز قبل مدة. رأيت كثيراً من يوزع حلوى العاشوراء وما شابهها، ولكن هذه المرة الأولى الـتي أصـادف أحـداً يـوزع بيتزا قطعاً. كنت سأرميها، ونسيت. ولكنني الآن مـددت يـدي ممتـناً إلى قطعـة البيتزا أثناء قضم قطرات العرق الباقية من مساء

البارحة بشكل ناعم لغشاء معدتي. استغرق وضعها في الفرن وتسخينها ثلاث دقائق، أما إنزالها إلى الجزع فقد استغرق ثلاثين ثانية تقريباً. صارت بائتة قليلاً، ولكن ليكن. ليس ثمة شيء غيرها تحت هذه الشروط غير السلامة! بما أنني أرضيت معدتي ولو قليلا يمكنني الآن أن أحضر دوائي. أفرغت نصف عبوة حليب دسم في القدر. وألقيت فوقها ملعقتين مملوءتين تماماً ببن تركي، وملعقة من عسل الصنوبر، وكثيراً من القرفة، وقليلاً من الكونياك. وهذا دوائي الإعجازي المثبت بالتجربة من أجل الصداع المنتقل إليّ من المساء. يمكن ألا يوافق أي بنية جسدية. أساساً يجب على كل بنية جسدية أن تطور دواءها بنفسها بأسلوب التجربة والخطأ. وأنا وجدت دوائي بهذا الأسلوب. أكثرت من نسبه أكثر من أي مرة مضت. يجب أن أصحو في أقرب فترة ممكنة. اليوم خميس، وبعد ظهر كل خميس منذ بداية الفصل أعطي الدرس الأحب إلى نفسي، للصف الأحب لي.

قلبت الأدلة التي دستها إثل مساءً بيدي أثناء انتظار غليان الحليب. تؤسس جامعة خاصة أخرى في اسطنبول. كنت على علم ببعض التفاصيل لأن التحضيرات مستمرة منذ فترة طويلة. ما لم أعرفه هو أن إثل الساقطة ضمن هذا الأمر، وهي في قلبه. علمت بهذا مساء على الطعام، وعلمت بأكثر من اللازم. في الدقيقة الثانية من لقائنا فقط دخلت مباشرة إلى الموضوع، ولم نتكلم بموضوع آخر تقريباً حتى نهاية المساء عندما لم يبق غيرنا في المطعم تحت أنظار النادلة الكردية النحيلة الضئيلة التي تحافظ بصعوبة على جفنيها مفتوحين وكأن رصاصات صغيرة عُلقت بعلاقات أهدابها الطويلة السوداء، وخرجنا متأرجحين. وشرحتْ بقدر ما استطاعت بأن هذه الجامعة استثمار معنوي أكثر مما هو مادي، وهذه المرة الأولى التي تؤمن فيها بمشروع من كل قلبها وروحها إلى هذا الحد، وهي تعرف مؤسسيها بالذات، وفي الحقيقة إنها واحدة من المساهمين الثمانية من خلف الستار، وإنها بدأت تستمتع بالحياة أكثر منذ انخراطها بهذا العمل، وحتى إنها عندما ستكبر وتنظر إلى الوراء سترى أن هذا العمل أكثر عمل تباهي به طوال عمرها، وبعد وقت ليس طويلاً، خمس سنوات على الأكثر،

ستكون قد أنشأت مجموعة من الشباب أصحاب المخزون المعرفي والوعي الكبيرين يتفوق أضعافاً على الأجيال التي سبقته، وستزداد أعداد هؤلاء الشباب سنة بعد سنة، وبالتعاون بين هؤلاء سيغيرون قدر البلد، ويصححون مساره.
بينما كانت تشرح هي، شربت أنا باستمرار. لو أنني شربت أقل وبسرعة أدنى لكان من المحتمل أن يكون ملخص المساء على النحو التالي: شرحت إثل، وأنا ضحكت؛ غضبت إثل؛ وأنا انفجرت، صرخت إثل، واشتبكنا. لهذا السبب، ولكي لا ينشب شجار، ولعدم تعكير المياه الراكدة، ولكي لا يفسد طعم الأمسية: شرحت إثل، وأنا شربت.

ما وتر أعصابي ليس مضمون الكلمات بل قائلتها. بالطبع يمكن للساقطة إثل أن تذهب إلى حيث تشاء، وتطلق هذه الترهات كما يحلو لها، ولكنها يجب ألا تتصرف أمامي هكذا مساء البارحة. رغم هذا لا أعتبر أن ما حدث هو إهانة موجهة إلى شخصي. الموضوع "لغوي" أكثر مما هو شخصي مثلاً. لأن إثل مساء البارحة، قررت فجأة، من دون أن أعرف السبب، أن تغير لغة خطابها، أو أنها نسيت فجأة اللغة التي كنا نتحدث بها دائماً.

"اللغة" هي الكلمة الأكثر قابلية للانفلات في اللغة. إنها أبعد من الكلمات التي يجب أن تعرف، ولكنها مهما يكن فهي مجرد كلمة. وإذا كان لا بد من قرنها بكلمة أخرى، فإن اللغة مثل "الطعام". بقدر ما تسمية مزيج كل هذه الأطعمة المختلفة إلى هذا الحد مع جهل الفروق بين الطعم والقيمة الغذائية والسعة الحرورية "طعاماً" يعتبر مناسباً، فإن تسمية كل تلك التعابير التي تعزف كل منها على وتر مختلف عن الآخر، وذكر الأشياء بكلمات مختلفة جداً "لغة" هي بالقدر نفسه من العبث. وطبعاً عندما أقدم هذه النتيجة فإنني لا أمتد إلى الفروق "اللغوية" القائمة في المطبخ الصيني، المطبخ التركي، المطبخ الأسباني... بل تناولت الفروق داخل "المطبخ القومي" فقط، أما في الحالة العكسية فإنه يجب أن تضرب الفروق بعدد المتوالبة العالمية وإضافتها. بالنتيجة فإن مئات "اللغات" تسيطر في "لغة" واحدة. وكما لا نأكل "الطعام" نفسه في كل مطعم، فإننا لا نتكلم اللغة نفسها مع كل شخص، ولا نستطيع

أن نتكلم. وكما لكل طعام بقاياه، للغات فضلاتها أيضاً. ما يتركب من الكلمات التي لا نتكلم بها خلال اليوم، وأكثر من عدم الكلام بها نخجل من لفظها، والانتقادات التي لا نجرؤ على تقديمها رغم أنها تخطر ببالنا، والتشبيهات التي تحبك بشكل دقيق على لساننا ونبتلعها، والشتائم المنفجرة في حلوقنا من دون أن نجد الفرصة لإطلاقها، والتعابير التي يمكن أن تعتبر ثقيلة بحسب الوسط الذي نوجد فيه أو المازحات المنفلتة قليلاً هو نوع من زبالة اللغة. وهي حثالة الدقة التي نبذلها، والظرافة التي نبديها، والعناية نريها عندما نتكلم مع الآخرين أو نكتب لهم. وإن لم تتراكم تلك الكلمات في الأقبية أو السقيفات أو تحت المخدات، فهي تتراكم تحت الأغشية المخاطية وعلى سقيفة الفم أو تحت اللسان، وعندما تتراكم بما يكفي، يجب أن نضعها في كيس، ونربط فمه لكي لا تفوح منها رائحة، أو تفوّحها، ونرميها، وهي تسمى لغة البقايا الجافة القابلة للتحول.

وكما أنني لا أترك هذه اللغة بشكل قطعي في الوسط، ولا أستخدمها أمام طلابي في الصف، عليَّ أن أقول سلفاً إنني لا أحب أن أسمعها منهم. وكاليافع الذي يدخن سجائر في أماكن معزولة بشكل خفي من دون أن ينبه أبويه، أنا أيضاً أفتح كيسي أحياناً في زاوية نائية من دون علم قيم ضميري ومبادئي الأخلاقية، وأدوخ إعجاباً بالرد بواسطة هذه اللغة. يكتسب وجود إثل أهمية في هذه النقطة بالضبط. لأن الرد كتبادل الحب والشجار، يجب أن يكون معكم أحد ما في ذلك الوقت، وتلك اللحظة. يمكنكم أن تدخنوا سيجارتكم وحدكم، ولكنكم تشعرون بالحاجة إلى رفيق بالتأكيد من أجل استخدام فضلات اللغة.

كلما بقينا إثل وأنا وحدنا نستخدم فيما بيننا لغة البقايا الجافة منذ سنوات، أي كنا نتكلم حتى البارحة مساء. عندما نجتمع معاً ندوخ إعجاباً بإمطار السفالات لهذا وذاك، والاستهانة متكلمين كلاماً صاعداً ونازلاً دون الأخذ بعين الاعتبار أن من سينتقد الأمرد يجب أن يكون له لحية كثة سوداء، أو دون مراعاة حق وعدالة. وكما يهاجم الفتوة الذي يهرع إلى الشجار

مقلماً خصومه من أنوفهم وآذانهم، نهاجم نحن حياة المجتمع بلسانينا الحادين مقلمين بأخطاء هذا ومرض ذاك. من قال إنه لا يمكن السخرية من تشوهات الآخرين؟ نحمل بأيدينا بنادق الرماح المائية، ونضع على أعيننا النظارات المانعة للماء، ونغوص عميقاً إلى قاع البحر ونخرج كل ما نصطاده من أخطاء ومساوئ وهفوات من سابع طبقة تحت الماء إلى اليابسة، وندقق في كل تشوه نستخرجه مطولاً، وننقب فيه جزءاً تلو جزء. لا نكتفي أحيانا بهذا، فنرفع صيدنا في الهواء بشهية رفع الأخطبوط سمك الحبر، ونلطم به من هذا الشاطئ إلى ذاك على مدى ساعات. في الحقيقة إن أحداً لا يُنقذ من لساننا، ولكن البعض يحصلون على نصيب أكبر من التعميمات الماطرة على الجميع. لأسباب مختلفة يكون القرويون والشواذ، منتجو الإعلانات والأكاديميون، ربات البيوت والمحامون... بشكل جماعي على لوحة هدفنا. وقطر هذه اللوحة أصلاً عريض جداً، وهي عريضة حيث تتسع لمختلف أنواع الناس براحة. ثمة مكان لكل شخص هناك. كما نستهين من دون رحمة بمن نشهد اهتزازه، وبقسوة بمن يعتبرون أنفسهم عقلاء. نشمئز من المعتنين بلباسهم وهندامهم، ولكننا نغرق أصحاب الذائقة الشحيحة بلباسه في ملعقة ماء ونخرجه عدة مرات/ لا نستهوي بطولات الرجال المسحوقين، ولكننا نتمرد بكل قوتنا على من تلعب دور البطولة في الأوبرا/ نلوي شفاهنا للخائفين من الموت، ولكننا نسحق الذين ليس لديهم مشكلة مع الموت سحقاً/ لا يمكن لنا تحمل قراءة مقالة أو قصة أو رواية مكتوبة بشكل سيئ، ولكننا نشوه سمعة من يكتب بشكل جيد/ لا نهتم حتى بالذين يغدون متدينين إثر عملية جراحية خطيرة أو بعد إصابة بقروح، ولكننا نعيب كثيراً وبشكل حاد على الذين يبقون طوال عمرهم على نهج واحد إما مؤمنين وإما عديمي الإيمان/ لا نسامح المستقيمين على استقامتهم، ولكننا نضع اعوجاج المعوجين بالدف والصنج ونعزفهم/ ننفض العلمانيين السذج الذين يعتقدون أن المسيحية أقل تدخلاً بحياة الناس من الإسلام، أو أن اليهودية أقل أبوية، ونقضم قضماً الذين لا علم لهم بالتنوع داخل الإسلام، ولكننا نقصف بقذائف المدفعية الذين

يعتقدون أنهم حصلوا على تمايز عبر انضمامهم إلى حركات صوفية تعبر من حدود الدين من دون تأشيرة دخول، وننبش الباحثين عن مسيح بديل هندي أو صيني أو تيبتي باسم ثلاثية السمو& الكينونة& الوصول/ ننطح الذين يتزوجون ويغدون أصحاب أولاد وعائلة برأس ثور، ولكننا نضحك من مؤخراتنا من الذين يعتبرون عدم الزواج معارضة/ المتخبطون الحشريون المبدون القلة إلى حد عدم الكفاية من أجل قضم تفاحة الحرام على الأقل في صحراء الهذيان المفتوحة حاملين اختلافهم الجنسي كأنه اضطرار حل بهم، والذين يرون ازدواجيتهم الجنسية خياراً عائداً لهم تماماً متنزهين في واحات خيارات الآخرين المغلقة ندهنهم بالقطران نفسه، ونجول بهم عراة تماماً على موائدنا/ لا نحب معارفنا بالذات، ولكننا نصرف الذين نعرفهم بشكل يقيني قدر المستطاع، وننفقهم. ولا نجد ضرورة للتعبير عن كل هذا بشكل مطول، ونكتفي برموزه. نصنف كل شخص، وكل شيء بعناية أرشيفي، ونضعه في ملف. وهكذا كنا نظلم كل شخص، وكل شيء. ولكنكم إذا مشطتم حرف "الحاء" من معجم لغة البقايا الجافة المصور لن تجدوا "حقاً" ولا "حقوقاً". مثلما لا يوجد "قداسة" أو "قدسية" في حرف "القاف"، وكما لن نجد "علوي" أو "علوية" في حرف "العين". أما بالنسبة إلى الظلم فنجد في القاموس نفسه مقابل هذه الكلمة مكتوباً التالي:

1- التصرف بشكل يجب ألا يكون مع أمر يجب ألا يكون (مثال: أخذ فراء موجود بيد شخص يعيش في الصحراء، وأخذ كأس نبيذ من أمام صوفي).

2- إيحاء غير مباشر (مثال: البصاق بوجه أحد من فوق صورته).

أثناء حديثنا إثل وأنا بلغة البقايا الجافة كنا نظلم هذا وذاك بالمعنى الثاني للكلمة. من المؤكد أن قسماً من الأفكار التي نذكرها بيننا، وحتى قسم كبير نشارك به أناساً مختلفين جداً، ولكن ليس بالأسلوب نفسه أبداً. نبقي أسلوبنا غير المناسب لأنفسنا، وفيما بيننا. ولكن إثل الساقطة عندما كانت تتحدث مساء البارحة عن أهدافها المزركشة من الجامعة التي ستؤسس، بدت أنها تركت لغتنا المشتركة في المدخل عند قسم أمانات المعاطف والقبعات.

قالت ضاغطة على مشرب سجائرها الياسميني بين أسنانها: "أمازلت حتى الآن غير منتبه؟ كل ما تتخيله يغدو حقيقة." فهنا لن يكون ثمة توظيف سياسي، ولا عقم جامعات الدولة، وتكرار الذات دائماً فيها، وتخفيضات ميزانيتها. سيجمعون أعضاء هيئات تدريسية هم الأعلى سوية في البلد، ويلمون أصحاب الذكاء الألمع الذين نجعل الجامعات الأجنبية تنتزعهم منا، وسيجلبون عدداً كبيراً من الخبراء الأجانب إلى اسطنبول. وأضافت قائلة وهي تضحك مصدرة صوتاً كأنها تروي طرفة بذيئة: "فكر بهذا، إننا سنغلب قوة العقل. حتى إننا سنحول التيار إلى الاتجاه العكسي خلال خمس السنوات الأولى، وعلى الأقل إلى نهرنا نحن. ستكون العقول الغربية واقفة باستعداد لتلقي أوامرنا. سندهن مرهماً على عقدة دونيتنا."

لا أعرف لماذا ضحكت مصوتة هكذا. أعتبر معتاداً على الإيحاءات الجنسية لكلمة"عقل" عند إثل. أيام الجامعة كانت هكذا أيضاً. كره شديد لبنات جنسها، وتعلق غير محدود بالرجال الأذكياء... الآن أفكر أيضاً بأنها درست في قسم صعب مثل الهندسة المدنية لن تستطيع ممارسته في المستقبل، وثمة نصيب كبير لنجاحها في النهاية، رغم أنها سارت ببطء شديد، إلى وجود أضعاف مضاعفة من الطلاب الذكور نسبة إلى الإناث في القسم، ووجود عدد كبير من "العقول" من حولها. كان بيت إثل في تلك السنوات محجاً لعشرات الطلاب الخارقي الذكاء الدارسين في أقسام مختلفة، وإذا ضربنا عددهم بعدد السنوات سيكونون مئات. وإذا اعتبرنا أن ذلك المكان نوع من المنتدى الذي يستطيع الأعضاء أن يستفيدوا من مكتبته كما يشاؤون، أو نوع من المطعم الذي يستطيعون فيه ملء بطونهم، يمكن القول بأن الساقطة ساهمت مساهمة لا تعد قليلة في الحياة التعليمية التركية. ونحن المداومون على هذا السبيل كنا نتشابه فيما بيننا في خصوصية معينة رغم أننا نبدو مختلفين جداً لأول وهلة: في أشكال طلب المساعدة من ذكائنا. إذا كان هنالك من يعتمد على عقله بقوته كلها ليتخلص من عقدة التقسيمات الظالمة للحياة، وثمة من نجح في هذا، وليكن في أي صف من أي قسم من أقسام جامعة البوسفور،

فيجب أن يكون قد سمع باسم إثل ولمس جسدها. الغالبية العظمى من القادمين رفعوا مطالبهم من الحياة، وتوقعاتهم بعدم الانهيار حتى مجيء "ذلك اليوم العظيم" في جمادة عالية التبريد، وأعطوا أنفسهم للدراسة والعمل والبحث. وثمة حكمة تضغط بالإصبع على هذا الموضوع أيضاً: "الشاب القبيح الذي لا يلاحظه محيطه يطور عقله، مثله مثل الأعمى الذي لا يرى ما حوله فيبرز حواساً أخرى عنده."

الطلاب الذين لم يستطيعوا إقامة علاقة مع النساء، أو رفضتهم النساء اللواتي اهتموا بهن فقاطعوا العشق وحتى الجنس يغدون محط إعجاب إثل بقدر ما يستطيعون تطوير عقولهم. ويأتي أصحاب الخجل المزمن الذين خربت علاقتهم بالجنس اللطيف لسبب ما بعد المفلسين على صعيد سمات الوجه. والآخرون... اللاجنسيون المثنون والمادحون وناظمو القصائد في كل فرصة حول الحياة الخاوية من الاتصال الجنسي، والهامشيون الذين في بدايتهم، والازدواجيو الجنس العلنيون أو السريون، والمعارضون في أعلى حالات الوقار، غير الاجتماعيين الذين يكرهون الخروج من الامتحان إذا دخلوا، وأكبر انفعالات حياتهم كلها عبارة عن دخول إلى امتحان، القادمون من الريف وأضاعوا طريقهم في اسطنبول، والذين لم يخرجوا من اسطنبول وحتى من قواقعهم، الأوائل في أقسامهم الذين يدرسون رغماً عن عائلاتهم المخطئة، أصحاب المواهب المخبوءة الذين يدرسون في فرع خاطئ بسبب عائلاتهم، دهاة العلوم الرياضية والفيزيائية والكيمائية، الثرثارون المزمنون على العلوم الاجتماعية... وكل البائسين اليائسين غير المنسجمين مع الحياة الذين هم عبارة عن كتلة ذكاء فوجدوا صعوبة بالتماشي معها لأسباب جسدية أو مادية أو نفسية متنوعة كانوا محط اهتمام إثل. لو كان الأمر أمرها تماماً لما أدخلت إلى البيت ذكاء أنثوياً. ولكنها أحياناً عندما تدرك أن شاباً تحترمه له صديقة واحدة فلا تبدي غضباً، وتدعو الاثنين. لكنها رغم هذا، لسبب ما تعفو عن صديقتين أو ثلاث من أيام الدراسة في الثانوية الأجنبية من الكره الكبير الذي تكنه لبنات جنسها. إحداهن كانت تعرج كثيراً على البيت المَعْبَد. وكانت

جذابـة على عكس إثل ولا يمكن المقارنة بينهما. ساقان طويلتان متناسقتان... بشـرة حنطـية مـن دون أي نفـور... أسـنان منتظمة لؤلؤية... ثديان معجونان بحـب قوانـين الجدلـية: صـغيران الواحـد مـنهما بقدر راحة يد، وحيويان في جسـد كـبير... ولكـنه ثمـة عذر فيها. فور إدراكها الإعجاب بها تتلبس حالة قسـرية مـن القسوة ككل النساء اللواتي يفقدن طبيعتهن، وتنتظر في مكان وسط يشبه وادي الأعـراف فـلا تبـتعد عـن الشـاب الـذي مقابلها، ولا تقترب منه كـثيراً، وتعتقد أن الاهتمام الذي رأته، وتراه ستجعله مستمراً. تبدو كأنها تمنُّ على الذين يسألونها عن اسمها عندما ترد: "آي- شن!"

الغريـب بالأمـر هو كيف يحدث أن يعشق الشباب الآخرون في البيت قبح إثـل ولـيس هـذا المـلاك المغـرور. مع أن الحقيقة أن أغلبهم يعجبون بآيشن في داخـلهم بشـكل بـارز، ولكـن كـم فعـل الإعجـاب هـذا فعـل ذرائعي مهلهل. وبلسـان متسـابق يعـدد هواياتـه في المسـابقات التافهة: "أعجب بقراءة الكتب والاسـتماع إلى الموسـيقى والتـنـزه في الحقـول وآيشـن الطويلـة الساقين القاسية الفخذيـن..." ولكـن عندما يكون الموضوع موضوع قبيحة القبيحات إثل فتقطع مـرحلة الإعجـاب بالسـرعة القصـوى، وينخرطون بعشقها متحرقين وملتهبين بحرص الفرص التي أضاعوها في حياتهم. بها أو ببيتها أو بكليهما.

لم يكن البيت المعبد لوالدي إثل أو عائلتها أو أي فرد من أفرادها، بل لها بـالذات. وبيـنما تسكن جماعة الطلاب كلها في بيوت عائلاتهم الكئيبة الشبيه بشـبكة الكـلمات المـتقاطعة أو في بـيوت العـازبين المهـلهلة أو في مهـاجع نـوم مـزدحمة لا يسـتطيعون الـبقاء وحدهم فيها إلا في خزانة، كانت تلك الساقطة تمـتلك فـيلا وحدهـا. وهـذا وحده يكفي لمنحها وضعية تجعلها خارج الواقع، وجعـل داخـل بيـتها عالمـاً خيالـياً. وكمـا يغازل الخيال كل أنواع فن المبالغة بشـكل سافر، فإن إثل كانت ماهرة بتجاوز الحدود. وهذا المكان الطافح بالمتعة في كـل مـرة، وتفوح منه روائح مسكرة مع النسيم المعتدل كل مساء، وحديقتها المطلـة عـلى البوسفور المغطاة من رأسها إلى قدمها بالنرجس والياسمين، وبركة المـاء الصـغيرة ولكـنها لطـيفة تسـبح فـيها ألـوان المصابيح المتنوعة كل مساء،

والمشروبات الفاخرة، والمأكولات اللذيذة، وأغراضها التي كل منها أغرب من الآخر، ومجموعة أسطواناتها الواسعة، ومكتبتها الغنية، والسيجار من النوع الأول المتجول بشكل دائم بين الحاضرين كأنها مصغر لعالم يذمه مؤرخو العصر ممعنين ومفصلين على صفحات "عصر الزنبق". ولكنكم إذا أردتم رأيي فإن ما يسلب الضيوف القادمين إلى هنا لبهم ليست الثروة، ولا المظاهر أو الحياة الفاخرة. القضية هي اللامحدودية أكثر من هذا. تأخذ علب السجائر الجديدة فوراً مكان التي تنقص، مجموعة الأسطوانات لا تستطيع أن تحصيها لكثرتها، ولا تفقد المكتبة شيئاً من عظمتها رغم أن مستعير الكتاب لا يعيده بأي شكل، رغم تناولنا الطعام كجيش ولكن البرادات التي في المطبخ لا تفرغ بأي شكل، مستودع لحوم السجق والنقانق لا يفرغ أبداً. بينما يكاد يُقضى على ما خارج الفيلا، فإن خضر عليه السلام موجود بين العمال، وقال كما وردت في الروايات: "ليكن زائداً، ولا ينقص. وليفور، ولا يُسفح" لا يمكن لمغارة الأربعين حرامياً السحرية بكؤوسها المليئة بالذهب ولفات أقمشتها اللامعة وجرارها المليئة بالسمن والعسل أن تنافس بيت إثل المعبد.

وبقدر ما البيت مرفه، فإن صاحبة البيت كريمة. كانت إثل تتابع عن قرب ما يرغب به ضيوفها القيمون. وضيافتها تزداد أضعافاً مضاعفة بحسب القيمة التي تعطيها للذي مقابلها. هل يوجد بيننا من يتعلق بالوسكي مثلاً؟ فور علم إثل بهذا، تملأ ثلاجة المشروب بأفضل أنواع الوسكي. وإما أن آخرَ يحب ألعاب الفك والتركيب، فتوصي إثل أحد أصدقائها الذاهبين إلى خارج البلد على ألعاب فك وتركيب تفوق إحداها الثانية غرابة. ولكن الحقيقة أن غالبية زماننا لا ينقضي بهذه الألعاب، بل نحصره بالحديث، وإغضاب أنفسنا بالحديث. ندفن أنفسنا بأرائك البهو الواسع المريحة، ونأكل ونشرب وندخن السجائر، ونطعن بهذا وذاك، وببعضنا بعضاً على الأغلب، ونتملص من الماضي الذي جئنا منه، والشخصيات التي نحن عليها مخرجين السبع الذي في قلب كل منا، ونتناقش بشكل دائم. صاحبة البيت لا تهتم لمضمون ما نتكلم به. حتى إنني لا أعتقد أنها تهتم بكل واحد منا. كانت تحب الجو

الـذي هيأته لنا وعروض المفرقعات. لأن كل ضيف يأتي إلى هنا يغوص في هذا المكـان مـثل مفـرقعة تـنطلق بسرعة في ظـلمة الـليل. يـندس مهـتزاً بخطوات مـرتجفة بدايـة، وعندما يقتنع بأنه ارتقى إلى السوية الكافية، ويحقق توافقاً، يـنفجر بأصـوات عظـيمة، وينـثر ألوانـه الـتي أخفاها حتى تلك اللحظة منيراً الوسـط. وكـلما انقسـمنا وتجـرأنا وانفرجـنا ضـاجين، تؤمـن إثل أنواع الراحة كـلها، وتخدمـنا باسـتمرار. لا جـني المصباح، ولا حوريات الجنة، ولا ملاك "بـيتر بـان"... ولا أحـد خـدم سيده كمـا تخدمـه هـي. بالنتـيجة فإن هؤلاء الضـيوف- السـادة كـلهم يعشقون صاحبة البيت في مرحلة ما عاجلاً أم آجلاً. ولكـن هـذا يكـون نهايتهم. عندما يتوقف الذين يمخرون عرض بحر واسع إلى هـذا الحـد بحـرية كمـا يشتهون، وينظرون إلى الخلف، ينتبهون مندهشين إلى أنهـم فقـدوا اليابسـة. في الـلحظة التي يتعلقون بشكل رهيب بإثل لا تكون إلى جانـبهم، لم تعـد تريدهم. الخطر الوحيد من الكينونة ضيفاً في هذا البيت، هو جعلـه ينسـى بسـهولة أن الإنسـان أو الضـيف أو الاستضـافة هـي مؤقتة فيه. وبالطـريقة التي تكون فيها أدوات البيت المعبد لانهائية، فإن الضيف الذاهب يحـل محلـه آخر بسرعة. دعاء البركة للخضر ينطلي على "عقول" إثل أيضاً: يزداد دائماً، ولا ينقص أبداً.

أمـا بالنسـبة إلـي، فقـد كنـت حـالاً استثنائية. صرت ضيف البيت المعبد الدائـم مـن الـبداية إلى الـنهاية، أو نوعـاً مـن ضـيف الشـرف. كنت حريصاً، وبالنسـبة إلى الـبعض أكـثر مـن الـلازم. ولعـدة أسباب ملموسة كانت صفحتي مليـئة بالجـيد جـداً. فقـد كنت طويل القامة (ثلاث نجوم)، بعد ذلك عريض الكـتفين (ثـلاث نجـوم)، لـن أسـتطيع القـول إنني أعد وسيماً، ولكنني كنت دائمـاً أوسـم مـن الأوسـاط التي أدخلها وأخرج منها (أربع نجوم)، وكنت غير متمـلمل ومشاكسـاً إلى أبعـد الحـدود (خمـس نجـوم). وأخـتلف عـن الآخرين بوجـود خـيارات أخرى لدي. من ناحية وجودي هنا فأنا مسرور منه، ولكنني كنـت أسـتطيع الخـروج والذهـاب مـتى شـئت. يمكـن أن أذهـب، وألا أعود. وكانـت إثـل منتبهة إلى هذا. لهذا السبب كنت قيماً إلى هذا الحد. كنت بذرة

النفاق وسط الجنة. وجودي يسعد إثل، ويقلق الضيوف الآخرين. لم أكن أهتم بهذا. كان الشباب الآخرون يعتبرونني شارباً ماء محرزاً باعتباري تهديداً لهم. لو كنت سأهتم بهذا النوع من النظرات، لاهتممت قبل هذا بكثير: أهتم عندما كنت في برزخ الحادية عشرة من عمري الباعث على الضيق، كان بيدي طبق من كعكة عرس، وأسير مرتدياً قميصاً وسروالاً داخليين على جسدي النحيل جداً حين التقيت وجهاً لوجه مع زوج أمي المتراخي تحت تأثير النوم والناهض جائعاً في باب المطبخ. كان ذلك الرجل المسكين يعتبرني ابن المرأة التي سيتزوجها الكبير الذي له مشكلة ولكنه جائع في داخله للحب والعطف. يجب ألا أظلم الرجل، فقد أراد دائماً أن يكون أباً لي: الابن الموهوب الذي وهبه الله لرجل وصل الخمسين من عمره ولم يرزق بولد. مع أنني عندما التقيت به في الممر بشكل غير متوقع صباح يوم الزفاف فبالنظر إلى خطوط وجهي التي أخذتها من أبي، وشبه عربي الذي يجعلني متلبساً بالخروج من الطفولة، وملئي الصحن إلى آخره يجب أن أكون بدوت في عينه لا أشبه الابن الصغير أبداً عبر شهيتي التي تبشر بأنني سأنمو بسرعة فائقة. لمعان قلق اشتعل وانطفأ كأشواك في بؤبؤي عينيه. الجانب السيئ في الأمر هو أن أمي أيضاً شعرت بهذا، ومن دون إضاعة أي وقت. كأنها اكتشفت هذا من بقايا تلك النظرات في اليوم التالي عندما كانت تكنس الأرض. وهذا لا يعد علامة خير لأي منا، لأن أمي واحدة من النساء اللواتي يؤسسن لتوترات تروح وتجيء، وأحلاف صغيرة متلاعبة لتستثمرها حتى آخر قطرة لصالحها، أي إنها من الذين يتمنون الرحمة لروح بسمارك من دون أن تسمع باسمه... مع ابنها الكبير ضد الصغير، ومع ابنها الصغير ضد المرحوم زوجها، ومع المرحوم زوجها ضد زوجها الجديد، ومع زوجها الجديد ضد ابنيها...

بالنتيجة صرت معتاداً على الكلمات غير المنسكبة في حديث. ليس لدي اهتمام بنظرات الآخرين. كنا محط إعجاب إثل وعشيق آيشن. كنت أحب التردد على البيت المعبد، ولكن هذا كل شيء. لدي خيارات أخرى، وأعمال أهم يجب أن أعملها. كما قلت من قبل، فأنا حريص، وحريص جداً. لم يكن

لدي لحظة صرفتها من دون جدوى بعد تخرجي. أنهيت دراستي هنا، وبدأت دراسة الدكتوراه في إنكلترا. فرع لا يعني شيئاً لعائلتي التي لا تعني شيئاً بالنسبة إلي: فلسفة السياسة. وفي المحاولة الثانية لامتحان القبول نجحت آيشن معيدة في علم الاجتماع. كان أحدنا يليق بالآخر. وإثل تأتي من خلفنا بصعوبة ومشقة. وفي النهاية عندما تخرجت، أقسمت أيماناً معظمة بأنها لن تعتب باب الجامعة مرة أخرى، وخلال الحفلة التي أقامتها في البيت المعبد أحرقت شهادتها بمراسم احتفالية. وفي المنعطف الذي أسسنا فيه آيشن وأنا حياة مستقرة، أحرقت إثل التي لها بسرعة مدهشة. بداية أنهت حياتها بالطول والعرض. بعد ذلك خرجت من تلك الفيلا، وانتقلت إلى طابق سطح يشرح النفس، ولطيف إلى أبعد الحدود، ولكنه خامد قياساً إلى سلفه. لم تعد تجمع الجميع في بيتها، وتقضي معظم وقتها غير جاذبة الاهتمام وسط الزحام، بل في أمكنة لشخصين معانية من دلال العشاق، ووهبت كل نقودها وطاقتها ومحبتها لهم، ولكنها رغم هذا لم تكن تحب كما تريد. سمعنا أن جماعتها ليست مسرورة من تصرفاتها. ولكن إثل أيضاً ليست مسرورة منهم أساساً. ويقال هذا من خلفهما في أي مكان مهما كان مستواه رغم معرفة أنه سيصل إلى أذنيها.

"طالما أنكِ قرأتِ كتباً أكثر مني، وصرت عالمة اجتماع، أرجوك، هل تحلين لي هذا اللغز الصغير؟ انظري إلى الاثنتين والسبعين دولة من دول العالم، ففيها جميعها من الأكثر ديمقراطية إلى الأكثر قمعاً عدد من اليهود الكتاب، والرسامين وما شابه ذلك. كأنهم يجدون طريقة ما ليطوروا ذكاءهم مهما كانت الظروف. عدا مكان واحد. ففي إفريقيا، الشرق الأوسط، أمريكا، أوربا، روسيا... عدي إن كنت تستطيعين أن تعدي، وفي كل هذه القارات، وهذه الدول إلا في تركيا فقد جرى لهم شيء، ولا أدري السبب الذي جعلهم لا يعتمدون على عقولهم."

قالت آيشن مقطبة حاجبيها: "إنك مخطئة، لدي كثير من الأصدقاء الموسويين."

قهقهـت إثـل بشـكل ظـالم. فهـي لا تعفو عن أخطاء كهذه أبداً. أما أنا فقد انقسـمت إلى قسـمين. أحد قسمي وجد آيشن جميلة إلى حد أنها وجدت ضرورة للبدء بالحديـث على هذا النحو لتبدو مدافعة عن اليهود أمام أصدقائها اليهود- وهـذا يجـب أن يكـون قسمي العاشق لها. أما نصفي الآخر فنظر إلى آيشن بغيظ أكـنه للذيـن يعتـبرون المـزايا الـتي طوروها لأنفسهم، والتي أخذوها من الأغصان الكثـيفة في شـجرة عائلـتهم، ومـن البنـية العائلـية الاسـتثنائية الـتي ولدوا فيها وترعـرعوا، ومـن المـدارس النخـبوية التي ذهبوا إليها، ومما منحتهم إياه الحياة من دون سؤال أو مساءلة- وهذا يجب أن يكون جانبي الذي جعلها تعشقني.

ولكـن آيشـن يجـب أن تكون غير منتبهة لردة فعل إثل الوحيدة الاتجاه، ولا ردة فعلـي المـزدوجة الـرأس ممـا جعـلها تغوص عميقاً بأطروحتها: "كلهم يذهـبون إلى أفضـل فروع الجامعات. وأغلبهم حصلوا على منح دراسية في غاية الأهمية. والآن ارتقوا إلى أعلى المستويات."

قالـت إثل وهي تطقطق أصابعها: "وأنا أيضاً أقول لك هذا. أنت تتحدثين لـي عن عمل، أما أنا فأتحدث عن الدهاء. اقتصاديون، أكاديميون، محامون، جراحـون... أرجوك، لنمر على هذا. ليس هذا هو الموضوع. أنا أتحدث لك عن موضـوع آخـر. لـماذا لا يظهـر بيـنهم شـعراء لا مـبالون لأمـور الدنـيا، وحـتى كحولـيون؛ أو إداريـون عـابدون أهواءهـم أو منحرفون تماماً، وحتى ذوي روح مجـرمة؟ لـماذا لا يُلحن أناسي موسيقى؟ وإذا لحنوا، فيترنمون بأغنيات حلوة لذيذة تقليدية لجداتنا، ولا ينتجون شيئاً معارضاً، أو قبيحاً حتى جذوره؟"

كانـت مفـردة "أناسـي" الـنقطة الأخـيرة. هجوم حاكمية إثل، مقابل دفاع آيشـن المتواضـع. عـندما يحاول أحد لا ينتمي إلى مجموعة أو شخص من تلك المجموعـة الدخـول في نقـاش، فإنـه فـوراً، ومن دون مقدمات يوحي بامتيازه هكـذا. نهاية الطريق. بئر النقاش الذي لا قرار له. الفصل الأخير الذي يذهب فيه صاحب البيت إلى بيته، والقروي إلى قريته، وكل شخص إلى حيث يعود. أشـعلت سيجارة، ووضعتهما كلتيهما ضمن مستطيل رؤيتي، وأسندت ظهري. بالنسبة إلي فالأمر سيان. الاثنتان بالنسبة إلي امرأتاي.

الرجال الذين في حال الخيانة الزوجية يهتمون بالنوعية: فهم يستمتعون برؤية حب عند نساء أخريات مختلف عن الذي يرونه لدى زوجاتهم. أما النساء اللواتي في حال الخيانة الزوجية فيهتممن بالكم: فهن يستمتعن برؤية حب أكثر من الذي يرونه عند أزواجهن عند رجال آخرين. خيانة آيشن مع إثل يداعب كبريائي. كنت في تلك الأثناء مسروراً جداً بالفرجة على الفرق بينهما. أما بالنسبة إلى ما إذا كانت آيشن تخونني أم لا، فإنني لم أعمل على معرفة هذا في أي وقت.

تدخلت آيشن بالحديث وهي تبدو لا تنوي أن تستسلم: "حسن، ولكن كل هذا ليس من دون سبب." بعد ذلك شمرت عن ذراعيها، ودخلت بعدد من الشروح المفصلة. تحدثت عن الحال النفسية المتأرجحة للأقليات، وعدم الثقة الدائمة التي خلقتها أزمة الضرائب الخاصة، والتحكم الناجم عن تغذية عناصر مجردة أكثر من تهديدات ملموسة، باذلة جهدها لاستخدام تعابير مادية. وهذا ليس ناجماً عن وقاحتها، ولا عن فضولها للتكلم بتعال. كانت تتكلم هكذا، لأن هذه هي لغة الحوار الوحيدة التي تعرفها. ولكن النقاش بلغة أكاديمية تشبه الدخول في معاشرة امرأة لم تضع قطرة مشروب كحولي بحياتها في فمها. يمكنكم أن تكونوا واثقين أنها ستبقى حتى نهاية الليلة مستيقظة، ولن تتمادى في التصرف بشكل قطعي، ولن تثور وتخجلكم. ولكنكم يجب أن تتقبلوا منذ البداية أنكم لن تستطيعوا أن تفكوا الياقة والصدر معها، أو تطلقوا صيحاتكم، ولن تضربوا إلى القعر والزاوية، ولن تناما متحاضنين، وبالنتيجة لن تستمتعوا.

قالت إثل متسلحة بسيوف شحذتها من جديد: "ما قلته هذا جميل جدا، ولكنه فارغ بالقدر نفسه. لو ظهر بين موسويي تركيا كتاب قساة، وإداريون انقلابيون، ورسامون يخشى جانبهم في المجتمع، بماذا ستفسر الأجيال التي ستأتي من بعدنا هذا الوضع، لنقل بعد خمسين أو مئة عام، أتعرفين؟ بالذرائع التي استخدمتِها الآن نفسها. سيقولون، نعم، فلان الفلاني فنان أو مفكر يهودي كبير جداً. حسن، ما الذي يجعله كبيراً إلى هذا الحد؛ ويميزه

عن الآخرين؟ وسيبدؤون بتعداد ما عددته: نفسية الأقلية، الغربة في اللغة، عدم الطمأنينة، عدم الحماية، وهكذا، وما إلى هنالك من خواء. حينئذ سيكون تمايزاً كل ما عددته أنت الآن على أنه معوقات، وحتى امتيازاً. هذه الأمور هكذا. إذا كان ثمة رجل أعرج لا يستطيع أن يرقص، فنقول طبعاً لا يستطيع أن يرقص، لأنه أعرج. أما إذا كان الرجل راقصاً ماهراً، فسنقول حينئذ، طبعاً سيكون أفضل من الآخرين، لأنه أعرج."

انسحبت آيشن إلى الخلف فاتحة ذراعيها، وهازة رأسها إلى الجانبين في الوقت نفسه كأن أمامها بائع يلح على بيعها أشياء ما. كنت أعرف تلك الحركة بشكل جيد جداً. معناها على النحو التالي: "أشكرك، علي ألا آخذ هذه الترهات." وعلى مدى ثلاث سنوات ونصف من زواجنا سينتهي كل نقاش من نقاشاتنا بتلك الحركة.

# الرقم 8: الخليلة الزرقاء

صعدت الخليلة الزرقاء الدرج متلاحقة الأنفاس، وفتحت باب الشقة رقم ثمانية منهمكة. تأخرت. وكأن استغراق عملها عند مصفف الشعر طويلاً لم يكف، فقد أضاعت وقتاً بالتسوق. أفرغت ما اشترته على بلاطة المطبخ. يمكن أن يتأخر الطعام، يجب أن تجهز نفسها أولاً. دخلت إلى الحمام مرتبكة. دققت بتماوج شعرها الملمع أثناء غسل أسنانها بالفرشاة بسرعة. بدا لها شعرها جميلاً عند مصفف الشعر، ولكنها الآن ليست واثقة تماماً من هذا. ولأنها من النساء الراغبات بالشعر المتماوج أحياناً، والسابل في أحيان أخرى، ولكنها تجده لائقاً بالأخريات دائماً فإن شعرها يتأرجح بموجات كبيرة جاهزة لتميل إلى كل من الجانبين. ولكن مصفف الشعر الثرثار الذي في الأسفل خرب هذا التوازن الظريف، وموّجه أكثر من الضرورة، وقد قص خصلاته أساساً أكثر من اللازم. بللته بالماء بيدها، وحاولت منحه شكلاً. نظرت وإذ بها تخربه كلما عملت به، فألقت بنفسها خارج الحمام. أثناء خلعها ثيابها في غرفة النوم، ألقت نظرة مهربة إلى نفسها عبر المرآة الطولية. في الحقيقة إنها كبرت وركها في الفترة

الأخيرة، ولكنها تعتقد بأنها في غاية الجمال. لو أن تلك الخطوط ليست واضحة إلى هذا الحد... دهنت فخذيها بكثير من مادة العصارة التي أخذتها عن الخزانة الصغيرة. تحولت هذه الخطوط الحمراء الصارخة إلى لون بيج عاتم.

فتحت الخزانة، ونظرت إلى ألبستها الداخلية. لم تفكر كثيراً بما ستختاره، مهما يكن فإن تاجر زيت الزيتون يبدو غير منتبه لما تلبسه داخلياً. مع أنه لم يكن هكذا في البداية. كان في ذلك الوقت يريدها أن ترتدي الألبسة الداخلية الأكثر صخباً والأسوأ، حتى إنه في أغلب الأحيان يختارها بنفسه، ويهديها إياها. كانت الملابس الداخلية التي يجلبها كلها باللون نفسه: الأزرق السماوي البراق اللامع نفسه. الخليلة الزرقاء تحب هذا اللون. كانت تحبه من ناحية الحب، ولكنها كانت تقلق أيضاً عندما ترى عدم التناغم بين الفضائحية التي تخرج من علب الهدايا على أنها حمالات صدر وسراويل داخلية، والتعقل الذي في ألوانها. يمكن أن تكون مطاطة الجورب مباهية بقدر الأحمر، ومجهولة بقدر الأسود، ومدللة بقدر الأبيض، وحتى يمكن أن تكون مغناجاً كالبنفسجي أو مرائية كالزهري... ولكنها لا يمكن أن تكون براقة لامعة لا متناهية كالأزرق السماوي. هذا يشبه إضافة الماء إلى الحليب، وحتى إنه أسوأ من هذا، مثل إضافة الحليب إلى العرق. ممكن لرجل أن يحب الاثنين معاً، ولكن ليس شربهما معاً. ليس ثمة ما يدهش لتقمص الخراف دور الذئاب، ولتقمص الذئاب دور الخراف أيضاً. ولكن العمل على أن يكون الاثنين معاً ينتج مخلوقاً غريباً لا هو ذئب ولا خروف، ويهاجم بشكل متعقل، وعندما يهاجم يعتقد أنه عديم الضرر.

حتى الرجال الذين يرون النساء اللواتي ليس عندهن احتمال الزواج أحقر من النساء اللواتي عندهن احتمال الزواج لن يؤذوهن مثل شبه الذئب وشبه الخروف. أمثال هؤلاء يشعرون بالشهوة لما يعتبرونه عيباً، ويعيبون على الأشياء التي يشتهونها. ما يمشون عليه هو خيط رفيع، وأرضية قابلة للكسر. تفرجت على رجل شاب تهدل خداه وضع ثلاث كؤوس نحاسية مقلوبة على صندوق مقوى، ويعمل سحراً. مع تغيير الرجل أمكنة الكؤوس بخفة يد

تـتحرك الخـرزة مـن دون توقـف، وتظهـر مـن مكان غير متوقع. بداية كانت الخـرزة تحـت الكـأس الأولى: "اخجل من رغباتك!" وفوراً انتقلت الخرزة إلى تحـت الكـأس الثانـية: "أخجـل مـن المـرأة الـتي ترغـبها!" وبحـركة واحدة خرجـت الخـرزة مـن تحـت الكـأس الثالـثة: "ارغـب المـرأة الـتي ستشعرك بـالخجل!" وهـذا يعـني أنهـم يـبدؤون عاجلاً أم آجلاً بالاستهانة بالمرأة التي يضـاجعونها. ومـن أجـل أن يخـرج تاجـر زيـت الزيـتون مـن بـين فكـي هذه الكماشـة، يضـغط عـلى طعـم خجله ورغبته أيضاً، ويضيف إلى طبخة علاقتنا بهارات حتى تغدو رائحتها خانقة. كتبت الخليلة الزرقاء ذات مرة على دفتر يومـياتها يـوم تشاجرت معه: "إذا أثار أحدهم فينا رغبات لا نحبها، فإننا لا نحـبه. ولكنـنا إذا استمرينا بالرغـبة به مهما حدث، فإننا نعمل حينئذ على إيجـاد مـا نحـبه فـيه." الإيمـان بـبراءة مفقـودة مـثلاً. أو ارتـداء قفازين أثناء التنقيـب بـأرذل مزابل العالم بفضول من أجل عدم ملامسة القذر والوسخ، وأن يكونا من المخمل السماوي... من الأزرق السماوي غير المتناهي البراق اللامع.

لا يوجـد مجـرد ذكر لاسم الشهوة في سلة بهارات تاجر زيت الزيتون. مع أنـه ثمـة أشياء متنوعة في السـلة، ولكن يا للحكمة، فإن الشيء نفسه يعلق بيد الـرجل دائمـاً: الشفقة. إنه يكنُّ شفقة للخليلة الزرقاء: لم تكن تلك الفتاة التي ستسقط في تلك الأحوال. كما يحدث أن يكن الشفقة لنفسه: لم يكن ذلك الرجل الـذي سيسـقط في تلـك الأحـوال. كـان يذكر "القدر" بشكل دائم ومتكرر، وكأنه يذكـر امـرأة سـافلة لم ترضـع حليـب أمهـا. أمـا بالنسبة إلى الخليلة الزرقاء، فيـنظر إلى الشـهوة الملـتاثة بالشفقة كشريحـة خبز مدهونة بالمعقود سقطت على الأرض، وتلوثـت بـالتراب. يفقـد شـهوته، وتـتوتر أعصـابه. تشبه وضعها في أوقـات كهـذه بشعرها. هـنالك زوجـة تاجر زيت الزيتون من جهة، مستقيمة ومن دون أي نفور كشعر أسبل. وهناك اللعوب المدعو "قدراً" من جهة أخرى، وهـي كشـعر ملفلـف بشكل قوي، صاعد ونازل، غير متوازن. إنها في مكان ما مـن وسـط هذيـن المكـانين، ويمكن لها أن تميل إلى أحدهما في أي لحظة. إنها نصف زوجة، ونصف امرأة سهلة المنال. زرقاء وخليلة في آن واحد.

تعـرف كـم أحزنت أباها وأمها عندما غادرت البيت بشكل حازم، ولكنها لا تسـتطيع مـنع نفسها من التفكير بأنها أراحتهما بشكل خفي. كانا إنسانين طيـبين. ولكـنهما لا يسـحبان طيـباً كافـياً بالمقابل من الشبكة التي يلقيانها في بحـر علاقـتهما مـع ابنـتهما. إنهـا لا تحـب حـبهما، ولا تحتمل اهتمامهما، ولكـنها لا تسـتطيع التغلـب عـلى إنكـار الواجـب بـأن تكـون من دون حب و اهـتمام. كـان يمكنها أن تدرس إن أرادت. كانت يمكن أن تنهي الثانوية على الأقـل. ولكـنها لم تجـد الرغبة بالعودة إلى الثانوية بعد تلك الحادثة. رَسَمَ أثر الجـرح الرفـيع جـداً على وجهها حدوداً بين ما قبله وما بعده. كانت مضطرة لـلخروج مـن ذلك البيت. وخرجت أيضاً. المكان الوحيد الذي أرادت أن تعود إلـيه هـو بيت جدها من دون شك. حاولت تقفي آثار جدها عاملة على المسير ناظـرة إلى آثـار أقدام لا تُعد أو تحصى متداخلة فيما بينها في اسطنبول. كانت مضـطرة لإيجادهـا. ووجدتهـا. اجتمعـت حـول أجدادهـا على شكل جماعات مخـتلفة كمـراوح تـتطاير نحـو الضـوء، موزعـة عـلى طـرفي المديـنة المتقابلين. انضمت إليهم. وعلى مدى سنتين اتخذت لها مكاناً ضمن أحاديث ثلاث طرق صـوفية مخـتلفة كـل أسـبوع مـن دون انقطـاع. بحثـت عـن سـلوان بين قرب الكـلمات الـتي سمعـتها من الأجداد خلال الأحـاديث، والكلمات التي سمعتها مـن جدهـا عـندما كانت صغيرة. ولكنه لم يحدث. الكلمات تتشابه من ناحية الشـبه، ولكـنهم لسـبب ما لا يقولون الأمور نفسها. مع الزمن انتبهت إلى أنها تنضـم إلى الأحـاديث كرما للأذكار المتكررة أحدها تلو الآخر. تجلس إلى جانب المـريدين الآخـرين أثـناء حديث الجد، ولكنها بدل أن تصغي لما يقال مثلهم، تنـزوي خلف صمم مصمت. ولا توارب أبواب أذنيها التي أقفلتهما بالخاتم إلا عـندما يـبدأ الذكـر. لم يكـن عقـلها بمـا تعـبر عـنه الكـلمات، بـل في ألحـان الأشعار، والقرع على الدفوف. لا في النصائح المقدمة، ولا في المدائحية، المدائح الإلهـية... بـل في أجـزائها المشـتتة فقـط، وفي شـعور نقصـها المفـني الذي لم تسـتطع أن تنفضه عنها بأي شكل. بعد مدة بدأت تجد نفسها بوجهين. ماذا يعني استمرارها مع هؤلاء الذين لا يساوون شيئاً؟ تنفصل عن المريدين الآخرين

مقدار فرسخ آخر بعد كل ذكر تحضره. وكما لم تنجح بمنح أبيها وأمها محبة مقابل المحبة التي منحاها إياها، لم تجد الطمأنينة عند الذين ينصحون بالطمأنينة دائماً.

عندما فتحت عينيها على فراغ مخصي إثر أحد الأذكار، قالت هامسة: "لا أعرف كيف أكتفي بما أجده، لأنني ناكرة للجميل." والأمر الغريب أنها لم تحزن من الوصول إلى هذه النتيجة، بل انتبهت إلى أنها شعرت بالانتعاش. أصيبت بمرض الأطفال الذين انتبهوا وهم أطفال إلى أن طفولتهم مرت بجمال رائع الذي لا يُبرأ منه، بمرض الذين يبدؤون الحياة وأسقفهم عالية... والآن فإن الجماليات التي تعيشها كلها هي تحت ذلك السقف، أما الناس الذين تعرفت إليهم كلهم فهم في ظل جدها. مع أنهم غير منتبهين حتى إلى هذا النقص. وهذه هي القضية أساساً: اكتمال الطيب. المؤمنون بكل قلوبهم بأنهم طيبون وضعهم يائس أكثر بكثير من السيئين، لأنهم يرون أنفسهم مكتملين، وعلى أكمل وجه. ليس ثمة ثقب يحتاج إلى إغلاق، أو شق يحتاج إلى إصلاح في البيوت التي لا تدلف سقوفها، ولا يتساقط طلاؤها الإسمنتي. وطالما وجدوا منقوصين في حالهم هذه المكتملة تماماً، ولم يعرف مصدر هذا النقص بالضبط، يبردون من الطيب، والعمل الطيب يوماً بعد يوم. في تلك الأثناء بالضبط بدأت تؤمن بأن روحاً تميل إلى السوء تحملها في مكان ما منها. وقبل مرور زمن طويل قطعت علاقتها تماماً مع الطرق الثلاثة. ما لم تجده عند الطيبين المنتظمين، بحثت عنه في أمكنة بعيدة عنهم. ولكن إيمانها لم يهتز ولو مرة واحدة بعد ابتعادها عن المؤمنين. ليس الإيمان عيشاً وفق قواعد ثابتة لإله آمر أو الانضمام إلى جماعة تقوم بواجباتها على ما يرام، بل كان ذاكرة طفل شمسي، وطالما أن ذكريات الطفولة هي أجمل ما في العمر وذكريات العمر، فإنها منذ ذلك اليوم حتى الآن بقيت مؤمنة متمسكة بإيمانها من دون انحراف. ثمة جانب طفلي في إيمانها حتى عندما تكون غير مؤمنة بقدر ما كانت في طفولتها.

ولكنها لم تكن تمتلك بيتاً تعود إليه، ولا نقوداً تمكنها من الاستمرار في طريقها. وفي تلك الأيام اعتادت على رؤية اهتمام من رجال بعمر أبيها، وعدم

بقائها غير مهتمة لذلك الاهتمام الذي اعتادت عليه. كلما وصلت إلى تمييز النقص عند هؤلاء الرجال الذين يبدو أن لديهم كل شيء، يتعلقون بها أكثر. وعلى كل حال فإن الخليلة كان بداية جيدة من أجل الابتعاد عن كمال الطيبين الأحادي النسق. كانت الزرقاء في البداية، بعد ذلك الخليلة. كما مرت بمراحل تقلبت بينهما. ولكنها خرجت من كونها الزرقاء تارة، والخليلة تارة أخرى، وبدأت بأن تكون خليلة وزرقاء في آن واحد عندما استأجر لها تاجر زيت الزيتون الشقة رقم ثمانية في بناء قصر بنبون. اختلف الرجل بشكل بارز، وازدادت فظاظة تصرفاته معها منذ لحظة فتحه بيتاً لها. كان "م م ز م ز ط"، ومن الطبقة الدنيا لـ "ل ز و ح" لمجموعة الذين "ي ت م د ف ي" في الوقت نفسه. وكانت تتصرف وفق هذه الحال.

يعيش في وجهه نوع آخر من الأحياء المزدحمة بقدر الناس، والمختلطة بقدرهم على الأقل: الحشرات. نجحت بالانتشار في كل مكان، والبقاء على قيد الحياة رغم كل شيء. إنها تقدم تنوعاً رائعاً. حتى إن لحشرة واحدة عشرة أنواع أحياناً، وألف نوع في أحيان أخرى. ويفترض أن مجموع أنواع الحشرات الموجودة حالياً يصل إلى أكثر من مليون نوع. ورغم هذا التداخل الرهيب، فإن عالم العلم لا يتوانى عن تصنيف الحشرات. وتصنف إلى طبقة عليا، وطبقات، وطبقات دنيا، ومجموعات عليا، ومجموعات، ومجموعات دنيا. مثلاً الناسور ينتمي إلى طبقة الحشرات، والطبقة الدنيا للمتغيرات الكاملات، والطبقة العليا من مجموعة ذوات الأجنحة القشرية، ومن مجموعة ذوات المعدات المختلفة، والطبقة الدنيا لآكلات النبات. قبول النساء انتماء الرجل الذي يعشن معه إلى نوع نابع من تصنيف غالبيتهن الساحقة من اللواتي تبوء أحلامهن بالفشل في علاقاتهن بالرجال الناسَ إلى أنواع كالحشرات. ثمة فرق واحد: لا تستطيع الحشرة الخروج من النوع الذي تنتمي إليه، والانتقال إلى نوع آخر. فالقراد لا يتحول في أي مرحلة من مراحل حياته إلى فرس النبي. يبقى على ما هو. ولكن أبناء آدم وبنات حواء تستطيع القيام بهذا. العلامة الفارقة للإنسان هي إمكانيته الانحراف عن نوعه. لوحة أنواع

الإنسان المعاصر أقل تعقيداً من لوحة الحشرات البدائية، ولكنها متداخلة أكثر. ولكن رغم هذا فإن الانتقال عبر الأنواع ليس سهلاً، وليس سهلاً أبداً. مهما يكن فإن كل نوع بلا استثناء لا يبقى عند حدود التشابه مع منسوبي نوعه فقط، بل يثبتها من أجل المحافظة على الاستقرار، والاستمرار بالحياة. وتاجر زيت الزيتون أيضاً من المجموعة العليا الذين يتذمرون من زواجهم منذ زمن طويل، ومجموعة الذين لا ينهون زواجهم في واقع الحال، ومن الطبقة الدنيا للذين يريدون التحول من دون فقدان ما بأيديهم. إنه نوع مضر من أي زاوية شئتم أن تنظروا.

قال لها على مائدة العرق التي فتحاها في أول مساء قضياه في البيت وهو يسكر: "أنت حلالي". كان مدمناً على المشروب، ومولعاً بالسهر. وهو ليس من أولئك الذين يكتفون بمقبلات تمشية حال أو نصف قالب جبن وقطعتي بطيخ أصفر. لا يقبل إلا بمائدة مشروب عامرة. كما أن المقبلات الجاهزة غير مقبولة، لا بد أن يكون كل شيء تحضيراً بيتياً. كان متعلقاً بالفروج الشركسي بشكل خاص. عندما كان يسحب من الفروج الشركسي بالخبز في ذلك المساء، قال: "ديننا يسمح لنا بهذا. يحق لنا أربع شرط العدل بينهن". ضحكت الخليلة الزرقاء. غضب الرجل. نهضت الخليلة الزرقاء عن المائدة. وهي على عكس تاجر زيت الزيتون تعرف الآية موضوع الكلام كاملة.

أخرجت من الخزانة ثوباً أخضر كاشفاً يضج حيوية، وارتدته بسرعة. عادت إلى المطبخ راكضة، وبدأت بفتح الصرر التي اشترتها من مركز التسوق. بداية وضعت مسبحة الحمّص بوعاء وزينته بأوراق النعنع. بعد ذلك سكبت الأخريات بأطباق عميقة: خضار بزيت الزيتون، متبل، فاصولياء بزيت الزيتون، كبد أرناؤوطي... وصفّت لفافات رقائق العجين جانباً، لتقليها عندما يأتي. كان عندها سلطة أمريكية من الأمس أرسلتها لها المدام الخالة مع ابن البواب. استهجنت الأمر. هذه هي المرة الأولى التي تصادف فيها جاراً يرسل سلطة أمريكية. ولكنها يمكن أن تعجب تاجر زيت الزيتون على مائدة العرق. يمكن أن تضعها على المائدة كأنها هي التي حضرتها. بعد أن ألقت نظرة أخيرة

على الأطباق، جمعت أوراق الصرر، ورمتها في كيس الزبالة، وربطت فمه، وأخرجته. فجأة خطر ببالها ما حكي في صالة تصفيف الشعر. لم تذكر هذا لأحد، ولكن زبالتها أيضاً سرقت من أمام باب بيتها عدة مرات. رمقت كيس الزبالة بعينين مترددتين لخمس إلى عشر ثوان. عندما لم يرتح قلبها، أعادته إلى الداخل لتخرجه وقت مجيء مريم.

نقلت ما حضرته إلى الطاولة المستديرة ذات الغطاء الأزرق التي في البهو. صفت مناديل المائدة الزرقاء تتمة طقم غطاء الطاولة والأطباق والكؤوس. أخرجت العرق الذي وضعت في قعره مسكة مطحونة من الثلاجة، وأفرغته في إبريق بلور مقبضه أزرق مخضر. بعد ذلك سكبت قليلاً من زيت زيتون نفوذ الرائحة أحضره تاجر زيت الزيتون في زبدية ترابية اللون، ونثرت فوقه زعتراً وفلفلاً أحمر وريحاناً. تعرف أن الوقت مازال مبكراً، ولكنها لم تتحمل، فأشعلت الشمعة ذات شكل زنبق الماء السابح في نصف كرة مليئة بالماء. ألقت نظرة امتنان إلى الطاولة أولاً ثم إلى ما حولها. كانت تحب بيتها. لولا تلك الرائحة المخيفة...

أشعلت مبخرة تفوّح رائحة التفاح الأخضر، ووضعتها وسط البهو تماماً. بينما كان الدخان يفوح بشكل بطيء ورفيع، رشت من زجاجة مغشاة أنيقة عطراً كثيراً جداً على نفسها أولاً ثم في أربع أرجاء البيت. مع ازدياد رائحة الزبالة التي تلف البناء، يزداد استهلاكها للعطر ثلاثة أو خمسة أضعاف. صارت في الفترة الأخيرة تنفق أكثر من نصف نقودها على العطر. كثيراً ما تعرج على مخزن العطور الذي في نهاية الشارع الرئيسي. تشتري عطورها من المكان نفسه رغم معرفتها أنها ليست من نوعية النساء اللواتي يشترين من هناك. كانت معجبة بروائح الفواكه على الأكثر، مزيج الدراق والبطيخ والبابونج. إنها تجهل ما يكون عليه البابونج، ولكنها تجد اسمه لطيفاً.

عمر العطور التي تشتريها لا يزيد عن عشرة أيام. كانت تفرغها في كل مكان، على نفسها ورأسها، وعلى الأغطية والمخدات، وعلى الأرائك والستائر، وعلى الألعاب المختلفة الأحجام والأنواع، وعلى خرزات الحسد

المتأرجحة في كل مكان من البيت. مع أنها كانت تستطيع أن توفر تلك النقود أو تشتري لنفسها أشياء أبقى. يجب أن يكون تاجر زيت الزيتون منتبهاً إلى تبذير خليلته الصغيرة، مما جعله يقلل مصروفها الذي يعطيها إياه كثيراً. ولكن الخليلة الزرقاء رغم هذا كانت تعمل ما تريد. لا تعرف سبب تصرفه على هذا النحو، ولا تعمل على معرفة هذا. الأمر الوحيد الذي تعرفه هو أنها لو وصل إلى يدها خمسة أضعاف ما يصل الآن، فتذهب وتشتري خمسة أضعاف ما تشتريه من عطور.

ألقت نظرة على المائدة. يبدو كل شيء على ما يرام، كانت أنيقة وناعمة. أرسلت رسالة من هاتفها المحمول تسأله فيها عن موعد قدومه. أثناء انتظارها الجواب، ضغطت على جهاز التحكم عن بعد، وفتحت على قناة لا على التعيين. ظهرت على الشاشة امرأتان شابتان تنظر إحداهما إلى الأخرى بحقد. إحدى المرأتين ترتدي طقماً أنيقاً أرجواني اللون، ووضعت في رقبتها عقداً من اللؤلؤ أربعة أدوار، وعقدت يديها على صدرها، وقالت: "اقبلي بعد هذا يا لوريتا. إنه يحبني أنا فقط." المرأة المرتدية ثوباً يذكر بحقل البابونج، وشكلت على شعرها ما يشبه ذلك البابونج، الطويلة السمراء، فتحت عينيها اللتين ظهرتا بوضوح أكثر بواسطة قنطار صباغ فبدتا خضراوين تماماً واسعتين، وقالت ضاغطة على الحروف حرفاً حرفاً: "ولكنك لا تحبينه". قالت الأخرى وهي تشد عقد اللؤلؤ كأنها ستقطعه: "هذا لا يهمك يا لوريتا. لا يهمك أبداً."

نخرت الخليلة الزرقاء قائلة: "ليسقط على رأسيكما حجر بقد لوريتا". اسم لوريتا مثل اسم بابايا، ولكنه لا يقع على الأذن لطيفاً أبداً.

حين مدت نفسها نحو جهاز التحكم عن بعد، زمر هاتفها المحمول. كتب "مساء" فقط. كم المساء أمر غائم، وشريحة زمانية طويلة. تنهدت بملل، وغيرت القناة. امرأة عريضة الجبهة، بيضاء الوجه، متوسطة العمر إما أنها لم تفطن لاقتلاع الشعر النابت فوق شفتيها وإما أنها لم تجد هذا ضرورياً تصف المواد اللازمة لتحضير سبانخ مفروم.

# الرقم 7: أنــا

خرجـتُ إلى الشـرفة، وأشـعلت سيجارة. المكان الوحيد الذي أحبه في هذا البيـت هو الشرفة. ليس لها علاقة بالداخل، وحتى إذا كانت قد ألصقت فيه مصـادفة وصـارت جزءاً منه، فكأنها غير تابعة للبيت. الحشرات بلون البلوك المتـنـزهة عـلى حمايـة الشرفة الحديدية قلقت من وجودي، وأنا من وجودها. ثمـة حشـرات في كـل مكـان. كانـت تنتشـر مـن خـزائن المطـبخ، ومـن تحت الثلاجة، ومن شقوق السيراميك إلى كل الأنحاء. لا أستطيع معرفة أين تتكاثر. الأمر الوحيد الذي أعرفه هو أنني أعيش معها في بيت واحد.

خطـر بـبالي لـلحظة أن أتصـل بإثل، وأطلب منها أن تحاول معرفة ما إن كنـت قـد اتصلت مساء البارحة بآيشن أم لا، ولكنني تراجعت. أصلاً طأطأت رأسـي لعقـد إثـل كـلها مـن أجـل معرفة رقم آيشن الجديد، وطلبي منها أمراً جديـداً بعـد تحملـي لكـل دلالهـا ذاك لـن يفـيد إلا بمداهـنة أناهـا المتضخمة أساسـاً. لم أكـن راغـباً بسـماع عـبارة: "بسـببك سـأفقد أقرب صديقة لي" من لسـانها. بالنسبة إلي أعتبر نفسي سأعمل عملاً جيداً جداً لكل من إثل وآيشن بقطعي العلاقة المصابة بالغرغرينا منذ زمن طويل بينهما.

هذا الثنائي الذي لم يكن يتسرب الماء بين طرفيه منذ أيام الثانوية الأجنبية، اعتاد على اللقاء كل خمسة عشر يوماً منذ تأسس، وتناول الطعام دائماً في الأمكنة نفسها. بعد الخطبة أقنعت آيشن نفسها أولاً، وأقنعتني ثانياً بضرورة الانضمام إلى ذلك الروتين الثقيل. وهذه المرة صارت إثل تجلب معها أحباءها إلى الطعام لكي لا يخرب توازن الاثنين لاثنين. الأحباء المذكورون كانوا كأرقام اليانصيب يسقطون على طاولتنا من دون أن يكون هناك أي تناغم أو تشابه. على الغالب كانت تتخلص من الرقم الطالع لها قبل أن تجد الفرصة للتعرف عليه، وتستبدله برقم جديد. كانت علاقات إثل في تلك المرحلة نوعاً من اللامبالاة، وبعمر الفراشة إلى حد أننا لا نشعر بضرورة إخفاء دهشتنا عندما ينجح أحدهم بالمجيء إلى الطعام ثلاث مرات متتالية، وندقق بهذا الإنسان الخاص بمزيج من التقدير المزوج بالدهشة طوال فترة الطعام. في العرض الرسمي لهؤلاء العشاق المستمر ثلاث سنوات ونصف عرفتنا إثل على شباب بمختلف المقاسات والأنواع. وإذا كان بين هؤلاء نقطة مشتركة واحدة فهي يجب أن تكون "عدم إنهاء الشيء الذي بدأه". النقطة الوحيدة المشتركة بين هؤلاء جميعاً هي حساسيتهم، وانحرافات التظاهر بالأصالة في أمور يظهرون أنها لم تُجرب بعد، ومشاريعهم العظيمة، وما تركوه لهذا السبب أو ذاك قبل أن يكتمل. وكالمحار الملتصق بقوقعته، التصقت تلك الشخصيات ببداياتها، وبقيت هناك، ولديها حاجة ماسة لأن يمسك بأيديها أحد ما من أجل الاستمرار بطريقها. تغط إثل أصابعها القصيرة السمينة المدهونة أظافرها بطلاء صارخ اللون، وتخرج واحداً لا على التعيين. ومن لا يعجبها تلقيه إلى الماء من جديد. كيفما كان فإن اسطنبول حقل محار ضخم، وهي جامعة محار ماهرة.

مثلاً، كان هنالك كاتب سيناريو شاب عصبي يجب أن يكون أصغر من إثل بعشر سنوات على الأقل. ولأنه يؤمن بعدم إمكانية العمل مع أي مخرج من تركيا فهو يعمل على سيناريو سيرسله إلى أوربا، وبشكل خاص إلى المخرجين الأسبان. كان السيناريو مكتملاً من ناحية اكتماله، ولكنه لم يقرر بأي شكل كيف ستكون نهاية الفيلم. تناولنا معه الطعام مرة واحدة بعد تلك.

كـؤوس العـرق بالثلج التي نقلبها بين مأكولات البداية والفاصلة مع الساخنة، وبـين الفاصـلة والسـاخنة الأساسـية، ومـن هـناك إلى فصل الحلويات والقهوة تجعـل آيشـن تنخر غضباً، وإثل تقهقه ضحكاً، ووضعت رأسي برأسه وفصّلنا أربـع نهايات لفيلمه. وبدت لنا الأربع مفاجئة لنا جميعاً. والآخرون... مصور يكـنُّ حقـداً لإداريي المجلات التي يعمل بها من خارج الملاك أولاً، والعاملين فـيها بعـد ذلـك وصـولاً إلى قرائها؛ وإعلاني في منتهى الوقار لا يرى مانعاً من اعتـبار كـل من يوجد في بيته تلفزيون أحمق؛ ومسرحي هاو لا يجد أي مسرح في الـبلد ناجحـاً، يتسـكع عـلى الأبواب من أجل إيجاد رعاية لإقامة مسرحه الخـاص؛ كاتـب سـاخر كـثير الشـتائم اشـتهر بأنـه مهّـد لإفـلاس المجـلات والجـرائد الـتي أقـام معهـا علاقـة مـا مـن بعـيد، ولم يـنه عملاً بدأه؛ طبيب نفسـاني مدمـن كحـول يقصده كل جماعة الكتابة والرسم في المدينة رغم معرفة الجمـيع بأنـه لا يستطيع ضبط لسانه عندما يشرب، فيسكب كل ما لديه على الطاولـة... أحـياناً لم أكـن بعـيداً عن التفكير بأن إثل تجلب هؤلاء الأشخاص إلى الطعـام مـن أجـل أن تُفقـد آيشـن صـوابها فقـط. وإذا كـان هذا هدفها فقد وصـلت إلـيه بالتأكـيد. وإذا كانت آيشن لم تضع نقطة نهاية لعلاقتها مع إثل لهـذه الأسـباب، فإنهـا نظـرت إلى الحياة التي تعيشها نظرة غير ممتنة. وهي تعـرف أنـني أشـعر بـردة فعـل سـلبية خفية نحوها. ما لم تعرفه هو أن شعور الكره لامرأة لا يمنع من مضاجعتها.

في الحقـيقة أن إثل تشكل تهديداً لهؤلاء الناس. تساعدهم، وتعطيهم نقوداً وتهـرع بالمـنفاخ إلى نـار استجداء طـابقهم العلـوي المـتأجج لهـبه بقول: "هل سـأكون هكذا لو اختلفت ظروفي؟" لتجعلهم يركضون متلاحقي الأنفاس خلفها. يصـطدم هـؤلاء الشـبان الذيـن لم يعملـوا حـتى الآن ما أرادوا عمله لأسباب ما ولكـنهم لم يتقـبلوا أنفسـهم كمـا هـي ونصـيبهم في مـنعطف مـا مـن منعطفات حـياتهم بـإثل، وفـور الـبدء بـنفخهم يكـون أول عمـل لهم هو ترك مشاريعهم القديمـة، والسـعي وراء أخرى أكبر وأكثر طموحاً. وحينئذ تعمل إثل ما كانت تعملـه قـبل سـنوات بالضـيوف الذين كانوا يأتون إلى بيتها، فتتركهم من دون

سبب أو تبرير. لم تكن تحب الرجل الذي تحوله كما تريد خطوة وراء خطوة، كما لا تحب نفسها بالضبط. ولكن يوجد بينهم واحد، تضعه في مكان أرفع يختلف عن أمكنتهم جميعاً.

كان عازف ناي. في الفترة التي انقسم فيها مفتونو أشهر مولويات اسطنبول إلى قسمين حول "إن كان أداء النساء والرجال معاً رقصة (السما) جائزاً أم غير جائز"، اتخذ موقفاً من المجموعتين معاً، وتقوقع على نفسه، وفي تلك الأيام كان يقضي نصف أيامه باللجوء إلى النوم، ونصفها الآخر بالتملص من تأثير الأحلام التي رآها أثناء نومه. لا أستطيع معرفة في أي نصف من اليوم تعرفت إثل عليه، وكيف. الأمر الوحيد الذي أعرفه هو أنها غطت يدها في الماء، وأخرجت محارة، وفور فتحها صدفتها العنيدة قليلاً، وإلقائها نظرة إلى داخلها قابلت مفاجأة لم تكن تتوقعها: حبة لؤلؤ خجولة! فعلت معه ما فعلته مع الآخرين فترة: مساعدة مادية، اهتمام زائد عن الحد، حب خانق... ولكنه على عكس الآخرين، لم يتغير شيءٌ من طباع وعادات المولوي الكثير النوم ذي النظرة الشاردة والأنف الضخم. أطول وحدة زمنية كانت عند الرجل هي "يوم". عندما تحاول إثل عمل مخطط ما، مثلاً إذا تحدثت عن الخروج في نزهة بعد أسبوع، أو الزواج في الربيع، فإن الجواب الوحيد الذي تأخذه من حبيبها: "ليأت ذلك اليوم أولاً، وللنظر بما سنفعله". لا يمكن الذهاب إلى الأيام، لذلك لا يتم الوصول إليها. الأيام تأتي إلى الإنسان، وعندما تأتي لا بد لها أن تجلب شيئاً. إنه أكثر إنسان من دون مستقبل أو حرص أو حساب، وصاحب الطريقة الوحيد المناهض للطرق. ليس لدي شبهة في أنه كان سيسحب عرشي في حرم إثل من يدي لولا أنه انسحب ذاهباً بشكل مفاجئ.

"وقفنا على شاطئ البحر. غططنا أرجلنا بالماء يا إثل. أنت تقولين: لنسبح إلى تلك الموجة الخامسة والخمسين التي أمامنا معاً. انظر كم هي جميلة تلك الموجة! وأنا أيضاً أسألك: أيها؟ وقبل أن أنهي سؤالي تغير تلك الموجة التي أشرت إليها مكانها. انظري، لم تعد في المكان الذي أشرت إليه. لم تعد

الخامسة والخمسين، بل صارت الخامسة والثلاثين. إنها تقترب تدريجياً. أي إنها تأتي إلى هذه الجهة وحدها الآن. وأثناء مجيئها لابد أن تجلب معها شيئاً. الآن أمامك خياران. إما أن تقفزي إلى البحر، وتنسي الموجات، وما الموجات، وتغدين قطرة فيها، وإما أن تقفي على الشاطئ، وتنتظرين. وتتفرجين على ارتطامها بالشاطئ، وتحطمها. حينئذ ستغدو عبارة عن قطرات أمام عينيك. إذا كانت الحياة ستشبه بشيء ما فتعاش بنوعين. إما أن تزيلي نفسك داخل الحياة، وإما تزيلي الحياة داخلك."

يا لإثل المسكينة، يا لإثل الرذيلة التي تلقت تأوهات كل أولئك الأحباء على مدى كل ذلك الزمن، أثناء استماعها لعبارات هذه الثرثرة، كانت تركلني من تحت الطاولة موجهة إلي نظرات مؤلمة. كانت تستطيع أن ترد بمداخل اللغات الدنيوية ومخارجها كلها فوراً، ولكنها حائرة بنفسها كطفل أمام هذه المجردات السماوية. بعد مدة بدأت تشعر بالذنب. يجب أن تكون على معرفة بهذه اللغة. الآن هي نادمة ألف مرة لأنها كانت تترفع عما كانت تحكيه لها أمها، ولا تهتم بالعقيدة اليهودية. ولكي لا يفهم حبيبها نقصها هذا، بدأت بقراءة الكتب بجنون: الاهتمام الذي بدأت توليه للكابالا كان بمنزلة جسر يظهر عليه ما شرحه حبيبها عازف الناي. كانت تتجول حاملة في حقيبتها عدة كتب، ومجلد المثنويات، وكثيراً ما تعرج على صحاف خرفان في البيازيد، وتحدث الرجل خلف الدكان همساً وكأنها تبحث عن مخطوط مفعم بالأسرار، وتخرج في كل مرة بأكياس من الكتب. وهبت قلبها بشكل جعلها راضية بتغيير حياتها كاملة، وجاهزة للذهاب إلى أي مكان يريد حبيبها، والسكن حيث تشاء. ألم تر إثل شيئاً يبرق على سطح الأرض عندما اندست بالجو من دون توان، فهي الآن تريد أن تلتقطه، وتذهب به، وتجعله خاصاً بها. لماذا لا تتجولُ معه في أكثر مدن العالم تصوفاً على مدى عدة سنوات، وتتجول في القدس والتيبت ودلهي، أو تنطلق باحثة عن قبر شمسي الضائع؟ رأيت كثيراً من الذين تخرب عقولهم عندما يعشقون، ولكن إثل فقدت ذاتها بكل معنى الكلمة. ولكنها لم تستطع إقناع معشوقها بالانطلاق في تلك الجولة

المفعمة بالأسرار رغم إطلاقها كلاماً كثيراً معه. بقدر ما القط معتاد على فعل "الاغتسال"، فإن هذا المتصوف المتسامح معتاد على فكرة "الذهاب".

ولكن هذا الرجل الشاب الذي لا يرغب بالانتقال من هذا المكان إلى ذاك، ظهر أنه مستعجل كثيراً على تغيير الدنيا. مساء أحد أيام تلك السنة، وقبل أسبوع من رأسها كان أحد الضحايا الأربع الذين راحوا نتيجة انفجار في أحد براميل الزبالة في شارع الاستقلال ولم تتبنه أي منظمة. لا أعتقد أن إثل بكت على أحد حتى الآن بمن في ذلك أبوها وأمها كما بكت على هذا الرجل. ولعلها لم تفعل ذلك خلف أخيها الأكبر الذي انتحر عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها. يمكن أن تكون أحبته وحده بهذا العمق.

تزوجتُ من آيشن بعد شهرين وأسبوعين. جاءت إثل إلى العرس وحدها.

كانت تتمدد عارية تماماً قبل ليلة من العرس عارضة جسدها البدين والعدواني، المتثاقل والرخو محاولة دسه في عيني. تظهر البقعة الحمراء المفلطحة المشعرة التي تبدأ تحت رقبتها بثلاث أصابع، وتمتد إلى ما فوق ثدييها بوضوح أكبر عندما يتحول جسدها إلى كوم لحم أبيض ناصع هكذا. يمكن لها أن تزيلها لو أرادت. تستطيع عمل هذا كما لو أرادت التخلص من شحومها، أو تشذب نفسها من هنا وهناك كما تفعل الأخريات. النساء القبيحات والغنيات بقدر إثل يدفعن ما فوقهن وتحتهن على عمليات التجميل، ومواد التجميل، والمستشفيات ليجملن أنفسهن. أما إثل فإن ثروتها كلها تهرع لخدمة قبحها. وكما إنها لا تعمل للتغلب على قبحها، فلا تحاول إخفاءه، أو تزيينه. كانت أبواب الخزائن الغاطسة بجداري غرفة النوم من أولهما إلى آخرهما مغطاة بالمرايا. كانت تتمدد متراخية على السرير بعد المضاجعة، وتتفرج على نفسها في المرآة. أحياناً تنظر إلى انعكاس جسدها بالمرآة بشهية إلى حد فضولي لمعرفة ما ترى. عندما تعرض جسدها، تتصرف مثل رجل يشتهي ما يراه، أكثر مما تتصرف مثل امرأة تريد أن ترى أنها مشتهاة: كأنها لا تهتم أبداً إذا كانت محط إعجاب أم لا. ونيتها فضائحية بغاية إثارة الاشمئزاز. بينما تهرب ضحايا الفضائحية بأقصى سرعة، فإنها

تعود مرات ومرات بأرجلها إلى غرفة نومها. وثمة استثناءات طبعاً. فعازف الناي الصوفي كان هكذا، وكذلك أنا.

قالت بصوت مقنع: "آه يا حلو، إنك ترتكب خطأ كبيراً. ستندم. أنا أدركت بأن أفضل منك لن يظهر أمامي بعد الآن في الحياة التي أعيشها. ومشكلتك هنا بالضبط. إنك لم تدرك بعد أنك لن تستطيع إيجاد أفضل مني. إيه، ماذا نفعل. ننتظر. عد، وتجول، واحتضن ثلاث أو خمس مؤخرات أخرى، واسقط خمس مرات أو عشر. كيفما كان فستعود إلى كلامي." وأضافت مبتسمة وهي تخدش بظفر إصبعها الطويل المطلي بطلاء بنفسجي مذهب على خزانة الأدراج ذات المرآة: "ستضرب رأسك بالجدران قائلاً لنفسك لماذا لم أتزوج من إثل. انظر، أنا أخط هنا علامة على هذا." وضعت سيجارة في المشرب المصنوع من عود الياسمين الذي تضيعه دائماً، وتشتري واحداً جديداً مكانه، وانتظرتْ أن أشعل لها.

"لماذا؟ لأنك أغنى امرأة عرفتها، ويمكن أن أعرفها؟"

لم أكن أستطيع فعل هذا حتى لو عرفتُ تفاصيل أموال إثل. لأنه ثمة عتبة في خيال غير الأغنياء تُشل عندها النقود، وتثبت، حتى لو لم يفهم هذا الأغنياء في أي وقت. أي مبلغ أكثر من تلك العتبة هو المقدار نفسه: **كثير!** وبالطريقة التي يروي فيها ثرثار فقير على الحديدة حكاية يثبت عند رقم "ألف" الذي يجده خارج الواقع بكثرته عندما يحكي عن تاجر عنده قافلة ذات ثمانمئة جمل، أو تاجر عنده ألف وأربعمئة جمل، ففي ذهني بأن لدى إثل ألفاً من المال والملك.

"لا يا حلو! لا لأنني غنية، بل لأنني سيئة. طبعاً أنا لست أسوأ منك، ولكن ليس ثمة قليل وكثير في السوء، أليس كذلك؟ إنه ليس طحيناً ليكال بالقدح. لأشرح لك الأمر على النحو التالي إن أردت: خميرتنا أنت وأنا واحدة. ولكن المسكينة آيشن ليست منا. حسن، هي أيضاً لا تعد جيدة، ولكنها ليست سيئة. مهما كانت، فهي سيدة شابة معقدة. إنها البنت الوحيدة لأسرة تنتمي إلى طبقة القشدة، ومستقيمة أكثر من اللازم يا داوود.

علـي الاعـتراف أنهـا تكـون أحياناً ثقيلة أكثر من اللازم، ولكنها ليست سيئة بالتأكـيد. أتعـرف الجانـب الأسـوأ في الأمـر؟ كلما عذبتها أكثر، ستعمل على الدفـاع عـن نفسـها. بدايـة ستنافسك بالذكاء، بعد ذلك ستخفق كطائر مدافعة عن نفسها، وستغمرك بدموعها، وتعتقد أنها ظُلمت. عندما ستحزنها، وتنقب فـيها، لن ترى القضية في الموضوع الذي تناقشانه، وأن القضية ليس لها علاقة بالقضـية. وأنـت تعـرف جـيداً أن آيشـن مـن المجموعة إياها. وهي من الذين يؤمنون بالإله قبل أن ترى إبليس..."

كانـت إثل تدوخ إعجاباً بهذه العبارة. أعتقد أنها لطشتها من أحد الشبان الأذكـياء. لعلها تعود لعازف الناي. ولكنها كانت لائقة بلسانها حقيقة. الذين يؤمـنون بالإلـه مـن دون أن يـروا إبلـيس، هـم الذين يؤمنون أن المكان الأفضل للعيش هو المكان الذي يعيشون فيه، ويكسرون غصن البستان المحمل بالفاكهة الـذي قـدر لهـم أن يولـدوا فـيه، ويدفعهـم الفضـول لمعرفة مصدر هبوب رياح الخـراب الـتي تـبدد مسـاكب الـورد رغـم عـدم إخـراجهم أنفهـم ولـو مرة إلى الخـارج. الذيـن لا يدفعهـم الفضـول لمعـرفة كم باباً للبيت الذي يعيشون فيه، وكـم غـرفة فيه، ولا يرون ضرورة للنـزول ليلاً إلى القبو للنظر ما إذا كان القفل لم يقفلـوه رغـم سمـاعهم الطقطقـة طـوال اللـيل. يعتـبرون أنفسهم على صواب نتيجة ما يعرفون أنه صواب... كانت إثل على حق. آيشن من هؤلاء.

الجانـب التعـيس في الأمـر هـو أنـني تذكـرت هـذه الكـلمات كـثيراً أثـناء زواجـي، ولكـنني لم أعـترف بهـذا لإثـل، لكـي لا أداعب أناها المتضخمة إلى الـذروة أساسـاً أكثر من ذلك. أثناء شربنا متقابلين مساء البارحة، وقعت بخطأ انفلات هذا الاعتراف البائت منذ فترة طويلة من لساني. استمعتْ بسرور. بعد ذلـك ذهبـت إلى دورة المـياه مـتأرجحة. تفرجـت عـلى مؤخرتها الكبيرة أثناء ذهابهـا إلى دورة المياه. فكرتُ بأنها تعرف إنني سأتفرج على مؤخرتها الكبيرة أثـناء ذهابهـا إلى دورة المـياه. أقبح مؤخـرة رأيـتها هي مؤخرتها. لا يمكن أن تُمسـك مـن أي مكـان، ولا يمكـن أن تناسـب أي قالـب. لـو تركـت سترتخي كالمهلبـية وتسـيل. رأيـت مؤخـرات أسمـن، وأكثر عجرفة. كانت الخيالات،

والاندفاعات الجلدية، والقروح أكثر من الحد، أو أن الشعر استطال في مناطق خاطئة... رغم هذا ثمة ما يثير الإنسان. لا يوجد منه في التي عند إثل. لا يوجد منه بشكل قطعي في التي عند إثل.

عندما عادت استمرت من حيث انتهت بالحديث عن مشروع الجامعة. في النهاية بقّت الحصاة من فمها. فقد نقلوا الاقتراح لآيشن أيضاً. ووافقت. رغم معرفتها جيداً أنني لن أعمل حيث تعمل آيشن حتى لو كنت بحاجة ماسة إلى النقود، ألحت علي وهي تنظر بعيني: "هيا يا حلو، اسمع كلامي ولو مرة في حياتك. تعال إلى هذه الجامعة. اعمل فلسفتك بقدر ما تستطيع، لن يتدخل بك أحد. نحن بخدمة عقلك."

داعبت كلمة "عقل" داخلي بالإيحاء الذي اتخذته على لسان الساقطة. الأمر الغريب في الأمر هو أنني لم أضاجع إثل ولو مرة واحدة منذ انفصلت عن آيشن، رغم مضاجعتي لها بشكل منتظم طوال فترة زواجي. لا أتذكر لماذا كنا ندور بشكل منفصل مساء البارحة. حتى إنه من غير المعروف كيف وصلت إلى بيتي مساء البارحة. لعل إثل حضرت ملعوبا، ولعبت لعبة في اللحظة الأخيرة. ولكنني لا أعتقد هذا. هذا لا يناسب أسلوب إثل كثيراً. مهما حدث، فلعلها رأت أنني سكران إلى حد أنني لن أستطيع عمل شيء، فأوصلتني إلى بيتي. هذا يناسب إثل أكثر.

مددت رجلي إلى حديد الشرفة، وأشعلت سيجارة أخرى. بقيت الحشرة التي بلون البلوك تحت قدمي. مع أن فرصة للهرب كانت عندها. لم تهرب. امرأة نحيلة ضئيلة في الأسفل ألقت أكياس الزبالة التي ببدها أمام جدار الحديقة. ارتفع صوت أحدهم من الطوابق السفلى صارخاً بأعلى ما يمكن. بعد أن وقفت المرأة من دون حركة لعدة ثوان، استدارت كأنها غير معنية، وذهبت. لا أحب هذا المكان. يجب أن أهرب من هذا المكان بشكل أو بآخر. لعلني أشبه قصر بنبون بنفسي قليلاً. إنه بناء اعتاد الرفاهية في زمن ما وهو يبحث عنها الآن بسراج. يجب أن أنتقل إلى مكان آخر، ولكن ليس معي نقود. كان ثمة تقسيم عمل بيني وبين آيشن لم أدرك عبثيته إلى الآن. لأن البيت لأبيها وأمها،

ومن ثم لها، فقد كنت أسدد بقية المصاريف. يا للسذاجة. ليس لدي نقود مخبأة في زاوية أو مكان ما أيضاً. عندما واجهت مسألة دفع نفقات لم أكن أتوقعها، وأجرة بيت، غدا راتبي مضحكاً. يمكنني أن آخذ من إثل بالتأكيد. ولكنني لا أريد. حركة كهذه تخرب كل التوازنات التي بيننا. يجب أن أجد مصادر دخل أخرى. يجب أن أكسب نقوداً على عجل.

# الرقم 6: متين تشتين وكارسي ناديا

"لا علاقة لك بهذا يا لوريتا. لا علاقة لك به أبداً."

اعترضت المرأة ذات زهر البابونج وهي تغم عينيها حقداً قائلة: "لا، لي علاقة بكل ما يتعلق به."

كررت كارسي ناديا: "لي علاقة بكل ما يتعلق به." عاملة على إبراز الكلمات كما تشعر بها تماماً. اسم المسلسل الوردي الذي تشاهده زقوم الاحتراس، ويبث بعد ظهر كل يوم عدا عطلة نهاية الأسبوع منذ شهرين ونصف. بُث في البداية قبل نشرة المساء، ولكنه لم ينجح بجذب المشاهدين، وعندما فهم أنه لا يوجد احتمال لنجاحه، غُيرت ساعة بثه على عجل. والآن يُبث مكانه مسلسل وردي أكثر بهرجة بكثير منه. هذا المسلسل الثاني الذي نجح بأن لا يتعرض لنهاية سلفه لاقى منذ الأسبوع الأول اهتماماً كبيراً، وأحدث صخباً هائلاً. حتى إن الممثلين الرئيسيين للمسلسل جاؤوا إلى اسطنبول، ووقعوا صورهم للمعجبين بهم بعد مؤتمر صحفي مزدحم. ولكن كارسي ناديا لم تكن مهتمة بهذا، ولا بالمسلسلات الوردية التي تُبث في القنوات الأخرى. الأمر الوحيد الذي يهمها هو "زقوم الاحتراس". تجلس في

الساعة نفسها بعد ظهر كل يوم على الأريكة التي تؤجل تغيير غطائها المطرز برسوم كحلية على أرضية بنفسجية، وتعمل عملاً ما أثناء مشاهدة المسلسل. تضع في حضنها صينية فيها بحسب اليوم إما أرزاً وإما فاصولياء تسربها، وتخرج ألبومات صورها، وتتفرج على صورها القديمة، وتحاول بلغتها التركية المحدودة أن تحل الكلمات المتقاطعة، أو تقرأ الرسائل الواردة إليها من خالتها الكبرى أو تكتب لها رداً. ولكن الصينية تثقل بيديها أحياناً، وتتعثر الكلمات المتقاطعة في مكان ما أو يضايقها بقاء الصور كما هي أو سطحية الرسائل. في أحوال كهذه تهرع إلى المطبخ، وتجلب عدة حبات بطاطا، وأثناء مشاهدة المسلسل تعمل على صناعة قناديل البطاطا. امتلأت أطراف البيت كله بتلك القناديل، ولكنها لا تتراجع عن صنع الجديدة منها. من جهة أخرى فإن الكهرباء كثيراً ما تنقطع في بناء قصر بنبون.

لديها عدة أسباب لعدم استطاعتها البقاء من دون عمل أثناء مشاهدة مسلسل "زقوم الاحتراس". أولها، أنها تجد المسلسل مملاً جداً، فلا تتحمل مشاهدته من دون أن تسلي نفسها بأمور ما. وثانيها، أنها عندما تتصرف هكذا، يقل القلق السري الذي تشعر به نتيجة تحولها إلى مشاهدة مستمرة لهذا المسلسل الذي تستهين به. ولكن السبب الأهم منها كلها، هو أنها بانشغالها بعمل آخر تثبت لنفسها أنها لا تستهين بالمسلسل فقط، بل ببطلته لوريتا أيضاً، ولا تعطيهما أهمية ولو بمقدار ذرة.

مسلسل "زقوم الاحتراس" مثله مثل المسلسلات الوردية الأخرى يبث خلال أيام الأسبوع عدا عطلة نهايته. ولكن رغم أن الملحقات التلفزيونية التي توزعها الصحف في نهاية الأسبوع تنشر عما سيحدث في الحلقات القادمة للمسلسلات الأخرى، وصوراً كثيراً حول الحياة الحقيقية لأبطال المسلسلات، فهي لم تنشر ولو سطراً واحداً، سيئاً كان أم جيداً حول "زقوم الاحتراس" وبطلته لوريتا. لا ينتهي الأمر عند الصحف فقط، إذ لا يوجد عبد من عباد الله بين معارف كارسي ناديا مداوم على مشاهدة المسلسل، بل له علم بوجوده. كأن البلد اتفق كله على أمر، وهو قرار تجاهل وجود "زقوم

الاحـتراس". رؤيـة كارسـي ناديا أن أحداً لا يأخذ لوريتا على محمل الجد لا يسرها. مهما يكن، فإن الشرط الأولي ليكون ثمة معنى للاستهانة بشيء ما هو أن يكـون ثمـة معـنى للشيء المستهان به. وهذا لا يمكن أن يحدث إلا باهتمام الآخـرين بـه. وتحـت هـذه الشـروط لا طعـم للاسـتهانة بلوريتا، ولا معنى له أيضـاً. وكانت كارسي ناديا تحتفظ بأفكارها هذه لنفسها. لا أحد يعلم بتعلقها بالمسلسل. حتى زوجها. ولكنه هو الذي يجب ألا يعرف بهذا أساساً.

رغـم هـذا فهـي لا تعـتقد بـأن عـدم نشـر ملحقات الصحف التلفزيونية ما سـيحدث في الحلقـات القادمة من مسلسل "زقوم الاحتراس" أمر سيئ إلى ذلك الحـد. لـيس ثمـة مـا يشـغل بـال المشاهدين بهذا الأمر لأنهم عرفوا أهم أسرار المسلسـل مـنذ الحلقـات الأولى. لعـل القضية الأساسية في مشاهدة هذا المسلسل ليست رؤية ما سيحدث في النهاية، بل كيف ستجري الأمور أثناء الوصول إلى النتـيجة المعـروفة. إذا كـان ثمـة من لا يعرف حقائق المسلسل بعد، فهو ليس المـتفرج، بل لوريتا نفسها. ففي الحريق الذي شب في الحلقة الخامسة لم تفقد قصـرها الـذي تسكنه ولقب سيدة محترمة الذي تنادى به فحسب، بل فقدت ذاكـرتها أيضـاً. ولا تذكر بأي شكل من هي، وتعتقد بأن المرأة التي لا تعرفها حـتى الحلقـة الحاديـة عشـرة هـي أمها، ولا تعرف أن الطبيب المشهور الذي تُنشـر صـوره في الصـحف كـان زوجهـا في زمـن مـا، ومازال في الحقيقة. ولأن وضـعها يسـير نحـو السـوء، سـتُدخل إلى المستشـفى قريباً. وهذا سيعقد الأمور أكثر، لأن زوجها الطبيب/ أو الطبيب زوجها يعمل في المستشفى نفسه.

مـن جهـة أخرى فإن معرفة كارسي ناديا ما لا تعرفه لوريتا يجعلها تسر بشـكل سـري. عـندما تعـود لوريـتا بسـرعة من شواطئ معرفة الحقائق حول نفسـها أو ملامسـتها من حوافها بسبب ألف سوء حظ وسوء حظ، يغمر قلب كارسـي لوريـتا فـرح بحـدة روح المـلح. تـتداخل في أوضـاع كهـذه حـياتها الشخصـية مـع الحـياة الـتي في المسلسـل متسـللة ببطء. كانت لوريتا بمنـزلة المقام المشترك لكسري البيتين المختلفين تماماً، والباب المشترك بينهما. كانت بجسمها داخل الحياة التي في المسلسل، وبصوتها في كارسي ناديا. بالنتيجة

ثمة امرأتان مختلفتان. الممثلة الأمريكية اللاتينية التي تجسد دور لوريتا من جهة، وممثلة الدوبلاج التركية التي تمنحها صوتها من جهة أخرى. ولكن لم يكن اسم إحدى المرأتين الحقيقي لوريتا، ولكن كارسي ناديا تربط الاسمين بلوريتا. ليس لها أي خصومة مع الممثلة الأمريكية اللاتينية. هدفها الأصلي، وخصمها الأساسي ليست لوريتا التي تشاهدها، بل لوريتا التي تسمعها. منذ فترة طويلة تتعقب هذا الصوت، الصوت القبيح... صوت نشاز بلون المشمش، ناعم يجد نفسه في تكور بروز الركبة... ولأنها تمزج بين الصوت الذي تسمعه والوجه الذي تراه ببساطة شديدة عندما تشاهد "زقوم الاحتراس"، يمكن أن يُخطئ هدفها بسهولة، ومن دون أن تنتبه لضرورة وجود جسم لكل عدو، وتوجه حقدها كله الموجه للمرأة التي تؤدي الدور الصوتي نحو الممثلة الأمريكية اللاتينية. في لحظات كهذه لا تتوانى عن مشاهدة المسلسل بنظرة مشوهة، وتستمتع في المشاهد التي تقع فيها لوريتا بالمشاكل، وتقبض على نفسها متلبسة في المشاهد التي تستمتع فيها عندما تسير أمورها على ما يرام.

لوريتا التي على الشاشة نحيلة البنية، طويلة الساقين، سمراء البشرة، خضراء العينين. عندما تبكي تسيل على خديها قطرات دمع بقدر حبات البازلاء. أما بالنسبة إلى المرأة التي تؤدي الدور الصوتي للوريتا عندما تقارن بينهما كارسي ناديا فهي امرأة لا ترى وجهها، ولا تستطيع تحديد ملامح جسمها لأنها تتذكره كخيال بعد ما استطاعت رؤية ما رأته من المرآة. ولكنها تعتقد أنها مهما كانت، مهما كانت فهي من صاحبات الجمال المؤقت، فجمالها مثل لهب التبن سرعان ما يخمد. لعلها تتألق بالنضارة التي يمنحها إياها شبابها، ولكن ليس بعد وقت طويل، بعد خمس سنوات على الأكثر، ستفقد ذلك الألق. عندما يحل ذلك اليوم، هي أيضاً ستضطر لتشذيب نفسها، وسحب يدها عن ياقات الرجال المتزوجين. ولكن خمس السنوات زمن طويل جداً، وكلما فكرت كارسي ناديا بما يمكن أن يحدث خلال هذا الزمن، تقلق إلى أبعد الحدود.

علمت بوجود صوت للوريتا قبل ثلاثة أشهر، وحدث هذا نتيجة مصادفة محضة. صباح ذلك اليوم النحس كانت في المطبخ من جديد لطبخ العاشوراء. رغم أنها طورت طبخها منذ جاءت إلى تركيا، وتعلمت بسرعة تحضير الأطعمة التي تعد مقبولة هنا، فهي لا تستطيع إعداد العاشوراء كما تريد، أو على الأصح كما يريد متين تشتين. محاولات إعداد العاشوراء التي لا تحصى أعطت النتائج نفسها دائماً. إما أنها لا تستطيع ضبط مقدار السكر، وإما أنها تفرط بإحدى المواد المشكلة لها، وإما أنها تضع المواد كلها وفق معاييرها بالضبط، ولكنها ترتكب خطأ أثناء الطهو فلا تستطيع إنضاجها كما يجب. تنزلها عن النار لحظة اعتقادها بأنها نضجت كفاية، وتوزعها على زبادٍ من زجاج مغشى زهري اللون، وعندما تبرد تزينها بحبات الرمان، ومختلف الزينات بدقة كبيرة مستغرقة وقتاً طويلاً على أمل أنها أنضجتها جيداً هذه المرة. في البدايات كانت تبالغ بفصل الزينة هذا بقدر ما تستطيع من مبالغة، فلا تكتفي بالزينة المعروفة من جوز الهند المبشور والبندق المحمص والسكر المطحون، فتصب عليها بعض قطرات الكونياك أو تضع حبات الكرز الحامض المنقوعة بالروم. لأنها في ذلك الزمان كانت مهتمة بأسطورة العاشوراء أكثر من اهتمامها بكيفية استهلاك الأتراك لها.

العاشوراء في الأسطورة هي النجاح بما هو غير ممكن. الأحياء الذين ركبوا أزواجاً في سفينة نوح للهرب من الكارثة التي شهدوها، حضروا العاشوراء لحظة استنفادهم قوة مقاومتهم عندما كانوا محاطين بالماء من أطرافهم الأربعة، وكانت مخازن طعامهم مليئة. قدَّم كل حي فتاتاً مما لديه من أطعمة، ومن خليط هذه الأشياء التي لم يعتقد أحد أنها يمكن أن تصلح لشيء ظهر هذا المزيج المدهش. رغم أن طريقة طبخها معروفة، فكأنه لا يوجد تعريف واضح لإعدادها. يمكن إضافة أمور ما في كل لحظة. لهذا السبب فهي مختلفة عن بقية الحلويات، ما يجعل موادها غير محدودة مثلها، ولا مقاديرها قطعية. كانت العاشوراء مثل مدينة كبيرة مركزية لا يُنبذ الأجانب فيها، ويندمج فيها القادمون فيما بعد مع المحليين بسرعة. إنها عدم المحدودية المبدعة

بإمكانيات محدودة، والغنى الناجم عن الفقر، التنوع غير النهائي حيث تنقرض الأنواع.

في إحدى الرسائل التي كتبتها كارسي ناديا لعمتها الكبرى المغطاة رجلاها بالدوالي المائلة إلى اللون البنفسجي والشعر المائل إلى الأحمر، بعد أن شرحت لها مطولاً عن حجم التغيير الكبير الذي تعرضت له بعد مجيئها إلى تركيا، عبرت لها عن إعطائها الحق لهم تدريجياً بالربط بين أكلهم والآيات الواردة في الكتاب المقدس. كانت عمتها متدينة جداً، وبالقدر نفسه طباخة ماهرة. وبسبب "تشبَّه ملكوت السموات بخميرة أخذتها امرأة، وأخفتها في ثلاثة مقادير من الدقيق حتى اختمر العجين كله" (متى 13:33) فقد كانت تؤمن بأن هاتين الخصوصيتين اللتين تباهي بهما تؤديان إلى الباب نفسه دائماً. تضع الأطعمة التي تطهوها لعائلتها على مائدة الرب، وعندما يشبع الأولاد ماسحين ما أمامهم، تغدو سعيدة كأنه "هو" الذي شبع. كانت تقول: " ثمة أمر من أوامر الرب في كل طعام نتناوله. وبالطبع فإن هذا لا ينطبق على النساء الفوضويات اللواتي يوجدن أطعمة ملفقة لعدم وجود وقت لديهن المفضلات شكر الأولاد على تقدير الآمر! "

شرحت كارسي ناديا في رسالتها إنه إذا كان هنالك بين أطعمة الأرض كلها ما يشبه برج بابل المذكور في الإنجيل، فيجب أن يكون ذلك الطعام هو العاشوراء. تلتقي في قدر العاشوراء أنواع لا يمكن أن تلتقي في زمن آخر، وتختلط من دون أن تمتزج كما في برج بابل تماماً. كما العمال في برج بابل لا يفهم أحدهم لغة الآخر، فإن كل نوع من الأنواع التي في قدر العاشوراء يشكل مع الأنواع الأخرى طعماً مشتركاً، ويحافظ على اختلاف طعمه في الوقت نفسه. فالتين الذي يخرج من العاشوراء الناضجة مازال يحافظ على طعمه رغم تعرضه لهذه العمليات كلها، وغليه على مدى هذا الزمن كله. تبقبق المواد كلها فوق النار معاً، ولكن كل منها بلغتها الخاصة.

طالما الأمر هكذا، يمكن إضافة مواد أخرى على الوصفة دائماً. طالما يوضع لها حمص، يمكن إضافة الذرة الصفراء مثلاً. ويمكن أن يكون الخوخ حيث

يجب أن يكون التين، والدراق إلى جانب المشمش، وحبات المعكرونة إلى جانب الأرز... في الأشهر الأولى لكارسي ناديا في بناء قصر بنبون جربت بنفسها هذه الأنواع من التجارب باندفاع لم تستطع تفسيره. ولكنها لكثرة تلقيها ردود فعل متين تشتين الحادة في كل مرة، تثلمت جرأتها. العاشوراء طعام محافظ إلى أبعد الحدود مهما قالت الأسطورة. لا تقبل التجديد هكذا بسهولة. ويجب أن تكون عمتها الكبيرة التي لم تعد العاشوراء في حياتها تؤيد الفكرة نفسها مما جعلها تضطر لأن تكتب في رسالتها الجوابية تحذيراً تقول فيه بأنه كما لا يمكن تغيير آيات الإنجيل بحسب الأهواء، لا يمكن اشتقاق أطعمة بحسب الأهواء من طعام معين. استسلمت كارسي ناديا في النهاية، وبدأت تعد العاشوراء بحسب طريقتها، ولكنها لم تحصل على النتيجة التي تريدها بأي شكل، ولعل السبب أن عقلها مازال متعلقاً بذاك التنوع غير النهائي.

ولكن في ذلك اليوم، في ذلك اليوم النحس فقط، حدث ما حدث، وسُرّت من العاشوراء التي حضرتها. وضعت قدر العاشوراء جانباً ليبرد، وحضرت الزبادي الزهرية المغشاة، وبدأت بانتظار زوجها بفارغ الصبر. نجحت بهذا العمل نهاية، وأملت بكسب تقدير متين تشتين. ولكنها أثناء الانتظار انتبهت إلى أن حقيبة الكهرمان ذات الرائحة النفوذ ليست في مكانها المعتاد: ويمكن أن يكون لهذا معنى واحد: سيذهب متين تشتين إلى عمله الثاني بعد خروجه من عمله الأول. أما موعد عودته من عمله الثاني فهو في أفضل الاحتمالات يصادف منتصف الليل. نجاح كارسي ناديا بتحضير العاشوراء جعلها تنفعل إلى حد شعورها بأنها لن تستطيع الانتظار كل هذا الوقت من أجل أخذ رأي زوجها. قررت أن تفعل ما لم تفعله من قبل؛ وهو أن تذهب إلى مكان عمل متين تشتين، وتأخذ له عاشوراء.

كانت اسطنبول متاهة كبيرة جداً بالنسبة إليها رغم مضي أربع سنوات على مجيئها إليها. وقد رأت قليلاً من المدينة إلى حد أنها لا تعرف فيها جهة أو عوناً. استمدت من جهلها جرأة. كان إيجادها العنوان سهلاً إلى حد لم تكن تتوقعه رغم استغراق عبورها الجسر ووصولها إلى الأستوديو ساعتين من وقتها.

تركت هويتها عند المدخل، وأخذت معلومات من موظف الاستعلامات، ودخلت المصعد، وصعدت إلى الطابق الخامس، ووقفت أمام الغرفة رقم 505، ونظرت إلى الداخل. جلس متين تشتين جوار امرأة شاردة متلاصقي الركبتين، ووضع إحدى يديه على ركبة المرأة المنكمشة كجرح خجل مزموم بلون المشمش، وأمسك باليد الثانية فنجاناً صغيراً يدوره، وتدور معه عيناه وهو يقرأ فأل الفنجان. يجب أن يكون قد ظهر بأن فأل المرأة جيد مما جعل خديها يتفتحان ضحكات ذات غمازات. ولأن كارسي ناديا لم تستطع رفع عينيها المحملقتين دهشة عن زوجها، لم تستطع النظر بدقة إلى المرأة. ما جعلها متخبطة محمرة هكذا هو تعبير الرقة بقدر نعومة مخدة ريش نعام على وجه متين تشتين أكثر من الحميمية التي شهدتها والخيانة التي تعرضت لها. لم يبد لها وجود المرأة الأخرى، وحتى مداعبة زوجها لركبتها مخيفاً بقدر تعبير الحنان هذا.

عذرت ما قام به متين تشتين من ظلم لها حتى الآن، وأثناء غفرانها غيرته وفظاظته وحتى صفعاته، آمنت بأنه فعل كل هذا من دون تفكير، وهكذا من دون إرادة. نعم كان زوجها يتصرف معها أحياناً، أي كثيراً، أي باستمرار بشكل سيئ، ولكنه كان يعمل هذا لعدم معرفته كيف يتصرف بطريقة أخرى. **لو كان الأمر بيده لما فعل هذا! إنه يعمله لأنه ليس بيده!** تسيير زواج يسير بشكل سيئ مثل اللجوء إلى إله أصم، ففي جوهره قضية عناد ذي إيمان أكثر من إيمان ذي عناد. لا يمكن أن نقبل بتعذيب إنسان نحبه لنا، وتعذيبه لنا في كل مرة بالطريقة نفسها إلا إذا كنا معاندين بالإيمان بالنسبة ذاتها بأن التصرف على هذا النحو ليس بيده.

يقول البروفيسور كاندينسكي: "العشق نظام عصبي كيميائي. وأصدق العشاق خفيف عقل. إذا رأيت امرأة تعشق زوجها إلى حد كبير لا تعيه بعد سنوات طويلة، فاعرفوا أن عقلها يعمل كما يعمل طائر الكنار المغرد."

بحسب البروفيسور كاندينسكي، لا بد أن تكون الذاكرة فانية من أجل أن يكون العشق خالداً، أو على الأصح كما الليل والنهار، أو الربيع والخريف، أو الخلايا العصبية التي تموت وتموت ثم تبعث في المجمعات الهائلة لطيور

الكنار المغردة اللطيفة. هذه الطيور البسيطة العقول إلى أبعد الحدود، والتي أجسامها ضعيفة الاحتمال مضطرة لحفظ الحفر التي تضع فيها بيضها، وكيفية تمرير برد الشتاء، وأين ستجد الطعام وغيرها من المعلومات الضرورية جداً في عقلها. ولعدم اتساع عقولها لكل هذا القدر من المعلومات، تعمل كل خريف على تنظيف عقولها بالكامل بدل أن تخزن معارفها بطريقة وضع الواحدة فوق الأخرى. وهكذا فهي مدانة بالبقاء على قيد الحياة ضمن ظروف قاسية لإزالة ما هو موجود في ذاكرتها، وخلق الجديد أكثر من العناد على الاحتفاظ بمعلومة واحدة في عقولها. أما بالنسبة إلى الزواج فهو كالطبيعة تماماً، فإن طريق عمل الأشياء نفسها على مدى سنوات طويلة يمر من نسيان القيام بالأعمال نفسها على مدى سنوات طويلة. لهذا السبب فإن ضعيفي الذاكرة، والمشتتي القيود حول علاقاتهم الماضية أقدر على تضميد الكدمات بسهولة؛ يتذكرون أيامهم الماضية الجميلة، ويعانون من التوق لماضٍ من يحبونهم، ويجدون صعوبة أكبر بتقبل عدم شبه اليوم بالأمس. المركّب السحري للعشق هو امتلاك ذاكرة متحركة وفانية.

ولكن كارسي ناديا لم تمنع ظهور المعلومات غير المفقودة من ذاكرتها واحدة تلو الأخرى أثناء وقوفها بالباب حاملة زبديتين من العاشوراء. تذكرت. أثناء وقوفها هناك ساهمة تتفرج على زوجها كيف يداعب امرأة أخرى تذكرت كيف كان في زمن ما يتصرف معها بحنان، أي إنه كان صاحب مزاج مختلف كثيراً في وقت ما. ولكن الأسوأ من هذا هو رؤية أن هذا لم يبق في الماضي، وشهادتها أنه يتصرف بلطف الآن وفي هذه اللحظة مع واحدة أخرى، وأنه استطاع أن يكون رجلاً مختلفاً تماماً، وأن بيده أن يكون مختلفاً تماماً. لو كان البروفيسور كاندنسكي، فمن المحتمل أن يضحك عابراً القضية. لعل إزالة العصبونات القديمة وتجديد الذاكرة مهارة خاصة بطائر الكنار المستصغر، وليس بالنساء صاحبات البيوت.

خطت كارسي ناديا خطوة إلى الداخل، وتجولت بنظرها على العاشقين المستمرين بقراءة فأل الفنجان متضاحكين من دون أن يكونا منتبهين إلى أي

شـيء لعـدة دقائق بشكل قلق، ثم ركزته على الاثنين بداية، وبعد ذلك غرزته في المـرأة فقـط. في الـلحظة ذاتهـا أبـرزت نفسـهـا إحـدى الـنظريات المخدوشة علمـياً، والـتي اهتمـت بهـا عن قرب في زمن ما. إذا بدأتم بالنظر منتبهين إلى إنسـان لا يراكم، وحتى غير منتبه لوجودكم، ستشـهدون أنه بعد فترة سيقلق، ويلتفت بحركة مفاجئة، وينظر إليكم أيضاً.

ولكـن لحظـة كانـت المـرأة عـلي وشك سحب نظرها من قعر فنجان القهوة لتديره نحو الباب، انتبه متين تشتين للوضع، وقفز على قدميه مرتبكاً. ولعدم تمكـنه مـن فرض كلمته على جسده السعيد النشوان، لم يستطع غير أن يخطو عـدة خطـوات مـتأرجحة، ويقـف في وسط الغرفة تماماً. أثناء محاولته الوقوف بـين المـرأتين كسـتارة لـيعوق رؤية إحداهما الأخرى، ارتبك حول الجهـة التي سـيتوجه إليها، والطرف الذي سيقوم بحملة نحوه. ومع تردده، انقسم وجهـه إلى قسـمين مـثل عقلـه. بيـنما يـتجه نصـف وجهـه نحو حبيبته التي يتصرف معهـا دائمـاً بـأبعد حـدود الرقة مبتسماً عاملاً على إدارة الوضع، فإن النصف الآخـر مـن وجهـه كشَّـر بوجـه زوجته التي اعتاد على التصرف معها بفظاظة عـلى مدى سنوات. وعندما فهم أن هذا لن يلفلف الموضوع أكثر، التقط حقيبته الكهـرمان القـذرة الـرائحة، وقذفها مع زوجته نحو الخارج. شجارهما في ذلك المسـاء لم يكـن أسـوأ مـن شـجاراتهما الدائمـة، ولكـنه استمر أكثر من المعتاد. خافـت كارسـي ناديا في أوقات مختلفة من أن يقتلها زوجها، ولكنها هذه المرة هـي المـرة الأولى الـتي شـعرت فـيها أنهـا يمكـن أن تقـتله، وعـلى عكـس مـا اعتقدت، فإن هذا الشعور لم يبد لها مخيفاً إلى ذلك الحد.

المخـيف هـو عـدم معرفـتها أي شيء عن تلك المرأة. ولأنها لا تعرف أحداً تقريـباً من الأستوديو الذي يعمل فيه متين تشتين، ولا تعرف أصل وفصل تلك المـرأة، فقـد كـان صـعباً علـيها إيجاد هذه المعلومات القيمة أكثر مما اعتقدت. الجانـب الغريـب في الأمـر أنهـا لم تكن تستطيع تعريف المرأة لأحد، لأنها لم تسـتطع جلـب المـرأة إلى أمـام عينـيها. رغـم هـذا لم تيـئس، وعملت عشرات المقالـب الـتي كـل مـنها أمكـر مـن الآخـر، وأخبـث مـنه، واتصلـت كـثيراً

بالأستوديو مستخدمة أسماء أخرى. عندما لم تحصل على نتيجة بهذه الطريقة، أنفقت أربع ساعات يومياً في الطرقات، وبدأت تتجول حول الأستوديو. من ناحية معرفتها بأن زوجها سيكسر لها رجليها إذا رآها تتسكع في تلك الأمكنة، فهي تعرف، ولكن حتى هذا الاحتمال لم يثلم عزيمتها.

"أكبر ضرر يمنحه علم نفس الأعراض الجانبية للإنسان هو إصراره على تخليص العقل من عقده."

برأي البروفيسور كاندنسكي فإن عقل الإنسان يعمل مثل ربة بيت تباهي بعنايتها منمية ملكها. فتتملك كل ما يدخل بيتها فور دخوله إليه، وتبذل جهداً بالحد الأقصى للمحافظة على النظام الذي أسسته. ولكن هذا ليس سهلاً أبداً، لأن العقل يمتلك عدداً من الأولاد المشاكسين والقلقين والحشريين الذين يحمل كل منهم اسماً لتشوه عقلي مختلف، مثله مثل كثير من ربات البيوت اللواتي يباهين بدقتهن، ويتمسكن بملكيتهن. وعندما يصل كل واحد من هؤلاء الأولاد إلى فترة الحبو، يبدأ بنثر فتات المعمول الذي بيده هنا وهناك، وبالذهاب إلى هنا وهناك مقلباً كل ما في الوسط وعابثاً به، يشعر العقل بقلق فظيع، ويبدأ القلق بداية من العبث بالأغراض التي في الوسط، بعد ذلك يلج إلى تعثر الحياة. في هذه النقطة بالضبط، عندما يأتي دوره بالدخول إلى خشبة المسرح، يدخل علم نفس الأعراض الجانبية. يحاول إيقاف الولد الذي يحبو، وينجح في هذا أحياناً، وإذا لم ينجح، يمسكه من أذنه ويطرده خارج الباب.

**هل تريد ضبط الحركية غير المنضبطة؟ أوقف الحركة كلها! إذا كنت تريد أن تحول دون الضرر الذي تحدثه الأفكار، فاجعل مريضك لا يفكر أبداً.** مئات الأدوية، وعشرات الأساليب كلها استهدفت هذا. فعالم الطب الذي وجد أن الطبيب مكتشف "لوبوتومي" لائق بجائزة نوبل، عمل على تأمين حالة صمت مطبق لمريض يخدش أذنيه صراخ حاد، فالأم العصبية إلى أبعد الحدود، ولكنها بحسب التحليل الأخير هي أم حنونة، وتمثل العقل، تأخذ الأولاد من أيديهم، وتقدس الموت في مواجهة الحياة. بحسب الدكتور كاندينسكي فإنه ثمة خيراً غير محدود بالقبول منذ البداية بأنه لا يمكن للعقل أن يتخلص من

عقده نهائياً بأي شكل، وأن الضرر الذي يحدث عند محاولة الإزالة تلك أكبر بأضعاف مضاعفة من الفائدة التي ستتحقق. كان من الصواب الدخول إلى بيت العقل، واللعب وفق قواعده في مكانه، ولكن من دون محاولة إحباط آلية حركته أو أخذ ما له من يده.

ليس للعقل طاقة لتحمل تخريب النظام. ولكن رغم هذا، فإنه يمكن أن يتوه في قضية ماذا وضع، وأين وضعه، لأن فيه أكثر من غرفة، وفي كل غرفة أكثر من ذاكرة. ففي كوميدينة ذات خمسة أدراج، توضع في الدرج الأعلى الألبسة الداخلية مثلاً، وفي الدرج الذي تحته توضع المناشف المطوية، وفي الذي تحته الأغطية المغسولة. مكان كل عقدة معروف مسبقاً. يجب على الإنسان ألا يحاول إزالة عقدة ما حصل عليها بطريقة ما لمجرد أنه لم يعد يريد أن يستعملها، ولكنه يمكن أن يُخرجها من درج، ويضعها في درج أعلى منه بمساعدة الشرود الواعي والعلم. مهما يكن فإن العقل هو ربة بيت محبة لملكها ومباهية بعنايتها. تأتي، تبحث عن منشفتها في الدرج الرابع بالتأكيد. ولا يخطر ببالها أن تبحث في الدرج الخامس، لمعرفتها أنها لا تضع هناك إلا الألبسة الداخلية. **اطو المناشف التي تخرجها من الفصوص الأمامية بعناية، واتركها في مراكز ما وراء اللحاء. لا تحاول إزالة العقد. لأن هذا غير ممكن. ضعها في أمكنة لن تستطيع إيجادها بسهولة فيها، وهذا يكفي. ارفعها إلى الدرج الخاطئ. ضعها هناك لتبقى. ستنساها. حتى تجدها ذات يوم مصادفة وأنت تبحث عن غرض آخر...**

ولكن كارسي ناديا لم ترفع عقدتها من درجها لتضعها في درج آخر وهي مصرة على جعل عظام بروفسورها الحبيب تتألم في قبره. وطيلة الأيام اللاحقة، اتصلت مرات عديدة، ووضعت الأستوديو الذي يعمل فيه زوجها تحت الرقابة الشديدة. وفي النهاية، في أحد الأيام ظهرت فجأة المرأة التي تبحث عنها على الهاتف. وبينما كانت كارسي ناديا لا تستطيع تذكر المرأة إذا رأت وجهها، فقد عرفت صوتها رغم عدم سماعها له. قال صوت الطرف الآخر بغاية اللباقة: "تفضلوا، كيف أساعدكم؟" صرخت كارسي ناديا بصوت

خـال مـن الغضب، ولكنه في غاية الشر: "من أنتم؟" خرج هذا الصوت بشكل مفاجـئ وحاد إلى حد أن التي في الطرف الآخر وجدت نفسها منفلتة، وذكرت اسمها. لأن الهوية أيضاً مثل ردة الفعل نوعاً ما. ثمانون بالمئة من الناس عندما يُسألون من أنتم، يجدون أنفسهم منفلتين، ويعرفون بأنفسهم، قبل أن يقولوا: "مـن أنـت أساساً؟" فـور ذكـر المـرأة اسمهـا، أغلقـت كارسـي ناديـا الهاتف بوجـهـا فجأة. بعد معرفة اسم منافستها مع المؤسسة التي تعمل فيها، لم يغد صـعباً أبـداً معـرفة المـزيد عـنها. عـندما تقدمـت بالبحـث، صار بيدها عنقودُ معلومات هامة حول "تلك المرأة" الأول: إنها تعمل بالدوبلاج مثل متين تشتين تماماً. الـثاني: كانـت تؤدي دور صوت بطلة مسلسل "زقوم الاحتراس" الذي دخل العرض حديثاً في إحدى القنوات التلفزيونية الخاصة.

مسـاء الـيوم التالي، قبل الأخبار، جلسـت كارسي ناديا على الأريكة ذات الوجـه البنفسجي المزهر بالكحلي وتؤجل دائماً تغيير وجهها، وشاهدت حلقة من "زقوم الاحتراس" من أولها إلى آخرها من دون أن تتحرك. كرهت المسلسل عـندما انتهـت الحلقة. كان الموضوع تافهاً، والحوار مفتعلاً إلى حد أن الممثلين يـبدون كـأنهم يتألمون وهم يؤدون أدوارهم. ولكن لسبب ما، فقد كانت في اليوم الـتالي، وفي السـاعة نفسها أمام التلفزيون من جديد. ومنذ تلك اللحظة، ازداد ارتـباطها بالمسلسل درجة درجة، إن لم يكن اهتماماً به كل يوم مع انتهاء كل حلقـة. وإذا كـان الأكاديمـيون الباحـثون في قضـية إدمـان ربـات البيوت على المسلسـلات الورديـة قـد نظـروا في هـذه النقطة كثيراً، فإنه ثمة أكثر من سبب لمشـاهدة المسلسـلات الورديـة، وأسـباباً ليسـت بالحسبان أبداً. وكارسي ناديا أيضـاً صـارت مـن مداومـي "زقـوم الاحـتراس". ومع الوقت صار هذا المسلسل السـيئ يغطـي حـيزاً هامـاً مـن حياتها إلى حد أنها لم تعد تتحمل فراغ يومي السـبت والأحـد اللذيـن لا يُبـث فـيهما هـذا المسلسـل. هـي لا تسـائل تعلقها بالمسلسـل، ولا تعمـل عـلى الوصـول إلى أمكـنة أخـرى انطلاقـاً من هنا، إنها تتفرج، ولمجرد الفرجة فقط. والآن بعد أشهر وهي تتفرج على الحلقة السابعة والثمانين، لم تستطع أن تمنع نفسها من الخلط بين صوت لوريتا وصورتها.

ليس ثمة فشل مرض في الحياة، ولكن ثمة نجاحات مرضية، وهذه كثيرة جداً. كان البروفسور كاندنسكي يقول إنه غير راض عن نفسه من جهة، وهو ناجح من جهة أخرى. ويضيف بأنه يعد في وضع جيد بالنسبة إلى الناجحين، وغير الراضين في الوقت ذاته. لأن هذا وضع خاص بالمخبولين أو المحظوظين بما يتجاوز الحدود فقط. ولأن الحظ بما يتجاوز الحدود يجعل الإنسان مخبولاً في النهاية، فإن النتيجة تؤدي إلى الباب نفسه. ولكن البروفسور أيضاً تذوق الفشل في آخر قطرة من حياته. سبب عدم الرضا، والفشل أيضاً هو نفسه: "مشروع الأنواع التي تتعرض للطفرة" الذي يعمل عليه منذ أربعة أعوام. الحشرات التي تواجه كارثة تعرضها للإبادة الجماعية تمتلك إمكانية مذهلة في خصوصية اكتسابها مناعة ضد تلك الخطورة. في عام 1946 كان ثمة نوعان من الحشرات يمتلكان المناعة ضد إخضاعها للتجارب المخبرية، وقد وصل عدد هذه الأنواع إلى أكثر من مئة في نهاية القرن. بعض الأنواع تتمكن من تفكيك التراكيب الكيميائية التي تجرب عليها، وأخرى تنجح بعدم التأثر بالسم الذي جرب على التي قبلها وأزالها مع كل طفرة تتعرض لها، وتنتج أعراقاً جديدة على المدى الطويل. القضية الأساسية بالنسبة إلى البروفسور كاندسكي هي استطاعة الرؤية أن المعلومة عبارة عن تكامل، أكثر من اكتشاف كيف حصلت الحشرات على هذه المعلومة. يطرح التنويريون الذين يعتبرون أن العلوم الاجتماعية والعلوم البحتة كل متكامل أن قرناً جديداً سيستغرقه تحقيق القوانين المتبقية من دون حل قانون تلو آخر مع كوارثها. الناس أيضاً سيتعرضون لطفرة. ولكن هذا لن يكون كما يعتقد المتدينون بأنه سيتم من أجل عباد الله الأحباء له، أو كما يؤمن العقلانيون بسبب امتلاكهم موهبة العقل، بل لأنهم محكومون بدائرة المعلومة نفسها مع الإله والحشرات. ارتبطت الحالة الاجتماعية في حياة الحشرات مع غريزية الحضارة الإنسانية بالحزام القوي نفسه: علم الأحياء الاجتماعي. لهذا السبب فإن الفنانين ليسوا مبدعين بقدر ما يُعتقد، ولا هم بعيدون عن الطبيعة أيضاً. فالصراصير والكتاب ينتحون من خزان المعلومات والغرائز نفسه من أجل البقاء على قيد الحياة عندما يستطيعون البقاء.

عـندما علم البروفسور كاندنسكي أنهم رفضوا تقريره، قال: "أنا أشك أنهم ممكـن أن يكونـوا قـد قرؤوا صفحته الأولى" كان هذا قبل أسبوع من موته. كانا جالسـين مـتجاورين عـلى درج مخـرج المخـبر الذي يعملان به معاً، والذي لا يسـتخدم كـثيراً. وكـان ذلك المكان بناء هائلاً يعمل فيه علماء أحياء هم الأرفع مستوى في بلدانهـم والواعـدون بمسـتقبل باهـر مـن مختلف الأعمار لمدة ثلاث عشـرة سـاعة يومياً. ولكنه لا يبدو بناء عظيماً إلى هذا الحد عند النظر إليه من بعيد، لأن ثلاثة طوابق منه بنيت تحت الأرض. ولأن الشعور النخبوي يقرب الـناس مـن بعضـهم بعضـاً فكل من الذين في الداخل لبق مع الآخر. البروفسور كاندنسـكي وحـده لا يـتأثر بذرات اللباقة المتطايرة في الجو، وإذا كان لا يري أحـداً وجهاً باسماً فإنه لا يفتح فمه مع أحد إن لم تقض الضرورة. لم يكن ثمة مـن يـتحمله غير ناديا أونيسيموفنا التي عملت معيدة معه طيلة تسع سنوات، وكسـبت ثقـته بجدهـا، بقدر ما كسبته بطاعتها له. كان حاد الطباع وكتوماً، متشـائماً ونـافد الصبر. كانـت ناديـا أونيسـيموفنا تؤمـن بشـكل سري بأنه في الحقـيقة لـيس كمـا يـبدو عـندما تحولـت إلى كتلة أعصاب لكثرة تعرضها معه لـتجارب مشـحونة بالكهـرباء. مـنذ ذلـك الوقت بدأت الاعتياد على فظاظات أحبائها، وإيجاد الأعذار لهم.

"إنهـم حتى غير منتبهين لما فعلوه بي! الفشل فيروس لا أعرفه، ولا طاقة لي بمقاومته."

إلى الأمـام قلـيلاً، عـند أسـفل الجـدار الـرمادي المحـيط بالمخـبر كان ثمة عنصـرا أمـن يدخـنان السـجائر. وكانـت الريح تعصف بشدة إلى حد أن دخان السجائر لا يبقى ثانية واحدة معلقاً في الجو.

"أشـعر في بعـض اللـيالي بـأن الحشرات تضحك علي. ولكنني لا أستطيع رؤيـتها. أتجـول بحـلمي بين عنابر مؤن البيوت الفارغة تماماً. إنها تتمكن من الهـرب قبيل سقوط الصاعقة وانطلاق الأسلحة وحدوث الزلزال، قبيل حدوث الكارثـة بقلـيل جـداً. إنهـا تهاجر مزدحمة كالجيوش. نحن الآن حتى عندما نتكلم في هذه اللحظة فهي في مكان ما قريب. إنها لا تقف أبداً."

بعد أسبوع وجد ميتاً في بيته نتيجة شرود بسيط، وتماس كهربائي عادي... كانت ناديا أونيسيموفنا تعتبر دائماً أنه مات في الزمن الأصوب. حسن أنه لم ير ما حل بالمخبر. بداية أوقفت التجارب بسبب الحد من الإنفاق، وبعد ذلك طرد كثير من الأشخاص من عملهم. وحصلت ناديا أونيسيموفنا على نصيبها من هذه البنية المقلوبة رأساً على عقب. عندما تعرفت على متين تشتين كان قد مضى عليها تسعة أشهر عاطلة عن العمل.

كان متين تشتين بلاء حقيقياً. إنه أحدى الشخصيات التي تعتبر آخر من يعشق امرأة. كانت ناديا أونيسيموفنا قليلة التجربة بالرجال، ولكنها رغم هذا استطاعت بعد أن جلست معه لساعات الانتباه إلى أنها في مواجهة رجل من النوع الذي آخر من يمكن له أن يعشق امرأة. في تلك الليلة ترنحت من الكبر المدهش لصالة الرقص التي تعتبها لأول مرة في حياتها، ومن الزحام الجريء وضجيجه الذي لا يهدأ. ولم تكن في وضع يسمح لها بالانتباه إلى شيء بعد أن تقيأت بسبب المشروبات التي شربتها. كانت هنالك مصادفة. وتحت ضغط إحدى صديقاتها، وعلى أمل الحصول منها على مقدار من النقود ديناً في نهاية السهرة جُرجرت إلى هذا المكان. كان متين تشتين بين مجموعة من رجال الأعمال القادمين من اسطنبول. وفي الدقيقة العاشرة من لقائهم ألصقت الطاولتان، وانضمت إلى هؤلاء الرجال والنساء الذين لا تعرفهم، وطلب مشروب كثير جداً قبل أن تنتبه ناديا أونيسيموفنا لما يجري. بينما كان الجميع، يلهون ويضحكون لكل شيء يُضحك أم لا يضحك، كانت قلقة منكمشة في زاوية. وشربت بقدر ما لم تشرب في حياتها. بعد قليل، عندما قفز الجميع مثنى إلى منصة الرقص، رأت شاباً أسمرَ مستمراً بالجلوس متضايقاً مثلها تماماً. ابتسمت له. وهو أيضاً ابتسم لها. استمد كلاهما جرأة من هاتين الابتسامتين، وتحدثا بأمور ما. لغتهما الإنكليزية في غاية السوء. مهما يكن فإن الإنكليزية هي اللغة الوحيدة في العالم التي نجحت بوصولها إلى قناعة بأنه يمكن أن يحكى بها عند بذل قليل من الجهد حتى عندما لا يُستطاع التكلم بها. وعلى مدى الساعات الأربع التالية تحدثت ناديا أونيسيموفنا

ومتين تشتين وهما يبحثان بعينيهما فيما حولهما على أمل ظهور الكلمات التي يبحثان عنها في مكان ما، وفاقسان بأصابعهما بين برهة وبرهة مجسدين رسوماً خيالية في الهواء، وراسمين رموزاً على كفوفهما وأذرعهما، ومالئين اثني عشريات من مناديل الطعام بشخبرات، ومقهقهين عندما تُسد الأمور أمامهما، ومنفتحين عندما يقهقهان، وهازين برأسيهما طويلاً، ومحملقين بعينين واسعتين.

* * *

"أفضل لعق منفضة سجائر مملوءة إلى النهاية كل صباح ببطن خاوية على أن أتزوج من تركي."

قالت ناديا أونيسيموفنا بمكر: "يمكنك أن تلعقي. ليس ما يدخل إلى فم الإنسان يوسخه. ما يخرج من فم الإنسان هو الذي يوسخه."

قالت عمتها وهي تنفخ المغرفة التي تحركها منذ فترة في قدر الحساء المائل إلى اللون الأخضر بعد أن أخرجتها، وقربتها إلى شفتيها: "لا تُطلقي تعاليم عيسى، كنصائح بروفسورك النحس العبثية والسخيفة."

تمتمت ناديا أونيسيموفنا هازة بكتفيها وقائلة: "أنت لا تعرفين شيئاً عنها. رؤى مسبقة فقط.."

قالت عمتها: "ثقي أنني أعرف ما يجب علي معرفته يا حلوتي." رشت الملح الذي أمسكته بين أصابعها على شكل دوائر متداخلة فوق الحساء. "لو أنك لم تقتلي أجمل سنوات حياتك مع المجانين الذين لا خير لأحد فيهم بمطاردة النمل، لكنت عرفت أنت أيضاً ما أعرفه أنا." وسحبت كرسياً من دون مسند إلى جانب الموقد، واستمرت بتحريك الحساء مخشخشة بأساورها. لا تستطيع الوقوف أكثر من عشر دقائق بسبب آلام الدوالي. قالت بتعبير يائس: "تعرفين على الأقل بأن الأتراك لا يشربون النبيذ". ولكن من غير الممكن الجزم إن كانت يائسة من الموضوع الذي تتحدث فيه أم من عدم غليان الحساء.

انتقلت ناديا أونيسيموفنا للدفاع عن زوج المستقبل بالمبالغة بالقول إنه قلب كؤوس الوسكي والجعة والفودكا في صالة الرقص. ولكنها لم تذكر بأن شربه كل هذا أحده فوق الآخر هو عدم دراية.

"الوسكي أمر مختلف. هل يشربون النبيذ؟ اخبريني عن هذا. إنهم لا يشربون! وإلا لما كان أول عمل لهم عندما احتلوا زافيغورد هو الذهاب لهدم صنبور الحكيم ليون. الصنبور الذي تدفق منه النبيذ على مدى ثلاثة قرون مُهِّد مع الأرض فور وقوعه بيد الأتراك. لماذا خربوا روحي الصنبور؟ لأنه يدفق النبيذ بدل الماء. خربوا جداره بالبلطات. جهلة! اعتقدوا أن وراء الجدار مخزناً مليئاً ببراميل النبيذ الخشبية. ولكن أتعرفين ما ظهر كله؟ عنقود عنب. اسمعيني يا ناديا، أقول لك عنقود عنب. ولم يعصر منه سوى ثلاث حبات فقط. ظهر بأن حبة عنب واحدة فقط تدفق نبيذاً على مدى قرن. ماذا فعل هؤلاء؟ هدموا الجدران، وكسروا الصنبور، وحتى إنهم فتتوا عنقود العنب. ليس لديهم احترام للنبيذ. وليس لديهم احترام لما يعد مقدساً. وليس لديهم احترام للحكماء."

وهزت المغرفة نحو ابنة أخيها. "ليس لديهم احترام أصلاً للنساء."

* * *

أثناء مجيء ناديا أونيسيموفنا إلى اسطنبول لم تحاول تخيل الواقع الذي ينتظرها أبداً. رغم هذا فقد عاشت نوعاً من خيبة الأمل عندما وصلت إلى بناء قصر بنبون. لم يكن البناء الذي ستعيش فيه بعد الآن أقدم من الأبنية التي عاشت فيها حتى الآن، أو أكثر خراباً منها. على العكس من هذا تماماً، فهو يتطابق معها إلى حد ما. المشكلة هنا أساساً، هذا التطابق. لأن الذهاب إلى مكان جديد، وجديد جداً من أجل السكن، ومقابلة سمة الحياة القديمة يخلق عند الإنسان شعوراً بخيبة الأمل. فوق هذا لا يوجد شاطئ رملي في الجوار كما كانت تتخيل، ولا عمل يفتح ذراعيه مستقبلاً امرأة عالمة حشرات. ولكن المشاكل لا تنتهي بهذا. مصدر الهم الأساسي هو متين تشتين نفسه. ذات مرة تحدث كاذباً بشكل فظيع. لم يكن لديه حتى مجرد عمل سليم. إنه يؤمن

حياته من القيام بأعمال دوبلاج صغيرة لمختلف القنوات التلفزيونية بشكل غير منتظم. أحياناً يذهب إلى حفلات خطوبات الأغنياء وأعراسهم وحفلات ختانهم وأعياد ميلادهم ويحرك دمى خيال الظل مسلياً الأولاد. كان يخبئ دمى خيال الظل ذات الرائحة القذرة في حقيبته الكهرمانية. ولكن بناء قصر بنبون يفوح رائحة قذرة في الفترة الأخيرة إلى حد أن رائحة الجلد التي تفوح من هذه الحقيبة تغدو من جمل رائحة الزبالة التي تلف البناء أذنه.

فوق كل هذا ستجد كارسي ناديا وخلال فترة قصيرة أن عمتها قد أخطأت بشكل رهيب. يستهلك متين تشتين نبيذاً رخيصاً حيث لن تستطيع حبات عنب الحكيم ليون أن تنحق له المقدار الذي يستهلكه. وعندما يكون شارباً يغدو عصبياً إلى أبعد الحدود، كما يستمر بالتقصير بأداء عمله. في أثناء أدائه التمثيل الصوتي إما أن ينسى النص الذي بيده، وإما الشخصية التي يؤديها. أثناء تحريكه دمى خيال الظل يقول كلاماً مليئاً بالشتائم وعبارات سوقية منخبطاً الجو. ولأنه ينصب ستارة الخيال ويحرك دمى خيال الظل في الحفلات التي يذهب إليها من جهة، ويشرب المشروبات التي يجدها هناك كلها من جهة أخرى، فلابد له أن يفتعل مشكلة في نهاية اليوم. طرد شر طردة من أحد الأعراس في إحدى المرات لأنه قدم بلسان حجيوات إيحاءات جنسية مستهجنة إلى أبعد درجة حول العريس صاحب الطبيعة الخجولة أصلاً أمام المدعوين جميعاً. ولأن الذين يشهدون على سفالاته لا يكلفونه بأعمال جديدة، يضطر باستمرار لإيجاد ارتباطات عمل جديدة.

رغم هذا لم تعد. بقيت هنا في قصر بنبون. هي نفسها لا تعرف كيف انسجمت خلال فترة قصيرة إلى هذا الحد مع عمل ربة البيت الذي اعتقدت بداية أنها ستعمل به بشكل مؤقت حتى تجد عملاً مناسباً. في إحدى المرات تعلق انتباهها بكتابة على دعوة عرس جاءت إلى البيت. **نتمنى أن يكون متين تشتين وكارسي**(*) **ناديا بيننا في يومنا السعيد هذا**. نظرت بعينين مجذوبتين إلى بطاقة دعوة العرس. إنها أول مرة تنتبه إلى أنها ليست ناديا أونيسيموفنا، ولا

---

(*) كلمة كارسي (مثقلة الكاف) تعني في التركية زوجته..... م

ناديا تشتين، بل كارسي ناديا. تأثرت من هذه النتيجة الصغيرة التي توصلت إليها، ولكنها رغم هذا لم تحاول أن تعمل أي تغيير في حياتها. الأيام يشبه أحدها الآخر كأنها نسخة منسوخة بعدد كبير بواسطة آلة النسخ. تعد الطعام، وتنظف البيت، وتشاهد التلفزيون، وتتفرج على الصور القديمة، وتعمل عندما تشعر بالضيق ما لا تستطيع كثير من ربات البيوت عمله: مصابيح البطاطا التي تشعل من دون وضعها بمأخذ الكهرباء. وبقي البروفسور كاندنسكي و"مشروع الأنواع المتعرضة للطفرة" في حياة أخرى.

بينما كانت لوريتا تقلب بين يديها زهرة البابونج التي دستها بشعرها، قالت وهي تئن: "لماذا لا أتذكر ماضيّ؟ لو أنني أستطيع معرفة من أكون. لماذا لا أستطيع التذكر، لماذا؟".

صرخت كارسي ناديا: "إنك تنظرين في الدرج الخاطئ يا حياتي. انظري في الدرج الذي تحته، الذي تحته!" من دون أن تنتبه إلى أن الحركة التي تراها على الشاشة تتكرر، وأنها تقلب بين يديها مصباح البطاطا الجديد الذي تعمله. فجأة شعرت بصوت خربشة على الباب. إنه قادم. إنه مبكر اليوم. من المحتمل أنه سيأكل شيئاً ما، وبعد أن يغفو قليلاً، سيأخذ حقيبته الكريهة الرائحة، ويخرج من جديد. لا يُعرف متى يأتي، ومتى يذهب. ولكنه لا يقرع الجرس في أي وقت يأتي فيه، إنه يفتح الباب فجأة، ويدخل. أثناء دوران المفتاح في قفل الباب، التقطت كارسي ناديا جهاز التحكم عن بعد بحركة سريعة، وغيرت القناة في اللحظة الأخيرة. عندما فُتح الباب، وظهر متين تشتين عند العتبة، كان قد حل برنامج طعام محل لوريتا. امرأة عريضة الجبين، وبيضاء الوجه، وذات شاربين تتذوق طعم السبانخ بالفرن.

# الرقم 1: موسى، مريم، محمد

أثناء وضع مريم أذنها على الباب منتظرة عودة محمد كانت تلف بطنها بذراعيها ذي الغمازتين، وتتنهد بعمق. اليوم أيضاً نجحت بإرسال ابنها إلى المدرسة. نجحت، ولكن من يعلم بأي حال سيعود. في البدايات كان محمد يشرح مستطرداً كل ما يحدث معه في المدرسة سيئاً كان أم جيداً فور عودته منها. مع الزمن صار صامتاً، ولم يعد يحكي شيئاً. صارت مريم تستمع لما لم يعد يستطيع ابنها شرحه من عينيه المتوجستين، ومن صدريته المتفتقة خياطتها والمقطعة أزرارها، ومن الكدمات البنفسجية القافزة هنا وهناك كحلقات الضوء متفتحة تارة في ذراعه وتارة في فكه وتارة أخرى في صدغه أو حول عينه. ومع استماعها كان يذوب قلبها. لا يوجد أحد في هذا العالم صغيراً كان أم كبيراً يتحمل رفع يدٍ على ابنه، خاصة أن والده لم ينقفه حتى مجرد نقفة بإصبعيه. مريم فقط، وهي وحدها عندما لا تستطيع التحكم بأعصابها أحياناً تصفعه عدة صفعات بقوة شديدة، وتقرصه من لحمه، ولكن هذا مختلف، إنه مختلف. غير هذا فإن مريمَ منذ عرفت أن الآخرين يضربونه لم تعد ترفع يدها عليه. عندما تفكر بأن أولاد الناس يضربون ابنها الوحيد

يطير عقلها من رأسها. بداية اعتقدت بأن الأمر بسيط، وهو عبارة عن تدافع وتلاكز بين الأولاد، ولكن هذا التعذيب لولدها لا ينتهي بأي شكل رغم مرور أسابيع، وحتى أشهر عليه. ولكن شهادة مريم على اعتياد ابنها الضرب من قبل أقرانه يجعلها تفقد صوابها أكثر من تعرضه للضرب.

كانت تجد صعوبة بمعرفة سبب تعرض ابنها للضرب والنهر على يد زملائه. مثلاً لا يمكن أن يكون هذا لمجرد أنه ابن بواب. حاولت استدراج أقربائهم المعادين لهم العاملين بالمهنة نفسها، والساكنين في الحي نفسه، وفهمت منهم أن أبناءهم لا يتعرضون لمصيبة كهذه، وهم يذهبون إلى المدرسة، ويأتون سعداء. ماذا يبقى بعد هذا؟ محمد ليس أسمن من بقية الأولاد، ولا أقبح، ولا أخبل. لماذا لم ينجح بأي شكل بالوقوف في مواجهة الأولاد؟ نظرت إلى بطنها المنفوخ بعينين يائستين. إنها تعرف حق المعرفة أن جواب السؤال الذي تبحث عنه هو أمام عينيها: بسبب موسى. ألا يقولون بأن الدم يحن، وها هو قد حن. محمد ابن أبيه، اضربه على رقبته من الخلف، وخذ لقمته. لم يسقط ظل أمه الضخمة عليه مجرد سقوط: كان ضئيلاً وقصيراً ونحيلاً. ورغم إطعام ابنها خمس وجبات مشبعة يومياً تقريباً، وتلقيمه بالضغط والنهر، وجعله يأكل بيضة مسلوقة غير ناضجة كل صباح رغم اعتراضاته كلها، فإن النتيجة لم تتغير: فكما لم يتغير وزنه، فإن طوله ازداد قليلاً جداً إلى حد أنه يبدو أصغر من عمره بسنتين. في الحقيقة إن محمداً منكمش من ناحية الانكماش، فلكثرة اصطدام قالبه الذي يبدو أكبر مما هو عليه بجدار السخرية الذي بناه أقرانه له عندما يكون داخل حدود بيته، صار ضئيلاً بشكل سيئ جداً منذ بدأ المدرسة الابتدائية حتى الآن. ولأنه يصغر إلى حد يغدو معه ممسوحاً بالأرض عندما يرتدي صدريته المخيطة له أكبر بدرجتين على افتراض أنه سينمو إلى طول لن يصل إليه أبداً، ويحمل على ظهره حقيبته الأعرض من كتفيه، فكل من يراه يتعرض لمريم، ويسأل عن سبب إبكارها إلى هذا الحد بإرسال ابنها إلى المدرسة. ويغدو الوضع مريعاً أكثر عندما يقف جنباً إلى جنب مع أقرانه، إذ يبالغ بدرجة صغر محمد أضعافاً مضاعفة إلى حد ضرورة وضع مكبرة فوقه من أجل رؤيته. كان أصغر ولدٍ في صفه، وبالطبع أصغر ولد في

المدرسة. لو أن الأمر يبقى عند هذا الحد لما كبرت مريم الأمرَ كثيراً. كانت خاضعة لتأثير توقها لولد خيِّر قوي كجذع شجرة صنوبر وفرخ غوريلا، وصاحب مهابة مثل صخرة سلطان، ويعصر الحجر مستخرجاً ماءه، ويخلع ما يمسكه، ويُرجِّف من ينظر إليه، ولكنه في الوقت نفسه رقيق القلب، وعندما يكبر سيتأبط ذراع أمه، وينزهها. ولكن محمداً لا يكتفي بإثبات أنه ليس ابن أمه، بل يمعن بإثبات أنه ابن أبيه على صعيد الجسم، فقد بدأ منذ فترة قريبة بالاعتياد على عادات تشبه عادات موسى تماماً. ورغم أنه لم ينفصل عن أمه منذ ولادته حتى بدئه المدرسة، وعدم معرفته بالأب عندما يذكر سوى هذا الرجل النائم دائماً، ويزداد نومه مع توالي الأيام، وكأنه لم يجد شخصاً آخر يتوق لعاداته بين كل هؤلاء الناس عندما خرج من تحت جناحي أمه واندمج بالمجتمع، فذهب ليأخذ عادات أبيه. هذا هو السبب الأساسي الذي يجعل مريم متضايقة. لأن مريمَ ترى أن موسى إذا كان قد وجد بيتاً يدس فيه رأسه في هذه المدينة الضخمة، وعملاً يملأ منه بطنه، فإن هذا حصل بفضلها. واستطاع موسى الوقوف على قدميه لأنه سلم نفسه ليدي زوجته أو لم يجد بداً من تسليم نفسه ليديها. ماذا إذا لم يكن محمد محظوظاً بهذا القدر؟ ماذا إذا لم تُخرج الحياة أمامه مريمَ أخرى؟ حينئذ لا يمكن له أبداً أن يبقى في هذه المدينة. ستطعمه اسطنبول صفعاً وركلاً أكثر إيلاماً من الذي يطعمه إياه الآن أقرانه. صكت أسنانها وهي شاردة. أصبحت نادراً ما تعمل هذا، تعمله عندما تتضايق كثيراً فقط أو عندما يتلخبط عقلها بشكل كبير. ولكنها في الماضي، وهي مازالت فتاة صغيرة كانت تصك أسنانها كثيراً إلى حد إيقاظ الذين في البيت من نومهم. كانت أم جدتها على قيد الحياة في ذلك الوقت. كانت عجوزاً إلى حد أن جسمها النحيل جداً متخلص تماماً من العلة المسماة فضولاً، والهم المدعو استعجالاً. وضعت المرأة المسكينة مريم أمامها، وشرحت لها بأنها لن تستطيع التخلص من صك أسنانها إلا عندما تتعلم الصبر، وأنها إن لم تفعل هذا فلن يكون ثمة خير منها لأحد، وبالطريقة التي توقظ فيها الجميع من النوم اليوم، ستُفقد الجميع طمأنينتهم غداً. والخطوة الأولى لتعلم الصبر هي استطاعة ملء كيس خيش من الصبر. ومن أجل هذا يجب قبل كل شيء إيجاد

كيس خيش فارغ، بعد ذلك، يجب أن يُربط بعمود أو عصا طويلة بشكل أفقي كالعلم، ويترك في مكان مرتفع. استمعت مريم لما قيل لها في ذلك الوقت بغاية الانتباه، وقد كانت بعمر محمد الآن، وصعدت إلى سطح مستودع الفحم في الحديقة من دون إضاعة أي وقت، وعلقت كيس خيش فارغ على مقبض المكنسة الذي غرزته بصعوبة ومشقة. مع هبوب الرياح لابد من دخول أشياء ما عبر فم الكيس المفتوح، وبشكل ما سيمتلئ الكيس بشكل بطيء. الأمر الوحيد الذي يجب على مريم أن تفعله هو الانتظار من دون فعل شيء، وأن لا تخرج من عقلها ما تنتظره. ويسمى هذا "صبراً".

ولكن مريمَ كانت في طفولتها فتاة نضرة الحيوية، وحامية الدم كما هي الآن تماماً. إذا تعلقت قضية ما بخطاف عقلها، فتعمل ما تعمل، ولكنها لابد أن تعمل، لكي تصل إلى النتيجة في أسرع وقت ممكن. ولم تتصرف بشكل مختلف في قضية كيس خيش الصبر. أول عمل لها كل صباح هو إسناد السلم إلى السطح، والصعود لرؤية ما حل بكيس الخيش، وفي كل مرة تهبط خائبة الآمال. ولأنها تخبئ إلى الأحلام ما لم تستطع فعله في النهار، فقد كانت تملأ في حلمها دلاءً ومجارفَ بالتراب، وتحملها لتملأ أكياساً واحداً تلو آخر حتى الصباح. ولأنها في تلك الأثناء صارت تصك بأسنانها أكثر من السابق، فالشريحة الزمنية المدعوة ليلاً أبيحت لها وحدها، وحُرِّمت على أهل البيت كلهم. كانت أم جدتها نادمة، وجدتها مندهشةً، وأمها غاضبةً. ثلاثتهن يتحدثن مسهبات عن نبي يدعى أيوباً.

لم تتحمل نفسها مريم ذات يوم، فصرخت بكل ما أوتيت: "حسن، ولكن إلى متى؟". قالت أم جدتها: "إلى أن يمتلئ!"، وقالت أمها: "إلى أن يكون!"، ووضحت الأمر أمها قائلة: "يجب أن يُعرف الانتظار حتى ينضج الناس، وتمتلئ الأكياس!"... الانتظار من غير معرفة إلى متى يُنتظر... ولكن مريم التي لم تفهم شيئاً كثيراً من هذه النصيحة والمستاءة مما فهمته، قررت بداخلها أن لا تتخذ لنفسها دليلاً غير شعورها الذاتي. نوبة الغضب التي مر بها أبوها الفاقد أمله من الأجيال النسائية الأربعة التي في البيت بسبب توتره من قضية كيس الخيش، وتحطيمه السلم الخشبي لم تفد مريمَ بتشجيعها على

طاعة الأكبر منها. لم تستطع الصبر أكثر من أسبوعين على عدم الصعود إلى سطح مستودع الفحم، ومن دون السؤال عن زمن ملء كيس الخيش. وأثناء عدم خلو البيت من الجميع أخرجت طاولة المطبخ، ووضعت فوقها كرسياً، وقفزت إلى سطح مستودع الفحم من دون أن تسقط، وتكسر طرفاً من أطرافها نتيجة مصادفة محضة، ودست رأسها عبر فتحة كيس الخيش. وحينئذ رأت نتيجة الصبر: أوراق شجر يابسة، وأعشاب شوكية، وقطع أغصان مكسرة، وفراشتين ميتتين... هذه هي مكافأة الصابرين. إما حفنة من النفايات والأوساخ وإما جروح أيوب المتقرحة...

إلى هنا فقط. بعد ذلك اليوم تركت مراقبة كيس الخيش، وأخرجت الزمن من عقلها تماماً. الانتظار ليس أمراً مناسباً لها، ثم إن الانتظار من دون معرفة إلى متى أمر معاكس تماماً لمزاجها. لولا هذا لما تزوجت من موسى، ولكانت انتظرت عودة عيسى -أكثر خطابها الذين أعجبت بهم- من اسطنبول. ولكنها قررت أن تذهب بنفسها إلى اسطنبول لرؤيتها بدل أن تنتظر عودة عيسى من اسطنبول، لهذا تزوجت من موسى، وأقنعته بالذهاب معاً إلى اسطنبول. من ناحية المجيء فقد جاءت، ولكن الأمور لم تسر كما أملت. عندما فهم موسى أنه لن يستطيع مواجهة هذه المدينة، تذكرت مريم كيس خيش صبر أم جدتها بعد مرور تلك السنوات كلها. لن تنتظر. وبدل انتظارها هبوب الرياح، وامتلاء كيس الخيش، ونضج موسى، ومجيء حظها لتترك الحياة بين يديها فراشتين ميتتين وبعض الأعشاب وكسر الأغصان الجافة، عزمت على القيام بأعمالها كلها بنفسها. وهكذا تحول موسى ومريم إلى تيارين متعاكسين كتيارات مياه مضيق البوسفور. اجتهاد زوجة موسى ومبادرتها وعزمها تركت عنده تأثيراً مجمِّداً، وهذا جعله أكثر يأساً وكسلاً وتشاؤماً بالتدريج. غير هذا فإن هذا التضاد في حالتيهما النفسية انعكس على مظهريهما أيضاً. بينما يزداد وزن مريم الطويلة القامة والغليظة العظام، وتتضخم، ينكمش موسى مثل كنزة محبوكة على اليد غسلت في برنامج غسالة خاطئ.

ليس ثمة ما تنتظره مريم من زوجها. كانت تقوم بأعمالها بنفسها، وهي منذ فترة طويلة تعتبر أن أعمال موسى هي من مهمتها. تجمع زبالة الشقق كل يوم قبل مجيء سيارة الزبالة بنصف ساعة، وتوزع صباحاً خبز الشقق وجرائدها. وتقوم بالفصل الصباحي باكراً جداً ليبقى عندها وقت من أجل مناحرة محمد وقراءة فأل الفنجان. لا تعمل أي عمل نهائياً قبل أن تشرب قهوتها، وإذا بدأت بالعمل فلا تتوقف بسهولة. تذهب إلى التنظيف في خمسة بيوت خارج بناء قصر بنبون. تذهب إلى كل بيت في أحد أيام الأسبوع ما عدا عطلة نهايته. رغم دخول حملها في شهره الخامس، فليس ثمة نقص في مجموع فعالياتها عموماً. صارت تنزل الدرج، وتصعد ببطء أكثر فقط. طاقتها مثل وزنها تماماً. مهما ركضت فلا ينقص منها شيء. ومقاومتها مثل وزنها أيضاً. ومثل الأجهزة الذاتية الدوران تدور عجلها بنفسها من دون انتظار يد تدورها من الخارج.

أحياناً تفكر بأنها ستنهي أعمالها بشكل أفضل من دون موسى. إذا تلقت الآن خبراً بأن سيارة صدمته، ومات، فستُنهك من الحزن بالتأكيد. ولكن الحياة لن تغدو بمنتهى السوء، وفي الحقيقة إن تغييراً كبيراً لن يحدث. ولكن إذا طار إلى موسى خبر بأن سيارة صدمتها، وماتت، فسيعتبر أن السيارة لم تصدم جسد زوجته، بل توجهت مباشرة نحو حياته، وصدمت نابض نظام حيويته، ويغدو هباء منثوراً حيث لا يمكن أن يستجمع نفسه من جديد. تعرف مريم أنها يجب ألا تفكر بأمور نحس كهذه، ولكنها رغم هذا لا تستطيع الامتناع عن التفكير بهذا. مع تقدم حملها لا تستطيع ضبط الأفكار التعيسة التي تقوم بما يشبه العرض العسكري في ذهنها. يُسيطر عليها الهلع من أشياء تتوقع حدوثها، وترى كابوساً إثر كابوس أثناء نومها، وتستيقظ من نومها وهي تخفق، وتقلق من احتمال حدوث أمر سيئ في كل لحظة. ورغم أنها لم تستطع انتظار امتلاء كيس خيش الصبر، فلن تنتظر قدوم أخبار الشؤم من دون حس ولا نبس على كل حال. لهذا السبب كانت تتخذ إجراءات ما قبل الولادة الاحتياطية. ولو التقى باحثو علم الأصول والجذور للعادات

والتقاليد المتعلقة بالولادة مريم مصادفة بدل من تجولهم على مناطق تركيا ومحافظاتها وقراها واحدة واحدة، لحضروا التقارير التي كانوا سيحضرونها ذاتها، وألفوا الكتب التي سيؤلفونها نفسها من دون تحمل النفقات والمتاعب.

رزمة الإجراءات الاحتياطية المتعلقة بالولادة لدى مريم يمكن أن تقسم إلى ثلاث مجموعات. الأولى: عدم القيام بما يجب ألا يعمل نهائياً. الثانية: الانتباه عند القيام بالأمور التي يجب أن تكون منتبهة أثناء القيام بها. الثالثة: عمل ما يكمن في عمله فائدة.

ليس ثمة تردد أو تبرير أو عذر في الأمور التي يجب ألا تعمل. ومثلما لا يمكن تقليم الأظافر ليلاً، لا يمكن قص الرؤيا مثلاً. لا يمكن للعقل استيعاب أسرار النوم حتى في ضوء النهار وتفسيرها، وهي تغدو معماة تماماً ليس عندما تكون إيحاءات فقط، بل عندما لا يرى الإنسان غيرها أمام أنفه. لا تترك مريم نهائياً أظافرها التي تقصها في ضوء النهار بمتناول اليد، ومن أجل التأكد من عدم وقوعها بيد أحد ترميها في المرحاض بالتأكيد، وتسحب السيفون عليها عدة مرات بعد إلقائها. تتفقد فرشاة شعرها كثيراً جداً، وتجمع الشعر المتجمع فيها بدقة، وتحرقه في الحمام بعد أن تلفه بورقة. وإذا رأت إحدى شعراتها قد سقطت في مكان ما خارج بيتها نتيجة حادث غير مقصود، تأخذها فوراً، وتلقيها في عبها. كانت حساسة بشكل خاص في موضوع الشعر والأظافر، لأنها تؤمن بأن هاتين المادتين فقط من جسم الإنسان يمكن لهما العيش وحدهما حتى عندما يسلم الجسد التابعة له روحه. عدم أخذ السكين من يد أحد، وعدم ترك المقص مفتوحاً، وعدم ذكر اسم حي عند المرور بجوار مقبرة، وعدم الحديث المتضمن أسماء حيوانات في الغرفة الموجود فيها قرآن، وعدم الدندنة بأغنية أو أغنية شعبية عند النهوض إلى المرحاض ليلاً، وحتى عدم فتح الفم لقول شيء قدر الممكن، وترك العناكب بحالها... وهكذا تطول قائمة المحظورات التي يجب عدم القيام بها. للولادات أهمية خاصة ضمن هذه القائمة. يجب أن توضع النساء تحت الحماية أثناء الحمل والنفاس، وأن تُدفن مشيمة المولود بالتراب بالتأكيد. وإذا لم تستطع مريم إقناع الطبيب الشاب البارد ذي النظارة الذي يعمل في المستشفى الذي ولدت فيه محمداً

بهذا الأمر بأي شكل، فإنها وُفقت بجعلهم يدفنون مشيمتها بواسطة خادمة مرضى ساخرة. حالات الوفاة أيضاً لا تقل حساسية عن حالات الولادة. كانت تخاطب المريض الذي يصارع أجَلَه بأسماء مختلفة جداً وصوت جهوري عند زيارته للخبطة عقل عزرائيل. وإذا لم تتمكن من خداع عزرائيل، وتوفي المريض، فهي تصر على إعطاء ألبسة الميت كلها لتاجر أغراض مستعملة لا يعرف المتوفى نهائياً، وإذا جاء تاجر الأغراض المستعملة، وحكى عبارتين بحق المتوفى، فتقرر بأنه يمكن أن يعرفه، وتأخذ الألبسة من بين يدي المسكين، وتعطيها لتاجر أغراض مستعملة آخر.

"عدم المعرفة" أساس في مهنة تجارة الأغراض القديمة. يجب ألا يعرف الإنسان لأي ميت تعود هذه الأشياء، ومن بعد كم ميت آلت إلى يد تاجر الأغراض القديمة أبداً، وحتى يجب ألا يخطر بباله أنها كانت في يوم ما لأحد ما حتى مجرد خاطر. المسؤولية التي تقع على كاهل تاجر الأغراض القديمة هي حمل الأغراض المعروفة على ظهره، وإيصالها إلى من لا يعرفونها نهائياً. بالنتيجة فإن الذين يتخلون عن تلك الأغراض بحاجة إلى نسيان ماضيها، وعدم معرفة الذين يشترون تلك الأغراض لذلك الماضي أبداً. لهذا السبب فإن الجسر الذي يفصل بينهما يحافظ عليه تجار الأغراض المستعملة، ويؤمِّنون تخليص الأشياء ذات الذكريات الخاصة من النهايات الحزينة التي تذوقتها كلها، وجعلها عادية، وجعلها كأنها تبدأ من الصفر، والبدء بالحياة من جديد. هكذا يجب أن يكون. يجب أن يكون الأمر على هذا النحو لكي يولد الجديد من القديم، وتولد الحياة من الموت. وفي الحقيقة إذا سأل أحدهم مريم عن أقدس المهن، فستذكر تاجر الأغراض المستعملة قبل الطبيب والمعلم. ولا تريد أن يكون محمد تاجر أغراض مستعملة عندما يكبر طبعاً. ولكنها تكن الامتنان لهؤلاء الناس الذين يلقون ما بقي من عش تعرض للخراب أو دار تصفر الريح فيها الآن أو صديق بعد أن هاجر إلى عرباتهم اليدوية، ويأخذونها إلى أماكن بعيدة، ويجلبون من الأماكن البعيدة أغراضَ آخرين، وهكذا يخلطون بين بقايا اثنتين وسبعين قومية لتلال اسطنبول السبعة من دون أن يكونوا منتبهين لما يقومون به.

الأعمال التي يجب الانتباه إليها أثناء القيام بها تتضمن أموراً تتطلب اتخاذ إجراء احترازي بالتأكيد عند عدم استطاعة تجنب ما يجب تجنبه قدر الممكن. يجب على الإنسان ألا يخيط خياطة خلف أحد آخر مثلاً، ولكنه إذا اضطر لهذا الأمر فيجب عليه اتخاذ التدبير الاحترازي اللازم، وطلب المدد من جسم يمكن له أن يمنع نحس الإبرة الثاقب. لهذا السبب عندما تريد مريم أن تخيط شيئاً ما بعد شخص ما، تدس في فمها ملعقة خشبية، وإذا لم تتوفر، فتدس قطعة قماش. وإذا كسرت مرآة بحادث غير مقصود، تذهب فوراً وتشتري مرآة جديدة، وتمسكها، وتكسرها لكي تنتزع بلاء المكسورة كما تنتزع المسامير واحداً تلو الآخر. ولأنها تؤمن بأنه لا خير برؤية الإنسان وجهه كثيراً، وهي تحافظ على المرآة الوحيدة في البيت مقلوبة على قفاها، فلا تواجه تلك الأبواب الملمّعة. أما بالنسبة إلى الأبواب غير الملمعة، فتحرص على الدخول والخروج منها كثيراً. وتخاف من حبسات الأبواب أكثر مما تخاف من المقابر. عندما تعبر من باب ما، فلا تتجنب أن تطأ على حبسته فقط، بل تحرص على ألا تمسسها، فتفتح رجليها قدر ما تستطيع، وتخطو أطول خطوة ممكنة وهي تحرص على الدخول برجلها اليمنى. وهي تعتني إلى أبعد الحدود بعدم ملامسة طرفها الأيمن لطرفها الأيسر. عندما تجلس إلى المائدة، تقطع قطعة من خبزها، وتضعها على جانبها الأيمن. هذه اللقمة من أجل إشباع عين من ينهض عن المائدة وعينه عليها. وتجعل يدها اليسرى تقوم بأقذر الأعمال، وإذا ناداها من خلفها أحد ما في الطريق، فتستدير من جهة اليمين، وتنظر إليه. وتنشر غسيلها من اليمين إلى اليسار كأنها تكتب باللغة العثمانية القديمة. وعندما تستيقظ من النوم لابد أن تنهض من الطرف الأيمن. ومن ناحية النوم من طرف اليسار، فإن موسى في الحقيقة هو الذي يغدو الناهض من اليسار وفق هذا التقسيم، ولكنه لا يهتم لأمور كهذه، ويكفيه ألا يقلق نومه.

كانت مريم تجمع العلامات طيلة اليوم، وكذلك الإشارات. إذا رفت بجفن عينها اليمنى فهذه علامة حسنة، ولكن إذا رفت بجفن عينها اليسرى، فتقنط فوراً. إذا طنت أذنها اليمنى، فهذه علامة على بشارة سارة، ولكنها عندما تطن أذنها اليسرى؛ فتبدأ بالقلق من عاقبة هذا الطنين. وبينما تعتبر أن حك

الإنسان لأرض قدمه هي علامة على انطلاقه في سفر، فتعتبر أن حكه راحة يده يعني قبضه نقوداً، وأما حكُ رقبته فهو دليل على الدخول في حال ضيق مادي، أما إذا اقشعر جسمها فجأة فهذا مؤشر على ذكرها من طرف كش برا وبعيد. وحبيبات الشاي... إذا عبرت حبيبة شاي يجب ألا تعبر من المصفاة إلى كأس الشاي الذي تشربه مريم فتنتظر قدوم ضيف غير متوقع. ومن شكل حبيبة الشاي تحاول استنتاج من يكون الضيف، ومن لونها تحاول معرفة نيته. لا يُفسر نباح كلب بعد منتصف الليل بالخير. وإذا حدث هذا فتعتبر أن ميتاً سيشيع من أحد البيوت القريبة. ولكنها لم تعد تتشبث برأيها في هذا الموضوع بالذات بعد أن انتقل طالب الطب أحور العين النحيل جداً مع كلبه الضخم إلى الشقة المقابلة.

رغم عدم قناعتها بهذا، ولكنها تفتح الفأل من أجل معرفة المصائب المحتمل وقوعها لها. تشرب قهوة الصباح من أجل فأل الفنجان، وقهوة المساء من أجل المتعة. اعتادت على هذا منذ فترة. أثناء شربها القهوة مساء تقلب ثلاث كؤوس عنبرية كل منها بقدر كشتبان من عنبرية الموز بشكل متتال. عودتها على شرب العنبرية هذه الخليلة المقيمة في الشقة رقم ثمانية قبل أُشهر. ففي بيتها إضافة إلى زجاجات زيت الزيتون المصفوفة من مختلف المقاسات، ثمة زجاجات عنبرية متنوعة. جعلت مريم تتذوق طعم كل منها. عنبرية التوت البري ليست سيئة، أما عنبرية النعنع فتترك في الفم طعماً منعشاً. ولكن مريم قررت بأنه لا يوجد أفضل من عنبرية الموز. قلقت إثر ذلك، إنها المرة الأولى التي تحتسي فيها مشروباً كحولياً. يمكن أن يؤذي الجنين. اعتقدت الخليلة أنها ترددت بسبب الخشية من الوقوع بالحرام، فقالت لها ضاحكة: "وهل تعد العنبرية من المشروبات الكحولية؟". سرت مريم من هذا التوضيح: العنبرية لا تعد من المشروبات الكحولية. قالت الخليلة: "طالما أنك أحببت عنبرية الموز، فخذيها". كيفما كان فالرجل سيجلب بدلاً منها. كانت قد رأته مريم عدة مرات. إنه بعمر أبيها، ثم إنه صاحب زوجة وبيت. لم تتدخل. لم تكن تتدخل بأمور من هذا النوع.

ثمة أمورٍ لم تستطع التخلص من مخالبها رغم رغبتها بالابتعاد عنها. عين الحسد مثلاً. عين الحسد نوع من الصدى. وبالطريقة التي لا يعرف فيها الإنسان من أين يأتي الصدى القادم بعد الصوت في واد واسع، ومن يطلقه، فإنه لا يستطيع متابعة مصدر عين الحسد في أغلب الأحيان. ولأن هنالك احتمال مجيء الهجوم من أربع جهات، ومن أربعين مصدراً مختلفاً فقد ملأت كل زاوية من زوايا بيتها بالتدابير الاحترازية اللازمة. تعلق على الجدران خرز العين، وأدعية الحسد، وحدوات الخيل، ونبتة الجرمل، وترش على المخدات وخلف الأبواب، وفي جيوب محمد بشكل خاص، بذر العشبة القرصية المقروء عليها، وماء زمزم، وأحجار الملح. وتضع على الأرض درع السلحفاة الجافة، وأرجل السرطان، والكستناء المذكرة. وتحمل هي، كما تضع في مختلف زوايا البيت، حجباً مكتوبة على اللوز والتمر ومختلف أنواع الورق ولوحات نحاسية وجلود حيوانات. اعتاد موسى كما اعتاد محمد أيضاً على العيش في البيت نفسه مع مجموعة الأشياء هذه المتوسعة بمختلف الإضافات الجديدة، والمغيرة أمكنتها بشكل دائم. رغم هذه التدابير الاحترازية كلها، الكبيرة والصغيرة منها، فلا يهدأ خوف مريم من عين الحسد ولو قليلاً. عندما تنتبه إلى أن ضيقاً ما جثم على قلبها في أي ساعة من ساعات النهار، تنهض فوراً، وتكسر صحناً في المغسلة. إذا تشقق طبق أثناء صب الشاي، تقرر أن الأمر أمر عين حسد، فتهرع ذاهبة إلى النار وتقلب عليها ملحاً. عندما تقابل أحداً لا تعجبها عيناه، أو تشعر بقلق من نظراته فتغطي وجه محمد لثانية أو ثانيتين من دون أن تنبه أحداً، وإذا لم يكن محمد معها في تلك الأثناء، فتفكر فيه، وتغمض عينيها. تفقع مرارتها رعباً من إصابة ابنها محمد بعين حسد. وكما تفعل السلحفاة ببيضتها، لا تريد أن ترفع عينها عنه ولو لحظة. تتجول على قمصانه الداخلية الحجب، وعلى جيوبه العشبة القرصية المقروء عليها منذ كان رضيعاً. ويستمر محمد بحياته موجداً تحت مخدته أوراقاً مكتوباً عليها بأحرف مائلة ومتعرجة تشبه الغربان، ويدخل مرة كل عشرة أيام تحت غطاء فراش تمسك به من أطرافه الأربعة أربع نساء، ويُصب الرصاص في وعاء ماء يوضع فوقه. ولكنه راض حتى بكل هذا، يكفيه ألا يضطر لأكل البيض.

الأسوأ بالنسبة إلى محمد من قطع المسافة من عمر ستة أشهر إلى ست سنوات آكلاً كل يوم بيضة غير ناضجة السلق، هو استخدام البيض الذي يضطر لأكله بالملعقة حتى نهايته كنوع من الشكوى. عندما يغدو داخل البيضة نظيفاً تماماً يمدها نحو أمه الواقفة فوق رأسه. وهي تتناول قلم رصاص، وتكتب عليها كل ما هنالك من شكاوى باقية من يوم سابق: "البارحة كذب محمد على أمه، ولكنه لن يعيدها."، "لم يرغب محمد البارحة بأكل بيضته، ولكنه لن يعيدها."، "البارحة شتم محمد الخالة التي تصب الرصاص، ولكنه لن يفعل هذا مرة أخرى أبداً"... هذه البيضات الفارغة من الداخل والمكتوب عليها أنواعاً من الجمل التي تبدأ بالشكل نفسه دائماً، وتنتهي بتعبير الندم نفسه تلقى إلى الطيور لكي تأخذها إلى الملكين الكاتبين الذين يدونان المحرمات المرتكبة على وجه الأرض والثواب المعمول كله على الدفتر السماوي. كان محمد حتى بدئه المدرسة الابتدائية يقترب من النافذة بهدوء كل صباح قبل تناول إفطاره، ويعمل على إيجاد المخبرين ذوي الأجنحة. ولكنه رغم هذا فإن نوعَ الطيور الوحيد الذي يراه في كل مرة هو العصافير التي تزقزق بقوة على أغصان الوردة الحريرية في الحديقة، أو الغربان القافزة على الرصيف، ولا تخاف من أحد. وهنالك أيضاً الكناري الأصفر في قفص على نافذة الشقة رقم أربعة، ولكن هذا لا يستطيع الطيران فقط، بل لا يستطيع خفق جناحيه حتى.

كان يشتبه محمد بالنوارس. كان يراها أثناء نبشها أكياس الزبالة المتراكمة عند جدار الحديقة. ترسم دوائر وسط أنفاس الرياح الجنوبية الغربية الرطبة، وتنزل فوق الزبالة، وعندما ينزل في مناقيرها الزهرية الفاتحة مخبرٌ سمين، تصيح مستمتعة، وتنساب نحو السماء. تجتمع ليلاً على الأسطح، وتراقب المحرمات المرتكبة داخل البناء. والنوارس لا تنام أبداً على عكس أبيه.

# الرقم 2: سيدار وغابا

عندما فتح الباب كان وجهه يقطر غضباً. الآن لا يتحرق غضباً من سوء امتحان التشريح، بل من دخوله الامتحان رغم معرفته أنه سيمر بشكل سيئ. الآن نادم ألف مرة على عدم ترك رأسه مستلقياً، والاستمرار بالنوم من حيث انقطع عندما استيقظ صباحاً أو استيقظ مدركاً أن المنبه قد تعثر مرة أخرى، وانطلاقه من البيت منهمكاً، وفوق ذلك دفعه كل هذه النقود أجرة سيارة. وهو نادم أكثر لأنه انضم لأصدقائه المجتمعين بعد الامتحان مثل أسراب الحمام المتطايرة على بقع القمح لمعرفة كيف حل كل شخص بشخصه، كل سؤال بسؤاله مطلقين أقذع الصفات على أستاذ المادة، وبنية الجامعة بالكامل. فوق هذا فإنه بعد أن دخل بينهم، لم يستطع التملص منهم، فقضى يومه كله معهم متسكعاً في المقاهي آكلاً وشارباً ومنفقاً النقود. إنه الآن آسف على الطاقة التي صرفها. لأن الطاقة بالنسبة إلى سيدار قيّمة كعطر العين الكامن في قطرة صغيرة جداً. وهو ينفق قطرتين فقط كل يوم. إحداهما عند الصباح من أجل أن يستطيع فتح عينيه، والأخرى عند المساء من أجل أن يستطيع النوم.

ولأنه أغلق الباب خلفه من دون أن يستفيد من ضوء البناء في ذلك الشرود، بقي فجأة وسط ظلام دامس. أثناء اندفاعه من البيت منهمكاً صباحاً يجب أن يكون قد نسي إسدال الستائر. حسن، لن يختلف في الأمر شيئ لو أنه لم ينس. ولأن النوافذ الصغيرة المضافة لاحقاً بالمستوى نفسه للطابق الأرضي، فإن هذا القبو المنخفض السقف، الضيق لا يأخذ الضوء إلا تقتيراً. وبمساعدة يده المتلمسة طريقه تقدم مطلقاً كلاماً على الأحمق المجهول الذي وضع مفتاح الكهرباء لسبب مجهول على مبعدة مترين إلى الأمام، وليس في المدخل مجاوراً للباب مباشرة. في تلك الأثناء ظهر خيال ضخم خلفه تماماً. اقترب الظل منه تدريجياً، وارتفع بسرعة، وانقلب عليه بكل ثقله مصدراً صوتاً يشبه الشخير. تمايل سيدار الفاقد توازنه، وهوى نحو الأمام، واصطدمت الماسورة العابرة من وسط البهو تماماً برأسه مصدرة ضجيجاً قوياً. عندما وجد مفتاح الكهرباء ويداه ورجلاه ترتجفان من التوتر العصبي، التفت إلى الخلف، ونظر غاضباً إلى غابا. ولكن ذاك قد نال ما ناله، وسحب النصف الذي في جيبه، وهو يقضمه الآن سعيداً مسروراً.

تمدد على الأريكة وهو يفرك رأسه. ولأن الماسورة الصفراء القذرة التي تمر من وسط البهو الذي يقوم مقام غرفة النوم والطعام والعمل في آن واحد، وتتجه نحو غرفة المرجل، والمتأرجحة عليها شباك عناكب مرتجفة هي على ارتفاع يحاذي أذنيه، فكان يصدم رأسه فيها بين فينة وفينة، وفي المكان نفسه تقريباً. هذا الصباح فقط كرر الحادث نفسه عندما كان خارجاً على عجل من البيت، وسيتشكل انتفاخ صغير في ذلك المكان إذا بقيت الأمور على هذا المسار. ولكن حمأته هدأت، و توتره انقضى فور تمدده على الأريكة. كان يحب أن يكون في بيته. كان يحب بيته لأنه يستطيع فيه الابتعاد كثيراً عن الفوضى التي تثقب كل زاوية من زوايا اسطنبول متحولاً إلى صمت مطبق وسط الهلع والتراكض المتلوي كما يفعل بطن غابا عندما يمتلأ على الآخر رصاً، ويبقى غير مبال، وساكناً إزاء العالم الخارج عنه.

يظهر تجرد الشقة رقم اثنين بالحد الأقصى عند المساء بشكل خاص. يبتلع بناء قصر بنبون الصخب غير الممكن التحمل في تلك الساعة بلقمة

واحـدة. تـتمازج مزامير شؤم السيارات المحشورة بالزحام، مع ضجيج المشاة، مع صراخ الأولاد الذين يلعبون في الحديقة، مع نداءات الباعة الجوالين ملبسة المكان لبوس صخب ساحة العيد متسللاً من النوافذ، ومن تحت الأبواب، ومن الشـقوق الـتي في الجدران كغاز سحري لا يمس هذا المكان فقط بل يضع البناء كلـه بـين مخالبه. ليس الصخب فقط هو الذي لا يعرج على الشقة رقم اثنين، بـل الحـر المـتدفق مـن الخـارج أيضـاً لا يعـرج. ولأن الشمس لا تدخل البيت تقريـباً، فيغدو بارداً كمستودع تحت الأرض عندما تكون شقق بناء قصر بنبون الأخـرى تحـترق مـن الحـر. وهـذا المكان أيضاً هو المكان الحاصل على نصيب أقـل مـن رائحـة الـزبالة التي تجعل سكان البناء الآخرين يعافون أنفسهم منذ فترة طويلة نسبياً.

أصـل الأمـر أن الشـقة رقـم اثـنين لم تكن بيتاً عندما بني قصر بنبون، بل صـممت لـتكون مسـتودعاً، واستخدمت بهذا الشكل على مدى سنوات طويلة. ولكـن بعـد مـوت الـرجل المسـن الـذي كـان يسـكن الشقة رقم عشرة، وانتقال الإشـراف علـيه لابنـته التي تحاول حل كل شيء من بعيد، حصل هذا المكان عـلى نصـيبه من المشاكل المتنوعة التي انفجرت متلاحقة. وعندما حاول سكان البـناء كـلهم تكديـس أغراضـهم الشخصية التي لم يعودوا يستخدمونها في هذا المكـان الضـيق خـلال الفوضـى المعيشـة نشـبت شـجارات شاملة، فلم يعد من نصـيب أحـد اسـتخدام هذا المكان مستودعاً لمدة طويلة. وفي النهاية، وبموجب التعلـيمات الـواردة مـن فرنسـا، أُجِّـر طـابق القبو الضيق الخفيض السقف ذي الغرفة الوحيدة بما يعادل نصف أجرة شقة أخرى. ومنذ ذلك التاريخ آوى هذا المكـان عـدداً كـبيراً مـن الـناس يختلف أحدهم عن الآخر كثيراً، ولكن النقطة المشتركة بينهم هي عدم امتلاكهم النقود، والعزوبية. وأتى بين هؤلاء بالترتيب مذيـع يقـرأ الأخـبار في إذاعـة محلـية، ويـأكل يومـياً ثـلاث وجبات شاورمة الدجـاج؛ ومحاسـب تعـرض للفشـل لاهـثاً وراء السـراب جاعلاً أحد أصدقائه يـأخذ زوجـته الـتي قضى معها ثماني سنوات إضافة إلى نقوده التي جمعها في المصـرف؛ وهـارب مـن الجـيش يفـتح التلفزيون إلى أعلى درجة صوت مستمعاً

للأذكـار والمدائح النبوية والعظات في الأعياد الدينية ورمضان؛ ومسودة رجل لا أحد يعرف بالضبط ما يعمله، ولم يجرؤ على سؤاله؛ ورسام لاهٍ استخدم المكان مـرسماً، ورسـم الركـب والسـيقان والأقـدام الـتي يتفرج عليها من النافذة. مما لاشك فيه أن نبي القطط أكثر مستأجر ترك أثراً ورائحة بين المستأجرين الذين تعاقبوا على الشقة رقم اثنين كلهم حتى الآن.

بعـد نـبي القطـط، جـاء سيدار ومعه كلبه من جنس القديس برنارد. ولعدم وجود أغراض عنده تقريباً على عكس المستأجرين الآخرين كلهم، تعيش الشقة رقم اثنين الآن أكثر أيامها فراغاً منذ أيام استخدامها مستودعاً من جهة، وبعد ذلك عندما عمل على ملئها بالأغراض في الأيام اللاحقة من جهة أخرى.

غابـا كلـب غريـب قليلاً. إنه على درجة من التضاد لا يمكن أن تُرى لدى بـنات جنسـه الـتي تـنجح بقطـع أميال جائعة عطشانة متلمسة طريق بيتها، وتشـعر بالكارثة قبل وقوعها فتنبه أصحابها، وتحدد مكان المخدرات المخبوءة في زوايـا معـتمة، وتـنقذ الذيـن تحـت الأنقـاض وحدهـا، والصـديقة الصدوقة للأطفـال والعميان ومحتاجي المساعدة كلهم. إذا كان ثمة ما لا طاقة له بتحمله في الحـياة فهـو الجـوع. إنـه صـاحب معدة لا حدود لها، وشهية وقحة، وإذا بقـي سـاعة مـن دون طعـام ومـاء، ولـيس يومـاً، فإنـه يعـيش حالة من التوتر ملخبطاً كل ما في الوسط، ويبدأ بقضم كتاب التشريح والكرسي الخشبي والدلو البلاسـتيكي... وكل ما يجده من دون تمييز. ليس ثمة شقلبة لا يتشقلبها، أو لعبة لا يلعبها من أجل قليل من الطعام الإضافي. ولكنه عندما ينجح بالحصول على ما يريد، ويملأ ولو قليلاً معدته الشبيهة ببئر لا قرار لها، لا يبقى أثر من اندفاعه الذي كان قبل قليل، وينقلب في زاوية مثل دمية دب محشوة، ويبقى هـناك ساكناً. من غير الممكن تحريكه من مكانه في أوقات كهذه. ولأنه على ما يـبدو لـو يحرم نفسه حتى من مقدار واحد بالعشرة من الهوس الذي يبديه من أجـل الطعـام والجهـد الـذي يبذلـه في سـبيله، لتوجيهه نحو سـاحات الحياة الأخـرى، لما بقـي غـير مسرور مـن الـتجول في الخارج، ولا اللعب بالألعاب الملونـة المصـدرة أصواتاً والمخترعـة خصيصـاً للكلاب. إذا لم يكن ثمة طعام في

نهاية أي حدث، فلا يهمه حتى لو وقع تحت أنفه. شك سيدار ذات مرة بأنه يفقد سمعه مع تقدمه بالعمر، ولكنه مع استنتاجه بأنه لا يجد صعوبة بسماع حفيف طعام الكلاب الصلب عند صبه بالوعاء، وقرقعة المعدن عند فتح علبة كونسروة، وخطوات مريم عندما تجلب الخبز صباحاً من الأدلة الدامغة على السمع، أدرك أن قلقه عليه من دون سبب.

لم يكن يستطيع أن يغضب منه. وكما لا يغضب، فهو يشعر بالذنب من وضعه بشكل سري. زجُه كلب جبال جورا المهيب هذا في قبو بناء قديم مهلهل في أحد أحياء اسطنبول الأكثر ازدحاماً لا يعطيه الحق بالتوقع منه أن يتصرف بشكل طبيعي. غير هذا فهو يعتقد بأن له نصيباً بوصول كلبه إلى هذه الحال نتيجة إطعامه المعمول بالخشخاش، والكعك بالحشيش بين فينة وأخرى لمجرد النكاهة بداية، بعد ذلك عوده عليها، وجعله يتنفس هذا الدخان الكثيف ولو عن غير قصد، ولذلك يعاني من عذاب ضمير داخلي سري.

كان غابا وحيداً وفريداً بعين سيدار. وفي الحقيقة إن هذا البيت لا يحوي إلا شيئاً واحداً من كل شيء. غابا واحد، سيدار واحد، حاسوب واحد، أريكة واحدة، كرسي واحد، مقعد واحد، طاولة واحدة، مصباح واحد، قدر واحد، كأس واحد، صحن واحد، شوكة واحدة، كتاب واحد، قرص مدمج واحد، قداحة واحدة، إبريق شاي واحد، عطاء سرير واحد، قلم واحد... وعندما يعتق شيء ما، أو يستنفذ أحد الأغراض عمره، أو يقرأ الكتاب وينتهي منه، أو يستغني عن القرص المدمج... أي عند ضرورة حصوله على قطعة ثانية من الغرض نفسه، يتخلص من القديم فوراً، أو يكون قد قضمه غابا أساساً.

ولكن البساطة المسيطرة على هذه الشقة الرطبة تنقطع بشكل حاد منتهية عندما تصل إلى سقف البيت. ثبت سيدار على السقف إما بواسطة دق المسامير أو التثبيت بالإبر أو اللصق واحدة فوق الأخرى صور الأبيض والأسود التي قصها من مختلف المجلات/ بعض الرسائل القادمة من أبيه وأمه/ مراسم جنازة لناظم حكمت/ منشورات طلابية جمعها من هنا وهناك/ ومنشورات طلابية أخرى حضرها بنفسه/ مربعات لماوز من فن شبيغلمان/ ملصقاً ضخماً

لديد كندي/ صورة مطعم قديمة جداً استخدمت غلاف قائمة طعام، وتناول فيه الطعام عدة مرات خلال أيامه الأولى في اسطنبول، ولكنه لم يعد إليه بعد أن اعتاد على الفرق في الأسعار بين سويسرا وتركيا، واكتشف كم هو مرتفع الأسعار، مع صورة سفينة تحاول التقدم في الضباب/ صفحات مقطوعة من سلسلة الرجل العنكبوت، وليلة مظلمة/ قميصاً أسود مطبوع عليه من الأمام إعلان جولة Receipt for Hate التي قام بها باد ريليغون/ ملصق حملة لمكافحة المخدرات كتب عليها بأحرف تشكلها الحبوب: " Ma Vie Peut Etre Differente"[*]/ صور غابا الملتقطة له عندما كان صغيراً جداً/ نسخة فوتوكوبي مكبرة لرسم غويا الانتقام قادم/ الحشرة الذهبية مجففة/ لوحة مركبة من لصق بعض جمل مجتزأة من التجربة الكتابية التي كتبها سيوران حول مستر إكارد/ رسماً سريعاً لإلهة الصحة بثدييها المكورين، وبطنها الناعم، والأفعى الملتفة على رقبتها/ أبياتاً من قصيدة قادش لألن غينسبورغ/ لوحة كتب عليها: "الإنسان المتمدن لا يبصق على الأرض. أنت أيضاً لا تبصق" فكها من مكانها بعد عناء كبير ذات ليلة عندما كان مخموراً/ صورة فيتغنشتاين التقطت له قبيل موته/ مقابله تماماً صورة باهتة لأوتو واينغر/ الملصق الذي جثم فيه الرجل العنكبوت فوق أحد برجي مركز التجارة العالمي يتفرج على المدينة/ بجانبها مباشرة صورة انفجار الطائرة الثانية التي اخترقت البرج الثاني في أيلول عام 2001/ كلمات أغنية من This Mortal coil/ صورة نيزن توفيق معلق في رقبته لوحة كتب عليها "لا شيء"/ قصاصات جرائد حول روبي فولر/ ورقة الامتحان الانتقالي التي كتب عليها أستاذ التشريح بقلم أحمر جاف: "قابلني فوراً"/ صورة حاسوب باهتة للساحر زردشت يقابل وجهه في الحديقة عمل ليونارا كارينغتون/ تكوين باللصق لعلب أدوية عامة، وعلب كسانكس بشكل خاص/ إعلاناً وجده مصادفة في شوارع حي الفاتح، وعندما لم ينجح بانتزاعه عن الجدار من دون أن يمزقه، قصد العنوان، وحصل عليه من صاحبه بالذات، وفيه إضافة إلى صورة هوية لفني ختان ضخم البنية، نص جاء فيه:

---

[*] "يمكن أن تكون حياتي مختلفة"...... الكاتبة.

"لا تعبثوا بمستقبل ابنكم. الختان يتطلب حساسية. نحن الحساسون. دعوا أعمال الختان التي تودون القيام بها لنا"/ أغلفة شريط تسجيل لكينو سجله في يوم ما/ صورة قطار الرماد- العظام- القطران المتحول إلى قبر جماعي لأربعمئة شخص في مصر بتاريخ شباط 2002/ ملاحظات والتر بنجامين المأخوذة من **يوميات موسكو**/ تشكيلاً من رسوم أغاني البراءة للفنان وليم بليك/ كاريكاتورات سلجوق المقصوصة من مانير دي فوير/ إحدى صور فرويد وهو مسن لا ينظر إلى العدسة/ بطاقات بريدية لمدينة برشلونة/ بطاقات بريدية لمدينة اسطنبول/ صورة عائلية التقطت في محطة قطارات حيدر باشا قبل ثلاث عشرة سنة بالضبط/ قصاصات ورق كتب عليها أرقام هواتف أو ملاحظات هامة/ العقد الفضي المعلق برأسه حجر شفاف له عروق سوداء أهدته إياه ناتانالي إن لم يكن من حبها له، فلأنها ضجرت من حبه.

في الحقيقة إنه عندما انتقل إلى هنا ألصق على الجدار مثله مثل المدنيين كلهم الصور والملصقات التي يحبها. ولكن غابا شهد حالة من السوء في الطريق من سويسرا إلى تركيا في المقطورة المربوط بها، ونبح نباحاً فظيعاً كأن لحمه يتقطع، وكما أنه لم يشبع رغم وضع الطعام أمامه كل عشر دقائق، وتوترت أعصابه إلى أقصى درجة فور ملامسة قوائمه الأرض وسط الزحام في اسطنبول، فما عاد يعرف على من سينبح، ونتيجة مضغه كل أنواع الورق منذ دسه في هذه الشقة الصغيرة إما بسبب جوعه أو شوقه للوطن اضطر سيدار للتوقف عن هذه الممارسة فوراً. ولم يكن أمامه مناص من تعليق رسومه وملصقاته إلى الأعلى قليلاً. ولكن "إلى الأعلى قليلاً" كانت لا تكفي عندما يكون الموضوع موضوع غابا الذي يزيد طوله عن متوسط الطول في تركيا عندما يقف على قائمتيه الخلفيتين. وهكذا لملمت الصور والملصقات كلها أغراضها ولوازمها، وهربت كما يهرب اللاجئون من الحروب الدائرة في بلدانهم، أو من الأسلحة الكيميائية التي يستخدمها الطغاة متسلقة الجهة الشمالية، حتى إنها في النهاية قطعت حدود الجدران، وتدفقت جماعات إلى أراضي السقف. وسر سيدار من هذا التجديد غير المتوقع حيث طور هذا الأمر مع الزمن، فملأ ما

فوقه بكل ما جذب انتباهه من مواد كتابية أو بصرية. ومع نمو هذه الفوضى يوماً بعد يوم، انتشرت كما تمشي عريشة وقحة في الأعلى بسرعة، وتسللت في الآونة الأخيرة إلى سقف المطبخ من جهة، وإلى سقف الحمام من جهة أخرى.

عندما يلف سيدار سيجارته، ويتمدد على ظهره فوق الأريكة، تبقى عيناه مسمرتين في السقف لساعات طويلة. الدخان الدائر في دمه يركل الكريات الحمراء التي تظهر أمامه، ويتحرش بالكريات البيضاء متقدماً بأقصى سرعة، وعندما يصل في النهاية إلى شرايين المخ بمعنويات القائد المنتصر، يبدأ السقف بكسب حيوية رائعة. في زمن كهذا تتلون صورة ويتغنشتاين السوداء والبيضاء أصلاً، ويطفح وجهه بلون حمرة الشمندر؛ يبدأ الأقزام في كاريكاتيرات سلجوق بالنط والقفز متجولين في السقف؛ يدلّي الرجل العنكبوت خيطاً رفيعاً، وينزل تارة، ويتسلق أخرى؛ الهالات التي في رسوم بليك تُضاء وتنطفئ كأنها تعطي شيفرة؛ ساحر كارينغتون الأقرع يذوب في وجهه زائلاً؛ يسحب ثأر غويا غطاءه مسفراً عن وجهه؛ تظهر ابتسامة قاسية على وجه فني الختان؛ ثديا هيجيا تنزلان وتصعدان بانفعال؛ تمحى الوجوه تدريجياً من الصورة الملتقطة في محطة حيدر باشا للقطارات. وقبل مرور زمن طويل يشعر سيدار بانسحاب دمه من عروقه، وقطرتا الطاقة اللتان يمتلكهما من جسده، ويترك نفسه في بحر اللاشعور والخدر والتشوش. وعندما ينكمش غابا عند قدميه، تُدفن الشقة رقم اثنين بصمت مطبق مشكلة مع سكانها تكاملاً لا قصور فيه.

ثمة أمر واحد يفكر فيه سيدار في لحظات كهذه، أو يشعر بالمتعة من التفكير فيه: الموت. لا يفعل هذا عن وعي، فلا وجود للوعي أو ما شابهه هنا. غير هذا، فإنه ليس طبعاً تطبع به عبر التفكير، أو وجده لائقاً به، إنه هكذا منذ طفولته، ومنذ وعيه بالحياة. إنه لا يجد الموت محزناً إلى حد الخوف منه، ولا مخيفاً إلى حد الحزن عليه. إنه يحاول أن يفهم فقط، أن يفهم ما ليس عليه الموت أكثر مما هو عليه. كلما تعرف على أحد، يدفعه الفضول لمعرفة موقفه إزاء الموت قبل كل شيء. عنده أسئلة كثيرة سيطرحها، مثل ما إذا كان يخاف من الموت أم لا، وما إذا كان قد فقد قريباً له بشكل

مفاجئ، وعما إذا كان قد شهد موت أحد لا يعرفه، وعما إذا كان قد سيطر عليه شعور بإمكانيته قتل أحد أم لا... ولكنه لم يكن يستطيع أن يسأل. مضى كثير من الوقت على اقتناعه بضرورة الإمساك بلسانه في هذا الموضوع، رغم عدم نجاحه به في كل مرة. ولكن حبه أو عدم حبه لامرأة، وراحته أو عدم راحته في بيت أحد ما، ومدى الاحترام الذي كنه لكاتب قرأ كتابه، وما إذا كان قد تأثر بإحدى شخصيات فيلم شاهده، وتقييمه لمغن سمعه... مرتبط بمعلوماته حول طريقة موتهم، أو مشاعرهم حول الموت. وكما يمكن أن يقدر واحدة ساقطة لمجرد أنها ماتت جميلة، يمكن ألا يبالي لواحدة محبوبة لمجرد أن نهايتها كانت عادية. يمتلك معلومات عظيمة في هذا الموضوع لأن اهتمامه يثلم معلوماته موقفاً لها، ومعلوماته تثلم اهتمامه موقفاً له. يصنف المعلومات التي جمعها من الكتب والأحداث والناس كلها بعناية، ويرفعها إلى أرشيف الموت الذي أنشأه في زاوية من زوايا عقله. لا ينسى كيف مات أبطال الروايات، ونجوم الأفلام، والأبطال المحليين والقوميين، والفلاسفة، والعلماء، والشعراء، وخصوصاً المجرمين. سبب له هذا الفضول كسب كره مدرسي التاريخ عندما كان في المدرسة الثانوية: **"الاسكندر العظيم؟ آه نعم، عانى الأمرد من مرض باثس: إما أن يكون قد انفجر غيظاً من الوليمة التي أقيمت على شرفه على مدى يومين من بعده، وإما أن قد أصلح حاله."** ولم تكن تعليقاته مختلفة في درس الفلسفة أيضاً: **"ولكن روسو أيضاً تحدث بالخير عن زلزال لشبونة الذي أزهق أرواح المئات في رسالة وجهها لفولتير. قصد أنه ثمة ضرورة لعملية تنظيف كهذه أحياناً، أي على صعيد الكم والنوع للسكان."**

كانت المعلومات التي ينثرها سيدار من حيث يجلس في مقعده تقلب سير الدرس رأساً على عقب. تشوهت عظمة الاسكندر واهترأ صيته بعد علمه أنه مات بالإسهال. وفي هذه الأثناء يتحول روسو إلى إرهابي العصور الحديثة في أذهان الطلاب، وتغور فلسفته في حريق عميق. يُفقد الموتُ صدقَ رجل دين لم يستطع الخروج من بيته صباحاً لتناوله طعام وليمة دينية أكل فيها حتى كاد ينفجر رغم نصحه طلبة علمه كلهم بتطبيق حمية، واحترامَ رجل سياسة عقد

قرانه على امرأة شابة بعد أن قطع الستين من عمره، وعندما دخل إلى الخلوة معها لم يستطع قلبه احتمال انفعاله، وسلطةَ سلطان عثماني مات بالتليف الكبدي رغم أنه كان يداهم الخمارات، ويعلق شاربي الخمر على الأشجار، وقدسيةَ رجل علم دُهس كحشرة عندما حاول عبور الشارع من دون أن ينظر أمامه. حالات الموت في الشرق لا تقل إضحاكاً عن حالاته في الغرب على الأقل. الموت مضحك أصلاً.

"بما أنكم لم تأخذوا تنبيهي للمرة الثالثة بعين الاعتبار، هل يمكن أن تخرجوا رجاء؟"

ولكن المعلمين لا يتفقون معه بالرأي. لم يكونوا يعتبرون الموت مضحكاً. وكانوا يطردونه من الدرس، وعلى عكس الطلاب الآخرين لا يغدو بأعين الطالبات بطلاً. لأن البنات أيضاً لا يجدن الموت مضحكاً.

عندما جاء إلى تركيا أمل بأن يتغيرَ الوضع. مهما يكن فالموت هنا أسهل، وحالات الوفاة أكثر، والحياة أقصر. خيبة الأمل! مُررت قضية الموت من دون اهتمام عند فتح الحديث حولها في كل مرة. شك بداية بأن الأمر يعود إلى ضعفه باللغة التركية، واعتقد أنه لم يستطع التعبير عن قصده. ولكنه انجرف بتعلم اللغة التركية التي كان أبوه يدرسها حتى يوم اضطرارهم للهرب خارج الوطن، إضافة إلى اللغة الكردية التي حاول أبوه أن يعلمها له بشكل غير ناجح لكي لا يبقى عند حدود تعلم الفرنسية فقط في سويسرا، كما أفادت جهود أمه المكثفة التي خشيت أن يتغرب عن لغته الأم، ولذلك فإن لغة سيدار مهما يكن لم تتراجع إلا بضع خطوات على الأكثر خلال السنوات الطويلة التي قضاها خارج تركيا. ولكن التشابهات إلى هذا الحد فقط. حدد بعض الفروق حول الموت بين سويسرا وتركيا. وكتب ما توصل إليه على ورقة، وألصقها على السقف لكي يحميها من غضب غابا.

1. لا يحب الناس في تركيا الحديث حول الموت. (مثل سويسرا)

2. عندما يحكى عن الموت في تركيا، فيُحكى عن الموتى المجسدين أكثر من الحديث عن الموت بشكله المجرد. (هذا مختلف جزئياً عن سويسرا)

3. لا يستطيع الناس في تركيا أن يجردوا الموت. (هذا مختلف كثيراً عن سويسرا)

ولكن اسطنبول على عكس سكانها لا تتكدر ولو بمقدار ذرة عند الحديث عن الموت. إنها جاهزة في كل لحظة للخوض في غمار هذا الموضوع. وفي الحقيقة إنها ليست بحاجة للخوض في غماره، إذا إنها تعيش معه بشكل دائم. في أحد الدروس التي لم يطرد منها استمع سيدار باهتمام إلى أنه في الغرب كان يوضع المجانين في سفن، ويبعدون عن المدن. كان يُشبّه المقابر التي في سويسرا بسفن المجانين: مع فرق واحد هو أن هذه السفن رست، ولا تذهب إلى أي مكان. ولكنها جردت من حياة المدينة إلى حد أن الناس يمكنهم زيارة المقابر متى شاؤوا، ولكن المقابر لا يمكن لها أبداً أن تخرج من السفن، وتختلط بالمدينة. من ناحية اسطنبول فإما أنها نسيت تخصيص سفنها لموتاها، أو أن القبور هربت من السفن، وتوزعت في شوارع اسطنبول وعلى رؤوسها لفاتها، وعلى ذراعيها شواهدها. كانت في كل مكان. وتوزعت على أربع أرجاء المدينة كبذار الأزهار الذي تذروه الريح. فجأة كانت يظهر أمام الإنسان قبر في ساحات الأسواق الأسبوعية التي تنصب في يوم معين من أيام الأسبوع، وفي وسط مراكز التسوق، وعند رأس الزوايا المزدحمة، وفي الأزقة المنحرفة، وفي المقاسم التي يلعب الأولاد فيها الكرة، وفي السفوح المطلة على البحر، وفي الطرق التي يعتبر صعودها بلية، وفي باحات التكايا، وعند زوايا الجدران، وعند أسفل الأدراج، وفي أمكنة غير متوقعة، وهي عبارة عن خمسة أو عشرة قبور مدسوسة بين عدة أبنية أو مقابر. ويمر الناس بجانبها حاملين بأيديهم أكياس التسوق أو شبكات السوق الأسبوعي أو حقائب المدرسة أو ملفات الأوراق أو عربات الأطفال... متراكضين، وماشين ببطء، صائحين، واقعين ناهضين. يقيم الميتون والأحياء معاً في هذه المدينة.

وهكذا قضى سنته الأولى في اسطنبول بعد غياب ثلاث عشرة سنة بزيارة القبور والمقابر من دون انقطاع. وكما تجول لساعات في مختلف الأحياء بهذه النية فقط، فإنه كثيراً ما وجد نفسه يتجول في مقبرة ظهرت أمامه بشكل غير

متوقع أو مندساً بجانب قبر أثناء ركضه من أجل عمل آخر. ولأن مقابر غير المسلمين محاطة عموماً بأسوار عالية، ولا تفتح أبوابها إلى في أيام محددة، فإن زيارتها أصعب نسبياً من زيارة مقابر المسلمين. عندما حاول ذات يوم أن يسأل عن معنى النحت البارز لحبات الرمان المنثورة والكتابة التي على شاهدة قبر رآه في حديقة كنيسة روم، هز الحارس الحنون برأسه إلى الجانبين يائساً. لم يكن يعرف كلمة رومية واحدة. إنه ليس رومياً أصلاً، بل أرمني غروغرياني، فهو يعمل على مدى سنوات خلال أيام الأسبوع في هذه الكنيسة، ويذهب إلى كنيسته أيام المراسم الدينية. منذ ذلك اليوم تخلى سيدار عن الاعتقاد بأن كل من يراهم في مقابر الروم هم روم، وكذلك من يراهم في مقابر اليهود يهود، أو من يراهم في مقابر السريان سريان...

كان التجول في مقابر المسلمين الواطئة الجدران، والمفتوحة الأبواب أسهل. وأكثر هذه المقابر غير معتنى بها. وعلى عكس الاعتقاد السائد فإن الفاني لدى المسلمين ليست الحياة بل المقابر. وخاصة تلك التي تعود إلى زمن قريب، فهي تعطي انطباعاً بأنها يمكن أن تنهض في أي لحظة، وتهاجر إلى مكان آخر. وقد قابل أثناء زياراته لهذه الأماكن حتى الآن أنواعاً متنوعة، وأجناساً مختلفة من الناس. هنالك حراس فظون، رجال دين يقرؤون قرآناً عند القبور مقابل مبلغ من النقود، أطفال قذرون يحملون أباريق ملاحقين الزوار لصب الماء على القبور في محاولة لانتزاع النقود، وقادمون محملين بالسلال مع نساء وأولاد كأنهم قادمون إلى النزهة، وغارقون وحدهم لساعات مستسلمين، وثملون قضوا ليلتهم يشربون في مكان قريب، ونشالون بتكاثرون حيث يوجد زحام، ومحضرو جان يتبعهم نساء صبايا وعجائز مدنيات وقرويات... تعلم مع الزمن أن يميز بينهم. يمكن وضع زوار مقابر المسلمين الدائمين في مجموعتين: القادمون لترك أثر، والقادمون لاقتفاء أثر. الذاهبون لترك أثر هم أولئك الذين يزورون قبور أقربائهم خلال فواصل زمنية معينة، ويغادرون تاركين أدعيتهم، وملء إبريق من مائهم، وأزهارهم، ودموع أعينهم. وهؤلاء أقل ضرراً بالنسبة إلى الآخرين، وهم أناس بحالهم. أما القادمون من أجل

تقفي الأثـر فهم أولئك المنحوسون الذين يجب أن يُخشى منهم. يأتون إلى هنا مـن أجـل غـرض سيسـرق، أو إوزة سـتنتف، أو سـحر سـيعمل، أو علامـات سـتجمع، أي مـن أجـل الـتمكن مـن أخـذ أشـياء ما، ولا يذهبون من دون أن يأخذوهـا. ويدخـل في هذه المجموعة أولئك الذين يحصّلون على مهنة أو نقود أو اعتـبار أو مـاض مـن المقابـر. ومحضّـرو الجان، والمجذوبون، واللصوص... وعلماء النسائية الكنديون أيضاً.

تعـرف إلى عـالم نسـائية كـندي يبحـث عـن قـبر أمـه التركـية مع زوجته الضـاحكة الوجـه الـتي تبدو لا معرفة لها ولو بمقدار قطرة لاستخدامها علاجاً حول الأتراك أو تركيا في إحدى مقابر المسلمين. بعد أن قضى الزوجان الشابان ساعات يفتلون في المقبرة الواسعة مع حارس المقبرة الذي يبدو أكثر منهم هوساً بالأمـر، وكانـا عـلى وشك المغادرة لتجريب حظهما في مقبرة قريبة أخرى، لم يـتحمل نفسـه سيدار، فسألهما عن سبب محاولتهما القيام بهذا العمل. أجابه الـرجل الشـاب وعيناه تبرقان: "لأمنح شجرة نسب لأولادي الذين سيولدون". أمـا زوجته، فشبكت أصابعها على صدرها بنعومة وكأنها تمسك الشيء المدعو شجرة نسب بيديها، ومدتها نحو الأعلى كأغصان، وابتسمت.

تذكـر سـيدار الصـورة ذات شكل الشجرة المؤطرة بإطار عاجي والمعلقة على مدى سنوات طويلة في بيتهم، والموجودة في الخزانة الزجاجية في البهو، وأحد الأغـراض القليلة التي أخذوها أثناء هروبهم إلى خارج الوطن. كان ثمة صورتان عـلى كـل غصـن من أغصان الشجرة الخمسة ليكون المجموع عشر صور، وهي بحجـم حـبة الخوخ، داخل إطارات مدورة. اعتقدت أمه بداية أن تعليق صور أفـراد العائلـة بـدءاً مـن صـور أبـيها وأمها سيكون أمراً جيداً. ولكن لعدم بلوغ العـدد الكلـي العشـرة، ولأن امـتدادها نحـو عـائلات إخوتها سيضاعف العدد أضـعافاً مضـاعفة، صـارت قضـية ملء الإطار كله مشكلة، وفي النهاية أضافت صـورة اثـنين مـن أبـناء إخوتهـا الأحـب في الإطـارين الفـارغين، وبهذا حلت المشـكلة. ولأن الإطـارات صـغيرة إلى أبعد الحدود، كان من الضروري قص كل صـورة بدقـة حيـث لا يبقى منها غير الرأس. وتدلت رؤوس أفراد العائلة على

مدى سنوات ضمن ذلك الإطار الصدفي حتى اقتطفت كالفاكهة المهترئة على شجرة البط وسط الصراخ والنعيب.

**أنا لست منحدراً من الدم ذاته الذي تنحدرون منه. ولادتي بينكم هي مجرد مصادفة. أنا أحد الأولاد الذين أنجبتموهم من أجل أن تقدموا حداءً لمخاوف الموت التي بداخلكم. وأحد الأولاد الذين تركتموهم لقدرهم للشروع بإنجاب ولد جديد عندما رأيتم أنكم لم تستطيعوا الهرب من الموت. أنا أنثر بذوري على الأرض. لا أريد أن أتكاثر مع أحد. أنا أقدس الانتحار، لا أنتم لأنه الطريق الوحيد الذي ينهي الأعمار التي تبدأ مصادفة.**

أضاف للتأنيبات التي سمعها بسبب فضوله للموت واحداً جديداً في اسطنبول. بدل أن يحصل على جواب لأسئلته عندما يسأل الناس الذين يقابلهم للحصول على معلومات حول المقابر التي يراها، أو حول طريقة الوصول إلى المقابر التي يصعب الوصول إليها من الخارج، كانوا يقولون له اقرأ الفاتحة. وتكراره السؤال عند اعتقاده بأنه لم يُفهم كفاية، لم يكن يفيده بغير احتداد الجواب الذي تلقاه. وهو لم يكن يقرأ الفاتحة. ولا يعرف أساساً كيف تُقرأ. وكما لا يعرف الكثير عن الإسلام، لا ينوي التعلم. كان يعتقد أن ديناً من الأديان ليس له الحق بأن يطلب منه الطاعة طالما يمنع الانتحار.

ولكنه رغم هذا ليس جاهلاً بالإسلام بقدر ما يعتقد. كان ينتبه أحياناً إلى أنه يعرف بعض الأمور، ويعرف ما لا يعرفه. لأن الوعي مثل دراجة هوائية تنزل منحدراً بسرعة ضد الريح. تعلق أنواع المعلومات المختلفة التي تحملها الريح به أو تدخل من فمه أو تتداخل بشعره أو تلتصق بجلده ذراتها شاء أم أبى. أدعية مقطعة أو مجزأة، أركان الإسلام، مقاطع من حياة الرسول... يعرفها وإن كان بشكل غير مكتمل. كانوا يقولون بأن اللغة التي تُنسى في الطفولة لا يمكن أن تُنسى أبداً. لم يكن سيدار متأكداً من هذا. ولكنه يستطيع الادعاء مرتاحاً بأن اللغة المتعلمة في الصغر لا يمكن أن تُنسى.

أثناء تجواله على المقابر كان يضطر لترك غابا عند الباب. وعندما يعود يجده إما ينام شاخراً، وإما يتناول الكعك من يد الحارس. كانا يعودان إلى

بيتهما مشياً لعدم وجود النقود من جهة، ولعدم إيجاد سائقي حافلات أو حافلات صغيرة أو سيارات أجرة يقبلون بنقل غابا. وكما لا يذهبان إلى بيوت الآخرين، لم يكن الآخرون يأتون إلى بيتهما. ولكنهما ذات مرة، ذات مرة فقط استضافا زائراً في بيتهما. وهي أنثى أيضاً...

تعرف سيدار إليها في واحد من البارات المفتوحة في شارع الاستقلال. كانت صديقة صديق صديقه الذي تعرف إليه حديثاً. غير لون شعرها النحاسي ثمة خاصتان تلفتان النظر للفتاة: عيناها وشربها الجعة كالإسفنج. عندما أغلق البار، وودع كل واحد الآخر، تبعت سيدار من تلقاء نفسها. عندما رأت البيت عبرت وجهها لحظة دهشة. عندما يُذهب إلى بيت شخص غريب، يُنظر إلى أغراض البيت، ويُحكى عنها، وتُدخل بينهما، ولكن عينيها اللتين ألقتا نظرة سريعة تمشط الوسط من أجل التقاط التقارب المؤسس بين صاحب البيت والضيف عادتا إلى حجرتيهما خاويتي الوفاض. المهم أن غابا كان موجوداً.

لحظة مد الفتاة البسكويت بالبندق التي أخرجتها من حقيبتها لغابا، تدحرج غابا مثل هيلان وبر بينهما. وبعد أن لعق الفُتات للمرة الأخيرة بلسانه ذي البروزات الناعمة الطويل الزهري، قفز نحو الضيفة الكريمة فرحاً للتعبير عن امتنانه. وهو أيضاً لم يكن على علم بوجود أساليب أظرف للتعبير عن الحب مثله مثل الناس الضخام البنيات. وعلى مدى الساعتين التاليتين تدحرجا على الأرض أحدهما فوق الآخر. وعلى مدى هذا الزمن انزوى سيدار في زاوية، وتفرج مستمتعاً على بطن الفتاة الذي يظهر من تحت قميصها المرتفع أثناء التدافع والتقلب مع غابا، وممتعضاً من حيوية غابا هذه غير المتوقعة. بعد ذلك قفز من مكانه مثل رجال حكايات ألف ليلة وليلة الفاقدين صوابهم غضباً إزاء إبداء المرأة التي وضعوا أعينهم عليها اهتماماً بحيوان، وليس بهم، وغاص بينهما، وجذب الفتاة نحوه. كان ثدياها أبيضين كالحليب مثل بطنها. كانا يرتجفان متوجسين أثناء تقبيلهما.

عندما أغلق على غابا باب الحمام قبل قليل كان يتشقلب ورأسه إلى أسفل من السعادة التي وصلت إلى ذراها. ولأن مزلاج باب الحمام مستعصٍ، وقفله

مكسور فقد نجح في كل مرة بإنزال الذراع، والخروج إلى الخارج. وبعد أن جره سيدار وعرقه يتصبب دماً عدة مرات إلى الداخل، خطرت بباله فكرة تثبيت ذراع الباب بربطه بالماسورة الغليظة المار طرفها من وسط البهو. وخبط غابا قوائمه على الأرض في الداخل من دون جدوى. تحول نباح الاستغراب وشخير الغضب الذي كان قبل قليل إلى نباح حاد في النهاية. لم يصدر صخباً حاداً كهذا حتى عندما ركب القطار من سويسرا. لم يفهم سيدار شيئاً من ممارسة الحب لأن الفتاة في البهوٍ تشارك غابا حزنه أثناء صراخه في الحمام. فنهض من فوق الفتاة ثملاً كخصي.

عندما فكا الحبل بدا كأن الذي يتسلق الباب ليس غابا، فهو يستمر بالاضطجاع بجانب تواليت الحمام من دون حركة أو اهتمام. قاطعه. بقي في ذلك اليوم، واليوم الذي تلاه، والذي بعده مقاطعاً له. لم يدعه سيدار لحظة، وحتى إنه تخلى عن النقود التي وضعها على جنب من أجل فاتورة الكهرباء، وحمل إلى البيت الأطعمة الأحب إليه. لم يأكل أياً منها. وفتح منخريه وأغلقهما من دون رغبة، ودار دورة حول اللحم والجبن والسجق، وأغمض عينيه المسبلتين، وتمدد بجانب تواليت الحمام. ولم يعد إلى حالته السابقة قليلاً إلا بعد أن شم رائحة لحم الأرنب المقلي التي استهلكت نصف فاتورة الماء. وقابل سيدار تلمظ الكلب بفرح كأنه يستمع لثناء مسكر. فقد خاف أن يفقده على مدى الأيام الثلاثة هذه إلى حد أنه قرر ألا يُدخل إلى هذا البيت فتاة وما شابه.

ولم يُدخل أيضاً. والحياة التي يعيشها غير مناسبة أساساً للدخول في العشق وما عشق، فهذا يتطلب حياة موظف بثلاثة رؤوس، يتطلب وقتاً وطاقة ونقوداً. لم يكن معه نقود. ومن أجل التخلص من انحرافاته حول الموت، فإن عام 2002 هو الزمن الأنسب لإكمال الدائرة من كثرة الاثنين إلى عدمية الصفر، ومدينة الزلازل اسطنبول هي المكان الأنسب لتكون فيها رائحة الموت تزكم الأنوف مثل لشبونة في القرن الثامن عشر. ما يشغل بال سيدار الذي يحمل غضبه مثل ورم يحبس تضخماً في المكان الذي يصطدم بالماسورة الصفراء القذرة العابرة من وسط البهو هو أنه يحضر نفسه للموت قريباً.

# الرقم 9: هيجين تيجين وصو

تقسم عملية تنظيف البيت إلى قسمين: القادمة من الأمس ذاهبة إلى الغد، وتلك التي ليس لها أمس أو غد. وهاتان تختلفان إحداهما عن الأخرى بحسب أسبابها من جهة، وتأثيرها من جهة أخرى، إلى حد أن وجود إحداهما ينفي مجرد ذكر الأخرى. ولهذا السبب فإن النساء اللواتي ينظفن البيوت ينقسمن إلى قسمين أيضاً: التقليديات القادمات من الأمس للذهاب إلى الغد، وصاحبات المواقف المعارضة الجذرية اللواتي لا أمس لهن، ولا غد.

أثناء تنظيف النساء التقليديات القادمات من الأمس ذاهبات إلى الغد بيوتهن يعين بأن هذا التنظيف ليس الأول، ولن يكون الأخير أيضاً. لأن التنظيف الذي ينظف الآن هو حلقة مهمة، ولكنها في الوقت نفسه عادية جداً، من سلسلة طويلة تتقدم بفواصل منتظمة. فقد نُظف التنظيف الأخير قبل أسبوع فقط (أو خمسة عشر يوماً)، وسيُعاد من جديد بعد أسبوع (أو خمسة عشر يوماً). وهكذا فإن كل يوم تنظيف هو مطابق تقريباً للذي سبقه، وجزء من عمل روتيني لا يمكن أن يتغير. ويبدأ دائماً بالشكل نفسه، وينتهي

بالشكل نفسه أيضاً: تمسح النوافذ، وتنفض البسط بداية/ وتكنس الأرض، ويُبدأ بالغرفة نفسها دائماً/ يُمسح غبار الأغراض مع أولوية عدم تغيير أمكنتها/ يمنح المطبخ عناية خاصة/ تؤخذ فرصة الشاي والطعام في الوقت نفسه تقريباً دائماً/ وفي المرحلة الأخيرة، بسبب الدخول إلى الحمام، والخروج منه لمختلف الأسباب مثل تغيير الماء الذي في الدلو، وتبديل مواد التنظيف، ونشر الغسيل المغسول، ووضع غيره في الغسالة، لابد من تمريره تحت اليد ليكتمل التنظيف. ويُعرف مسبقاً أي عمل سيأتي بعد أي مرحلة، لأن كل شيء هو نفسه في كل زمن مهما كان. ولأن ارتباط النساء التقليديات بالماضي قوي إلى أبعد الحدود، واعتمادهن على المستقبل هو رخو بالقدر نفسه فلا بأس من ترك النواقص المتبقية من التنظيف إلى يوم تنظيف لاحق. لنفترض بأن زجاج الثريات لم يُلمع، أو أن الأغطية لم تُنشَ في تنظيف هذه المرة. لا ضرر، يمكن تدارك الأمر في المرة القادمة.

تنظيف النساء التقليديات ليس فعالية تعمل باسم المحافظة على نظام البيت، بل هو النظام ذاته.

أما النظافة بالنسبة إلى المعارضات الجذريات اللواتي لا أمس لهن، ولا غد، من النساء القليلات عددياً جداً بالنسبة إلى الأخريات، وأكثر تشتتاً من الناحية العقلية، فهي مطلقة ولا مثيل لها. وحتى إذا كن قد عملن تنظيفاً قبل خمسة عشر يوماً، أو أسبوع، وحتى يوم واحد، فإن هذا لا أهمية له ولو بمقدار ذرة. ولعدم وجود ولو جسر معلق واحد بين يومي التنظيف، فإن تنظيف الماضي يبقى في الماضي. لهذا السبب فإنهن ينظفن بيوتهن وكأن تلك البيوت لم تنظف من قبل أبداً. ينخرطن بالعمل وكأنهن بعد زمن طويل سينظفن لأول مرة كوخاً فاحت رائحته، وتعفن، وتحول إلى مأوى للحزن، لم يأو أحداً غير الجان على مدى نصف قرن، وجعله في حالة يمكن أن يُعاش فيها. من الصعب تحديد متى يبدأن التنظيف، ومن أين بالضبط يبدأن، لأن أي شيء يمكن أن يحركهن، وفي أي لحظة: بذرة بطيخ أصفر ملتصقة بجانب مفتاح الكهرباء، شحار على الستائر، آثار تكلس حول المغسلة، دهون طعام ملوثة غطاء طاولة، سائل منسي

متعفن في قعر كأس، قطعة طين جفت على الأرض... ومرقُ مرق أي تفصيل يمكن للمعارضات الجذريات أن يحفزهن على تنظيف شامل بشكل مفاجئ. ولعدم وضوح نقطة البداية، وكيف سيتقدمن، وعدم معرفتهن حتى أنفسهن بهذا، فإن عمليات تنظيفهن تختلف الواحدة منها عن الأخرى. وفي الحقيقة إنه يمكن ألا يكون لفكرة التنظيف مجرد وجود في عقولهن في اللحظة الأولى. يمكن أن يجدن أنفسهن ينظفن المطبخ عند محاولة جلي الكأس، وينظفن الحمام كله عند محاولة فرك المغسلة، وينظفن البيت كله عند مسح مفتاح الكهرباء. فهذه عمليات تنظيف لا مستقبل لها كما هي لا ماضي لها. لا يحول فيها أي شيء للغد، ولا يمكن أن يتحول. تنظيف كل بيت بالنسبة إلى التقليديات عمل واحد، وبالنسبة إلى المعارضات الجذريات فهو فريد.

لا علاقة للسبب الرئيس لعمليات التنظيف التي تقوم بها النساء المعارضات الجذريات بوضع البيت في حالة من النظام، بل عدم النظام المسيطر على البيت.

كانت هيجين تيجين من المعارضات الجذريات. لعلها كانت هكذا منذ القديم، ولكن تطرفها خلال السنوات الثلاث الأخيرة وصل إلى أبعاد مقلقة لمن حولها. وكما يمكن لها أن تقلب البيت رأساً على عقب في وقت مناسب أو غير مناسب، وبمساعدة خادمة مياومة أو من غير مساعدة، يمكن أن تكون أحياناً على العكس من هذا تماماً، إذ يأخذ منها تنظيف بقايا الدهن المندسة في فجوة مقبض المقلاة يومها كله. بقعة أو صدأ، غبار أو شحار، فضلات أو فتات، عفن أو قذر... ليس عندها أي احتمال لرؤية شيء من هذه الأمور أبداً. في الفترة الأخيرة اعتادت على فتح النافذة وإلقاء أي غرض تجده غير نقي بما فيه الكفاية، أو تشعر أنها لن تستطيع تنظيفه. ولإيمانها بأن القذر عبارة عن استيلاء ميكروبي، فما تريد التخلص منه في لحظات مفاجئة كهذه ليست الأغراض التي ترميها، بل المكروبات المنتشرة منها في الحقيقة. لا تستطيع البقاء لحظة حيث يوجد قذرة صغيرة لأنها تنتج خلال دقيقة واحدة ثلاثة أو خمسة أضعاف ميكروباتها. وهي تلقي فوراً وعاء الميكروب هذا خارج بيتها.

وسبب معرفة كل الجوار عقدة هيجين تيجين بالنظافة إن كانت لهم علاقة بها أم لا، وليس سكان بناء قصر بنبون فقط، هو مصادفة وجودهم لحظة نثرها بعض الأغراض من النافذة. ألقت بداية قدراً علق بأرضه طعام محروق عندما أدركت أنها لن تستطيع التغلب على الحرق الداكن المهين لبياض الأرز في قعره رغم فركها له بسلك الجلي طوال اليوم. بعد ذلك رمت بساطاً قديماً عندما سيطر عليها شعور قلق من أنها لن تستطيع التخلص من الغبار المتعلق بشراباته رغم نفضها لها على مدى ساعات. وكثيراً ما حدث أن ألقت ألبسة شكت بنظافتها رغم غسلها لها في الغسالة عدة مرات. وهذه الحركات خلوية من المنطق مثل قيامها بعملية التنظيف. وكما يُنسى تماماً غرض قُذف، وتُرك لقدره في الحديقة، يحدث أنها أرادت استرجاعه بندم عميق. ولأنها لم تخرج من الشقة رقم تسعة أبداً على مدى أربعة أشهر تقريباً، فتقع عملية النزول إلى الحديقة في أوضاع كهذه على عاتق ابنتها أو زوجها أو التي تأتي في ذلك الوقت للعمل مياومة.

ثمة شخص واحد يفهم لغتها، ويتحمل إيقاعها: مريم. وهنالك علاقة ذهاب وإياب بينهما مستمرة منذ زمن طويل. كانت هيجين تيجين تجعل مريم تقاطعها نتيجة إسماعها عبارات غير مناسبة، أو عقدٍ لا تحتملها، رغم أنها لا تبرد لها همة عند وجود تل من أعمال التنظيف أمامها، ولكنها حساسة إلى أبعد الحدود نحو المعاملة التي تلقاها. عند ذهابها تجلب عدة خادمات مياويات بشكل متعاقب، ولأن كل قادمة تدفع إلى البحث عن سابقتها بسراج، فتسقط بعد فترة وراء مريم متحرقة ومتوسلة، فترضيها بالرجاء وإبداء الامتنان من جهة، ورفع أجرتها من جهة أخرى، ويجري كل شيء عبر بداية جديدة. عيش هذا التكرار الذي لا يخيب مرة أخرى قبل فترة قريبة، وفي النهاية وقعّت مريم وقفاً لإطلاق نار جديداً. نجحا من ناحية النجاح، ولكن تقدم حمل الوحيدة الأكثر ثقة بنظافتها أشعر هيجين تيجين بالقلق. من الواضح تماماً أنها ستترك العمل ليس بعد وقت طويل، بل بعد عدة أسابيع على الأكثر.

ولكن بقاء رائحة الزبالة الحامضية التي تلف بناء قصر بنبون من دون مريم تقلق هيجين تيجين أكثر. لم تشعر أبداً حتى الآن بندم كما تشعر به اليوم لأنها لم تسمع كلام أبيها وأمها قبل سنوات، فتزوجت من زوجها الحالي، ولهذا السبب حُرمت من إرث لا يُستهان به، ومن رفاه اعتادت عليه حتى ذلك الوقت. تزداد تعاستها مع ازدياد رائحة الزبالة يوماً بعد يوم. عندما تفتح عينيها صباحاً، وتشم رائحة الزبالة، تغدو كأنها ستتقيأ، فتهرع إلى النوافذ، وتفتحها كلها مقرقعة لها، وفي هذه الأثناء يستثار عند المارة من الأسفل شعور بأن أشياء ما سترمى من الأعلى، ولكنها تعود لإغلاقها كلها عندما لا تفهم إن كان فتحها يقلل الرائحة أم لا، وتتكرر هذه الحركة عشر مرات على الأقل في اليوم.

أعصاب هيجين تيجين المتوترة إلى أبعد الحدود في الفترة الأخيرة بسبب رائحة الزبالة، تقطعت وتراً إثر وتر بعد أن قرأت الرسالة التي أرسلتها إدارة المدرسة. المعلم الذي دون الرسالة يرجو عدم إرسال صو إلى المدرسة حتى التأكد من خلوها من القمل لأجل سلامة بقية التلاميذ. منذ ذلك الوقت والغسالة تعمل من دون توقف، وتُنقع ألبسة الفتاة بكلور حاد الرائحة، وتستمر في البيت حملة تنظيف محمومة. جنود هيجين يخوضون حرباً لا هوادة فيها على عشرات الجبهات ضد عدو صغير لا يُرى بالعين، وولود إلى أبعد الحدود. وكانت تلك تعد بالمئات، وفي كل مكان. كل واحد منها يتمترس في مكان مختلف عن الآخر: مواد تنظيف للزجاج تختلف عن التي للمعادن، وتختلف عن التي للخشب، وتختلف عن التي للرخام، وتختلف عن التي للسيراميك، وبعضها تستخدم بخاً، وأخرى تنقيطاً، وأخرى تترك لتجف؛ وتستخدم فراش للتواليت غير التي تستخدم للمغاسل، وغير التي تستخدم لحوض الحمام؛ ومعالج كلس، وصدأ، وبقع مختلفة؛ وملمع بلاط، وملمع فضة، وفاتح مغاسل، ومضخة تواليت؛ وخشية من تعلقها بخرطوم المكنسة الكهربائية تركب له رؤوس مختلفة من أجل الغبار، ومن أجل الستائر والأرائك والسجاد والزوايا، ومصفيات الهواء، ومكانس الضغط، والممسحات، ومجارف الكناسة، والدلاء، والفراشي، وإسفنجات وأشرطة سيف للسطوح

القاسية مختلفة عن التي للحساسة، مختلفة عن التي للجلي؛ ومواد تنظيف ذات رائحة صنوبر وليمون وليلك ومحيطات؛ مطهرات تحرق الأنوف؛ خرق مسح للأرض، وأخرى للجدران، وأخرى للغبار؛ أقراص النفتالين، ومخدات الخزامى، وأكياس بزات الألبسة، وقطع الصابون... والشامبوات الخاصة المشتراة من الصيدلية تكاتفت جميعها وهي على أهبة الاستعداد للدفاع عن شقة بناء قصر بنبون رقم تسعة من أربع جهاتها.

# الرقم 5: الحاج حاج وابنه وكنته وأحفاده

قـال الـذي في السابعة والنصف مكرراً: "هيا يا جدي، أرجوك" وهو ينظر بطرف عينه إلى أخيه.

انـدس الولـدان الآخـران بالـتلفزيون، ورغـم مـرور عشـر دقائق على نهاية الـبرنامج الذي يتابعونه، فلم يستطيعوا الانقطاع عن الفراغ الذي خلفته المذيعة اللعـوب الـتي عـلى بطـنها وشـم زر وردة. ولكـن الحـاج حـاج اعتبر أن طلب حفـيده الأكبر هو رغبة الأولاد المشتركة، قال: "حسنٌ، لأحكي لكم عن صياد السـمك سـليمان إذن" رافعـاً كـتاب تفاسـير الأحـلام المشروحة الثاني من كتبه الأربعة التي لم يتغير عددها على مدى سنوات طويلة.

"عـاش في ذلـك الوقـت، في عصـر عـثمان، وفي براكة في منطقة زيتونبورنو صـياد يدعـى سـليمان. كـان فقـيراً إلى حـد أن الـنقود لم تمـس يـده حـتى في الأحـلام. ولكـن لديـه قلباً كالذهب. وعاش بحاله بعيداً عن تقلبات المجتمع، ومـن دون أن يسحق حتى نملة. كان العثمانيون في ذلك الوقت يعيشون زمنهم الأسـوأ. وكانـت تلـك مرحلة تسمى مرحلة سلطنة النساء، وتراخت أمور البلد حـتى كـادت تـتفكك. تحـبك جـواري الحـرم ألـف نـوع من الأحابيل يومياً،

ويحفرن حفرة لأي شخص. لهذا السبب أُغرق عدد كبير من الناس الأبرياء. ويرمون الأبرياء الذين يُغرقونهم من نوافذ القصر إلى البحر. وتنتفخ الجثث داخل الماء على مدى أيام، وتعلق بشباك الصيادين أحياناً."

ابتلع الذي في السادسة والنصف من عمره ريقه بدهشة محاولاً التماشي مع الخلط النفسي للحكاية التي يحكيها جده، بعد برنامج الصباح المتلألئ. الفتاة الصغيرة المجاورة له مباشرة أطرقت برأسها إلى الأمام، ودلت شفتها السفلى، وشبكت أصابعها المطلية أظافرها في حضنها متحولة إلى ما يشبه الحجر.

"صيادنا سليمان أيضاً خرج لصيد السمك ذات ليلة. علقت بشباكه مجموعة كبيرة من الأسماك. ولكن قلبه كان رقيقاً إلى حد عدم استطاعته التحمل، فأعادها كلها إلى البحر."

قال الذي في السابعة والنصف: "أيمكن أن يكون صياد كهذا؟"

تابع الحاج حاج الذي ينوي هذا الصباح ألا يتجادل معه قائلاً: "يعود سليمان إلى براكته خاوي اليدين، ولكنه يلاحظ فجأة بروزاً أبيض على سطح الماء. كان الوقت ليلاً وظلاماً، ولكن هنالك ضوء قمر. اقترب، ثم اقترب، ونظر، وإذ بجسد يسبح على سطح الماء. لو كان صياداً آخر لتركه ليكون طعاماً للأسماك، ولكن قلب سليمان لم يطاوعه. وانكب على مجدافيه حتى أخذ الجسد إلى الشاطئ. رفع الغطاء الذي عليه. وماذا يرى حينئذ؟ امرأة شابة جميلة الجميلات. غُرز خنجر ما بين ثدييها تماماً. ولكنك تحسب أنها حية عندما تنظر إلى وجهها. كانت تبتسم بطلاوة حيث لا تبدو أنها غاضبة أو حزينة أبداً من قتلتها. شفتاها حبتا كرز، رموشها نبال، أنفها جفنة، أما إذا سألت عن شعرها فهو ينسدل متلوياً حتى قدميها. لم يستطع صياد السمك سليمان أن يشبع من النظر إلى ذلك الجمال."

قُطعت كلماته بصوت رنين الهاتف. أمسك الذي في السابعة والنصف السماعة بيديه اللتين تتقوسان إلى الداخل مع مرور الأيام. **نعم أنهوا إفطارهم. لا، إنهم لا يعملون أي أذى. نعم، إنهم يتفرجون على التلفزيون. لا، الجد لا يحكي حكاية. لا، إنهم لا يفتحون الغاز. لا، إنهم لا يبعثرون أغراض البيت.**

لا، إنهم لا يتدلون من الشرفة. لا، لا يلعبون بالنار. لا، لا يدخلون إلى غرفة النوم. والله إنه لا يحكي حكاية. صمت فجأة. لابد أن شكاً ما قد وقع في قلب أمه جعلها تلح عليه بالأسئلة: "إذا كان جدك يحكي حكاية، فقل: 'الجو حار!' ويكفي، فأفهم أنا". التفت الذي في السابعة والنصف من عمره، ونظر بدقة إلى الرجل المسن الذي ينظر إليه بدقة. وقبل أن يشيح بعينيه عن عينه، أجاب ضاغطاً على الكلمات: "لا يا أمي العزيزة، الجو ليس حاراً."

وضع السماعة مكانها. بعد أن انتظر عدة ثوان مستمتعاً بطعم اللعبة التي لعبها، رفع رأسه الضخم الذي لا يحال دون نموه نحو الخلف بابتسامة مبهمة، وقال: "هيا يا جدي، تابع". ولكن صوته هذه المرة خرج وكأنه صادر من مقام عال يمنح الإذن أكثر من كونه محملاً بالرجاء.

استمر الحاج حاج متابعاً بالقول: "لم يقبل صياد السمك سليمان بإلقاء جثة هذه الصبية الساحرة الجمال إلى البحر من جديد." محاولاً أن يلقي عن نفسه ضيق اضطراره للجوء إلى رحمة حفيده الأكبر: "أخذها، ونقلها إلى براكته. وتفرج عليها حتى الصباح. قهر حزناً. عند الفجر، حفر قبراً عميقاً نسبياً في حديقته. لم يكن راغباً بالانفصال عنها أبداً، ولكن ليس باليد حيلة. الموتى تحت الأرض، والأحياء فوقها. وسيبقى الأمر على هذا النحو حتى يوم الحشر."

قالت التي في الخامسة والنصف من عمرها: "ألم يكن ممكناً عدم دفنها؟"

نط الذي في السابعة والنصف من عمره متدخلاً في الحديث: "ليس ممكناً، ستفوح منها رائحة إذا لم تدفن. تفوح منها رائحة تجعلك لا تستطيعين الوقوف عندها."

قالت قالبة شفتها السفلى أكثر مما كانت عليه قبل قليل: "ولكن المكان هنا أيضاً يفوح برائحة سيئة."

"لعل جثة موجودة هنا أيضاً. هل فتحت الخزانة ونظرت من قبل؟"

هدر الجد الحاج حاج وهو ينظر إلى حفيده الأكبر غاضباً: "لا يوجد جسد، ولا مسد. تفوح رائحة الزبالة فقط. هذا ما سيحدث إذا رمى الحي كله

زبالته عند حديقتنا! ولكنني سأجد حلاً لهذا الأمر باعتباري مديرَ البناء. أنت لا تقلق." وأجلس الفتاة الصغيرة في حضنه، وداعب شعرها. "ثم اسمعْ، الفتاة الجميلة التي في الحكاية لم تمت أساساً. قبل أن يدفنها الصياد سليمان، قال لنفسه لأخرج الخنجر من صدرها. ولكن المرأة تأوهت عندما أخرج الخنجر. وإذ بها لم تكن ميتة. كان الخنجر قد وصل إلى العظم فقط، ولم يصل إلى قلبها."

ابتسمت التي في الخامسة من عمرها محاولة إيجاد سلوان بهذا التفسير غير المتوقع. انكمشت مندسة في حضن جدها. وكانت سترتاح أكثر لولا شعورها بنظرات أخيها الكبير إليها.

"مكتوب على جبيننا كلنا متى سنموت. إذا لم يكن هذا مكتوب على لوحها، فلن تموت حتى لو غرز خنجر في صدرها. عندما دبت الروح في المرأة المسكينة، طلبت من صياد السمك سليمان رشفة ماء. بعد ذلك بدأت بالشرح. وإذا بها جارية من جواري القصر. وسلطان السلاطين معجب بها أكثر من الجميع. وتفزرت بقية الجواري من الغيرة. ولأن قلوبهن مليئة بالحقد، وضعن برؤوسهن أن يقتلن هذه البريئة التي لا ذنب لها. واتفقن مع آغا الحرم، وغرزن هذا الخنجر الدامي بصدر المرأة المسكينة الأبيض. حكت المرأة اليائسة هذا وعيناها تذرفان كنبعين. بعد ذلك قالت: 'إذا أعدتني إلى القصر فلابد أن سيدنا سلطان سلاطيننا سيكافئك بذهب يبرق بريقاً'. عندما سمع هذا صيادنا سليمان، أخذه التفكير. لم يكن راغباً بالذهب، وما ذهب. وإذ به كان واقعاً بعشقها. نامت تلك الجارية في تلك الليلة في فراشه. ولكن صياد السمك سليمان نام في الخارج داخل زورقه. في لحظة من لحظات الليل، جاءه الشيطان، ووسوس له ممتحناً، قائلاً: 'لا تأخذ المرأة، وهل تعاد امرأة جميلة كهذه؟ لتكن لك. تبقى هنا، تغسل غسيلك، وتعد لك طعامك، وتغدو زوجتك' هذا ما قاله الشيطان بالضبط."

دقق الحاج حاج بأحفاده صامتاً منتظراً أن يضعوا أنفسهم مكان البطل، ويجروا محاسبة لضميرهم. ولكن بالنظر إلى الابتسامات القلقة التي على

وجوههم فإن الذي في السادسة والنصف من عمره تعلق بجزء الحكاية الواعد ببعد جنسي أكثر من البعد الأخلاقي. أما التي في الخامسة والنصف من عمرها، فقد كانت مشغولة بوضع كلمة جديدة في محفظتها ذات الشريط اللاصق التي تخبئ فيه الكلمات التي تعني الجان، والموضوعة في مكان مختلف من حقيبة المعلومات النحوية المزركشة التي تضع فيها كل يوم كلمات جديدة تتعلمها: جارية. يبقى مرة أخرى الذي في السابعة والنصف من عمره. عندما أدار جده عينيه نحوه، همس بتعبير هازئ: "طبعاً لم يعدها."

قال الحاج حاج: "طبعاً أعادها. سلمها للقصر بيديه. فرح سلطان السلاطين كثيراً. وقال له اطلب مني ما تتمناه. ولكن صياد السمك سليمان لم يطلب شيئاً. خرج من باب القصر كما دخل إليه فقيراً."

خيم صمت للحظة. الذي في السادسة والنصف من عمره قفز على قدميه صائحاً: "جعت!" مدركاً بأن الحكاية قد انتهت. أغلقت التي في الخامسة والنصف من عمرها محفظتها ذات الشريط اللاصق، وقفزت من حضن جدها: "لعبة عثمان أولاً، لعبة عثمان أولاً!" وبينما كان الطعام يسخن على نار هادئة، كوموا الأغطية والمخدات والمفارش التي في البيت كلها وسط البهو، وبدؤوا بنصب خيمتهم. الذي في السابعة والنصف فقط، هو فقط من بين الذين في البيت استمر جالساً من دون أن يخرب قعدته. تناول رواية مرسومة، وكان يبدو كأنه يقرأ باهتمام. ولكن عينيه اللتين بخضرة الطحلب والغاديتين أصغر ومغمضتين قليلاً لعدم تماشيهما مع كبر رأسه، انزلقتا عن الصفحات، وثبتتا على جده مع أخويه. كان كل يوم يزداد كرهه لهم قليلاً.

# الرقم 7: أنـــا

داهـم الـنمل شرفتي اليوم، أو انتبهت اليوم إلى أن النمل قد داهم شرفتي. لا تقـف أبـداً. تذهـب وتجيء على شكل شريط بني بين الثقب المظلم في زاوية الجـدار وفتات قطعة الخبز المحمص بالسجق التي نسيت نصفها على الطاولة الصـغيرة ملـتزمة بأوامـر لا أحـد يسـمعها غيرهـا. لا أستطيع أن أفهم من أين خرجـت، وكـيف صـعدت إلى الطـابق الثالـث. ينبع هذا البناء بمختلف أنواع الحشرات. رافقتني عندما كنت أشرب مساء البارحة.

لابـد أنها تأوهات أبي. إما آهاته وإما جيناته. في الأيام التي فكرت بأنني لا أشـرب مثله، بل مثلي أنا، كنت أؤمن بأن أكبر مشكلة في الحياة عنده هي عـدم معـرفة أن الشـرب هو المشكلة. ومنذ انتبهت إلى أنني أشرب مثله وليس مـثلي، اعـتقدت بـأن المشـكلة الأساسـية هـي ليسـت الشرب، بل عدم معرفة كيفـية الـتوقف عـن الشرب. إنه لم يكن يسـتطيع التوقف، الأمر بسيط إلى هذا الحـد. قـبل كـل شـيء فقـد كـان لا يـرى أين يجب أن يتوقف، أو يكون قد انحـرف كـثيراً عـن طـريقه عندما يرى. كان يضغط على الوقود منطلقاً بأقصى سـرعة فـور تناولـه القـدح بيده. كانت عيناه المتحولتان إلى صحني دم تبحثان

عن شارة طرق على طرف الطريق قبل أن يقطع كثيراً من الطريق. إشارة واضحة، أو تنبيه ملموس: "بقايا حجارة تستعمل بشق الطرق على بعد عشرة أمتار، خفف السرعة!" أو "أرضية زالقة! منعطف حاد! طريق مائل!" كان يشعر بالحاجة لظهور شخص ينبهه، ويقول له كيف يبدو. مهما فعلنا، مهما فعلنا، فنحن من يستطيع عمل هذا. كنا أقرب الناس إليه. قريباه الوحيدان. ولكننا لم نجرب أبداً. كانت أمي، وكذلك أنا نجلس في أمكنتنا على الطاولة معه كل مساء، ونملأ طبقينا بالمقبلات، ونقشر التفاح، ونفرم البرتقال، ونصنع من قشره قناديل، وننتظر ما سيحدث. أقنعت أمي نفسها بأنها يجب ألا تتدخل بأمور أبي عندما يشرب، وأقنعتني أيضاً. كانت تخشاه، ومعها الحق بالخشية منه. ولكنني منذ ذلك الوقت انتبهت إلى أن القضية لا تنتهي عند هذا الحد. وبقدر ما تتألم لشهادتها سقوطه، كانت تشعر بالسعادة بشكل سري. كانت تشعر بسعادة مخصيِّة لرؤيتها له يصرف هيبته التي لا يفقدها ولو للحظة في النهار، ثم ينفقها قرشاً تلو قرش على طاولة المشروب مساء... لهذا السبب كانت تفتح له موائد المشروب بأطباق مقبلات كل منها ألذ من الأخرى، وأطعمة فاتحة للشهية. فوق هذا، تعدها كل مساء... كل مساء تقريباً على مدى اثني عشر عاماً...

لأن أبي كان زائداً... كان وسيماً زيادة، وماهراً زيادة، وعالماً زيادة، ومبادراً زيادة، وأنانياً زيادة، وغافلاً زيادة، وطائشاً زيادة... وكان زائداً على أمي، وزائداً على السكن الرسمي الذي كنا نسكن فيه، وعلى الجيش الذي يعمل فيه، وعلى البلدات التي انتقل إليها، والحيوانات التي لم يستطع شفاءها... وكان زائداً، زائداً كثيراً على الحياة التي عاشها. لا أدري إن كانت قد مرت مرحلة أحببته فيها أم لا، ولكنني أتذكر أنني في زمن ما كنت أباهي به. كنت أباهي به لأنه كان طويلاً. وكان وسيماً، وكثيراً جداً. في تلك الفترة كانت تتجول على الألسن حكايات الذين يخطفهم الغجر، ويربونهم. كنت دائماً أفكر بأن أبي قد خطفته مجموعة ما عندما كان صغيراً، ثم أدمجوه معنا. لأنه لم يكن يشبه أحداً. فهو وسط مجموعة الرجال والنساء السمر، المتوسطي القامات، المذكرة ضحكة أحدهم بضحكات الآخرين، الفاقدين

أحداق أعينهم عندما يضحكون، والدافقين ضوابط حتى في أكثر لحظات حياتهم طيشاً، الصابرين، العاديين، الحذرين، لم يكن منا، ولم يكن مثلنا بطوله الذي لا تتسع له الأبواب، وشعره المتخذ صفرة حارقة تحت الشمس، وعينيه الثاقبتين البنيتين اللتين تدكنان عندما يغضب، والمحاسبتين عندما تنظران إلى إنسان دائماً، ومزاجه المنتقل من طرف إلى طرف معاكس، وهذيانه المبارك بقطيعه، وأخطائه المتزايدة يومياً في خانة الذنوب، ومواقفه الخطيرة.

لو لم يكن أبي وسيماً إلى هذا الحد، وحيوياً، وواثقاً بنفسه، من المحتمل أن تكون أمي أكثر راحة. لا يمكن للسنوات الطويلة هذه كلها أن تشحذ القلق الناقص الكابح للسعادة، وظل الحزن الساقط على العينين حتى وهي تبتسم متأبطة ذراعه في صور خطوبتهما وقد دس في ياقة بزة الخطوبة الزيتية زهرة مانوليا صناعية ضخمة. يجب أن تكون كارهة لازدواجية وجه الزمان. بداية أنا، بعد ذلك أخي، بعده أسقطت حملها مرتين، بعد ذلك جاءت الفتاة التي أرادتها كثيراً، وربتها مدللة، وشبهتها بها تماماً في النهاية... ثمة جانب باعث على الألم لدى النساء اللواتي كن جميلات في وقت ما عندما يذكرن بمزيج من التباهي والخجل أنهن كن جميلات جداً، ويرين صور شبابهن في كل مرة ليكن مقنعات فيما يقلنه كل مرة. الأمر الأكثر إيلاماً هو إيجاد صورة من هذه الصور لدى كل ولد من الأولاد، والصبيان بشكل خاص، وهم أيضاً يرون النساء اللواتي يحببهن كلهن مرة على الأقل تلك الصور بقليل من الخجل أحياناً مصحوب بقليل من التباهي. أما بالنسبة إلينا فلم تلعب أمي هذه اللعبة، ولا أخي وأنا، ولا أدري إن كان هذا بسبب أبي، أو علي أن أقول بفضله.

لو كان أبي من نوعية أخرى أو استطاع أن يكون، فثمة احتمال أن تتقبل أمي بداخلها الوضع من دون الضغط على فناء الشباب مثلها مثل ربات البيوت من حولها كلهن صاحبات الولدين أو الثلاثة المتوسطات الحال، الكابتات سم عقدهن مطلقات له عبر نظراتهن أو ألسنتهن. كن مع أزواجهن طبيعيات. ما هو غير طبيعي حال أبي. كانا متزوجين، وحياتهما وأولادهما ونقودهما، وعشهما، وبوء أحلامهما بالفشل، وماضيهما واحد، ولكن السنوات

عاملت أبي بشكل مختلف عن أمي. أمي أنهكت بسرعة، ولكن أبي بعد سنوات طويلة بقي شاباً وبالقدر نفسه حيوياً كما في صورة الخطوبة. طالما هنالك جمال غير ذابل بأي شكل بجوارها، فلا أستطيع تحميل أمي ذنباً لأنها لم تستطع هضم ذبول جمالها، وذهابه. انعقدت يداها ورجلاها، وغشت العدسات التي تنظر عبرها كلها. ولأن الصور التي تُري الضيوفَ والجيران كم كانت جميلة في وقتها، لا تفيد إلا بعرض عدم التغيير الذي يشهده أبي، وليس التغيير الذي طرأ عليها، فلا توضع ألبومات الصور القديمة في غرفة ضيوفنا نحن فقط، على عكس غرف ضيوف ربات البيوت من حولها كلهن صاحبات الولدين أو الثلاثة المتوسطات الحال، الكابتات سم عقدهن مطلقات له عبر نظراتهن أو ألسنتهن.

أما أنا فلأنني كنت في ذلك العمر مشغولاً بالتباهي بأبي، واتخاذه مثلاً أعلى لي، لابد أن هذا ما جعلني لا أنتبه لهواجس أمي على مدى زمن طويل. كنت أتابع أبي بتباهٍ في كل عمر جديد أحط على غصنه. ومثله مثل العسكريين الآخرين تماماً يتلبس وجهه حدةً مقصودة عندما يرتدي البزة العسكرية. ولكن تلك الحدة يمكن أن تتراخى على عكس العسكريين الآخرين، لأن قصده قابل للانحلال. كان يوحي برؤوس خيوط هذا الأمر منذ النهار. ويبدي كأنه لا يجمد نظراته لأنه يحب أن يجمدها، بل لأن عمله يتطلب مداواة الحيوانات، فعندما يتحسن على يده مهر ناهضاً على قوائمه، أو يهدئ آلام قط سقط في حفرة أُسيد فذاب حنكه، أو يؤمن طمأنينة ابن عرس تعرض لهجوم كلاب، فيتلبس شكلا رقيقاً رطباً مؤثراً مذوباً تلك الحدة ولو للحظة. في تلك اللحظة يكون الاثنان قد ذويا منذ زمن طويل، فيخرجا فوراً من حالتيهما النفسية المتناقضتين النابت عليهما الوبر نضجاً شاعرين بسأمه مما يرتديه. نُوى هذا التناقض موجودة في مهنته ذات الرأسين: البيطرية والعسكرية.

يتراكض طوال اليوم من هنا إلى هناك مثيراً لدى النساء من حوله توقاً ممزوجاً بالإعجاب، ولدى الرجال إعجاباً ممزوجاً بالتوق بهيبته المتخذة نموذجاً يحتذى به، وأثناء إمطاره الأوامر يميناً ويساراً يبدو كأنه يحمل

شخصاً آخر داخل بزته العسكرية كما يحمل فرخ قنفذ لم يستطع معالجته: شخص لا يستطيع ضبط عيار الحزن والفرح، وخائف كالمجانين من الموت، وغير متحمل للعذاب والتعذيب، وغير قادر على استجماع نفسه بسهولة إزاء الظلم، وشاعر بأنه سينهار ذات يوم في مكان ما، وحنون، وقلق، وغير موثوق، ومتشائم وغاضب، وعداوني، ومدمن كحول... وطالما الشمس في السماء، وهو على رأس عمله يعد ناجحاً بإخفاء فرخ القنفذ. وكان في النهار مستحقاً للمديح، والتوق للتشبه به إلى حد أن أمي تحب أن تأخذنا نحن الثلاثة، للتعريج عليه بمختلف الذرائع. الوجود قربه في النهار كان يمتعني، ويمتع أخوتي أيضاً. ولكن مع الأسف إن تلك الأوقات هي أقل الفترات التي نراه فيها، وأقل الفترات التي يرانا فيها. بعد ذلك يحل المساء، وأثناء فقد أبي بريق هالته، وجاذبية سماته، يبدأ بالتحول إلى شخص آخر.

كانت أمي تقوم بتقسيم عمل بحسب تفكيرها لم أفهم سببه في أي وقت. أثناء شرب أبي كان أخي وأختي مكلفين بالفرجة على التلفزيون في الداخل، والنوم باكراً، أما أنا وأمي، فمكلفان بالبقاء على الطاولة، والشهادة على ما يجري. لأن أبي الذي لا يتحمل الوحدة حتى في النهار، وأكثر ما يكرهه في الحياة هو تركه وحده على مائدة العرق، فقد كان هنالك نظام مناوبة ولد تلقائيا بيننا أمي وأنا. النوبة الأولى لي. فور جلوسه إلى الطاولة مساء، أتخذُ مكاني فوراً مقابله. وتكون أمي في تلك الأثناء مشغولة بقلي رقائق العجين الملفوفة سجائرَ، ومزج صلصة الكفتة، ووضع المقبلات والمأكولات التي تكلف الكثير في أطباق زورقية، ونقلها إلى الطاولة. أنا كنت أبقى على المائدة، وأجيب عن أسئلة أبي. كان يسأل دائماً الأسئلة نفسها، ويقطع إجاباتي في كل مرة، ويحكي عما عنده حول الحياة. ولكنني لم أكن أغضب. لم أكن أغضب، لأن حديث والدي في المرحلة الأولى تلك يكون الأمتع. ويغدو مرحاً، ومحدثاً ممتعاً عندما يرفع الكأس الأول بصحتي، ويحتسيه نصفه إلى حد أنني أشعر بالاعتزاز من وجودي هناك رغم معرفتي بما سيجري لاحقاً حرفياً. بعد ذلك تأتي أمي، وتجلس بجانب أبي وعلى وجهها تعبير لا يوحي بما تفكر فيه، وأثناء بدئهما الحديث الهامس

الأحادي الدرجة الصوتية حول مشاكل الحياة، أدخل إلى الداخل من أجل إعداد وظائفي، وأستمع إليهما من الداخل. وعندما أعود إلى المائدة بعد ساعتين أو ساعتين ونصف يكون الوقت قد تقدم كثيراً، وتلفعت عينا أمي بالنعاس، واستُهلك الحديث منذ زمن. وهذه المرحلة الثالثة والأخيرة. المرحلة التي يتفسخ كل جميل فيها بسرعة... المرحلة التي ألمس فيها فرخ القنفذ الدائر بسرعة على الطاولة، والتي أحذر فيها من أشواكه...

عندما أعود أنا، إما أن تبدأ أمي بالتجول داخل البيت وهي تقول لنفسها أموراً ما، وإما أن تذهب إلى عند أختي باكية، تنام معها تلك الليلة، أو تتصرف وكأن شيئاً عكسياً لم يحدث أبداً، فتنكب على جلي المواعين وهي تردد أغنية راقصة بحسب اليوم. ولكنها لا تعود إلى الطاولة مهما فعلت، وتحوِّل إليَّ مرافقة أبي في هذه المرحلة الثالثة. مع أن هذه المرحلة هي المرحلة الأطول بين المراحل الأخرى، وهي الأطول، ومما لاشك فيه أنها الأصعب. يتحول الثلج في دلو الثلج إلى ماء عكر فاتر يسبح فيه رماد السجائر وفتات الخبز، وتبرد قطع الكفتة التي في الصحن وتجف، وتفوح رائحة البصل المفروم ناعماً في السلطة، وتمتلئ منفضة السجائر إلى حافتها العلوية، وتفقد المقبلات الباقية في الأطباق فخامتها، والبطيخ حيويته، وأبي هيبته منذ زمن طويل في هذه المرحلة.

عندما أفكر بعد كل هذه السنوات الطويلة، أستغرب كثيراً كوني الوحيد من بين الإخوة الثلاثة الذي شهد على حالات أبي السافلة، وأنني الوحيد أيضاً الذي انتقلت إليه عاداته السيئة. أخي الأصغر كان يشرب أحياناً المشروب. والسجائر أيضاً لمجرد مسايرة الوضع الذي يعيش فيه. أما أختي فقد صارت في النهاية من تلك النساء اللواتي لا يخطون خطوة إلى الأماكن ذات الدخان، وعندما يحاول أحدهم تدخين سيجارة بجانبها فإما أن تعترض وإما أن تقطب وجهها بحسب درجة القرب منه، وتنظر إلى السكران حذرة، وإلى المدمن قَرِفَةً، أما عند مصادفتها الكحولي فتغير طريقها، وتعتبر كل سكران تراه مدمناً، وكل مدمن كحولياً. وفوق هذا فقد نقلت طباعها المتقرنة هذه كما هي لابنتها

الصغيرة. كلما حاولت إشعال سيجارة أمامهم، تتحرك ابنة أختي كإنسان آلي صغير ضغط على زر تشغيله فترفع أنفها إلى الأعلى قرفة وكأنها رأت فأراً ميتاً، وتقدم كلمة محفوظة عن أضرار السجائر. أما أنا فتتوتر أعصابي إلى الحد الأقصى كلما رأيت الناس، وخاصة الأطفال يتمسكون بادعاءات غير عائدة لهم، ويقدمونها كتعليمات. لا يوجد في بيتها منفضة سجائر واحدة يمكنني استخدامها. يوجد في الخزانة الفخمة المصنوعة من خشب الجوز الموضوعة في البهو إضافة إلى زجاجات المشروب المنوعة، وأقداح لكل نوع من أنواع تلك المشروبات، عشرات منفضات السجائر الخاصة جداً من الخزف، والرخام، والكريستال، والمطلية بالفضة أو الذهب، ومن الحديد، والبرونز، والخشب، وذات الخرز، وذات المنمنمات، وذات رسوم الألوان الطافية، والشبيهة بالتماثيل، والشبيهة بالألعاب، والمخلطة المجلوبة من البلدات السياحية التي زاروها عائلياً، والحاملة شعارات المدن الأجنبية، ولكن الأمر عندما يصل إلى منفضة أريد نفض رماد سيجارتي فيها، فليس ثمة منفضة سجائر واحدة في حيز الاستخدام. أشعر بالفضول. ترى هل كانت أمي تجعلني قريباً من أبي بعيداً عن أخوي كل مساء لأنني الوحيد بيننا نحن الإخوة الثلاثة أشبهه، أم أنني تشبهت به لأنني الوحيد بيننا نحن الإخوة الثلاثة الذي تشبه به لأن أمي كانت تجعلني قريباً منه بعيداً عن أخوي كل مساء؟ ومن الممكن طرح السؤال على النحو التالي: هل قبلت دعوات أبي — أ لأنني في المرحلة الثالثة من مائدة المشروب عندما تظهر النهاية أتركه مخيباً آماله، وكلما جلسنا إلى المائدة ذاتها بعد ذلك أخترع عذراً للتغيب، أم أننا أولاً وأخيراً حلقتان من سلسلة الجينات نفسها– أم بسبب الجينات النملية المجتهدة من تفاصيل التشابهات المتقدمة من دون توقف على شكل شريط منتظم بتأثير شيفرات محددة مسبقاً.

كنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة على ما أعتقد. عندما أصيب أخي الأصغر بأبي كعب، حُجرنا معاً في البيت، وأطعمنا زيتوناً برياً من دون توقف، ولا ننهض عن الأريكتين اللتين تمددنا عليهما متقابلين إلا للذهاب إلى المرحاض، وتسمرنا لأيام ونحن نتفرج على برامج التلفزيون. البطلة في أحد

الأفلام المحلية التي شاهدناها كانت تبصق دماً على منديل أبيض كالثلج مطرزة أطرافه بالإبرة، ورغم أنها خسرت الرجل الذي تحبه سراً لأختها، لم تظهر شيئاً، وتصاب بالسل في النهاية، وتغدو طريحة الفراش. عندما قال لها الطبيب القادم إلى البيت بأنها ستموت قريباً، ضحكنا ناثرين مسحوق الزيتون البري المائل إلى الصفرة من فمينا. كان الفيلم مضحكاً ببؤس، وهو غير واقعي بالقدر ذاته، وعائداً إلى زمن بائت، وبعيداً بمقدار فراسخ عن الإقناع. شُيب شعر التي على الشاشة بالطحين، وزرِّق تحت عينيها بالقلم، والاعتقاد بأن أبي مات بالتليف الكبدي قبل ستة أشهر مقنع بقدر ما هو مقنع أن الممثلة الشاحبة البشرة ستموت بالسل. ومع الاقتراب من نهاية الفيلم عادت أمي من السوق ومعها أختي. ولأنهما لم يصابا حتى ذلك الوقت بأبي كعب، كان عليهما أن يبقيا بعيداً عن أخي. رغم هذا لم تتحمل أمي. جاءت وعلى وجهها ابتسامة حنان، وجلست بيننا. وضعت يدي أولاً ثم يدي أخي بين راحتي كفيها، وقالت بصوت متعثر ولكنه من دون انفعال بأنها ستتزوج عما قريب. عندما نجحت المرأة المسلولة بنزول الدرج متمسكة بالحماية الحديدية رأت الرجل الذي تعشقه على وشك أن يعقد قرانه على أختها وسط عدد من المدعوين الأنيقين، وكحت بشكل صاخب وهي تسقط على الأرض. ضحكت مع أخي نافخاً كل منا مسحوق الزيتون البري بوجه الآخر، وضحكت أمي معنا. نظرت أختي الواقفة بالباب نظرة مليئة بالدهشة إلى أمي، وبعد ذلك غرقت بدموع عينيها، وخرجت من البيت. نحن ضحكنا مرة أخرى. لم تضحك أمي هذه المرة. أحنت وجهها الغائر التقاطيع المحاط بشعر خرنوبي، ومخطت مطولاً بالمنديل الأبيض الثلجي المطرزة أطرافه بالإبرة. لعله لم يكن ثمة منديل أو ما شابه، وبقي الأمر في ذاكرتي على هذا النحو لأنني أردته هكذا. مسحوق الزيتون البري الذي نثرناه منذ فترة حتى تلك اللحظة أقلع من الأرض تحت تأثير هبة ريح مفاجئة، ومثل عاصفة ثلجية تهب من الأسفل إلى الأعلى تصاعد غضب تدريجي وسط الغرفة، ودار ثم دار حتى غدت العين لا ترى مغرزها، ثم هطل ناعماً مصفراً فوقنا. كان كل شيء غير واقعي ككل شيء.

عندما يموت أحد أفراد العائلة بشكل مفاجئ فإن الأغراض الآيلة منه تجعل الموت، والرب الذي يجعل الموت أمراً عادياً، والبيت المعيش فيه لا واقعياً. ولأن أخوي قضيا وقتاً محدوداً مع أبي في البيت، وشاهداه محاطاً بأغراضه وعشه أقل بكثير، يجب ألا يكونا قد شعرا بهذا الوضع بقدر ما شعرت به أمي وأنا. ولكن عندما يحل المساء، وتوضع السفرة، وتنهض أمي بشكل لا إرادي لتحضير اللوازم مثل كل يوم، وأجلس في المكان نفسه وفي الساعة نفسها بوعي مهمة بائتة، كانت أغراض أبي تمنعنا من تقبل أن الفراغ الجالس على الكرسي مقابلنا هو الموت، أما الموت فهو واقع. ليس إبريق العرق الأخضر ذو البلبلة، أو محفظة الجلد المحفور عليها رأس حصان، أو قداحته المفضضة المتعثرة دائماً رغم تغيير حجرها وملئها بالغاز دائماً، أو علبة النشوق التي يضع فيها حبوب مسكن الألم المشغول عليها بشكل بارز بوم خمري الجناحين بنفسجي الجسم ولا يبدو نحساً ولا رمزاً للحكمة لأن عينيه فيهما حور، بل طالما بقيت هذه الطاولة والكراسي، والبهو والبيت على ما هي عليه، وطالما لم نذهب نحن من هنا، فسيبقى لموت أبي جانب غير حقيقي. نظرنا في النهاية، فوجدنا أننا لن نستطيع الخروج من هذا البيت، ولا نستطيع التخلص من تعكير الذهن، فقمنا أمي وأنا بتعاون سري من دون أن نبدي هذا لأخوي، وألبسنا شبح أبي الجالس معنا مساء إلى الطاولة ألبسة، وفصلنا له كسوة. ولكن هذا التصرف المتوقع منه أن يقرب أحدنا من الآخر في ظروف أخرى، سيفرق طرقنا في النهاية بالتأكيد.

لأن ما فعلته تخريباً للعبة. أثناء خدمتها شبح أبي الجالس إلى الطاولة، رسمته كما أرادته في ذهنها، وعلى لسانها، وليس كحقيقته. كانت ربة بيت ماهرة دائماً. كنست خصائص زوجها الميت التي تكرهها، ولا تعجبها، ولا تريدها خارج وعيها بسرعة كبيرة. عندما أنهت التنظيف في النهاية، ألبست الثياب التي فصلتها للفراغ الذي خلفه أبي، فجلس إلى الطاولة رجل يعمل طوال اليوم مفكراً بسلامة عائلته، وترفه الوحيد هو الجلوس مساء مقابل زوجته، وشرب قديح أو قديحين من العرق، وإذا كان عنده أذى فلنفسه، لا

يـتأفف أو يتذمر أو يشتم، وعندما يفعلها فلا يفعلها حقيقة، ولكن مجرد كلام، ولا يـتغير كأنه لا لون له أو بريق. أحبت أمي هذا المرحوم المزور، وآمنت به من كـل قلـبها إلى حـد أنهـا عندما قررت أن تتزوج مرة أخرى بعد ستة أشهر، فإن الزوج الذي اختارته لنفسها زوجاً مثيل الشبح الذي على الطاولة بالضبط.

خـلال تلـك الفـترة مـن الـزمان جمعـتُ مـا كنسَته أمي من وعيها في أكياس خـيش. وفعلـت هـذا نتـيجة غضـبي مـن أمـي أكـثر من ارتباطي بأبي. ولكنني بالنتـيجة وجـدت أن الشـبح الـذي نصبته بـيدي فاتحاً أكياس الزبالة المربوطة أفواهـا بقـوة، والموضـوعة أمـام الـباب كيسـاً تلو كيس، ومتبنياً الذكريات غير المحببة التي فيها كلها، لم يكن أقرب من الآخر إلى الواقع. الحقيقة أن أبي لم يكـن نخـبويا بقـدر مـا أقنعت أمي نفسها به، ولا تافها كما ادعيت مقابل هذا. رغـم هـذا فإن كلاً منا تمسك بخديعته معانداً. لا تُعد خديعة بالكامل، كنا نستر شـبه كذبـنا بشـبه صدقنا فقط. كنا– أمي وأنا– يهرب كل منا من الآخر بقدر ما يسـتطيع، وأثـناء هربـنا يحاول كل منا أن يدَّور نصف دائرة جاهداً. صار هناك قـبران لميـت واحـد في الوسط: في أحدهما دفن الرجل نفسه نهاراً، أما في الآخر فدفن ليلاً. عندما نريد تذكر أبي، تزور أمي أحدهما، أما أنا فأزور الآخر.

بعـد سنوات طويلة تحدثت لي آيشن عن رؤيتها أكثر من مزار للولي نفسه في الحـي نفسـه، وعـدم استهجان أحد لهذا أثناء قيامها برفقة زميل إنكليزي بدراسـة ميدانـية في ثـلاث مـناطق مـن اسـطنبول لبحـث طـريقة إدارة الحياة اليومية للإسلام الشعبي. أنا أيضاً لم أستهجن هذا.

وصـادفت تلـك الأيـام عـدم تحملـي إلحـاح آيشـن وأمـي عـلى الـتعارف، وارتكابي خطأ جمع إحداهما بالأخرى. أثناء عودتنا إلى البيت في ذلك المساء، لم تسـتطع آيشـن أن تـربط بـين "بابـا" الـتي سمعتها مني حتى ذلك الوقت، و"زوجـي الأول" التي سمعتها من أمي طوال اليوم، فاستنتجت كما يُستنتج في أوضـاع كهـذه بأن أحدنا يكذب، وحتى إنها وصلت إلى نتيجة مفادها أن هذا الأمـر قـد عمل معها بقصد. وبعد محاكمة عقلية قصيرة أجرتها حول شخصية المـرحوم الحقيقـية الـتي اعتقدت أن أمي نفخت بها بحسن نية، وشوهتُها أنا

بسوء نية، توصلت إلى قرار أنني أكذب، وأنني فعلت هذا لإثبات "أن وضعي" محق فقط.

المقصود بوضعي هو ازدياد استهلاكي للمشروب كل يوم عن الذي يسبقه. أما ما لا تعرفه آيشن، ولن تحب معرفته هو أنه لم يكن عندي مشكلة كهذه حتى تزوجت. أنا لا أتهمها، ولا أتهم الزواج. لم أكن أستطيع تحديد نقطة بداية أساساً. الأمر الوحيد الذي أعرفه هو أن حياتي بعد فترة من الزمن رسمت كناية دائرة، وعادت إلى البداية، وأنا وجدت نفسي على الكرسي الذي كان أبي يجلس عليه في زمن ما، وبحاله. رغم هذا كان ثمة فروق مهمة بيننا. لم تكن آيشن تشبه أمي. لم تجهز موائد لي مثلها، ولم تبق سلبية أمامي. فقد أخذت الأمور على محمل الجد، وقاطعتني؛ سكبت لغة حلوة، وقاطعتني؛ أبدت تفهماً، وقاطعتني؛ غضبت، وقاطعتني؛ هددتني، وقاطعتني؛ أهانتني، وقاطعتني؛ بقيت بجانبي، وقاطعتني؛ حملت نفسها ذاهبةً، وقاطعتني؛ عادت، وقاطعتني... جربت كل الطرق التي تعرفها على شكل مقاطعة متكررة لي. وأنا جربت معها بقصد كسب قلبها. كنت أشعر أنني شاكر لها، وخاصة في البدايات. كنت أضغط على نفسي لأفكر قدر الممكن بشكل بسيط. فأنا باعتباري شخصاً شاعراً بسعادة سرية لرؤيتها مثل أمي تعوق زوجها، كنت أعتبر أن مداخلاتها دليل قوي على أن زواجنا ليس مثل زواج أبويّ. سار كل شيء على مدى أربعة أو خمسة أشهر على ما يرام انطلاقاً من هذا الإحساس والهوس. قللت المشروب بشكل كبير. ولكن هذا التقدم المستحق التقدير جعلني قبل مرور وقت طويل منافساً رئيساً لنفسي. كلما بالغت بالكمية، أشرب أكثر قليلاً فجأة. وفي النهاية أؤنب نفسي كلما شربت لأنني لم أظهر النجاح الذي أظهرته من قبل، ويقشعر جسدي قرفاً. كانت تقول آيشن: "نحن نعرف أنك تستطيع القيام بأفضل من هذا. نعرف، أليس كذلك؟"

يشبه ضمير نحن هذا الذي في محل فاعل السائل الكثيف الشديد الحموضة المخبأ داخل سكرة نمصها بشكل لذيذ، وتنفرط فجأة في فمنا وتنتشر فيه. وهو في الوقت نفسه يشبه المصهور البركاني. مثل مصهور بركاني حارق وكاوٍ متعلق

بالفتوحات، ينتشر في الأرجاء الأربعة كأنه ينطلق من كل مكان وينتمي إلى كل مكان بشكل سافر، ويسحق تحته كل ما يظهر أمامه من دون استثناء أو تمييز، رغم أنه ينطلق من منبع واحد ومطلق، مغطياً ساحة حياة حتى لا يبقى أي وجود لغيره. هكذا يتكلم الرب في الكتب المقدسة. فهو يخاطب بضمير نحن أثناء حديثه عن عمليات الخلق والإزالة والعقاب والثواب كلها. والأمهات أيضاً يتكلمن على هذا النحو مع أولادهن. يسألن مثلاً: "هل جعنا؟" أو يقلن: "لا تنظروا إلى أننا نعمل مشاغبات كهذه يا عم، في الحقيقة إننا مهذبون جداً." ورغم أن القرارات المتخذة والخيارات المحددة تعود إليهم بالكامل، فليس ثمة أنانية ووعي مختلفان أحدهما عن الآخر، فيضيفون الوجود الآخر إلى حدود وجودهن كأن هناك تكاملاً مصمتاً ولا متناهياً. معادلة نحن التي يخاطب فيها الله في القرآن، والأمهات أولادهن، وآيشن في موضوع القرآن هي ليست (نحن= أنا + أنت) بل (نحن = أنا + كل ما هو ليس أنا). وهكذا من غير الممكن البقاء خارج نحن كهذه.

ولم أستطع البقاء أنا أيضاً. تركت المشروب مرات عديدة بداية بدأبٍ وبشيء من النجاح، بعد ذلك بهوس هدأ قليلاً، وبعده بدأب مكبوح، وفي النهاية تقريباً وأنا عارف حق المعرفة بأنني لن أنجح. حضرنا في كل مرة جداول زمنية معاً: جداول زمنية تعتبر فيها الأيام أهم من السنين، ولكنها لا تعني شيئاً وحدها، ويقاس فيها الزمن بالوعود غير الملتزم فيها، ومحملة فيها المهل بالإشارات والرموز والأيمان. كنا نحضر بالمسطرة على الورق مربعات منتظمة راسمين جداول شهرية. كنت أقنع آيشن بصعوبة بالغة بمحو اليوم المستهدف في الجدول، والبدء من جديد بدل إظهاره كبقعة على الورقة. كل حادثة تافهة أو فرصة مناسبة جداً، أو يومٍ خاص غدا ميلاداً في جداولي الزمنية. عندما قدمت الدكتوراه، وفي أعياد رأس السنة، في عيد سيلادي الثالث والثلاثين، عند هطول أول ثلج في السنة، عندما نفذنا سالمين معافيين من حادث سير جعل مقدمة السيارة هباء، في ذكرى زواجنا، في عيد ميلاد آيشن الحادي والثلاثين، عندما علمت بإصابة الأستاذ المشرف على أطروحتي

بسرطان الرئة، ليلة اليوم الذي تشاجرت فيه مع أختي صائحين وقاطع أحدنا الآخر، عندما تلقيت خبر وفاة عمي زوج أمي، يوم الحديث في أوساط متنوعة حول ضرورة معرفة قيمة الحياة، في رحلات هرب خارج اسطنبول، وعلى الطرق، وفي البيوت، وفي الحفلات، وفي الفنادق، وعلى الشواطئ... أنظر في عيني زوجتي وأقول تركت، ت ر ك ت، ت ر ك ت المشروب.

كنت ناجحاً ولكن ليس بالقدر الكافي. ولأنني نجحت بترك المشروب أسابيع ذات مرة، فهذا يعني أن كل كأس شربته يعني التراجع خطوة إلى الوراء. كنت نفسي المثال المقدم لي، والشخص المنزلق من بين يدي كالصابون ضائعاً، ولم أمسك به بأي شكل رغم ملاحقتي له، ولا أسيطر عليه أبداً حتى لو أمسكت بزيقه، ولم أستطع تكرار نجاحه هو أنا. وكيفما كان فقد بدأت الأمور تتعقد كثيراً. بعد فترة بدأت حتى آيشن تخلط في تحديد عيار ما هو كافٍ، وما هو زائد. واعتباراً من تلك النقطة، تعكرت أسباب المداخلات. وسبب إجباري على التسابق مع نفسي لم يعد قلقها على صحتي. فقدت الكلمات والأفعال معانيها الأولية، وصار كل شيء مؤشراً على شيء آخر بطريق غير مباشر. الجداول الزمنية الآن هي عبارة عن مقاييس ضغط. كانت آيشن تقيس مقدار حبي لها بعدد الأيام التي أمتنع عن الشرب فيها. مع أنه عندما يكون الموضوع موضوع حب، فإن الأرقام والنسب لا تفيد إلا بالتخريب. كثير هي صفة عاجزة في كل مكان يؤمن بوجود أكثر منه. أحب آيشن كثيراً. ولكننا كلانا نعرف أننا يمكن أن نفعل أكثر. ثمة سوء فهم في مكان ما، فقد فهمت مرة بأنني يجب أن أترك المشروب تماماً وليس تخفيفه؛ وأنني لن أنجح بهذا الهدف إلا بحبنا، وأنني إذا فعلت هذا فإنني سأفعله "من أجل خاطرها". حوصرت. لا أعرف كيف غدا المشروب الذي أرادت أن أخففه من أجل صحتي في البداية، ثم أن أتركه تماماً كرما لخاطر علاقتنا، بعد ذلك لا أدري كيف صار قضيتها وليس قضيتي.

في تلك الأيام شطبتُ إشارة ضرب حمراء دفعة واحدة على الجداول الزمنية. ومصادفة فإن هذا الميلاد الواقع في الثاني والعشرين من الشهر الثاني

مختلف عن تواريخ الميلاد السابقة من زاويتين: الأولى: كنت أترك شرب المشروب بشكل علني، ولكنني الآن أعلن ترك شرب المشروب. الثانية: التزمت بقسمي هذه المرة حتى النهاية على عكس أيماني السابقة. ولم آخذ رشفة مشروب واحدة أمام آيشن منذ 2001/2/22 حتى 2002/2/28 تاريخ طلاقنا في جلسة محكمة واحدة من دون أي مشكلة. وبما أنني لم ألتق بها منذ ذلك التاريخ، فأعد أنني مازلت ملتزماً بقسمي.

تتبعت آيشن هذا التطور الطارئ علي بفرح ممزوج بالدهشة لفترة. ولكن خلال فترة قصيرة أخذ الشك مكان الفرح. ولكنها لم تحاول في أي وقت أن تتمادى للعمل على إظهار الحقيقة، ولم تعمل أيضاً على القيام بعمل التخفي. ورغم أنها تتبع كل خطوة أخطوها عندما أكون أمام عينيها، لم تحاول ولو مرة واحدة معرفة ما أقوم به نهاراً في الأراضي الخارجة عن رقابتها. لا أدري إن كانت آيشن قد فكرت بالولي ذي القبرين أم لا في تلك الأيام، ولكن دائرة كنايتي دارت مرة أخرى، وتقمصت شخصيتين مختلفتين في نصفي اليوم المختلفين كما كان يفعل أبي تماماً. ولكن هنالك فرق واضح. كان أبي يصبر في النهار، ويشرب ليلاً. أما بالنسبة إلي فقد دار النظام بشكل عكسي لضرورة الظروف: كنت أصبر ليلاً، وأشرب نهاراً.

لا يؤوي جسد الإنسان ساعة تدور من اليمين إلى اليسار فقط، بل يمكن أن يؤوي ساعة تستطيع الدوران من اليسار إلى اليمين أيضاً. القضية ترتبط بكيفية ربطنا لها. اعتدت على النظام الجديد بشكل جيد خلال أسبوعين على الأكثر. عدم انتظام ساعات العمل في الجامعة نعمة لا يمكن أن توجد بسهولة. لا أفوت الفرص السانحة أمامي في النهار، وأتجول شارباً دائماً. وفور ذهابي إلى البيت مساء، أصحو كأن دلو ماء مثلج قد سُكب علي. أصبر ليلاً، وفور ذهاب آيشن إلى عملها صباحاً، أبدأ بالشرب بعد الإفطار مباشرة. بحسب التحليل الأخير فإنه لا فرق بين النهار والليل: من أجل تخليص واحد من آخر بشكل لائق، فثمة حاجة لتخريب الآخر، أو أثق بإمكانية تخريبي له على الأقل. ولم يكن هذا النظام مضراً بمعدتي ولا برأسي على عكس ما كنت أخشاه. لعل الإنسان يستطيع أن يعتاد على كل شيء طالما أنه لا يؤمن بوجود أفضل منه.

ولكنني أثناء تأسيسي هذا النظام الجديد تجاهلت وجود طبيعة خاصة لكل شيء. ثمة ما كان يعرفه أبي على مدى تلك السنوات. فساعات النهار غير مساعدة على التخفي، ولا على حفظ الأسرار. تحميل أسرار الليل للنهار مستحيل مثل تحويل الخروف إلى ذئب، أو توقع البرودة من شمس الصيف، أو جعل طفل ينسى شتائمَ تعلمها. وهذا ليس لأننا طوال النهار نغدو مندمجين مع الناس، أو متسلطين على رؤوس البعض، أو مسؤولين عن بعض الوظائف، أو أننا أمام الأعين، بل ثمة نحس مختلف تماماً في النهار. المدينة لا تتحول إلى غابة داكنة صاخبة في الليل بل في النهار. أضع بعض فتات الأسرار في جحر شجرة دون أن أظهر نفسي لأحد، وفور التفافي للعودة، أكون قد أودعتها لمخلوقات الغابة الماكرة الصامتة التي لا أعرف من أين خرجت، وإلى أين هي ذاهبة. إذا أدرت وجهي إلى أي جهة، أرى مئات العيون الرامشة تحت أشعة الشمس تحاصرني من بين الأغصان، وثمة حزمة ضوء حادة تنبعث من أربع الجهات تجعل معرفة من ينظر، ومن أين، وكيف ينظر أمراً مستحيلاً. وفي ذلك الضوء المدوخ أترنح وأنا أخطو عدة خطوات مثل مصاب بقصر النظر فقد نظارته. ورغم سماعي مجموعة أصوات هامسة لا أستطيع تمييز وجوه المتكلمين بها بأي شكل. أشعر أحياناً بأن الآخرين منتبهون لفواح رائحة المشروب مني، وثقل لساني أحياناً، أو تشتت انتباهي، ولكنني لا أستطيع تحديد مدى انتباههم بالضبط.

في زمن كهذا جاءت إثل إلى وسط نهاراتي، وحلت بكل ثقلها. لم يكن أحدنا يرى الآخر منذ سنتين. بعد أن فقدت عازفها على الناي، ورأت أنني تزوجت من آيشن، ونفثت سمها بقدر ما تستطيع متداركة انكشافها، ذهبت إلى أمريكا لتقيم هناك بعد تعرفها إلى جراح مخ باكستاني لامع وعصبي. وعادت فجأة كما ذهبت في وقت صادف أنني كنت بحاجة ماسة إلى واحدة مثلها. كنتُ قد نسيت أن متعة إثل الكبرى في هذه الحياة هي السير على سجاد لا يقدر بثمن بحذائها الملتاث بالطين في صالونات فخمة تعود لنساء درسن معها في المدارس نفسها، وقضت جزءاً مهماً من شبابها معهن مثل

آيشن. ولكنها تذكرت. لم تتأخر بالانتباه إلى أنني مبتلى. أما عندما انتبهت فلم تلمني، ولم تحاول مسائلتي، ولا عكرت جوابها بأسئلة صادرة عنها. ومن أجل تمكني التجول في الغابة التي تحوي عيونا لا أجساد لها، وأصواتاً لا وجوه لها بأقل خسائر ممكنة دست بيدي خارطة محضرة بمهارة لا أعرف حتى اليوم على أي تجربة حياتية اعتمدت باستنتاجها. كانت تلك خارطة تقنية أكثر من اللازم: فرصٌ لشرب كحول قصيرة موزعة بحسب ساعات عملي، أنواع المشروبات الثقيلة الموضوعة في حافظات حرارة ويمكن شربها برشفة واحدة، قصاصات تشبه قصاصات الغش بالامتحانات كتب عليها بماذا يمكن تغطية رائحة كل نوع من أنواع الكحول، الأدوية المقوية ومضادات الحموضة والفيتامينات والمعادن المساعدة على تمكني من استجماع ذاكرتي، وحبوب الأنغينار التي ترضي كبدي... وبعزيمة مدرب قفز فجأة إلى السطح يوماً ما يحضر عداء محدود الإمكانيات ولا محدود الخيال لمسابقات دولية، وجديته حضرت لي البرنامج الأصعب المتاح في ظل الظروف القائمة. وفعلت أكثر من هذا. خلال تلك الفترة من الزمن شربت معي في كل فرصة سانحة، ورافقتني.

أحد أكبر مظاهر تعاسة الحظ التي يمكن أن تقع لامرأة متزوجة في أثناء بحثها عن سبل الاستباحة بالقوانين التي فرضتها والقواعد التي وضعتها، هو ظهور امرأة أخرى يمكن أن تكون شريكة بالذنب في حياة زوجها. بعد أن تحققت مصادفة كهذه مرة، وجدت نفسي في صالون محاط بمرايا متعرجة. مرايا كذابة تظهر إثل أقرب مما هي عليه، وآيشن أبعد مما هي عليه. ولكن نتيجة كل هذا لم تكن منتفخة بقدر ما توقعت. مهما يكن فإن السبب الذي جعل آيشن ترفع دعوى الطلاق بعد أشهر لم يكن إثل، ولا بلواي التي أظهرت كل تلك المشاكل.

# الرقم 8: الخليلة الزرقاء

جلست الخليلة الزرقاء في العشرين دقيقة الأخيرة من دون أن ترفع عينيها عن شريط الدهن الأحمر المنساب من الفروج الشركسي المخروبة زينته، والمأكول نصفه. لم يكن يطلع بيدها شيء. لم تكن تريد حتى مجرد الكلام، فكيف المعارضة والمعاندة، ثم إنه ليس ثمة ما يقال. حوصرت في أصعب زاوية من زوايا التي تكون خليلة.

أن تكون خليلة رجل متزوج تعني معرفة أكثر مما يجب أن يُعرف، وعدم معرفة ما تفعله بالفائض من هذه المعلومات التي تعرفها. تعرف الخليلات أكثر الأسرار المخبوءة والمخجلة لبنات جنسهن اللواتي لم يلتقين بهن من قبل، ولعلهن لن يلتقين بهن فيما بعد. الزوجات لا يعرفن أي شيءٍ عنهن، وحتى إنهن في أغلب الأحيان لسن على علم بوجودهن أصلاً، ولكن الخليلات يحصلن على معلومات متنوعة بمقدار ملء أحضان حول الزوجات منذ فترة طويلة. تفاصيل شوكية ومتعالية ومرضية... إذا كن معتادات على طلي وجوههن بالدهون قبل النوم في الليالي السابقة، فإن الخليلات يعرفن حتى رائحة تلك الدهون. إنهن يعرفن ذائقتهن باللباس، ودرجة تعلقهن بزينة

الوجـه، وأي نوعـية مـن الأمهـات هـن، وأي نـوع مـن الحلي يضعن، وكيف يـتحركن داخـل البيـت، ومـتى يـنمن، ومـتى ينهضـن، وعـاداتهن بالطعام، وفضـولهن الدائم، وعقدهن الثقيلة، وبرودتهن الجنسية، وبوجه من يضحكن، وبحـق مـن يتكـلمن مـن الخلف، ازدواجيتهن الصرفة، عقدهن المتكدسة اثني عشـريات، مقاسـات أجسادهن، وما يمكن أن تكون عليه ردة فعلهن إذا عرفن بوجودهـن، فـوق هـذا فإنهن لا يعرفن حتى واحدة من هذه الخصوصيات عبر سـؤالهن بشـكل مباشـر. لا يسـألن لأن الخلـيلات لا يذهـبن إلى عـند قدمـي المحـرمات، بل أسرار المحرمات هي التي تأتي إلى عند أقدام الخليلات. لأن الـرجال الـمتذمـرين من زواجهـم منـذ زمن طويل، ولكنهم رغم هذا لا ينهون زواجهـم، ويريـدون الـبدء مجـدداً من دون فـقـدان مـا بـأيديهـم يطلقـون عـناوين عريضـة تحريضـية مثل الجرائد اليومية التي تريد تهييج قرائها وهي مهـتاجة مـن أجل إثبات العذاب الذي يعانون منه في حياتهم. من يتكلم بحق الزوجات طالعاً ونازلاً بإطلاق عبارات رديئة وبما لا يمكن أن تصدقه الزوجات هـم أزواجهـن بالذات، وليس خليلات أزواجهـن. الخليلات مستمعات جيدات فقـط. يسـتمعن، وكمـا لا يصـرفن أدنى مجهود من أجل الحصول على المزيد، فـإنهن لا يمـددن أيديهـن إلى كوم المعلومات غير الممتعة تلك الملقاة بأحضانهن طالمـا كـن واثقات من قدراتهن، ومسرورات من تفضيلهن. فقد وصلت خليلات الـرجال المـتزوجين إلى سمـو قلـب الدراويـش. إنهـن يعـرفن أعداءهـن الذيـن يسـتطيعون إغراقهن في ملعقة ماء من دون أن يرف لهن جفن، ويعفون عنهم، ويحمينهم.

ولكـن هـاهي حـتى أخـيل عـندها كعـب، وحـتى يوجد في أطراف أغطية الأطلـس آثـار ثقـوب العـث، وثقـب هواء يطفئ قدرات الخليلات كلهن فوراً. ومـنذ أن يصـبح عـند الـرجال الـمتذمرين من زواجهم منذ زمن طويل، ولكنهم رغـم هـذا لا يـنهون زواجهـم، ويريـدون الـبدء مجـدداً من دون فـقدان ما بـأيديهم خليلات، يحبون أولادهم أكثر مما كانوا يحبونـهم من قبل، وبشكل لم يحـبوهم مـثله مـن قـبل. هـذه محـبة صـادقة، وهـي بـالقدر نفسه مرضية.

وبالطريقة التي يستر فيها الرجل عريه بورقة عنب، يستر رجال المجموعة العليا المتذمرون من زواجهم منذ زمن طويل، ومجموعة الذين لا ينهون زواجهم في واقع الحال، ومن الطبقة الدنيا للذين يريدون التحول من دون فقدان ما بأيديهم كل نواقصهم بمحبة أولادهم. ومع ازدياد عدد خليلاتهم عبر السنين فإن تعلقهم بأولادهم ينتش، ويتفرع أغصاناً بشكل جيد. وكما تضطر حواء للحصول على ورقة من شجرة العنب نفسها، فإن الخليلات مضطرات لحبهم واحترامهم، ويتضاعف شعورهن بالارتباط هذا نحو أولاد الرجال الذين يعيشون معهم تدريجياً، ويغدو أكثر حساسية مع تضاعفه، ومع ازدياد حساسيته يكتسب حصانة.

رفعت الخليلة الزرقاء عينيها اللتين لم ترفعهما منذ عشرين دقيقة عن شريط الدهن الأحمر المنساب من الفروج الشركسي المخروبة زينته، والمأكول نصفه ببطء، ونظرت إلى الرجل المقابل لها بسأم يميل إلى الغضب. ارتفعت حرارة ابنته التي في الثانية عشرة من عمرها، وسقطت طريحة الفراش. عندما حاول أن يؤنب زوجته لأنها أهملت ابنتها، فقد صدته بشكل سيئ جداً: "طالما أنك تحب ابنتك إلى هذا الحد، فلا تذهب إلى خليلتك هذا المساء!" امتقع لون تاجر زيت الزيتون الذي كان يعتقد بأنه نجح حتى الآن بإخفاء علاقته المحرمة عن زوجته حتى الآن. نشب شجار حاد في البيت، وسمعت الطفلة المريضة كل شيء.

نهضت الخليلة الزرقاء عن كرسيها، وعانقت تاجر زيت الزيتون بقوة. قالت بصوت يوحي بالظلم بأنه لا يوجد ما يُقلق، وأن كل شيء سيصلح، وأن ابنته ستشفى عما قريب، وهكذا يمكنه ترميم القلب المكسور بسهولة، لأنها هي أيضاً تحب أباها كثيراً. قالت ما يُتوقع منها قوله بالضبط، من دون زيادة، أو نقص. نظر تاجر زيت الزيتون إلى خليلته بوجه مقطب ومحمل بالامتنان. يبدو الآن مرتاحاً أكثر. سمع ما كان يتوقع أن يسمعه بالضبط.

شيعته الخليلة الزرقاء إلى عند الباب، وهذه أول مرة منذ ساعات يبتسم فيها تاجر زيت الزيتون. ولحظة كان على وشك الخروج من الباب، عانق

الفتاة الشابة بحنان. قال لها: "سلمت يداك" مشيراً بعينيه نحو الطاولة التي تركها خلفه.

قالت الخليلة الزرقاء: "لم أحضرها أنا. اشتريتها كلها من مركز التسوق." من غير أن يفهم من صوتها ما إن كانت غاضبة أم لا.

توقف تاجر زيت الزيتون هكذا لحظة. ولا يفهم من عينيه ما إن كان مندهشاً أم لا.

# الرقم 2: سيدار وغابا

وسط صمت مطبق يخيم على الشقة رقم اثنين ببطء، ويقطعها عن العالم الخارجي منذ المساء يستغرق غابا بالنوم ماداً قوائمة الأربع نحو جهة واحدة. ولأنه لا ينام وسط الصمت فقط، بل فوق شريكه في البيت في الوقت نفسه، فإنه من غير الممكن لسيدار أيضاً أن يتحرك حتى يستيقظ. ولكن سيدار سعيد، ثم إنه سعيد جداً. كان يحب البقاء هكذا، وهكذا فقط وهو يتعانق بهذا الشكل مع أكثر مخلوق يحبه في هذه الدنيا، ويتراخى مستلقياً، سيئ الهندام ولا مبالياً، من دون هدف إلى أبعد الحدود، ومن دون صرف طاقة بقدر ما يستطيع، ومن دون أن يعمل شيئاً، وغير محاول عمل أي شيء. أغمض عينيه، ووجد نفسه وسط حلم يسير ببطء.

غاص بالفرجة غائباً عن وعيه على فتاة شابة لامعة الشعر تشير له بيدها منذ فترة، وهي تشبه إحدى أخواته الكبيرات بشكل مدهش، ولكنها أجمل منها بكثير، أجمل بكثير جداً وسط حديقة واسعة غطت الأعشاب أطرافها كلها، وأحيطت بقضبان حديدية مزخرفة، وتمددت على طولها فوق كرسي بحر طويل مغطىً بستائر غربولية. وكان غابا يغفو عند باب المدخل. ولأنه

يكـره الرسن والربط إلى مكان ما، فمن الواضح أنه سيقوّم القيامة الحمراء عندما يسـتيقظ. ورغم معرفة سيدار ضرورة عدم تركه هنا وحده، دفع باب الحديقة، وولج مـن الفـرجة المفـتوحة في الـباب مـن دون أن يـرفع عينيه عن الفتاة. من ناحـية الخضرة فقد كانت الحديقة من الداخل خضراء أكثر مما بدت عليه من الخـارج، ولكـن الـبركة الـتي في وسـطها جافـة تماماً لسبب ما. نهضت الفتاة عـلى قدمـيها مبتسـمة، ورأى سـيدار فجـأة أن الفـتاة أطـول منه، وأطول منه بكـثير. فـوق هـذا كان طول الفتاة لا يتوقف. إنها تطول باستمرار نحو السماء. نظـر سـيدار مرتـبكاً إلى قدميها. في قدميها حذاء له كعبان يكادان يرتفعان عن الأرض بمقـدار خمسـة أشـبار تقريـباً. ترنحـت الفـتاة فجـأة، وأثناء محاولتها المحافظـة عـلى توازنـها، اصطدمت إحدى قدميها بقوة بالأرض. صدر صوت: "طـاق". قـال سـيدار: "لا تفعلـيها!". ولكـن هـذه الكـلمة يجـب أن تكـون قـد أحدثـت ردة فعـل معاكسـة مـثل أمر استفزازي؛ فبدأت الفتاة تدبك على قدمهـا هـذه تـارة، وعـلى تلـك تارة أخرى خابطة الأرض بكل قوتـها: "طاق، طاق، طاق".

قال سيدار قلقاً من استيقاظ غابا: "لا تفعلي هذا. هل أنت مجنونة؟ أوقفي هـذا." التفـت، ونظـر نحـو الـباب. ولكن الباب ذا القضبان الحديدية الهائل الحجـم الـذي كان قبل قليل مواربا مغلقٌ الآن من جهة، وبعيدٌ جداً من جهة أخـرى. وبيـنما كانت الفتاة مستمرة بالقفز خابطة بقدميها "طاق، طاق، طاق" وقـع مـا خشـي مـنه سـيدار. نـبح غابـا بشكل يكاد يمزق نفسه. بعد أن رمق سـيدار الفتاة بنظرة مليئة بالغضب، بدأ يركض نحو الباب مرتبكاً. وفي الوقت نفسـه وجـد نفسـه يركض نحو الباب مترنحاً في الشقة رقم اثنين من بناء قصر بنـبون. كـان هنالك صخب يخرش الآذان. كلما نبح غابا، يهتز الباب، وكلما اهتز الباب، ينبح غابا بشكل أسوأ.

عندما فتح الباب في النهاية، وجد أمامه محمداً الذي يجعل ركلاته تتكلم. بعـد أن رمقـه الولـد مـن فـرقه إلى قدمـه، مد نحوه طبقاً مغطى بمنديل مائدة. وقال مبدياً موقفاً لا مبالياً: "أرسلت لك المدام خالة هذا."

ألقى سيدار عنه سكرةَ النوم بسرعة، وابتسم متراخياً. الأمر الذي يعمله ممازحاً لأصدقائه صار حقيقة. الحلوى التقليدية التي تعدها الخالات الجارات، ثم توزعها على الأبواب باباً باباً، قد لحقت به في النهاية، كأنه جاهز لنوبة حلو غير متحملة بعد أزمة حامضية. كانوا يسمون هذا فيما بينهم "ولوج التقاليد خارج التقاليد". شَكَرَهُ كالمجانين من الفرح، وفور تلقفه الصحن، أغلق الباب بوجه الولد. وقطع غابا نباحه لأنه التقط رائحة احتمال مجيء طعام إلى البيت، أكثر من مجيء الطعام ذاته إلى البيت، ورفع أنفه إلى الأعلى منتظراً. غمزه بعينه بدلال، ورفع منديل المائدة عن الصحن، وتجمد سيدار فجأة من الحيرة. ما أمامه ليست حلوى وما شابه، بل قطعتا معمول بالدقيق. قطعتا معمول بالدقيق سحقت أطرافهما قليلاً، ورش فوقهما سكر مطحون. استدار وجه سيدار، وشحب لونه.

تذكر.

# الرقم 7: أنـــا

أثـناء جلوســي في الشرفة مساء وأنا أحتسي المشروب، قالت إثل: "لماذا لا تفكـر بحـل مـن أجـل إيقـاف هـذه الأمور؟" وهي تجاوز أظافرها المطلية اليوم بلـون المشـمش الجـاف حديـد الشـرفة. عـندما نظـرت بملـل نحو المكان الذي أشارت إليه، رأيت المرأة التي ترمي زبالتها عند سور الحديقة.

هـززت كـتفي. لم يعـد مفـيداً لـو فتحـت الـنوافذ أو أغلقتها. تغدو رائحة الـزبالة أكـثر وقاحة مع الحر بقدوم كل يوم جديد. إذا تعرض الإنسان لرائحة كهـذه في الشارع فإنه يحث الخطا، وإذا كان في السيارة فيغلق النوافذ. أما إذا كـان البيـت الذي تسكنون فيه تفوح منه رائحة كهذه، وإذا كان الصباح الذي تستيقظون فيه، والليل الذي تنامون فيه، والجدار والباب والنافذة، وكل مكان تلتفـتون إلـيه يفـوح بـرائحة كهذه فهذا يعني أنكم سقطتم في الفخ. لا يمكنكم الخـروج من مدى الرائحة. ليس ثمة حل، ولا إمكانية إيجاد حل. كلما عدت إلى البيـت مسـاء كل يوم أجد تلاً صغيراً على شكل كتل من الزبالة. ينتظرني كـل مسـاء تـل صـغير مـن الزبالة يتألف من أكياس زبالة مرصوصة وبمختلف

المقاسات تحمل شعارات مراكز التسوق والبقاليات المجاورة مربوطة الأفواه بقوة، ولكن لسبب ما تكون كلها مثقوبة من الأسفل، وصناديق من المقوى مرمية عشوائياً، وأغراض أغلبها مهلهلة مهترئة من يعلم لأي بيت كانت تعود في وقتها، وغيمات ذباب أسود تصدر أزيزاً مثيراً الاشمئزاز حاطة على مياه البطيخ الأحمر وفتات الطعام، ومقلعة من عليها. والقطط أيضاً... عشرات القطط التي تغفو طوال اليوم فوق أكياس الزبالة وداخلها وتحتها وبجانبها، ويتزايد عددها يوماً بعد يوم، ضعيفة وسمينة، قادمة وعابرة، ومقيمة وسط الرائحة النجسة.

أتفرج على التطورات في تل الزبالة قلقاً من الشرفة في مختلف ساعات اليوم. يمتلئ المكان في الأسفل بالزبالة قبل الوصول إلى الظهر، وتُضاف زبالة فوق الزبالة حتى المساء. وفي وقت قريب من إظلام الجو، يأتي غجريان أحدهما شاب، والآخر مسن مع عربتيهما اليدويتين، وينبشان مطولاً في الأكياس. يملآن العلب المعدنية والجرائد والزجاجات في أكياس مختلفة، ويأخذانها. ثمة حركة قارضة تعتمد على تكرار نفسها بشكل مستمر في الأسفل: تنهش القطط ما وضع الذباب عينه عليه، ويضع الغجر عينهم على ما نهشته القطط، وما يزيد عن الغجر تأخذه شاحنة الزبالة التي تأتي إلى الزقاق عند ساعة الانصراف من العمل، وما تنثره شاحنة الزبالة يعبث به مرة أخرى الذباب والقطط والنوارس. ورغم وجود كل هذا العدد من الزبائن، فإن تل الزبالة المكوم عند أسفل جدار الحديقة لا يزول أبداً. مهما حدث، مهما حدث فهي تنقص قليلاً في الليل، ولكن الجديدة تأخذ مكان الناقصة بسرعة كبيرة، جالبة معها رائحة الزبالة تلك الحامضية الكاوية للأغشية المخاطية، الكثيفة التي لا تشبه أي رائحة أخرى.

قلت: "ماذا يمكنني أن أفعل؟ هل أذهب لأناوب أمام الجدار؟"

قالت منهية كأس عرقها قبلي مرة أخرى: "افعل شيئاً يجعلهم لا يرمون الزبالة هنا مرة أخرى. هيا يا حلو. شغّل عقلك. أنت يمكنك أن تجد شيئاً ما."

استندت إلى الخلف، وأشعلت سيجارة. النمل غير موجود هذا المساء لسبب ما. أثناء امتزاج الدخان الذي زفرته مع الهواء، خطرت ببالي فجأة، وبشكل تلقائي فكرة صغيرة، صغيرة بقدر قملة.

# الرقم 2: سيدار وغابا

أثناء فرجته على غابا وهو يلعق بقايا المعمول بالطحين بلسانه الزهري ذي النتوءات الصغيرة، انزلق سيدار إلى يوم من أيام طفولته في اسطنبول. كان في الشارع، ويندف الثلج. ذهب أفراد العائلة كلهم إلى عند جدته لزيارتها كما يحدث صباح كل يوم سبت. ولكن هذه المرة كانت زيارتهم أقصر من كل مرة لسبب ما. ومنذ مغادرتهم بيت المرأة العجوز، تأبط أبوه وأمه ذراع أحدهما الآخر، وخطوا خطا مترددة كأنهما يدفعان عنهما عمل سخرة، وهما يناقشان أموراً ما متمتمين مكمكمين من دون أن يرفعا صوتيهما. كان سيدار الذي لم يتوقع أحد أنه سيطول ويضعف إلى هذا الحد في تلك الأيام مثل رأس ملفوف مغطى طبقة فوق أخرى، وأنزل إلى فوق أذنيه قبعة صوفية ذات رسم غزال تداخلت شعاب قرنيه، ولف على وجهه لفحة صوفية باللون نفسه، ويذهب من الأمام. لم يبق سوى عينيه مكشوفتين. مع فتحه المسافة بينه وبينهما تدريجياً كان يطأ في حومات الطين التي تعترض طريقه كلها معانداً، وحريصاً على القيام بهذا. ويستطيع تحديد مدى خطورة النقاش الصامت الجاري في

الخلف من عدم سماعه أي تأنيب رغم ما يفعله. الأمر الوحيد الذي يجب على الكبار أن يفعلوه عندما يريدون إشعار أطفالهم بما حل بهم من نحس، من دون أن يقولوا لهم هذا بشكل صريح، هو عدم غضبهم من الأمور التي يغضبون منها دائماً. وسيدار كان يشعر أيضاً. ثمة شعور نحس ينتصب في داخله يُنبئه بأن أموراً سيئة ستحدث. عليه أن يجد حومة طين قذرة، ويغوص فيها جيداً ليسمع تأنيباً سيئاً جداً من أمه، وحتى يأكل صفعة قوية من أبيه، لكي يستطيع أن يؤمن بأن هذا اليوم مثله مثل الأيام الأخرى.

وفي الشارع التالي ظهر أمامه فجأة ما كان يبحث عنه. أمام بيت خرب إلى الأمام قليلاً تشكلت وسط حفرة شبه دائرية بحيرة طين رمادي عكر. توجه نحو ذاك الطرف بخطوات واثقة، وأدخل حذاءه الطويل فيها قبل أن يحدد عمقها. وفي اللحظة ذاتها سمع صوتاً صاخباً. تراجع بحركة لا إرادية، والتفت ناظراً بعينين محايدتين إلى الخلف. بالنظر إلى حرارة الحديث الدائر بين أبيه وأمه حتى تلك اللحظة فإن الصوت لم يصدر عن أحدهما. التفت إلى أمامه مرة أخرى، ونزل بقدمه هذه المرة إلى الطين بقوته كلها. تصاعد أنين مخنوق. كأن الصوت أتى من تحت قدميه... كأن الطين قد آلمته روحه... لعل هذا تنبيه. لعل البعض ينبهونه ليقف بعيداً. لعل هذه الحفرة التي أمامه واحدة من حفر الموت التي تحفرها البلدية، وتنسى أن تردمها. حفرة موت رمادي معكر... خاف، وكان خوفه كبيراً. ولكنه شعر بأن خوف الموت ليس مخيفاً إلى هذا الحد. أدخل قدمه الأخرى إلى الحفرة من دون تردد. وتقدم.

بدأ قلبه يخفق بجنون. كم هي الحفرة عميقة يا ترى، وأين قعرها؟ خطر بباله أنه بعد خطوة أو خطوتين سيجذب بسرعة كبيرة إلى أسفل على طول قناة مظلمة وضيقة، ويبدأ بالانجرار نحو البحر. وما سيحدث بعد ذلك... تخيَّل أنه بعد تحول بحيرة الطين إلى فم هائل ذي أسنان حادة وابتلاعه، ستبقى منه قبعته ذات الغزال الأحمر فقط، وبعد مرور أبوه وأمه بجوار الحفرة التي أخذت روح ابنهما قبل دقيقة وهما مستمران بمناقشتهما متمتمين، ومضي وقت طويل،

سينتبهان لغيابه، وعندما يعودان من الطرق التي عبراها كلها، وينظران في كل مكان، وتحت كل حجر مقهورين من القلق، وبعد ذلك يعرفان الحقيقة من عيني الغزال الأحمر الغارق بالطين، ويغدوان في حالة سيئة. نفض كل الأحجار الكبيرة والصغيرة الباقية في داخله، والكاوية روحه في الماضي: العبارات التي حزن منها، المشاجرات التي آلمته، الظلم الذي تعرض له... شعر بالمتعة وهو يفكر ولمدة طويلة، وبشكل مؤلم كيف سيعاني أفراد العائلة وأصدقاؤه المسؤولون عن هذه الأمور كل على حدة عذاب الضمير بعد علمهم بموته.

ولكنه قبل أن يصل إلى نصف خياله، كان قد وصل إلى نهاية الحفرة. خرج من الحومة التي تكاد تصل إلى ركبته ممتعضاً، وانعطف من زاوية الشارع وهو يخبط على الأرض بقدميه ناثراً قطع طين كبيرة حوله، وتوقف فجأة. مقابله بالضبط، ثمة جرو كلب ينام عند حافة الرصيف. لم تكن حفرة موت البلدية التي تصدر تلك الأصوات المقشعرة للبدن قبل قليل، بل هذا الكلب النحيف، الأسود العينين. لم يكن يظهر على وبره دم، ولا جرح أو إصابة. ولا يوجد عليه آثار الحافلة الصغيرة التي عبرت من فوقه بسرعة قبل قليل. هبط حزن على وجه سيدار. عندما رأى أن الموت الذي يتخيله حتى قبل عدة ثوان مضت مستمتعاً، ومستمتعاً بتخيله هو قريب إلى هذا الحد منه، وخارجه إلى هذا الحد أيضاً، شعر بنفسه أنه مخبول وظالم وتافه وغير محب. كانت الأفكار التي فكر بها كلها عبثية، والخيالات التي تخيلها فارغة. الأمر الحقيقي الوحيد هو الطين المتعلق بكمي بنطاله، والذي بدأ يجف منذ الآن، إضافة إلى الألم الذي يعاني منه جرو الكلب هذا. أما ما تبقى فهو خاو من المعنى تماماً. لديه عائلة ولكنه كان وحيداً؛ لا يحب أحداً، ولا أحد يحبه؛ يستهان به دائماً، ويستهين بكل شيء؛ لا يعرف كيف يكون سعيداً، ولا يعتقد أنه يستطيع أن يتعلم؛ دخل الحادية عشرة من عمره، ولكنه بعين الجميع طفل؛ ليس ثمة من يسأله عن رأيه، ولكن لو وُجد، فإن ليس لديه رأي في أي موضوع على الأغلب.

يمكنه أن يلتفت إلى الخلف، وينادي أباه وأمه، ويطلب منهما المساعدة. أو يمكنه أن يخطو خطوة إلى الأمام؛ يخطو، ويذهب إلى جانب الكلب،

ويحاول مساعدته. ولكنه لم يفعل شيئاً أبداً. وكما أنه لم يفعل، فقد دس يديه بجيبه مرتبكاً كأنه يخشى أن يلمس شيئاً من محيطه، وأن يصاب بشيء إذا مسه. شعر كأنه سحق شيئاً هشاً في جيبه الأيسر، ولكنه لم يكن مهتماً بما هو حتى ولو للحظة. تعاسة تجهم أبيه وأمه تقترب خطوة خطوة: هذا كان عيشاً. كان يبتعد بسرعة من حيث يتمدد جرو كلب لا يستطيع الحركة من الألم: هذا كان موتاً. أما بالنسبة إلى سيدار فلم يرد أن يخوض في أي منهما، لو أنه يستطيع الابتعاد عن الموت الذي ينبذه، والعيش الذي ينبذ سيدار عنه. أراد لو أنه يستطيع الانسحاب خلف جفني عينيه كما يختبئ تحت المعطف الذي يرتديه، والقفازين، والقبعة، واللفحة. فجأة أدرك ما هو الشيء الهش الذي سحقه قبل قليل في جيبه الأيسر. كانت تلك قطعة معمول بالدقيق أعطتها له جدته.

قالت جدته هذا الصباح: "تبقى البنات عندي. ولكن الصبي يجب أن يذهب مع أبيه."

كانت الامرأتان مستديرتين حيث يغدو ظهراهما نحوه عندما دخل إلى المطبخ. كانا يوزعان معمول الطحين الذي يخرجانه من الفرن على أطباق الخزف فوق بلاطة المطبخ. قالت جدته: "لا تدعوني من دون خبر. ولكن عليكم أن تتصلوا بحلواني فور ربط هاتفكم." بدت أمه كأنها ستقول شيئاً ما، ولكنها انتبهت في تلك اللحظة لوقوف سيدار خلفها تماماً، فلكزت المرأة العجوز بمرفقها منبهة لها.

التفتت الجدة نحو سيدار مقدمة توضيحاً قوياً، قائلة: "عندما يوصل الهاتف الجديد إلى البيت الجديد، فكما تعملين الاستفتاح، سينسحب على ما يأتي بعده." لهذا السبب عندما يصبح لدى الإنسان هاتف جديد فعليه أن يتصل بحلواني لا على التعيين قبل أن يتصل بأصدقائه وأحبابه: محل معجنات، بائع سكاكر، بائع مثلجات، ورشة صناعة العوامات... ليكن ما يصادف. عليه أن يتصل، لكي يغدو في نهاية مكالماته الهاتفية كلها أمراً حلواً. بعد الحديث مع الحلواني، تتصل بحسب الرغبة، فمن أجل أن تأتي المكالمة

الهاتفية اللاحقة بنقود، يجب أن يُتصل بمصرف أو صراف أو صائغ؛ ومن أجل أن تأتي ببيت، فمن المؤكد أنه يجب الاتصال بمكتب عقاري؛ ومن أجل أن تأتي بسيارة يجب أن يُتصل بمرآب سيارات أو ما شابه ذلك. ولكن النقود والعملة ليست مهمة إلى هذا الحد. المهم طعم فم الإنسان. لهذا السبب فإذا كان الاتصال بالآخرين خاضعاً للإرادة، فإن الاتصال بالحلواني يُعد فرضاً.

بعد ذلك انتقلوا جميعاً إلى البهو، وتناولوا معمول الدقيق معاً. شعر سيدار بالضيق كما يشعر صباح كل يوم سبت. مهما يكن فإنهم لم يجلسوا طويلاً هذه المرة. ولأن الكبار يرتجفون من الانفعال، أما الأولاد فلم يفهموا حتى تلك اللحظة سبب اختلاف صباح هذا السبت عن أصباح أيام السبت الأخرى، فتدفق الجميع نحو الباب الخارجي مع تيار وداع لا ينتهي، ومن غير فهم لماذا يُقبل كل منهم الآخر. ولم يُفهم إلا هناك بأن البنات سيبقين عند جدتهن. الجو جميل بالنسبة إلى سيدار. كان مسروراً لأنه سيقضي نهاية الأسبوع بعيداً عن ثرثرة أخواته الكبار إلى حد أنه لم يعترض على توجيه أمه بارتداء هذه القبعة البناتية. ولكنه لحظة خروجه من الباب مغطى وملفوفاً، جذبته جدته نحوها بقوة، وألصقته بثدييها المتهدلين إلى بطنها، وأثناء استمرارها باحتضانه بقوة شديدة، دست شيئاً ما في جيبه. قالت له: "تأكلها في الطريق" ومسحت أنفها المحمر كالشمندر، وكأن الطريق الذي تقصده هو السماء مشيرة بإحدى ذراعيها نحو مكان في الجو. وقبل أن تجد الفرصة لإنزال ذراعها سيطرت عليها نوبة بكاء سيئة للغاية، ولأن صوتها ونفسها انقطعا فجأة، بقيت عند عتبة الباب كأنها تحجرت وهي تقطف حبة دراق من الشجرة، وغدت تمثالاً ضخماً نقل إلى هنا بطرقة ما. عندما سد جسد الجدة الباب بهذا الشكل، بقي أفراد العائلة كلهم مصطفين أحدهم بجوار الآخر في الممر الضيق بين البهو والباب الخارجي مثل غسيل ثُبت بالملاقط على الحبال، ونسي في برد الليل الشديد خارجاً.

تتعرقل يدا سيدار ورجلاه إزاء حالات الفيضان الأكبر للحب، وعندما استطاع النجاح بالتخلص من ضغط الثديين الفائحة منهما رائحة عرق خفيفة،

وكلونـيا اللـيمون الكثيفة، ومسحوق الخميرة الخفيف، رمى بنفسه إلى الخارج مرتـبكاً. وكـان خـروجه ذاك الخـروج الأخير. منذ تلك اللحظة هو في المقدمة، وأبوه في الخلف، ويسيرون في الشوارع.

* * *

حـين رأى جـرو الكلـب معمولـة الطحـين الـتي أخـرجها سيدار من جيبه الأيسـر، قطـع الأنـين. في لحظـة -لحظة قلقة ولا متناهية- توقفا، كل منهما ينظر إلى عين الآخر. كرهه سيدار. سيموت بعد قليل. حتى إنه بدأ يموت منذ الآن، ولكـن رغبـته بتناول معمولة الدقيق اللعينة هذه تتراقص كلهب واهن في عينيه السوداوين الفاقدين بريقيهما منذ زمن.

بعـد عـدة دقـائق انعطـف أبـوه وأمـه مـن الزاوية. انعطفا، وشاهدا ابنهما لا مبالـياً إلى أقصـى درجة أمام جرو كلب ينازع الروح، ويأكل شيئاً ما. وتفرغ توتر أعصـاب الناضـجين المتزايد تحت تأثير الموضوع الذي يتكلمان به منذ قليل فوراً إزاء لا مبالاة كهذه. وأثناء صراخ أمه به، أنزل أبوه صفعة قوية عليه.

تحققـت رغبـته في النهاية. هاهما أبوه وأمه قد عادا إلى حالتهما المعهودة. مـن ناحية عودتهما فقد عادا، ولكن إحساسه الذي كان ينبش في داخله طوال مسيره في الشوارع ازداد حدة إلى آخر حد، بدل أن ينخفض. عندما بدأ سيدار بالـبكاء، لم يكـن هذا بسبب ألم الصفعة الذي تألمه، ولا التأنيب الذي سمعه. انتفض عنه ما تبقى من صباح السبت الأخير في اسطنبول بنفضة واحدة متبدداً مـثل السـكر المطحـون المرشـوش عـلى معمول الدقيق البيتي الصنع مع الإيمان بالشـعور أن الحياة ستستمر كما استمرت حتى الآن على مدى هذا الزمن كله، واعتاد على الشعور به.

مسـاء الـيوم نفسـه ركـب الطائـرة أول مرة بحياته. سيتمكن مع الوقت من إدراك سـبب انفعـال أبيه وأمه الكبير قبل المرور من التدقيق بجوازات السفر، وسـبب مغادرتهمـا تركـيا مـنهمكين هكـذا. وفي نهايـة رحلـة قضـاها مراقـباً

لحركات مضيفة جوية ظريفة تبتسم للجميع من دون توقف، وعندما بدأت الطائرة بالانخفاض، رأى تحته دولة تناثرت عليها أضواء لامعة، ولكنها من غير ظلال فوق ظلام متوازن: سويسرا!

بعد شهرين، عندما خرجوا من مهجع مدرسة مخصص للاجئين السياسيين، وسكنوا في بيت مستقل اشتركا به مع عائلة سريانية، كان أول عمل قامت به أمه هو الهرع إلى الهاتف. ونتيجة انفعالها كررت الجملة نفسها لابنتيها مرات عديدة باكية ومتألمة... ومنذ مكالمتهما الأولى إلى هنا على ما أعتقد من الهاتف الجديد، وعلى مدى سنوات طويلة، أملا بقدوم بشارة من اسطنبول كلما رن الهاتف، وفي أي وقت كان. ولم يتغير هذا الوضع حتى بعد خمس سنوات عندما ماتت جدتي، وأتت أختاي الكبيرتان إلى سويسرا. وكما كان استفتاح الهاتف، استمر على المنوال ذاته. وفي كل المكالمات الهاتفية التي أجرياها نقلت من اسطنبول أحداث، وإذا لم يكن هذا، فلابد من موضوع مشوِّك قليلاً، ويأس دائم.

وإذ سيدار وحده سيعود من بينهم كلهم إلى اسطنبول، وبعد أحد عشر عاماً ونصف، ووحده.

# الرقم 4: آل أطشميزاج أوغلو

أغلقت زليش أطشميزاج أوغلو على نفسها غرفتها منذ حوالي ثلاثين دقيقة؛ وجلست متربعة بجانب صرصور قبضت عليه عند طرف السجادة، وقتلته؛ وتنظر إلى وجهها في المرآة الصغيرة مثل شخص آمن بأنه مظلوم ينظر إلى شخص يؤمن بأنه ظلمه. وجهها منذ عهدها بالحياة ناصع البياض كأنها صادفت شبحاً في الليل، ومدور تماماً مثل صينية رقائق صغيرة، وطافحٍ بانتفاخات ناعمة بارزة كأنها أصيبت بلدغ حشرات منذ خمسة أشهر تقريباً. طبيب الجلدية الأعمص العينين، الفرح الضحكة الذي ذهبت إليه مع أمها بعد أن وصل إلى نتيجة مفادها أن هذا الطفح ليس حب شباب، وليس حساسية، ووضع تشخيصه بأنه ناتج عن حالة نفسية. يمكن أن يتحول الجلد إلى ما يشبه غطاء طاولة أرقط في حالات الوهم أو القلق. عند ابتعاده عنها ضاحكاً من نكتته، أنزل صفعة ثقيلة على ظهرها، وجلجل بصوته الأجش: "إذا توهمت هكذا بهذا العمر، فإنك ستجعلين زوجك يلفظ روحه من أنفه والله. ارتخي يا ابنتي، ارتخي!"

إذا كـان ثمة شيء في هذه الحياة يزداد لمجرد العناد عندما يُعرف أنه يجب أن يـنقص، ويولد من فراغ، فهو الوهم. ثمة نقطة شبع حتى في المرحلة الأخيرة مـن الخـوف. عندما يصل الإنسان إلى تلك الصفحة، لا يخاف حتى لو غرق إلى أنفـه في أكـثر شـيء يخوفـه، ولا يسـتطيع أن يخـاف بعـد ذلك. الخوف الزائد يخـدر نفسـه. أمـا الوهـم فهو ماء معتق في بئر لا قرار له. فلا حدود لعياره، ولا يوجـد تـرياق خـاص به. وبقدر ما يكون مصدر الخوف ملموساً ومعروفاً، بقدر ما يكـون مصدر الوهم مجرداً ومبهماً. لهذا السبب فإن الإنسان رغم إمكانيته تحديد سـبب الخـوف مـن دون صـعوبة، لا يمكـنه تحديد سبب تجواله متوهماً بشكل دائـم. وعـندما يكـون الوضـع عـلى هـذا النحو، فإن شرح ما يمكن أن يقع على رأس الإنسـان المـتوهم مـن سـلبيات في حال ازدياد أوهامه، وهو أصلاً يفقد ثقته بنفسـه أثـناء شـعوره بأنـه يخوض حرباً ضد عدو كيميائي وليس جسدياً، ويفقد تماماً ما يمكن أن يشعر به من ثقة بالنفس، لا يؤدي إلا لمزيد من الأوهام.

وكمـا لا تعـرف زليش كيف سترتخي، لا تعتقد بأنها يمكن أن تتعلم هذا. معرفـتها بـأن طفحها غير ناتج عن حساسية لشيء ما، بل ناتج عن الوهم، لا يشكل دواء لدائها، بل يضاعف همها. لا يوجد صابون أو دهون أو سائل على وجـه الأرض يمكن أن يشفيها. لا مستحضرات تجميلية لأوهامها. الطفح الذي كـان في جبهتها وذقنها قديماً تضاعف مرتين منتشراً على مساحة وجهها بعد زيارة الطبيب.

فجـأة طن عـزف موسيقى بشكل خفيف في أذنها. تركت المرآة، وقرفصت عـلى ركبتـيها. ألصـقت أذنهـا عـلى الأرض مديـرة وجهها نحو جثة صرصور الحمـام. اعـتادت عـلى الاسـتماع للأسـفل في مخـتلف الأوقات من النهار منذ فـترة. تقـع غرفـتها فوق بهو القبو المقيم فيه الولد النحيف. أحياناً تشعر بأنه محجـوز في الأسـفل رهيـنة، ويـنقر مطقطقـاً كأنـه يحاول الخروج إلى الأعلى. الأصـوات الصـادرة غريـبة إلى حـد جعـلها تشـعر بأنـه يـتجول على السقف. وتنتـبه تمامـاً في كل مرة كأنها تتلقى رسالة مشفرة عاملة على إعطائها معنى. سمعـت ذات مـرة تأوهاً ممزوجاً بنباح كلب. ولم تغادر نافذة البهو طوال اليوم

لمعرفة كيف تبدو الفتاة. ورأتها أيضاً. ارتدت بنطالاً يشبه الخيش عريضاً كأنه سيسقط عن خصرها، ورفعت شعرها الذي قصته قصيراً إلى الأعلى عمودياً، ولونته بلون نحاسي، وهي فتاة ضئيلة الحجم. خرجت من البناء بحركات سريعة، و صارت وسط الشارع بخطوتين، وأشعلت سيجارة. وهي من دون حب أو طفح، ومن الواضح أنها من دون أوهام.

قال بعض العلماء: "كل إنسان يبحث عن مرآته على وجه الأرض. من أجل أن يتوحد معها، وأن يجد نفسه فيها." ولكن كما شجرة الطوبى التي في الجنة، إذا كانت معكوسة جذورها من الأعلى وأغصانها في الأرض، فإن بعض المرايا تعكس خيالاتها رأساً على عقب. ورأت زليش أطشميزاج أوغلو بالفتاة القادمة إلى بيت سيدار وجودها المعكوس. ولو كان الأمر بيدها لما أرادت أن تتوحد معها، وأن تجد نفسها فيها أو ما شابه ذلك، بل إزالة نفسها تماماً من الوسط، وأن تكون هي.

"ماذا تفعلين (وليه) على الأرض؟"

قفزت زليش أطشميزاج أوغلو على قدميها مرتبكة، ونظرت حاقدة لأخيها الأكبر الداخل إلى غرفتها. جاء زكريا مع زوجته وابنه لتناول طعام العشاء. خرجت من الغرفة من دون أن تجيبه، وانتقلت إلى الصالون بخطوات بطيئة. جلس الجميع إلى المائدة، وهم يحتسون الحساء من جهة، ويتفرجون على الأخبار من جهة أخرى. عند طرف الطاولة يوجد ثلاث قطع كنافة أرسلتها الأرملة العجوز التي تسكن في الشقة رقم عشرة.

أثناء جلوس زليش على الكرسي الموضوع على طرف المائدة، تعلقت عيناها بالتلفزيون. تحاول الأم التي في السادسة عشرة من عمرها، ووضعت مولودها البالغ ثلاثة أيام من عمره في كيس، وتركته في مزبلة أحد مراكز التسوق، إخفاء وجهها عن عدسات كاميرات التصوير. بقي المولود المنحوس داخل برميل الزبالة طوال اليوم، وعندما بدأ بالبكاء نغنغة عند المساء انتبه إليه المارة من الجوار، وأنقذوه. رجال الشرطة الذين أخذوه إلى المخفر، وأشبعوا بطنه، أطلقوا على الطفل الخارج من برميل الزبالة اسم "قدر".

فجأة ظهر قدر على الشاشة. كان وجهه أحمرَ قانياً. يبكي من دون توقف، وكلما بكى يزداد حمرة. تعرقت بشدة زليش أطشميزاج أوغلو. تجول نظرها يائساً على المائدة محاولاً التخلص من بين فكي الأحمر. كانت قد تأخرت. بينما كان قدر يتجول من حضن شرطي إلى حضن شرطي آخر، اسودت المشاهد كلها. ولكن الظلام أحمر أساساً.

فقدت زليش أطشميزاج أوغلو وعيها.

# الرقم 7: أنـــا

عـندما اسـتيقظتُ عـلى عويـل المنـبه في السـاعة الخامسة وخمس وأربعين دقـيقة، بـدت لـي الفكـرة الـتي أعجبـتني كـثيراً مسـاء الـبارحة كأنها عبثٌ حقـيقي. حـاولـتُ أن أرخـي رأسـي، وأنـام من جديد، ولكن من دون جدوى. نهضـت، ونظـرت مـن الـنافذة إلى الخـارج. لم يكشـف الجو بعد. فجأة خطر ببالي أن أجرِّب. سينتج لدي ما يمكن أن أحكيه لإثل على الأقل. نلهو. تلهو السـاقطة إثـل عـلى الأقـل. تناولـت الكـيس الـذي حضرتُه من المساء، ونزلت الطوابـق عـاملاً على عدم إصدار صوت. فور فتحي باب البناء، صفعتني نسمة الصـباح الـباردة، وبعدهـا مباشرة رائحة الزبالة القادمة ببطء. بدأتْ منذ الآن. مـن يعـلم، لعـل مخططـي يفـيد بشيء. إذا نجحتُ بمنع واحد فقط من الذين يـرمون زبالـتهم هـنا، فلـن أعتـبر نفسـي قـد خدمـت سـكان بـناء قصر بنبون وحدهم، بل خدمت المدينة كلها.

إنهـا المـرة الأولى الـتي يبدو لي فيها الشارع الذي أعيش فيه جميلاً بحاله الخاويـة مـن أي شـخص مـنذ انتقلـت إلى هـنا. قفز من الزاوية كلبان شاردان ممتلـئان. اقتربا متقدماً أحدهما على الآخر ومن ثم متراجعاً عابرين من رصيف

إلى آخـر راسمين خطاً متعرجاً. تباطآ عندما اقتربا من جدار الحديقة، وبعد أن شما الـزبالة مـن دون رغـبة، تراكضا عائدين كما أتيا. أثناء نظري إليهما من الخلـف، اعـتقدت لـلحظة بـأن أحـداً مـا يراقبني أيضاً. وعندما رفعت رأسي وجـدت أن بـناء بنبون كله مظلم عدا الشقة رقم تسعة. عبر ظل من وراء نافذة بهـو الطـابق الأعـلى بسـرعة. وبالجهة التي تحرك نحوها الظل أنيرت أضواء الغرف كلها غرفة تلو أخرى، ثم لسبب ما عادت، وأطفئت بالترتيب. قلقت. وأثـناء تطلعـي إلى المكان من حولي، ضايقتني عبثية العمل الذي أحاول القيام بـه. رغـم هـذا لم أرغب بالتراجع. مخططي في منتهى العبثية، ولكن لعل هذا أفضل. أحياناً يمكننا مواجهة العبثية الكثيرة الناتجة عن تفاهة، والمستمرة من دون ضـوابط بعبثـية تفوقهـا مسـتوى، ولـيس بقواعـد منطقية، وقيم معتبرة أو ممنوعات تعسفية.

ولحظـة خـروجي إلى الرصـيف، وتوجهـي نحـو جدار الحديقة، واجهت زوجـاً مـن العـيون الغدارة. رأيت هذا القط من قبل. إنه ينظر بكره بكل معنى الكـلمة. عـندما أقلقـت راحـته، نهـض متمطـياً. ومشى بخطوات متثاقلة على جـدار الحديقـة ذاهـباً عـلى الطـرف الأخـير مـنه، ومـن هناك بدأ بمراقبتي. أخرجـت الصـندوق مـن الكـيس، وفتحت غطاءه بصعوبة. أثناء شرائي الدهان مسـاء أمـس، طلبـتُ من البائع أن يكون بلون أخضر المقابر ليكون مناسباً لجو العمـل، ولكـن مـا ظهـر من تحت الغطاء هو أخضر فستقي بكل معنى الكلمة. إنه لون مخالف كثيراً لما يتعلق بالآخرة. ولكن المشكلة الحقيقية وقعت بعد أن أمسـكت الفرشـاة بـيدي، ووقفـت أمـام الجدار. من ناحية معرفة ما سأكتب، فأنـا أعـرف، ولكـنني لم أفكـر بالطريقة الأكثر تأثيراً بالكتابة. عبرت شاحنة خـبز صـغيرة وهـي تهـتز مـن خلفـي. تركتْ صندوقاً مليئاً بالخبز أمام البقال الـذي في الطـرف المقـابل، وذهبـت. نظرت، فوجدت بأن علي أن أسرع. وأنا كتبـت أبسـط عـبارة خطـرت بـبالي، ماراً مرتين على كل حرف من الحروف التي كتبتها. أثناء عملي راقبني القط المقرف بكل حركة من حركاتي وبمنتهى الانتباه هازاً بذيله القطراني السواد.

تراجعت خطوتين إلى الخلف عندما انتهيت، ونظرت إليها بعين المقيِّم. لم تكن سيئة. ولأن الأخضر الفستقي يظهر البشاعة جيداً، ولأنني لم أستطع توسيط الكتابة جيداً فقد تقاربت حروف المقاطع الأخيرة كثيراً، ولكن رغم هذا، فها هي ليست سيئة. إنها كبيرة إلى حد إمكانية تمييزها بسهولة حتى من وسط الشارع، وقراءتها. غمزت للقط بعيني، وجمعت الدهان والفرشاة، وعدت إلى بناء قصر بنبون.

حين كنت على وشك الدخول، كان ثمة من يحضر نفسه للخروج.

آخر شخصية توقعت رؤيتها في الخارج في هذه الساعة المبكرة جداً من الصباح المظلم هي المرأة العجوز الساكنة في الشقة رقم عشرة. ولكنها بدت قلقة من مقابلتي بقدر لا يقل عن قلقي. أثناء محاولتها ربط فم الكيس الذي بيدها تعلقت عيناي بما تحمله. كانت تحمل أربع حقائب تبدو كأنها فارغة. الحقائب خفيفة كالريش، وهي خفيفة كالريش... أمسكت لها الباب. توجت ابتسامتها الباهتة بشكر مهذب، واحتضنت جسدها المفرقع، وذهبت.

خرجتُ إلى الشرفة فور دخولي إلى البيت. كنت أنوي أن أكمن في الشرفة طوال اليوم، وأرى بعيني تأثير العبارة التي كتبتها. ولكن النوم الذي قطعته من دون أن أكمله جاء مثل دائن دبق، وأمسك بي.

# الرقم 9: هيجين تيجين والصرصور

بعد أن تفقدت المطبخ والبهو والموزع والغرفة الخلفية بالتسلسل، وأغلقت مصابيحها، تمددت على السرير قلقة ولا حول لها. وفي ظلمة ميتة حزَّزها النهار الكاشف ضوءه التفتت إلى الجسد المجاور لها بفضول كأنها تراه لأول مرة. نظرت، على صعيد النظر، ولكن ما رأته تحول إلى عشرات القطع، القطع الصغيرة جداً أكثر من كونه جسداً. فضولها للنظافة المتعاقب بشكل مزمن منذ فترة طويلة، ضرب عينيها بعد فترة مثل مرض خبيث. غدت عيناها مثل آلة فرم لحم نشيطة تفرم كل ما تراه ناعماً، وتفصِّل الكامل إلى قطع، والقطع إلى تفاصيل، والتفاصيل إلى ذرات. عندما تنظر إلى السجادة التي في البهو مثلاً، فلا ترى السجادة، بل الزخارف، والبقع التي تؤويها تلك الزخارف، وذرات الوسخ المتعلقة بتلك البقع. لم تعد عيناها المحتدتان نحو التفاصيل تدركان أي شيء تنظران إليه بشكل كامل منذ بدأتا تلاحقان النشاز الدقيق. لهذا السبب، عندما استدارت في السرير، ونظرت إلى الجسد المتمدد بجانبها، لم تر زوجها، بل نقطتا الريال الجافتين بجانب فمه، والرمص المتجمع بعينيه، وبقايا الطعام المتبقية بين أسنانه، وصفرة السجائر في

رأس إصبعيه، وقشرة الرأس عند نهايات شعره غير المغسول منذ ثلاثة أيام. أدارت رأسها لكي لا ترى المزيد، ولكنها تأخرت. فقد كانت قد بدأت بالاشمئزاز.

الاشمئزاز ليس خصوصية وُهبت للأحياء على وجه الأرض كلهم. فهو ليس خاصاً بالحيوانات، بل بالإنسان على الأغلب. تشمئز النساء أكثر من الرجال، وبين النساء هنالك البعض يشمأززن أكثر من بعضهن الآخر. وكلما اشمأزت هيجين تيجين ينحني طرفا فمها، ويتشنج ساقاها بقوة، ويُدغدغ جسدها كله بشكل خفيف بداية، ثم تلتقطها حالة من التشنج الحاد بشكل تدريجي. وهكذا حصل مرة أخرى. انكمشت ككرة، وأثناء محاولتها لف نفسها بإحدى يديها، بدأت حكة شديدة من رؤوس أصابع قدميها نحو الأعلى متماوجة بصحبة قشعريرة.

اشمأزت حتى الآن مرات لا تحصى لأسباب عديدة. ولكن شعورها بالتنميل هذه المرة لم يقتصر على قدميها، بل شعرت به في صدغيها. وتضاعف التنميل خلال عدة ثوان مغطياً كل جزء من رأسها؛ وتدفق من رقبتها نحو الأسفل كأنه يعبر جسراً وهو محشور من اليمين واليسار، وفور عبوره الجسر، بدأ يتدفق نحو الأسفل على شكل أشرطة رفيعة جداً منتظمة. عقل هيجين تيجين وليس غيره هو من أعلن النفير العام غير المتوقع لهذا الجيش. ولأنه يستشعر ما يمكن أن يقع قبل وقوعه، فقد استعد تلقائياً.

هذا لأن عقلنا أحياناً يدرك قبلنا النتائج المحتملة لحركة سنقوم بها، ويبادر لاتخاذ الإجراءات الاحتياطية اللازمة من دون أن يسألنا أو يأخذ رأينا. وأدرك عقل هيجين تيجين أيضاً بأن اشمئزاز هذه المرة لا يُشبه اشمئزاز المرات الأخرى، وعندما بدأت تشمئز من الرجل الذي تزوجته آخذة بعين الاعتبار معارضة أبيها وأمها وقتئذ، قررت أن تضع يدها شخصياً على مسار الأمور كلها لأنها استشعرت بأن المسألة غير محددة بالاشمئزاز فقط، ويمكن أن تتحول إلى مساءلة لعمر كامل. خلال بضع الدقائق التالية ولجت إلى معدة هيجين تيجين تشنجات مخيفة. لأن المتمردين المؤيدين البرودة/ الاشمئزاز من

ناحية الزوج الصاعدين من رؤوس أصابع قدميها نحو الأعلى قابلوا في هذه المنطقة بالضبط قوات الارتباط/ الإخلاص للزوج المتقدمة من رأسها إلى أسفل. النصر بشكل محقق كان للقوات القادمة من الشمال. حقق العقل نجاحاً بصد التمرد الذي بدأ من رؤوس أصابع القدمين. بعد أن نكصت آلام المعدة فجأة، وبعد الراحة التي منحها إياها التخلص المفاجئ من هذه الآلام تنفست الصعداء، وذهبت إلى الحمام وهي تجرجر قدميها. أشعلت الضوء. كانت الأرجاء ناصعة البياض. صبت عدة نقاط من الكلور على منشفة ورقية، ومسحت مكان الجلوس على تواليت الحمام بشكل جيد. استمرت بتفقد الأطراف حولها أثناء تبولها. ظاهرياً ليس ثمة ما يثقب سيطرة الأبيض.

كُتب في دليل جمعية تأسست في كاليفورنيا، ولا يخاطب أعضاؤها أحدهم الآخر باسمه، بل بلونه، ويشكلون مجموعة ألوان تشبه مجموعة الألوان المائية عندما يمسك أحدهم بيد الآخر، ولكنهم اضطروا للانفراط بعد أن بدأت بينهم تحزبات بحسب درجات الألوان: "ثمة هالة لون حول كل إنسان". ومن الممكن أن يكون هنالك عكس هذا. لعله أيضاً "كان يوجد هالة إنسان حول كل لون". وإذا كان الأمر على هذا النحو، فمما لاشك فيه أن الهالة التي ستحيط باللون الأبيض ستتشكل من ربات البيوت. يمنح الأبيضُ رباتِ البيوتِ تباهياً وتميزاً. أما لهيجين تيجين، فيمنحها طمأنينة فقط.

بعد أن شدت السيفون، صبت عدة قطرات كلور على منشفة ورقية، ومسحت مكان الجلوس على تواليت الحمام. وطالما أنها انخرطت بالعمل، قامت بعملية تنظيف لغطاء التواليت وداخله وما حوله، وبعد ذلك لعلاقات ورق التواليت والمناشف، ثم لم تستطع كبح اندفاعها، فانتقلت إلى المغسلة وحوض الحمام، وهكذا سحبت الغسالة، ونظفت تحتها. وقبل خروجها، التفتت للمرة الأخيرة، وألقت نظرة شاملة نصفها سائمة ونصفها مسرورة إلى الحمام. أغلقت خلفها الباب. ولكنها بدل أن تمشي ذاهبة، بقيت ساهمة. هذا لأن العقل لا يذهب في المقدمة دائماً، بل يأتي أحياناً من الخلف كما في هذه المرة. استطاع عقل هيجين تيجين تمييز شيء أسود، شيء أسود داكن

يـتأرجح في مكـان مـا داخـل الأبيض المغطي الحمام كله بتأخير عدة ثوان عن زمـنه الحقـيقي. فتحـت الـباب مـن جديـد، لم تخطئ. كان ثمة قائمة سوداء مقـرفة تسـير بسرعة على السيراميك الأبيض. فوق هذا يجب أن تكون القائمة قـد أدركـت أنهـا قد وقعت بالمأزق، فكانت حركاتها مرتبكة ومنهمكة. كانت تـنـزلق عـلى الأرض راسمـة خطـاً مـتعرجاً. شـعرت هـيجين تيجين بالهلع، واقتربـت بخطـوات جانبـية واثقة، وعندما اقتربت جيداً، استطاعت أن تميز بـأن الشـيء الذي تنظر إليه منذ قليل من دون أن تدرك تفاصيله كلها هو ليس قائمة سوداء مقرفة، بل صرصور أسود مقرف.

وريـثما أطلقـت تلـك الصرخة المخيفة، كان صاحب القائمة السوداء المقرفة الأسود المقرف قد نجح بالتقاط أنفاسه في ثقب ضائعاً عن الأنظار منذ فترة.

# الرقم 1: موسى، مريم، محمد

استيقظ البواب موسى هذا الصباح مبكراً أكثر مما اعتاد أن يستيقظ كل صباح بسبب الضجيج. حين انتقل إلى البهو، التقت عيناه بعينيٍ محمود المحشورة ساقاه بين الأرائك والجدار. جلس إلى طاولة الإفطار متجاهلاً نظرات ابنه التي تتوسل منه المساعدة. اقتطع قطعة كبيرة من الجبن الأبيض بحركات يائسة متثاقلة، وألقاها في فمه. وأثناء مضغها مطولاً مد يده إلى إبريق خمير الشاي. ولكن وجهه تقطب بحدة في لحظة حمله كأس الشاي. كان قد برد الشاي. وإذا كان قد التفت جانباً ماداً إبريق الشاي لزوجته، فإن مريم التي تدفع الأرائك بإحدى قدميها من جهة، ومشغولةً بدس عروق البقدونس وسط نصف رغيف الخبز المشروخ من وسطه في الوقت نفسه من جهة أخرى، لم تكن هنالك أبداً. موسى المدرك بأنه يجب أن يقوم بعمله بنفسه تجولت عيناه بشكل متثاقل ويائس مثله تماماً، وعادت؛ وأيدت نظرات ابنه النائرة تعاسة والغادية تشبه نظراته تدريجياً، ورسمت دائرة كاملة في البهو رامقة الأرائك والطاولات الصغيرة والكراسي المحشورة في البهو واحدة واحدة، وثبتتا على زوجته من جديد. بدا بطن مريم بعينيه قد كبر أكثر هذا الصباح.

دس موسى في فمه نصف قطعة الجبن التي في الصحن، وثلاث قطع الخبز، وحبات الزيتون المتبقية في الزبدية كلها، وخرج من البيت من دون أن يقول شيئاً. توجه إلى البقالية المقابلة وهو يجرجر قدميه. يبدو أن البقال الذي يجلس على كرسي قش صغير موضوع أمام الدكان دائماً متفحصاً الذاهبين والآيبين من الشارع، والداخلين إلى بناء قصر بنبون والخارجين منه، والمحدودب ظهره لكثرة جلوسه على هذا النحو غير موجود. والعلامة الفارقة لهذه البقالية كما بقاليات مختلف أحياء اسطنبول الأخرى، ليس اسمها أو البضاعة التي تبيعها، بل البقال نفسه. وقد رسخت هذه الخصوصية في البقال الأحدب مما أدى إلى استغراب قبول إمكانية بقاء الدكان مفتوحاً لمدة طويلة وقت عدم وجوده. ولكنه بدأ يترك الدكان أمانة لدى أجيره الأنمش الوجه عندما يذهب إلى الجامع فقط في البداية، وبعد ذلك يتركه بمختلف الذرائع بسبب استنتاجه بأن أرجل الزبائن تنقطع عن الدكان عندما يجدون صاحبه غير موجود في مختلف ساعات النهار، ولعدم رغبته تفويت الصلاة في أوقاتها.

كان الأجير ابن أخيه، ولكن بسبب إيمان البقال الأحدب بضرورة الفصل بين الأقرباء المقربين من جهة، ومصدر الرزق من جهة أخرى، كما يبقى الزيت والماء منفصلين، فإنه لا يعامله داخل حدود الدكان باعتباره ابن أخيه، بل يعامله كما يجب عليه أن يعامل الأجير. أما بالنسبة إلى الولد فإنه لم يستطع الاعتياد حتى الآن على أن الرجل الذي يمطر الأوامر، ويزخ الإهانات عليه على مدى ستة أيام من أيام الأسبوع، هو نفسه الذي يقدم له هدية الشوكولا التي لا يسمح له بأي شكل أن يشمها في الدكان، ويداعب رأسه بحنان مبدياً محبته له عندما يجلسون عائلياً في أيام عطلة نهاية الأسبوع، والأعياد. كان يبحث عن ثقب يختبئ فيه خاصة عندما يقول له عمه خلال الزيارات العائلية تلك : "احك لعمك يا ابن الأخ. ماذا تفعل في الزمن الزائد عن المدرسة؟" وكأنه يراه للمرة الأولى بعد فراق لزمن طويل، وكأن الشخص الذي أنبه هذا الصباح في الدكان أمام الجميع ليس هو. ولم يستطع

حتى الآن التخلص من الغضب الذي غضبه منه نتيجة التأنيب الذي أنبه إياه، والخطاب الذي خطبه فيه قائلاً بأن كل أجير يجب أن ينام باكراً ليستيقظ باكراً ذات صباحٍ لأنه تأخر قليلاً جداً عن الدكان وكان لونه مصفراً شاحباً لتعفن معدته ليلاً إثر يوم عيد أضحى ذبحوا فيه كعائلة كبشاً كبير نسبياً واجتمعت أجيال العائلة كلها، وقضوا يومهم كله بتناول الطعام بدءاً من الشاي ومسحوق اللوز، وبعده اللحم المسلوق- اللبن بالخيار، واللحم المدقوق بالقمح- اللبن الرائب- معقود المشمش- أرز باللحم- شاي- بقلاوة بالفستق- حلوى السميد عن أرواحٍ الميتين- عنب- بطيخ أحمر- بقلاوة بالفستق من جديد- وحلوى أيضاً. ولعدم تمكن الأجير الأنمش من الربط بين البقال العصبي الذي يراه في الدكان كل يوم، والعم الحنون الذي يظهر أمامه في مجالس العائلة في عقله، وجد الحل في النهاية باعتبار أن هذين الرجلين مختلفان تماماً أحدهما عن الآخر. ولكن العيب الوحيد لهذا الأمر هو أنه عندما يطلب منه أبوه أو أمه في البيت أن ينقل شيئاً ما إلى عمه عندما يذهب إلى الدكان في اليوم التالي، ينسى أن ينقله في كل مرة من دون استثناء، لأن مقاومة مكان ما من عقله لهذا الأمر يجعله ينسى، رغم قوله لهم "حاضر".

أثناء اقتراب موسى من الدكان مجرجراً قدميه، كان الأجير الأنمش يضع كتاب الآيات على البسطة، وعينه على الباب، ويده في خزانة الموالح، ويأكل فستقاً مملحاً من جهة، ويحفظ جزءاً من القرآن من جهة أخرى.

عندما دخل موسى غير المعتاد على النهوض باكراً إلى هذا الحد إلى الدكان، ولم يجد عملاً يقوم به، أو أحداً يتكلم معه، فقرر أن يوزع بنفسه خبز البناء هذه المرة. خطا عدة خطوات نحو خزانة الخبز الزجاجية، وتوقف فجأة. الزاوية التي يقف فيها تطل على جدار حديقة بناء قصر بنبون. أشار للأجير الأنمش أيضاً لما رآه. وقف الاثنان متجاورين، وقرأا الكتابة.

قال موسى: "أرجو أن لا تراها مريم"، وأبرز أسنانه المنخورة، وضحك ضحكة لنفسه.

قال الأجير الأنمش: "لماذا؟" مقطباً وجهه عندما لم يستطع التقاط حبة الفستق المملح بعد أن ألقاها في الهواء.

"لماذا سيكون؟ لأنها ستؤمن بهذا."

# الرقم 10: المدام الخالة

بعد أن أفرغت المدام الخالة الأكياس التي جلبتها، فتحت الباب ذا المصراعين، وخرجت إلى الشرفة. أسطح الأبنية المقابلة مليئة بعشرات النوارس المتجه كلها نحو الجهة نفسها وكأنها تفكر بالأمر نفسه. رفعت يدها إلى رقبتها وهي تنظر إليها شاردة.كان في رقبتها عقدان، واحد منهما لم تخلعه أبداً. يتأرجح في نهاية العقد الطويل مفتاح، أما في طرف القصير فتعلق صورة القديس سيرافيم.

تشبه اسطنبول امرأة حاملاً في شهورها الأخيرة ازداد وزنها بشكل كبير، ولن تستطيع حمل حتى اليوم التالي. يرتفع من بطنها الواعد بعظمة صوت ماء متماوج في كل خطوة تخطوها. كانت تأكل بشكل دائم، وهي نفسها لم تعد تعرف كم من الطعام تفيد به نفسها، وكم منه يفيد الروح المصغرة إلى هذا الحد، والضعيفة، والمتنامية يوماً بعد يوم. تريد أن تتخلص من هذا العبء الثقيل بأسرع وقت ممكن لو أن الأمر بيدها. لم تكن تستطيع. انتفخت بقدر ما تستطيع على مدى السنوات والقرون. يُنقل إليها الطعام والشراب في صناديق

بواسطة السفن، والقوارب، والسيارات، والشاحنات، والحمالين المرتجفة أرجلهم، والقوافل التي فقدت ذيولها على الطرقات. وهي تأكل. تأكل وتشرب حتى حدود الانفجار. لو أنها لم تستطع إخراج شيء مما يُنزل إلى جسدها الجائع دائماً بشهية لا تهدأ أبداً، لانفجرت منذ زمن طويل؛ ولكلفها هذا غير روحها أرواح الذين في بطنها. المهم أنها كانت تخرجه. ومثل إنسان يخرج غازات ذات روائح قذرة، وسوائل تقلب المعدة، وبرازاً، وقيئاً، وبلغماً، وبقدر ما يخرج الإنسان، تخلص هي أيضاً جسدها المتعب، والحاقد. تسيِّل قيء جروحها المتقرحة إلى الزبالة. بقاء المدينة متمكنة من الحركة حتى الآن يعود للزبالة المتراكمة تلالاً حتى لو دفنت في حفر، والناهضة من رمادها حتى لو أحرقت، وغير الناقصة حتى لو أخذوها إلى أماكن بعيدة، والجاذبة بعضها بعضاً وكأن فيها مغناطيس. واسطنبول لا تخرج كل هذه الزبالة لأنها تعيش، بل مازالت تستمر بحياتها لأنها تستطيع إخراج هذه الكمية الهائلة من الزبالة.

الزبالة ليست نهاية. الحياة لا تنتهي هناك، إنها تغير شكلها وجوهرها فقط. ما يضخ خارج جدران المدينة غير المرئية، يُفتت إلى أجزاء في المزابل التي تلقى فيها، وتفصل بحسب أنواعها، وتُحرق، وتضغط، وتدفن... ولكنها لا تزول نهائياً أبداً. وفي النهاية، تعود مثلها مثل هارب تعرض للفشل في المكان الذي ذهب إليه. وتتسلل إلى اسطنبول إما من التراب وإما من الماء وإما من الهواء. إما من جامعي الزبالة، وإما من الهواء الجنوبي، وإما من النوارس...

النوارس أيضاً تتفق بالرأي مع العجوز. هذه الطيور المشردة التي صارت تأكل الزبالة في حين أنها يجب أن تأكل اللحم، لم تعد تستغرب ولو بمقدار ذرة حياتها في اسطنبول المنتجة حياة من نفاياتها، وفي الوقت ذاته دائرة مَعِديَّة.

تجلس المدام الخالة كل صباح وكل مساء تقريباً على شرفتها المطلة من الأعلى قليلاً على تل رمادي أغبر شاحب لبيوت ممحوة وسيئة على شكل

علب مصبوغة بشكل عشوائي، وتستمع لصمت النوارس، وهدير المدينة المتجمع مع الريح، والمتبدد مع الريح. إذا ظهر لها أحد في آخر قطرة من حياتها هذه، ووعدها بأنها يمكن أن تأتي إلى الحياة في المكان الذي تريد، وبالصورة التي تريد، شريطة أن تغير النوع، لأرادت أن تولد في اسطنبول، وطالما أنها لا تستطيع أن تكون إنساناً، فلتكن بصورة نورس.

# الشقة رقم 7: أنـــا

كان الوقت قريب الظهر عندما استيقظت. وضعت في الحقيبة ملف تحضير الـدروس، وكـتاب "كيكرغارد" الذي تستعيره مني إيجة دائماً بدل أن تشتري واحـداً لنفسـها، وانطلقـت بسـرعة. لحظة خروجي من الباب، كانت التي في الشـقة رقـم ثمانـية داخلـة. إنها منهمكة كلما رأيتها. عملت شيئاً ما لشعرها. أفضـل حالهـا السـابقة، ولكـنها لذيذة هكذا أيضاً، لذيذة جداً! حيّت برأسـها صـامتة، وهربـت بعينـيها. ولكـنني التقطـت نظرتـها. ليست متوجسة بقدر ما تـبدو. وليسـت لا مبالـية إلى ذاك الحد... عندما وصلت إلى الطابق الأرضي في المدخـل، نظـرت وإذ بـباب الشـقة رقـم أربعـة مفـتوح. كانـت تلك المرأة غير المحببة عند عتبة الباب تعطي مريم شيئاً ما. دهشت عندما رأتني، وانتشرت ابتسـامة عـلى وجهـها. قالت: "هل سمعتم ما حل ببنائنا؟ يوجد في حديقتنا ولي، ولا علم لنا."

خـرج الأمر من عقلي تماماً. قلت من دون أن أخرب موقفي: "لِمَ لا يكون؟ نحـن نعـرف أن هـنالك مـزارات لا تحصـى مـن البيزنطـيين إلى العثمانيين في اسـطنبول" وأضفت من دون أن أرفع عيني عن ساعتي: "حسن، هل نستطيع

الادعـاء بأن تلك المزارات تقع ضمن حدود المقابر التي نعرفها؟ لا طبعاً. يجب أن يكـون هـناك مـئات المـزارات التي لم تكتشف. وما هو أكثر طبيعية من أن ينظر البعض إلى بعضها على أنها لأولياء؟"

رمقـتني بعينـيها من فرقي إلى قدمي لمعرفة إن كنت أسخر أم لا. ظهر بين حاجبـيها عدة خطوط توحي بتوترها أكثر مما توحي بتقدمها في السن. قالت: "نحـن وإيـاكم زمـلاء مهـنة." وبهـذه العبارة عقدت ذراعيها على صدرها كأن الحديث كله انقلب لمصلحتها. وأنا أيضاً صمت.

حـررت زرين أطشميزاج أوغلو وجهي من نظراتها الوخاذة، واتجهت نحو مـريم. وأنـا أيضـاً نظـرت معهـا. كانـت مـريم تسـتمع لحديثنا ملصقة شفتيها إحداهمـا بالأخرى كأنها قلقة من انزلاق عبارة من فمها بالخطأ، وبتعبير وجه لا يعطـي سـراً. اعـتقدت لـلحظة بـأن حدقتـيها تضـحكان. ولكـنها بعد ذلك مباشـرة، حيتـنا ملوحة برأسها بتعبير مزعج، والتقطت قائمة الطلبات الموصى عليها، وخرجت أمامي ذاهبة.

# الرقم 5: الحاج حاج وابنه، كنته، أحفاده

قالـت التي في الخامسة والنصف من عمرها: "حسن، ماذا لو وطأت فوقها بالخطأ."

نط الذي في السابعة والنصف من عمره قائلاً: "إذا وطأت سيتلبسك الجان. ينحرف فمك وأنفك، وتبقى معوجةً."

"أنت أيضاً رأسك ضخم!"

تدخـل الحاج حاج في الوضع منهمكاً: "لا تقولي هذا لأخيك الأكبر. من لا يحترم الكبار لا تحبه الجان، ولا يحبه الله أيضاً."

شـدت الـتي في الخامسة والنصف من عمرها ثوبها البطيخي اللون اللامع، وأطرقـت برأسها. وبعد أن بقيت هكذا فترة، نظرت إلى أخيها بطرف عينها، فوجدتـه مـازال يـنظر إلـيها كمـا كـان قـبل قلـيل. انزلقـتْ إلى طرف بهدوء، واندست بجدها.

"لـلجان سـلطان، ويطلقـون عليه اسم بيلزبوب. لا يمكن لهم بأي شكل أن يخـرجوا عـن كلمـته. ولكنه شوهد أنهم حبكوا بعض الأحابيل أحياناً من غير عـلمه. وجماعـة الجـان أنـواع منوعة. هنالك الطيبة منها والسيئة. ما نسميهم

الجـان مثل الناس، منهم المؤمن، ومنهم الكافر. يوجد ثلاثة أنواع من الجان: قسـم مـنهم عـلى شـكل الأفاعي أو الحشرات. والنوع الآخر على شكل ريح أو مـاء. أمـا الـنوع الثالث، فهو على شكل إنسان. وهؤلاء هم الأخطر. لا يمكنكم أن تدركـوا إن كـانوا جانـاً أم أنسـاً. وهـؤلاء يقـيمون الحفـلات لـيلاً بالطـبل والمـزامير، ويـأكلون ويشـربون حـتى الصـباح. إذا صـادفتم حفـلاً للجان ليلاً، علـيكم أن تشـيحوا بوجوهكم مباشرة. احذروا من النظر إليهم. وإذا نهضتم إلى المـرحاض، فـلا تخطوا خطوة من دون قول بسم الله. يجب أن يُنتبه للعتبات. فهـم يقفـون في العتـبات عـلى الأكـثر. طريق الابتعاد عن الجان هو عدم القيام بـأي شـيء مـن دون قـول بسـم الله. إذا فعلتم شيئاً من دون البسملة، لابد أن يأتوا متدخلين بشيء ما لكم."

أسـند الحـاج حـاج ظهـره الـذي آلمـه إلى إحدى المخدات المكومة في البهو للعـب عـثمان، وأخـذ في الـنهاية الفـتاة المقتربة منه قليلاً قليلاً حتى التصقت ببطنه.

"أسـوؤها زوجـة الأحمر. إذا تلبست واحدة ولدت حديثاً، فإنها لا تتركها بعـد ذلـك، معـاذ الله. وتركـب بلعوم المرأة التي في النفاس طوال الليل كأنها تركـب حصـاناً. تطلـع لهـا روحـها طوال الليل، وعندما تشرق الشمس، تترك المسـكينة تسبح بعرقها في حالة يرثى لها، وتذهب. تنظرون ليلاً وإذ بها تأتي من جديد. تدحرج الطفل الذي في المهد مثل كرة القدم، وتقذفه في الهواء."

قـال الـذي في السـابعة والنصـف مـن عمـره ملتفتاً إلى أخويه: "أنا أتذكر، جاءت عندما ولدا."

"تأتي بالتأكيد. لو أن أمكم لم ترفع أنفها معاندة، ودعت المرحومة جدتكم لأبيكم، لما حصل هذا. المرحومة تعرف كيف تطرد زوجة الأحمر. راحت المرأة المسكينة قبل أن تشبع من أحفادها."

قلـق الـذي في السادسة والنصف من عمره، والتي في الخامسة والنصف من عمـرها مـن جـواب جدهمـا. أرخـت الفـتاة الصـغيرة شـفتها إلى أسـفل بشكل خفيف، ووضع الصبي إصبعه البنصر التي نحفت لكثرة مصه لها في فمه.

"وعليكم أن تنتبهوا لكونجولوس السوداء. فهي الأكثر ظلماً. فهذه تنتحل شخصية امرأة عجوز، وتتجول في الأزقة. وتربط الزوايا. وتطرح على الذين سينعطفون من الزوايا أسئلة. تقول: من أين تأتون هكذا؟ إلى أين تذهبون؟ وتسأل: أولاد من أنتم؟ عندما تُرى كونجولوس السوداء لابد أن تعطي جواباً تدخل فيه كلمة أسود. مثلاً، عليك أن تقول إنني من بيت الأسود، من آل الصفصاف الأسود أو ما شابه ذلك. حينئذ تتركك براحتك، وأنت تمر. أحياناً تسأل عن عنوان، وإذا لم تعرف العنوان، فيا ويلك. تستل هراوتها من حقيبتها، وتنهال على رأس الرجل ضرباً حتى يغمى عليه."

انقطعت كلماته بصوت رنين الهاتف. ذهب الذي في السابعة والنصف من عمره إلى السماعة بحركات ثقيلة. **نعم أنهوا إفطارهم. لا، إنهم لا يعملون أي أذى. نعم، إنهم يتفرجون على التلفزيون. لا، الجد لا يحكي حكاية. لا، إنهم لا يفتحون الغاز. لا، إنهم لا يبعثرون أغراض البيت. لا، إنهم لا يتدلون من الشرفة. لا، لا يلعبون بالنار. لا، لا يدخلون إلى غرفة النوم. والله إنه لا يحكي حكاية.**

أرادت أمه أن تتأكد قبل أن تغلق الهاتف: "إذا كان جدكم يحكي لكم حكاية، فقل 'إن الجو بارد'، وأنا أفهم الأمر"

تردد الذي في السابعة والنصف من عمره. انزلق بريق مفاجئ من عينيه اللتين بخضرة الطحالب كأنها مقتبسة من بريق الليل. خيم صمت للحظة. عندما غاب البريق، كان قد غير رأيه. أجاب من دون حرج، ومن دون الشعور بضرورة خفض صوته، ومن دون أن يرفع عينيه عن عيني جده: "لا، لا أمي العزيزة، الجو ليس بارداً، ولكن جدي يحكي لنا أموراً غريبة جداً."

# الرقم 7: أنـــا

قالـت إيجـة الجالسـة في الصـف الأول بصـوتها الأكثر إقناعاً: "أنتم اليوم لسـتم عـلى مـا يرام يا أستاذي" ارتدت من فرقها إلى قدمها لوناً حالك السواد كمـا اعـتادت دائمـاً. صـباغ شـفاه أسـود، وطـلاء أظافر أسود، وإبراز للعينين السـوداوين بقـلم أسـود... أخرجـتُ مـن حقيـبتي كتاب الـيأس مرض مميت، ووضعته أمامها.

قلـت: "أتيـت إلى الـدرس مسـتمتعاً، وخروجي من الدرس مستمتعاً مرتبط بكم. لنر إن كانت المقالات قد قُرئت." مقدماً مداخلة من مداخلاتي المعتادة في أيام الخميس.

قالـت إيجـة: "قـرأنا الأجـزاء المتعلقة بحسـن الحـظ مـن مديـح الجـنون لإراسموس، بالمقارنة مع الحظ عند ماكيافيلي."

قلـت: "يا له من أمر مبهم هذا الحظ؟" مبدياً اهتماماً لخطاب الصف كله، وليس إيجة فقط.

نطـت إيجـة قائلـة: "إنـه الجانـب الأنـثوي بالتأكـيد" مستمتعة بخرقها لما أبديـته مـن عـناية. "إن ماكيافـيلي أو إراسمـوس يشخصـان الحـظ مـن جهـة،

ويؤنـثانه مـن جهة أخرى. إنهما لا يجدانه محظوظاً لأنه أنثي. كذلك الأمر فإن باباوات الكنـائس أيضـاً يفكـرون على هذا النحو. ونحن أيضاً. نقول حظ أعمى يـاه، أو نقـول عـالم عاهـر/ حـظ سـيئ. إذا كانـت المرأة عمياء: إذا كانت المرأة عمـياء، فـلا تـرى مـن يعطـي، ولا مـاذا يعطي، لهذا السبب لا يتوقع منها أن تكـون عادلـة. أو إذا كانـت المـرأة عاهـرة: إذا كانت عاهرة، فهي ليست عادلة أساسـاً. أحـياناً يكـون بـيدها عَجَلـة. وأحـياناً أيضاً تشكل بنفسها دائرة بتدوير ثوبهـا. لهـذا السـبب نقول عجلة الدنيا. لا يعرف متى تتوقف، ومن أجل من، وأيـن. بالنسـبة إلى ماكيافـيلي فـإن نصـف الحـياة يديـرها الحظ، وليس ثمة ما نسـتطيع فعلـه. ولكـنه مـن الممكـن فـرض بعـض الأمور على الحظ جزئياً. ولأن مراجعنا في الفكر هم رجال، فإنهم يعتقدون بأنه ثمة طريقة ما لإخضاع النساء."

قـال جـم مقطـباً وجهـه: "هل الحـظ الذي نذكره، ونعيد التوقف عنده هو قدرنـا؟" مـن دون أن يجـد حـرجاً بإظهـار أنـه لم يقـرأ المقالات بشكل واضح تماماً.

خلال عشر الدقائق أو الخمس عشرة دقيقة التالية تحدثوا عن قدرنا مقاطعاً أحدهم الآخر.

قالـت الفـتاة المجعـدة الشـعر ذات الـنظارة، والـتي أنسـى اسمهـا دائماً، وأعـرف أنهـا لا تحـب إيجـة ولـو بمقـدار ذرة، ولكـن لسبب ما تجلس دائماً خلفهـا: "أنـا أرى أن تناول ماكيافيلي رخيص مثل الإمساك ببيضة من جناح الأنـثوية. مثلاً هل تفكر بأنك تعيش حياة رسمت لك مسبقاً؟ هل حدد حياتك ديـر الراهـبان؟ هـذا سؤال. أثناء حديث الرجل عن القدر، إنه يحاسب الدين بشـكل واضـح. قبل التخلص من الحظ، أو قبل ترويضه فلا التنوير ممكن، ولا التقدم."

تمطت إيجة متوترة، ووضعت ساقاً على ساق. إنها تعمل هذا بشكل دائم. تعـرف أن ساقيها جميلتان. لم ألحظ حتى الآن أي خسارة جدية على الصعيد المسلكي لزملائي الذين جاء ذكرهم في قضايا العشق مع الطالبات. فإذا قُصد أن يُهـاجم شـخص لهـذا السـبب، فهـذا يعني أنه سيهاجم. سبب عدم تقديسي

لاهتمام إيجة بي، ليس خشية وصول هذا الأمر إلى آذان زملائي أساساً. القضية ليست فيما يفكر فيه الأكاديميون، بل فيما يفكر فيه الطلاب إزاء مواقف كهذه. وما سيتحدثون به أكثر مما سيفكرون به. لأنهم لابد أن يتحدثوا. لا يمسكون بألسنهم القطعية الحادة نهائياً. لابد أن لكل منهم صديقاً مقرباً، وأهم خصوصية لكاتمي الأسرار هي امتلاكهم أسرار آخرين، وهكذا تستمر السلسلة. إنه تخريب للسحر تماماً! يخرج من كونه أستاذاً يثير الفضول من بعيد، ويُكن له الاحترام، وتُسمع كلمته، إلى فان معروفة بشكل مؤكد نقاط ضعفه وجنونه وعبثه وزلاته وعقده. إقامة رجل متوسِّط العمر علاقة مع فتاة شابة يمكن أن تكسبه تقديراً ممتعاً، ولكن هذا التقدير مهما بلغ فهو متأرجح، ويمكن سحبه في أي لحظة. سينقلب رأساً على عقب بسهولة مع أول نقفة صغيرة. الرسائل التي تكتبها، والاعترافات التي تعترف بها، والأسرار التي تحكي عنها تتحول فيما بعد إلى بلية على رأسك. تتجول القدرة الجنسية على الألسن، وتغدو لعبة أولاد. هذا لا يستأهل. أفكر بأن أي فتاة من الطالبات اللواتي أعرفهن لا تستأهل كل هذا. حتى إيجة.

قالت إيجة موجهة عينيها إلى عيني، وهازة كتفيها: "في الحقيقة إن الأفضل هو اعترافنا بلحظة سابقة لم نستطع أن نسيطر فيها على حياتنا. لعلني يمكن أن أعتبر نفسي مسؤولة عما فعلته، ولكنني لا أعتبر مسؤولة عن الطرق التي فتحتها." ثم أضافت وهي ملتفتة إلى الخلف: "في الولادة لا آتي إلى الحياة ابنة هذا الرجل، بل ذاك. فلا أستطيع اختيار أبي، ولا قوميتي، ولا ديني، ولا لغتي. وإذا فرضوا علي هذا الأمر، فأفضِّل ألا أولد. إن الأمر بسيط إلى هذا الحد. لو أنكِ ولدت في مكان مختلف لما كان على رأسك الآن إشارب، بل في رقبتك صليب." ولكنه لم يُفهم أياً من الفتيات الثلاثة ذوات الإشاربات خاطبت.

قالت سدا التي تتوسط الثلاثي المتجاور: "أنا أيضاً أؤمن بالقدر."

قالت إيجة الوقحة: "ولكن الأمر ليس على هذا النحو. أنت تؤمنين بعدالة سامية. تعتبزين بأن الآن يحدث هذا وهكذا، ولكن فيما بعد سيُحاسب

على كل أمر من هذه الأمور. وهكذا، كما يُدعى فإن السيئين سيعاقبون في جهنم، ويكافأ الطيبون بالجنة، أو شيء كهذا. أي أنه يوجد في عقلك فكرة العدالة، أو يجب أن يكون، وإلا فإن إيمانك سيتزعزع. أما الحظ فهو عكس هذا بالضبط. ليس شيئاً يعود إلى الآخرة، بل شيء دنيوي إلى أبعد الحدود."

اعترض جم المقرب كرسيه من الجدار كأنه سيخرج في أية لحظة من النافذة محتداً: "لم أفهم لماذا علقتم إلى هذا الحد عند الحظ؟ القضية ليست قضية حظ وما حظ، بل هي الفرق بين الدائرة والخط المستقيم. إذا اعتقدت بأنك تسير على خط مستقيم، فستعتقد بأنك تترك وراءك أموراً ما، وأنك ستصل إلى مكان ما. ولكنك إذا فهمت الحياة بحسب الدائرة، فلا يمكن أن يكون هنالك ما يدعى تقدماً. هل أنت متصالح مع التكرار، أم لا، هذه هي القضية. رجل مثل ماكيافيلي لا يمكن أن يكون متصالحاً مع التكرار. ماذا يعني هضم التكرار؟ هذا يعني أنك ستعيش الحياة التي تعيشها الآن مرة أخرى. ولن يكون الغد مختلفاً عن اليوم إلى هذا الحد. إننا نصل إلى السؤال الذي طرحه نيتشة حول روسو. إذا نزل إبليس صغير جداً من جهنم في الساعة الأكثر وحدة من عمر الوحدة، ووقف أمامك، وقال: 'لا تخف يا أخي، أنا أضمن لك عدم وجود ما يدعى الموت. لا يوجد سوى التكرار فقط. وستعيش من جديد كل ما عشته حتى الآن. كما عشته بالضبط. مرة أخرى بعد ذلك، وبعدها مرة أخرى. وسيستمر هذا إلى الأبد.' فماذا ستشعر حينئذ؟ كم منا من يستطيعون تحمل عيش الحياة مراراً وتكراراً؟ لا يمكن للذين يتحملون دلال الحظ أن يعيشوا لحظات جنون. الأمر بسيط إلى هذا الحد. ورجل مثل ماكيافيلي مضطر لقطع الدائرة من مكان ما، وتحويلها إلى خط مستقيم من أجل تمكنه من تحمل الحياة. بعد ذلك تتولد فكرة التقدم، والفردية أيضاً."

نظرت إلى الساعة، كان قد بقي خمس دقائق لانتهاء الدرس الثاني. قلت أثناء إخراجي علبة السجائر عندما أعطيت فرصة: "أعجبني مرة أخرى نجاحكم بالابتعاد عن الموضوع. في الأسبوع القادم تأتون بعد إكمالكم القراءات كلها. وسنتكلم حول القراءات فقط. لن يلقي أحد شيئاً من دون دعم بالشاهد."

في الـدرس الثالـث اكـتفوا بالاسـتماع مـن دون تقديـم رؤى. وأثـناء تدويـن الجميع ملاحظاتهم، تفرج جم على الخارج عبر النافذة متضايقاً. وإيجة أكلت على مرأى مني نصف علبة من الشوكولا باللوز. قطعة شوكولا صغيرة مائلة إلى السواد علقت بشكل شامة طريفة على طرف فمها.

# الرقم 5: الكنة والأولاد

قالت التي في الخامسة والنصف من عمرها ممانعة بدلال: "لماذا نذهب معك نحن يا أمي؟"

قالت الكنة: "أهذا سيئ؟ ألا تريدون رؤية المكان الذي تعمل فيه أمكم؟" مجبرة نفسها على التماشي مع سرعة خطوات الولدين اللذين تمسكانهما بقوة من يديهما. في الحقيقة إنها لا تعرف كيف ستضبط الصغار في غرفة شباك تذاكر السينما، كما كانت تخشى غضب رب العمل، ولكنها انطلاقاً من المعلومات التي حصلت عليها في اليوم السابق، دخلت في الصباح الباكر مع حميها في نقاش حاد، وهي الآن عصبية إلى حد أنها لا تستطيع التفكير بشكل منطقي. أبطأت عند اقترابها من زاوية شارع جرنال، ونظرت إلى الخلف. الذي في السابعة والنصف من عمره قادم متأخراً مترين. إنه يبدو مسروراً إلى أبعد الحدود لخروجه خارج بناء بنبون بعد سنتين رغم تعرضه لنظرات استغراب المارة. الألم المحدود الذي اعتادت المرأة على الشعور به عند النظر إلى ابنها ضغط على مأزق التشتت الذي في داخلها. إنها متعلقة به أكثر من ولديها الآخرين رغم معرفتها أنها ستمضي الوقت الأقل معه. يعود الأولاد

الذيـن يولـدون مرضى لأمهاتهم فقط، ويبقون على هذا النحو على عكس الذين بعمرهم، وإخوتهم.

عـندما وصـلت إلى الـزاوية، أشـارت إلى ابـنها لكـي يُسرع. في الوقت ذاته ضربت يد نحيفة كتفها بشكل خفيف.

امـرأة عجـوز حدبـاء محنية طاقين ترتدي معطفاً ممزقاً بلون الحمص مدت إليها قطعة ورق مجعلكة قائلة: "كيف أذهب إلى هذا العنوان يا ابنتي؟"

تركـت الكـنة يـدي الولديـن مـن دون أن تنتـبه إلى الهلـع الذي أصابهما. أخـذت الورقـة، وعملـت عـلى قـراءتها. ولكـنها عندما لم تستطع قراءة الخط المجعلك والمخربش، هزت رأسها وهي تعيد العنوان.

قالـت الـتي في الخامسـة والنصـف مـن عمـرها: "لم تسـتطيعي معرفـته يا أمـي!" وبـدأت الدمـوع تـنهمر عـلى خديهـا. لم تكـن حال الذي في السادسة والنصـف مـن عمـره أفضـل. أدخـل إبهامي يديه الاثنتين في فمه، وأثناء مصه لهما كان يكرر ويعيد: "هل عرفت، هل عرفت؟"

قـال الـذي في السـابعة والنصـف مـن عمـره اللاحـق بهما من الخلف: "لم تسـتطع أن تعـرف." من دون تأخر بإدراك القضية. وإثر هذا القول بدأ الولدان الآخران بالبكاء وضرب أقدامهما بالأرض بشكل أسوأ.

قالـت الكـنة المـربوط لسـانها دهشـة: "مـا الذي لم أستطع معرفته؟" وهي تـنظر تـارة إلى أولادها وتارة أخرى إلى المرأة العجوز. ولكنها كل ما استطاعت الحصول عليه بدل الجواب هو عدة شهشهات وصوت مصمصة الإصبعين.

# الرقم 7: أنـــا

كـان صـعباً إيجـاد مكـان في الخمارة. إنـها زحمة ليلة الجمعة. عندما فرغت طاولـة في الوسـط، نزلـت عليها، وطلبت كأساً مزدوجاً بداية. أبطأت في الكأس المزدوج الـثاني. في الكـأس المزدوج الثالـث ظهرت السافلة في الباب وضحكتها تصـل إلى شـحمتي أذنـيها. قالت إنها علقت بزحمة السير. ولكنها لم تقدم هذه المعلومـة ذريعـة لـتأخرها، بـل بينت أن هذا التفصيل ضروري لتقدم لي ملخص المباراة الـتي اسـتمعت إلـيها مع سائق سيارة الأجرة المشجع للفريق نفسه الذي تشـجعه. لا أسـتطيع القـول في الحقـيقة إنـني لم أتأثر بمعلومات إثل حول كرة القـدم الـتي امتحـنها بهـا أربابها وبالعمق مرات عديدة؛ وبحديثها المتمادي مع سـائق سيارة الأجرة؛ ومعرفتها خلال عشر الدقائق الأولى أسماء النادلين العاملين في المطعـم الـذي نذهـب إلـيه، وأصـلهم وفصلهم، ومشاكلهم الرئيسة، وتحويلها بعـد ذلك إلى أداة لخوض حديث مع كل طلب؛ وردها فكرة الأنوثة التي تدسها بقـوة في عـين الإنسـان دائمـاً، وفي كـل وسـط، وفي كل فرصة. وهذا ما كان منذ الـبداية. كانـت صـداقات آيشـن وإثـل الأقـرب إلـيهما عبارة عن موضوع بحث

وتحليل، وقد أفصح عن نفسه هذا المفهوم الحيوي بكل عريه عندما انضممتُ إليهما. كانت آيشن تحب كرة القدم، وحتى لو كانت تؤيد فريقاً لمجرد التأييد، فإنني أشك بأن تصل إثل إلى طرح ما يُناقض حب كرة القدم هذا.

قلت لها أثناء ملئي كأسها: "وجدت حلاً جذرياً لمشكلة الزبالة في بناء قصر بنبون." وشرحت لها عن الكتابة التي كتبتها على جدار الحديقة. يجب أن تكون غير متوقعة أمراً تافهاً كهذا مني، مما جعلها تتجمد دهشة بداية، ولكنها بعد ذلك نثرت قهقهات محملة بالغنج، وجعلتني أحكي القصة كلها من أولها من جديد. مع شرحي كنت أجد أيضاً ما أشرحه مضحكاً. أثناء وصفي لنفسي أمام جدار الحديقة حاملاً الفرشاة والدهان طقت خاصرتاها من الضحك. إما أنها سكرت بسرعة هذا المساء، وإما أنها كانت شاربة عندما أتت. نهضنا قرب الساعة الواحدة. صافحت إثل النادلين كلهم واحداً واحداً مودعة. وبحسب المعلومات التي حصلت عليها حتى تلك اللحظة، أرسلت تحياتها لأولادهم ونسائهم من دون إهمال تقديم بعض العبارات الختامية على سبيل السلوان فيما يتعلق بهمومهم. عندما خرجنا إلى الشارع، وصحونا قليلاً، قليلاً جداً بنسيم المساء، أصرت هذه المرة على أن أريها تلك العبارة.

قفزنا إلى سيارة أجرة. عندما ركبنا السيارة، انفلت ضحك إثل من عقاله، الضحك الذي بدأته بعيار خفيف في المطعم، وتضاعف إلى حد وصوله إلى نوبة أثناء مسيرنا في الطريق. تقهقه، وتتملص من يدي التي تحاول ضبط يدها العاملة على فك أزرار بنطالي في آن واحد. لم أستطع مقاومتها. وأثناء مداعبتها لي بإثارة، وضعتُ السائق الذي يبدو في عمر أقل مما يُؤهله للحصول على رخصة قيادة سيارة تحت رقابة عيني. ولعدم حصول أي تغيير بلون وجهه الأمرد، لم أتأكد بأي شكل إن كان يرانا أم لا. لحظة وضعي سترتي على حضني لتكون ساتراً، انطلق من فمي صوت مخنوق لا إرادي من شدة الألم. أنا أكره طول الأظافر منذ وعيي على الحياة. وأدركت من الابتسامة الظاهرة على وجه السائق في اللحظة ذاتها أنه منتبه لما يحصل. أمسكت يد إثل بقسوة، وأبعدت مخالبها بصعوبة بالغة. غضبت. أشعلت سيجارة وهي

تكلم نفسها. السائق المتابع لكل أنواع التجاذب والتنافر الحاصل بيننا تدخل في الحديث بتوقيت مناسب، وسأل عن وجهتنا. أثناء نفخ إثل دخان سيجارتها التي وضعتها في مشرب الياسمين على شكل حلقات إلى سقف السيارة، أجابت منتشية:

"إننا ذاهبون إلى الجد سكرة. إلى الجد سكرة جد المكوية قلوبهم، والمفرقين عن أحبائهم، وغير المستطيعين التمسك ببعضهم بعضاً كلهم."

انتبهتُ إلى أن السائق ليس فتياً إلى حد ما توقعت، وأن ظهوره بهذا المظهر نابع من كونه أمرد أكثر من عمره. لحظة رمقه لي تارة ولإثل تارة أخرى عبر المرآة العاكسة محاولاً تقدير خطورة الموقف، تدخلت معرفاً له الطريق. ولكن إثل لم تترك الرجل بحاله. قدمت له أيضاً سيجارة، وسألته أسئلة متتالية حول بلده الأصلي، وإن كان يؤمن بالأولياء، وإن كان متزوجاً أم لا، وإذا صار عنده بنت في المستقبل فإلى أي مرحلة يفكر بتدريسها، وإن كان سيرفض بنوة ابنه فيما لو علم أنه ازدواجي الجنس، وأي فريق رياضي يشجع. وظهر أنهما يشجعان الفريق نفسه عن غير قصد.

عندما وجد السائق فرصة وسط مطر الأسئلة، قال: "ركب السيارة ذات مرة زوجان من دون تشبيه جنونهما بكما لا قدر الله." أطلقت إثل قهقهة متسلسلة أخرى برفقة سعال كأن حسكة علقت في بلعومها.

"كنت قد بدأت العمل ليلاً حديثاً، ولم أتعرف على زبائن الليل بعد. بدأا الشجار والصراخ والصخب إثر ركوبهما مباشرة، مقومين القيامة. المرأة تصيح وتصرخ. والرجل لا يتنازل أبداً، فيرد عليها بالحدة نفسها. ثم إنهما يتكلمان باستخدام شتائم لا تسأل عنها. ولكن من الواضح أن أحدهما يحب الآخر. وإذ بالرجل سيذهب إلى خارج الوطن للعمل. والمرأة لا تصدق أنه سيرجع. تقول له وهي تبكي وعيناها كنبعين إذا ذهبت فلن تعود. وتتوتر أحياناً فتضرب الرجل وتلكزه. إنها تجريسة. المهم ذهبنا على هذا النحو إلى العنوان الذي طلباه. سنترك المرأة هناك، ونستمر بطريقنا. ذهبنا، ولكن المرأة لم تنزل من السيارة. عنّدت قائلة لنذهب إلى الولي تللي بابا. تمسكت بهذا المقعد الأمامي، وقالت

لا أنـزل من دون رؤية تللي بابا، والله لا أنزل. أقنعت الرجل أيضاً. تللي بابا في آخـر الدنـيا، أذهـب إلـيه أم لا، وسأسـلم السيارة أيضاً. أساساً كنت أقول لنفسـي في تلـك الأيـام، لن أعمل ليلاً مهما كلف الأمر. المهم، بعد ذلك بكثير تغـير فكـرنا يـاه. لا يـنـزلان ليركبا في سيارة أخرى، وفوق ذلك يعرضان علي ضـعف الأجرة. المهم، بينما كنا نقول نذهب أم لا نذهب، ضغطنا على الوقود في ذلـك الوقـت المـتأخر مـن الليـل، وقصـدنا تللـي بابـا. نزلت المرأة. فتحت حقيبـتها، وبحثت عن شيء ما. ضاع في الظلام. الرجل وأنا ننتظر في السيارة. مـر مـا يقـارب عشر دقائق، جاءت المرأة باكية. قالت للرجل: 'احن رأسك!' أحـنى الـرجل رأسـه. بعد ذلك، أرادت المرأة بزعمها أن تقص شعرة، ولكنها ألا تقـص مـن الـرجل خصلة كبيرة من الشعر بكل قوتها! إثر هذا، ألا يهجم علـيها تحـت تـأثير الألم، ولهـذا السـبب بـدأا بالشجار. المهم، أخذت المرأة الشعر، وغابت من جديد. وجدت خرقة في مكان ما، وربطت بها شعر الرجل عـلى الشـجرة، وقـرأت، ونفخت، وجلست، ونهضت، ونحن ننتظر هكذا في السيارة. تركناها تعمل ما تريد أن تعمله. جاءت في النهاية، وقد هدأت قليلاً. قالـت: 'سـآتي بعـد هـذه المـرة بغطـاء رأس العـروس الغربولي إلى تللي بابا!' نظـرت، وإذ بالـرجل قـد هدأ. تعانقا. وأخذا اسمي، ورقم هاتفي من أجل أن يدعواني إلى عرسهما.

تدخلـت إثـل قائلة: "تزوجا بالتأكيد، ودق كل منهما بخناق الآخر" مادة رأسـها نحـو مقعـد السـائق، وهي تقوم بهجوم جديد على أزرار بنطالي بيدها اليمنى التي بقيت فارغة.

قـال السائق وهو يهز رأسه هز العارف: "لا يا أختي، الأمر أسوأ من هذا. بعـد سـنتين كـان الفصـل شـتاء، وأي ثلج يندف، والعين لا ترى مغرزها. ألا يركـب هـذا الـرجل سـيارتي مـرة أخرى؟ ولكن معه هذه المرة امرأة أخرى. لا أدري إن كانـت زوجـته أو عشـيقته. ولكـن مـن الواضح أنهما معاً. أنا عرفت الـرجل فـوراً. هـو أيضـاً عـرفني. سـاءت حالتـنا معـاً. هرب بعينه مني، وأنا شـحت بهـا عنه. التي بجانبه غير منتبهة إلى أي شيء طبعاً. إنها تحكي عن

أمـور ما من دون توقف. تحكي، ولكن الرجل غير منتبه كأنه ليس هناك. إما أنـنا قطعنا عشر أمتار وإما لم نقطع، لم يستطع التحمل، أوقف السيارة، وقفز إلى الأسفل. والمرأة انزلقت من خلفه مندهشة.

عقـدت إثل يديها على بطنها، وتنهدت مكدرة. لو أنني أستطيع فهم متى تتأثر هذه السافلة، ومن ماذا. صمتنا بضيق. لم ينبس أحدنا بكلمة حتى وصلنا إلى مـنعطف زقـاق جـرنال. ولكنـنا فور وقوفنا أمام بناء قصر بنبون، احتضنت إثـل نشـوتها الباقـية مـن دون إكمـال، وانطلقـت مـن السـيارة كسـهم. وإثـر إلحاحهـا نـزل السـائق أيضـاً. اصـطففنا أحدنـا بجانـب الآخر كأننا في دقيقة صمت الحداد، ونظرنا صامتين على العبارة التي على جدار الحديقة.

**يوجد تحت هذا الجدار وليّ**

**لا ترموا الزبالة!**

قلت للسائق: "كيف وجدتها؟"

قـال بتعبير لم أفهم منه إن كان يمزح أم لا: "جيد، حسن، ولكنك أملتها يا أخي الكبير. ولم يعجبني لونها."

انحنـت إثل طاقين كأنـها ستتقيأ، وسقطت في نوبة ضحك جديدة. أرخت نفسـها تمامـاً، وضـحكت وهـي تضـرب بقدميها حتى ذرفت عيناها بالدموع. أصـدرت صـخباً إلى حـد نجاحهـا بإشـعال ضوء أو اثنين في البناء. السائق من جهـة، وأنـا مـن جهـة أخـرى، أدخلـنا السـافلة بصعوبة إلى السيارة. تركت القهقهات الهادئة تدريجياً أثناء الطريق مكانها للحزقة المتصاعدة تدريجياً. لم أرهـا مشتتة هكذا منذ فترة طويلة. عندما وصلنا إلى بيتها، لم يكن عندي دافع للـبقاء معها. مددتها على سريرها. غطت في النوم فور وضع رأسها على المخدة أصلاً. انتظرت سيارة الأجرة في الأسفل. جلست في المقعد الأمامي عند العودة. نظرت وإذ بالعداد قد ارتفع رقمه جيداً. منذ طلاقي ونصف راتبي يذهب على الإيجـار، ونصـفه الآخـر عـلى أمسـيات المشـروب. قدمـت للسـائق سـيجارة، أخذهـا. أشعل سيجارتي بداية، ثم سيجارته. عندما نزلت المرأة السكرانة من السيارة، قَرَعَ صمت حميم في الفراغ الذي خلفته وراءها.

قلت: "لا تؤاخذنا، أوجعنا لك رأسك أيضاً."

قال: "لا يا أخي الكبير، لو تبقى أسباب وجع رأس الإنسان هذه فقط."

أثناء انتظارنا على الضوء الأحمر عند المنعطف، حل علي ضيق مفاجئ. مرت سيارة شرطة بجانبنا مسرعة. تعلقت عيناي بزبالين طويلي القامة، متقابلين وجهاً لوجه، يدليان أيديهما المرتدية قفازات سميكة، ويتمسكان بمؤخرة سيارة زبالة تسير أمامنا ببطء. أثناء مرورنا تحت مصباح الشارع أضيء وجهاهما الشاحبين. كأن أحدهما ينظر إلى الآخر مبتسماً من دون أن يتكلم، أو بدا لي هذا. لم تكن ثمة واسطة نقل أخرى في الجوار. عندما عاد الضوء إلى الأخضر فهمت بأنني لن أستطيع التغلب على ضيقي. طلبت من السائق أن يتجه بالاتجاه العكسي تماماً. بعد عشر دقائق، كنا أمام بيت آيشن. أوقفت السيارة. لم أنزل إلى الأسفل. الستائر مسدلة، والأضواء مطفأة. في أثناء فرجتي على بيتي السابق، انتظر السائق الأملس صابراً من دون أن ينبس بكلمة واحدة.

فتح المذياع في طريق العودة. أعجبتني كل أغنية عُزفت. في النهاية استطعت الوصول إلى بناء قصر بنبون عندما أضيف صفر جديد على العداد. وعلى أضواء السيارة شعرنا بضرورة مد رأسينا من نافذتي السيارة على اليمين واليسار للنظر إلى العبارة من جديد.

أثناء إخراج السائق بقية النقود، قال: "يا أخي الكبير، أنت كتبت هذه العبارة ياه، ماذا لو ظهر إنسان يؤمن بهذا؟"

قلت ضاحكاً: "لا، يا ما هنالك أيضاً. وهذا أفضل ياه. آه لو أنهم يؤمنون. والناس لا يرمون زبالتهم هنا."

قال وهو يمر بأصابعه فوق شفتيه متوتراً وكأنه يشد شاربه غير المرئي: "حسن ياه، ولكن أمتنا عجيبة. وخاصة النساء، فكلهن عجيبات، كما ترى. أي إن قولي هو... ماذا لو ظهر أحدهم، وآمن بهذا حقيقة."

# الرقم 1: مريــم

الإيمـان مـثل جـدول مواعـيد انطـلاق القطارات، ففي جوهره توجد قضية توقيـت. السـاعة العاجـية الدائرية المهيبة على جدار محطة القطارات تدق في مخـتلف أزمـنة عمـر الإنسـان. وفي المواعيد نفسها تنطلق القطارات. ثمة رحلة واحـدة قـبل الظهـر، ويركب في تلك الرحلة من يختار الإيمان في سن صغيرة. يـنطلق القطار مرة أخرى بعد الظهر، ويأخذ معه ركاب مرحلة البلوغ القلقين. بعـد ذلك لا يوجد رحلة حتى ساعات المساء. ينطلق القطار للمرة الثالثة عندما يحـل المساء في ساعة ظهور أول ندم عميق في حياة الإنسان، وعندما يدرك أنه لا يمكـن تـلافي الجـرائم المرتكـبة، وانهـيار أقـوى الأعشاش رأساً على عقب، وبروز أول مشاكل صحية خطيرة. ولسبب ما فإن ركاب هذا القطار يلحقون به في آخـر دقـيقة، ويركبون. وفي النهاية، عند الاقتراب من منتصف الليل، ثمة رحلـتان للعمليات الجراحـية الخطيرة، أو البقاء على وشك الموت متعاقبتين. وهـذان القطاران هما أكثر القطارات ازدحاماً. وينطلقان من دون توقف على أي محطـة عـبر رحلـة الشـفاعة المباشـرة إلى الـرب مباشـرة. ركـاب قطاري الليل يـأخذون أمكنـتهم في المحطـة بشـكل مسـبق آخذيـن بعـين الاعتبار وقوع أي

احتمال على عكس ركاب المساء. وعندما تدق الساعة مشيرة إلى منتصف الليل، تكون الدائرة قد اكتملت، ووصل العقربان إلى نقطة البداية، ويبقى قليل جداً من غير المؤمنين من زحام المحطة الشديد.

كانت مريم من ركاب قطار اليوم الأول. لهذا السبب فإن معتقداتها أقل حساباً بكثير نسبة إلى الآخرين، وهي من دون حساب، ومن دون كتاب. لو لم تكن حاملاً أثناء كتابة تلك العبارة، ولولا أن حملها جعلها "غريبة" قليلاً، فهل تعمل الأمر نفسه، هذا لا يُعرف. ولكنها في هذا الصباح الباكر خرجت إلى الحديقة حاملة مطرباناً زجاجياً للحصول على تراب من عند "الولي المجهول الاسم" الذي بحثت عنه كثيراً. إنها لا تضع احتمالاً كبيراً لوجود ولي هنا حقيقة، ولكن الأستاذ الجامعي أيضاً قال هذا ياه. طالما أن تحت بيوت اسطنبول وأرصفتها وشوارعها مقابر مندثرة، فلا يُعرف ماذا يخرج، ومن أين. لو لم يكن للكتابة أصل وفصل، لبقيت عند حدود أخذها مطرباناً من التراب فقط، وهذا كل شيء. ولكن إذا كان هنالك ولي حقيقي تحت الوردة الحريرية في حديقة بناء قصر بنبون، فعندها أمنية واحدة منه: ليحقن محمد بقليل من الجرأة.

# الرقم 2: سيدار وغابا

عندما قرع الباب، هرع سيدار آملاً بأن يكون محمد قد جلب طعاماً مرة أخرى. ولكنه عندما فتح الباب، لم يجد أمامه رسول المدام الخالة الصغير، بل فتاة مطيرة عقلها صبغت شعرها بلون نحاسي. جمدَ دهشة لأن الفتاة إما تغيرت منذ مقابلته لها حتى الآن، وإما أنها بقيت في ذاكرته بشكل مختلف. ولكن عينيها جميلتان أيضاً. وقبل أن يدعوها، ابتسمت، وولجت إلى الداخل. توجهت إلى الأريكة بخطوات متعبة، وقبل أن تضطجع عليها، طلبت من صاحب البيت الذي مازال متجمداً من الدهشة ما يمكن أن تشربه. ذهب سيدار إلى المطبخ وهو يحك رأسه. فتح ظرف القهوة الوحيد في المطبخ، وصب الماء الذي غلاه في الإبريق الوحيد في البيت في الفنجان الوحيد على الرف.

قالت الفتاة: "ألن تشرب أنت؟"

قال سيدار هازاً كتفيه: "فيما بعد. يوجد فنجان واحد في البيت أصلاً."

أخرجت الفتاة من حقيبة ظهرها ثلاث قطع بسكويت بالبندق. رفع غابا أنفه إلى الأعلى، وتململ. ولكنه لم يغادر الزاوية التي انكمش فيها فور رؤيتها.

"ماذا كان اسم كلبك؟"

قال سيدار وهو يحاول أن يتذكر إن كان قد تحدث معها في المرة الماضية عن هذا أم لا: "غابا".

"ماذا يعني؟"

"غابا، هو اختصار لاسم كابح نقل عصبي يدعى غاما- أمينو- بوتريك- أسيد. إنه أمر يتعلق بالحصر النفسي في المخ. من أدويته مضادات كونفولسان، وأنكسيت، وطبعاً الكحول، وهذا يبطئ متلقي غابا. أي تشعرين بقلق أقل."

قالت الفتاة وهي متمددة على الأريكة على ظهرها: "كم هذا ممتع، أنت تتكلم الألمانية مثل لغتك الأم ها؟ كم سنة بقيت خارج الوطن؟" وغمت عينيها دهشة عندما رأت السقف.

صحح لها سيدار بموقف مشاكس: "الفرنسية". على ما يبدو أن أمراً واحداً لم يبق في عقل الفتاة مما شرحه لها في المرة الماضية. لماذا طرحت تلك الأسئلة إذن؟ وماذا يعني الآن طرحها الأسئلة نفسها؟ فوق هذا، من الواضح أنها ناعسة. أثناء استماعها للجواب الثاني، أو الثالث على الأكثر ستُغمض جفنيها. ماذا يعني طرحها هذه الأسئلة على الرغم من معرفتها أن أجوبتها لن تكتمل، ورغم رؤيتها أنها لن تصل إلى الكل مهما جمعت من أجزاء. الرغبة بمعرفة إنسان ما وعد عفن، وثمنٌ باهظ! فهو يتطلب استماعاً، ومراقبة، وتنقيباً، وإحساساً، وتفتيتاً، وجمعاً على مدى أيام، وليال، وأسابيع، وسنوات، واستطاعة تحمل رفع اللحاء والتسلل ببطء تحته، ولعلّ رؤية الدماء متدفقة... إذا كانت لن تتحمل كل هذا العذاب منذ البداية، يجب أن تعود وهي ما تزال في أول الطريق، وعدم محاولة القيام بهذا العمل.

**أنا لست كنزاً مجهول القيمة ينتظر في صندوق مغلق الظهور إلى ضوء النهار. جواب كل سؤال ستسألينه عني هو مخبوء لديك بقليل من الفارق زيادة أو نقصاً. أنا لا أريد أن تعملي على اكتشافي، ولا أريد اعتقادك أنك اكتشفتني أيضاً. لسنا مضطرين لمعرفة أحدنا الآخر، ولما نزل لا يعرف الواحد منا مقدار حبة شعير عن نفسه. المعلومات المحصلة عن الآخرين تشبه المأكولات المستخرجة بشكل**

**عشوائي من المزبلة. فنحن لسنا مضطرين لشمها في عقلنا طالما أننا لن نستطيع الوصول إلى طعمها.**

انقطعت أفكاره بشخير مقطع. غطت الفتاة بالنوم مفتوحة الفم. أخذ سيدار السحبة الأخيرة من السيجارة التي لفها ظهراً، واندس بجانب الضيفة. عندما فهم غابا المنتظر منذ فترة قلقاً مما سيقع له أن أحداً لن يهتم به، ترك الانهماك بالحشرة التي بلون البلوك وقد مدت رأسها من ثقب في الجدار، وخرج من المكان الذي كان منزوياً فيه بخطوات واثقة. مزق غلاف البسكويت بالبندق، وأنزلها إلى معدته ببلعة واحدة. بعد ذلك جاء وهو يلعق نفسه، وتمدد أيضاً على الأريكة. بينما كانت مصابيح السيارات المارة في الخارج تنسل من النافذة الضيقة مربكة له، تدحرج الثلاثة، ومن ثلاثة اتجاهات، داخل ثلاثة أحلام مختلفة.

# الرقم 8: الخليلة الزرقاء وأنا

بعد أن راحت، وجاءت الخليلة الزرقاء مرات عديدة بين المطبخ والبهو، ألقت نظرة أخيرة على الطاولة وهي منفعلة. كان كل شيء على ما يرام. أشعلت الشمعة التي على شكل زنبق الماء الطافي في الوعاء المملوء بالماء. وضعت مناديل المائدة الزرقاء بجانب الأطباق الزرقاء. تواعدا في السابعة مساء. في السابعة إلا عشر دقائق قُرِعَ الباب.

قالت: "أهلاً وسهلاً، هل أنت مبكر هكذا دائماً." كانت تلبس بقدميها حذاء عالي الكعبين، ولكنها شعرت للحظة بشكل لا إرادي بضرورة الارتقاء على رؤوس قدميها قليلاً.

قلتُ مبتسماً: "حاولت أن أتأخر. ولكن الوصول من شقتي إلى شقتك يأخذ ثلاث خطوات ونصف."

قالت: "ساقاك طويلان طبعاً. فهي تساوي أربع خطوات من خطواتنا." قالت هذا، ولكنها قبل أن تنهي جملتها، امتقع لونها كأنها ذكرت تعبيراً محملاً بإيماء جنسي.

وقفنا منتصبين عند الباب بدهشة خاصة بالزوجين اللذين يشتهي كل منهما الآخر من بعيد منذ فترة طويلة راصداً الآخر، ولكنهما ترددا عندما رأيا أن رغبتيهما تتحققان ببساطة، وسهولة أكثر مما توقعا. حتى لو أننا لم نلتق حتى الآن إلا عند بابي شقتينا، ولم نتكلم ألا في حديث عام، ولكنني أشعر منذ زمن طويل أنها تحبني كثيراً. عندها وجه يوحي بأنها لا تحافظ على سر. رغم هذا لم أكن أتوقع أن يحدث هذا بتلك السرعة، هكذا من دون تعب...

وضعتُ وجهها بين يدي، ولمستُ خزامها الصغير جداً، والشديد الزرقة. عندما تراجعت إلى الوراء، قالت محاولة الاستمرار من حيث توقف حديثنا، وليس من حيث توقفت قبلتنا: "حضرت فروجاً شركسياً. إن شاء الله تحبه."

فور دخولي إلى الداخل، مررت بتماس مع الطاولة ساحباً لها إلى غرفة النوم. كانت مرتاحة. وكنت مرتاحاً. الزوجان المسلِّمان منذ البداية بعدم وجود مستقبل مشترك لهما، يكونان أقل خجلاً أثناء ممارسة الجنس. ولكننا عندما جلسنا إلى المائدة في وقت متأخر من الليل، كأن شعوراً بعدم وجود ماض مشترك لنا سيطر علينا. كأننا نتشارك العيش في البيت نفسه منذ فترة طويلة... وأعتقد أن كلاً منا استمتع داخلياً بهذا الشعور. انظروا من أينما أردتم أن تنظروا إلى الحدث، ثمة حاجات رهيبة مشتركة لرجل تركته زوجته، وخليلة تعيسة مع زوج امرأة أخرى: في الحقيقة، رؤية أن بوء أحلام الزواج بالفشل غير ناجمة عنهما، ويمكن لكل منهما أن يسير هذا الأمر مع آخر بسهولة.

## الرقم 1: محمــد

ثمـة سـبع عشـرة درجـة في سـلم مدخـل المدرسة، وعندما وصل محمد إلى الدرجـة السادسة عشرة وهو يعدها بصوت مرتفع، التفت ناظراً إلى خلفه بأمل ضـعيف. ولكـن المعجـزة الـتي انـتظرها لم تتحقق. مازالت أمه تنتظر في المكان نفسه. تستند إلى باب الباحة ذي المزلاج ببطنها المنفوخ، وثقلها الكبير. كانت تنظر من خلفه مهمومة بحساسية من يقف في الميناء مودعاً حبيباً ركب سفينة. عـندما رأت أن محمداً قد التفت، ونظر إليها، أشرق وجهها بابتسامة تتركب مـن حـنان ورقـة وفخـر بنسـبة الثلث لكل منها، ورفعت ذراعيها كأنها تكرر حـركة ليونة جسدية بشكل مضحك، ولوحت له بحرارة. من يراها يعتقد أنـها تحـاول أن تُظهر حركات وسط محشر لتلفت انتباه ابنها. ولكنها الأم الوحيدة الـتي تجلب ابنها صباحاً إلى مدرسة فيها 848 تلميذاً في الأسابيع الأخيرة من الفصـل الـثاني، وتصر على الانتظار عند الباب حتى يرن الجرس. طرقت هذا الأسـلوب عـندما علمت أن محمداً هرب من المدرسة. وهكذا ستوزع خبز البناء وجـرائده بـتأخير خمـس وعشـرين دقـيقة بعد الآن. لم تسمع بعد كلاماً حول تأخـرها مـن أي سـاكن من سكان البناء، ولا تعتقد أنها ستسمع. المدام الخالة

تـأكل بقـدر طائـر أساسـاً، ولـيس ثمة خبز تشتريه. إذا قلت هيجين تيجين، فهـذه تدلـي سـلتها، وتـأخذ خـبزاً مقطّعـاً مغلفـاً من الذي لا تمسسه الأيدي. والخلـيلة الـزرقاء لا تـأكل خـبزاً لكـي لا تسـمن. أمـا الرجل الأعزب المقيم في الشـقة رقـم سبعة، فـلا ينتظر خدمة منتظمة لأنه غير معروف متى يخرج من البيـت، ومـتى يعـود. ولعـدم وجود نقود مع سيدار، ولتأسيس مصففي الشعر الـنظام الخـاص بهمـا لن يباليا لهذا التأخير. ولم يبق غير شقتين. ولن تعرض حياة ابنها التعليمية للخطر من أجل تانك الشقتين.

شـعر محمـد بأنه يصغر بضربة مطرقة على رأسه مع كل تلويحة تلوح بها لـه أمـه، وبعـد أن صـغرَ وصـغر، صـار دقيقاً بقدر رأس مسمار عند وصوله إلى الدرجـة السـابعة عشـرة، ودخوله من باب المدرسة الأسود الداكن إلى الداخل. حقيـبة الـتغذية الـتي بيده ثقيلة، والحقيبة التي على ظهره أثقل منها. تلفت يميـناً ويسـاراً باحـثاً عمـا يركله، ولكنه لم يجد. أثناء تردد أصداء الجرس في الممـر لآخـر مـرة، دخـل إلى صفه، واتخذ مكانه بين الاثنين والثلاثين تلميذاً، وجلس على مقعده.

مـر الـدرس الأول مـن دون أي مشـكلة على عكس ما توقع. زميله الجالس معه على المقعد، والذي يأكل منه كفين على الخد كل يوم على الأقل، أدار له ظهـره، وأعطى انتباهه كاملاً لما يُكتب على اللوح. ينظر محمد بامتنان إلى هذا الظهـر الـبالغ بقـدر ظهـرين مـن ظهره تقريباً. لو أنهما يبقيان على هذا النحو دائمـاً. لـو أنـه لم يشارك هذا الولد الضخم بالمقعد، بل بظهره. أرخى كتفيه، وانكمـش خلـف الظهـر السـمين والضـخم، وتلفـت حولـه: إلى السـماء الغامزة بعيـنها عـبر مساحات صغيرة من تساقط الطلاء الفضي المطلية به النوافذ حتى نصـفها لكـي لا يـتفرج مـنها التلاميذ إلى الخارج، وإلى أشرطة الشعر العريضة للفـتاة الخارجـة إلى اللـوح، وإلى أظافـر المعـلمة المدبـبة المطلية بالزهري، وهي المعـلمة الـتي تـنط عـروق رقبتها عندما تصرخ، وبراحة أنه لن يُرى في الزاوية التي يوجد فيها. فكر باقتراب التلميذة التي على اللوح ومعلمة الصف إحداهما مـن الأخـرى. إذا لم تعـرف الفتاة جواب السؤال المطروح، ودست المعلمة أحد

أظافرها الطويلة في أذنها فلن يكون ثمة مشكلة: آذان البنات تكون مثقوبة أساساً. رغم هذا فإن المشدودة آذانهم هم الصبيان على الأكثر. شُدت أذن محمد مرات عديدة حتى الآن، وفي كل مرة لم يهتم بألمه، بل تحرّق خشية أن تُثقب أذنه. عاش بين عمر 0–6 طويل الشعر كالبنات، ولكنه لا يريد أن يعيش عمره من الآن فصاعداً على الأقل بأذن مثقوبة كالبنات. بينما كان يرفع مخاوفه على السارية، اندس بالظهر المجاور له من دون أن ينتبه، وحدث ما حدث في تلك اللحظة. التفت الظهر بشكل مفاجئ، وتحول إلى وجه أبيض ومكشر، وأنزل كوعه على بطن محمد، وابتسم مكشراً بوقاحة.

حلم بالهرب من المدرسة، والذهاب في كل يوم من دون استثناء منذ بدء الدراسة. ولكنه اليوم، وتحت تأثير الألم الذي تألمه بضربة المرفق، لم يتمن التخلص من هنا فقط، بل الزوال الآن فوراً وهو في هذا المكان. لو تحدثُ كارثة في هذه اللحظة، زلزال فظيع لا يبقي حجراً فوق حجر، ورأساً فوق كتفين، وأرقاماً في دفاتر علامات المعلمين، وامتيازات ذات نجوم تحصل عليها الفتاة التي عند اللوح، المرفق المثالي لزميله على المقعد، وكفوفه، وإهاناته... لو أن كلا منها يتشتت في طرف، ولا يجد أحدٌ أحداً مرة أخرى... أثناء إغماض محمدٍ عينيه متخيلاً الكوارث الأفظع الممكنة الحدوث، والشكل الأفظع الذي يمكن أن تظهر به، قفز الجميع من أمكنتهم مع إطلاق صوت صفارة الإنذار. حدث تراكض في الممر خارجاً، وصُفعت الأبواب. نظرت المعلمة إلى التلاميذ، والتلاميذ إلى المعلمة هكذا من دون حركة لعدة ثوان. فجأة دُفع الباب بشكل فظ، ودخلت امرأة ناعمة وظريفة تنظر نظرة ثاقبة من خلف نظارة على شكل فراشة. ابتسمت للمعلمة بداية، وللتلاميذ بعد ذلك، وقالت بظرافة تطفح متسربة من حوجلات، وبسعادة وحنان وكأنها تزف بشرى: "السيدة المعلمة، أحبائي التلاميذ، هذا مشروع تطبيقي على زلزال."

وفور إنهاء المرأة الناعمة والظريفة جملتها، انخرط في الصف ثلاثة رجال ضخام البنيات نازلي الشوارب يشبه أحدهم الآخر بشكل مدهش. وضعوا على رؤوسهم قبعات بلون أصفر صيصان الدجاج، وارتدوا قمصاناً كتب عليها:

"الزلـزال لا يقـتل بـل الإهمـال". وبحركات سريعة إلى أبعد الحدود، أخرجوا الأدوات والعـدة مـن حقائـبهم التي جلبوها معهم، وعلقوا ملصقات كبيرة على مـآخذ الكهـرباء الـتي عـند اللـوح. أسدلت الستائر، وبدأت تُنار، وتُطفأ صور إسـقاط ضـوئي على الجدار بشكل متتال. تفرج محمد على الصور التي تمنحـها حزمة الضوء المغبرة حياة وهي تنار وتطفأ بانفعال حابساً أنفاسه.

بعـد أن عرضـت صـورة الإسـقاط الضـوئي الأخيرة، ورفعت الستائر، صفقت المـرأة الـناعمة الظـريفة بـيديها ثـلاث مـرات، وبدأت تشرح كيف يُنفذ المشروع العملـي. هـنالك مرحلـتان. في المـرحلة الأولى، يـنـزل التلامـيذ تحـت مقاعدهم، ويـنـتظرون بشـكل هادئ وشجاع واضعين رؤوسهم بين ذراعيهم مفترضين أن كل شـيء من حولهم يهتز متأرجحاً. أما في المرحلة الثانية، فيطبقون بأنفسهم كيفية إخـلاء البـناء بأقصـر فـترة ممكنة. أطلقت صفارة الإنذار، ونزل الاثنان والثلاثون تلمـيذاً تحـت المقـاعد متضـاحكين. انحشر محمد في ذلك المكان الضيق الذي منّ بـه عليه زميله على المقعد في وقت الزلزال. بعد خمس دقائق، خرج هو أيضاً مع الآخـرين مـن تحـت المقعـد، وعمـل على الوقوف بالدور كل اثنين معاً من أجل الخـروج مـن الصـف. ولكـنه لم يستطع أن يكون ضمن سلسلة التلاميذ هذه بأي شـكل، لأن زمـيله في الصـف لم يـبد أي رغـبة بإمسـاك يـده. وقـبل مـرور زمن طويـل، يبدو أن حال الولدين الواقفين جانباً منفصلين عن الآخرين قد لفت نظر المـرأة الـناعمة الظريفة، مما جعلها تقول بصوت يغلي بالفرح: "ها، وأنتما أيضاً تعالا إلى هنا. نحن أيضاً نحتاج إلى ولدين جريئين."

بيـنما كـان زمـلاؤه يتدفقون بنظام شديد عبر الممر كقطرات زخ المطر، نظر محمـد بعيـنين محملـتين بالقلق إلى الخلف. عندما فرغ الصف تماماً، انتبه إلى أن المرأة الناعمة الظريفة مع المعلمة قد خرجتا معهم أيضاً. وبأسى تركه خارج اللعـبة، وغضب إمساك زميله على المقعد به، بحث عن شيء يركله، وفي تلك الـلحظة تحـرك الـرجال الـثلاثة ذوو الشـوارب معاً. أحدهم تناول عن الأرض نقالـة مرضـى، والآخـر أخرج حبلاً طويلاً، والثالث فتح بطانية كانت مطوية. مـدد الـرجال الولديـن عـلى الـنقالة مـتجاورين، وبعـد أن لفوهمـا بالبطانـية،

ربطوهما بقوة بواسطة الحبال. اثنان من الحبال الأربعة عُلقا بكلابات، ودُليا إلى الأسفل من النافذة، أما الحبلان الباقيان، فقد ربُطا بباب الصف.

قال واحد من ذوي الشوارب: "لا تخافا!"، وبعد ذلك خفض صوته كأنه يعطي سراً: "سندليكما الآن إلى الأسفل."

عندما تجرأ محمد على فتح عينيه بعد خمس دقائق، وجد نفسه على نقالة مرضى، ملفوفاً ببطانية ذات رائحة قذرة، مع الولد الأقل حباً له في هذه الحياة، مربوطاً من ذراعيه وساقيه بقوة، على ارتفاع ستة عشر متراً عن الأرض. خرج الأولاد كلهم إلى الحديقة، وهم يتفرجون عليهما من الأسفل، ويشجعونهما بصوت واحد. كانت السماء زرقاء رطبة، وتتأرجح كبة غيم على شكل طبقات. تنزل النقالة إلى الأسفل متأرجحة مع إرخاء الحبل من الأعلى، ولكنها لا تقترب من الأرض بأي شكل مهما انخفضت. قال ذو الوجه الشمندري مظهراً أسنانه كلها: "لابد أن مرارتك اختلطت مع برازك الآن من الخوف" كان وجهه قريباً منه إلى حد أن محمداً يشم رائحة نَفَسِهِ. فتح فمه ليقول له إنه غير خائف، ولكنه قبل أن يتمكن من قول هذا له، شعر بأن بصقة كبيرة قذفت إلى فمه تتدحرج داخله. أطلق ذو الوجه الشمندري قهقهة. أثناء محاولة محمد التخلص من السائل الذي في فمه محركاً رأسه مشمئزاً، اختلطت عليه الجهات، وبالخطأ، لم يفرغ السائل المتجمع في فمه كله إلى الفراغ نحو اليمين، بل إلى العدو الذي على يساره.

لم يكن الآخر ينتظر هذا. وفور إلقاء دهشته الأولى عنه، ركّب رشاش بصاق مكان مسدس البصاق، وانتقل إلى الهجوم المعاكس. ورغم اقترابهما كثيراً من الأرض في هذه الأثناء، لا يبدو أحد من التجمعات التي على الأرض منتبهاً لما يجري. قبل الوصول إلى الأرض بثلاثة أمتار ونصف، قال ذو الوجه الشمندري بصوت خشن: "انظر ماذا يأتي الآن، ستنزل إلى وسط الجميع وعلى وجهك بلغم أخضر!" أدار محمد وجهه، ولكنه تأخر. بعد أن توقف السائل المقذوف على وسط جبينه لثانية أو ثانيتين، شعر بأنه بدأ ينزلق رويداً رويداً إلى الأسفل نحو أنفه. تقلبت معدته، ووصلت إلى بلعومه. نزلت النقالة إلى الأسفل نصف

متر آخر. صارت تعبيرات وجوه الذين في الأسفل تميز بوضوح. كان الأولاد يشجعون بفرح هاتفين وكأنهم يستقبلون بطلين هابطين من السماء. كاد محمد يبكي لعدم استطاعته التخلص من الأحزمة التي تكبله. وإذا كان قد حاول التفكير بأن السائل الذي في وسط جبينه ليس بلغماً، وأن ذا الوجه الشمندري يخدعه، فإنه لم يستطع إقناع نفسه بهذا! انزلقت النقالة نصف متر آخر إلى الأسفل، وتحركت كبة الغيم قليلاً. وتمنى محمد أن يسقط عمود الأرض إن كان لها عمود، وتقوم القيامة... وقبل أن يكمل أمنيته، قذف الولدان فجأة إلى الأمام وإلى الخلف بشكل قوي. ارتفع صراخ من الأسفل. أغمض محمد عينيه. انقطع الحبل الواقع إلى اليسار، وانغرزت النقالة في الأرض بعد أن تقلبت هاوية من ارتفاع مترين ونصف. صدرت عن ذي الوجه الشمندري صرخة.

صرخت معلمة الصف ذات طلاء الأظافر الزهرية نافخة عروق رقبتها: "هل ماتا؟ هل ماتا؟".

أثناء محاولة موظفي الزلزال ضبط التلاميذ المتراكضين نحو المصابين كأنهم فراخ دجاج يتراكضون إلى العلف، قلب واحد من ذوي الشوارب النازلة النقالة من دون أن يهزها، وحينئذ قابل عينين محملقتين كالصدف إحداهما من الألم والثانية من الرعب.

قال محمد عندما استطاع إخراج صوت من فمه في النهاية حتى ولو كان مقطعاً: "هل يوجد بلغم على وجهي يا عم؟".

نظر الموظف الشاحب البشرة إلى وجه الولد نظرة خاوية، وهز رأسه نافياً بتعبير متجمد. في تلك اللحظة أشرق قلب محمد. هاهو خداع. عندما فكوا الحبال، ورفعوا البطانية، نهض بغرور عن النقالة. أثناء نقل ذي الوجه الشمندري على النقالة ذاتها إلى المستشفى، كان محمد يستمتع بطعم الجرأة لأول مرة في حياته.

# الرقم 3: مصففا الشعر جمال وجلال

"لدي فضول شديد لمعرفة الرجل الذي كتب عبارة الولي على هذا الجدار. لم أفهم إن كان يسخر منا، أم أنه قد طار عقله؟ والله إنني أنتظر ما سيحدث بفضول. لم تظهر برغلنا تلك مساء أمس أيضاً. بقيت عيناي ترصدان الطريق. فقد اعتدت على مجيئها كل مساء، وإلقائها زبالتها وسط حلقنا، إلى حد أنني سأشتاق إليها إذا غابت يوماً آخر. أقول لنفسي، ترى هل أخذت هذه العبارة مأخذ الجد؟ تأخذها، والله تأخذها. هذه تركيا. أنهى الغربي عمله في القمر، وهو يقسم المريخ مقاسمَ، وقريباً سينسخ الإنسان. حسن، ماذا نفعل نحن في هذه الأثناء؟ نجد ولياً في حديقتنا. كأن المبارك ليس ولياً، بل زهرة، كلما سقيتها تتفتق من تحت الأرض. بعد ذلك، يا ويلي، المجموعة الأوربية لا تقبلنا. لماذا تقبلنا؟ عندما يلزم الأوربيين أولياء سيقبلوننا بالتأكيد."

ارتفع صوت ضحكة أو اثنتين. ولكن جمالاً لم يغضب من هذه المشاركة المحدودة.

"والله لن أندهش إذا عُقد قريباً اجتماع عاجل لسكان البناء. سنعقد اجتماعاً خاصاً بجدول أعمال الولي في بيت مدير بنائنا السيد حاج. يا ابني

رش قليلاً!" لم تتبدد رائحة دواء الصراصير التي رشوها بكثرة مساء أمس. عندما أتوا صباحاً، وجدوا عشرات الصراصير الميتة على الأرض. كنسوها كلها بالفرشاة قبل وصول الزبائن، وأفرغوها في علبة الزبالة التي يلقون فيها قصاصة الشعر.

قال جمال وهو يقلب سلة لفافات الشعر بعد أن أفرغها على الرف: "نصطف حول الطاولة الدائرية التي في بيت السيد حاج، ونحن هناك كلنا من دون أي تغيب. حتى إن هيجين تيجين استطاعت أن تخرج خارج بيتها. وأسندت نفسها على حافة كرسي لا شكل له، ولا يريح." تناول بخاخ شعر أطرافه مذهبة، ووضعه في طرف سلة لفافات الشعر. "وجاء الطالب المفلس الذي في القبو أيضاً، ومعه الكلب الضخم. وطبعاً هما لا يهتمان بالولي وما ولي. فهما جاءا لملء بطنيهما مجاناً."

ثبّت مشطاً ذا أسنان رفيعة وطويلة ومتراصة بإدخاله بإحدى فتحات السلة. ووضع بجانبه مباشرة لفافة شعر غليظة برتقالية اللون مسننة تمثل غابا.

قالت الشقراء ذات العينين الشهلاوين التي تأتي كل أسبوع لصباغ منابت الشعر، وغير المقتنعة بأي وسيلة بعدم ضرورة القيام بهذا العمل بكل هذه الكثافة: "حسن، ماذا يُضيّف؟" وكانت تنظر بفضول إلى السلة كأن ولداً بقدر الإصبع سيقفز من السلة في أي لحظة.

رد عليها جمال مشاكساً: "دخلك أنت أيضاً! نحن لا نذهب إلى يوم قبول على كل حال، بل إلى اجتماع للبناء."

قالت الخليلة الزرقاء من الزاوية التي تجلس فيها: "ولكنك طالما تكتب قصة، فنحن نريد سماع التفاصيل."

قال جمال من دون أن يرى ضرورة لإظهار الامتنان الذي شعر به لأنه تمكن أخيراً من جذب اهتمامها: "حسن، حضّرت كنة الحاج رقائق عجين بالسبانخ. وبجانبها شاي. مشى الحال؟".

تضاحكت النساء قائلات: "مشى الحال، مشى." ولكن في الوقت نفسه ارتفع صوت ناشز من المرأة المعروفة أنها صاحبة المعلومات الأوسع في الحي

كله بلا نقاش، والمعتادة على نقل أدق تفاصيل انحرافات حياة الناس الخاصة لضرورة مهنتها باعتبارها كاتبة محكمة الجزاء وتأتي مرة في الشهر لصباغ شعرها بلون الكستناء، وتسريحه: "لا، لم يمش الحال!". عندما رأت أن الجميع يستمع إليها، أسندت ظهرها إلى الخلف، وعددت المعطيات بموقف الواثق من نفسه إلى أقصى الحدود: "أولاً، تعمل المرأة من الصباح إلى المساء في شباك تذاكر السينما. ليس لديها وقت أبداً لرق عجين لمدة طويلة على هذا النحو. ثم لو كان عندها الوقت أيضاً، فلن تعمله. تكره تلك المرأة حماها كما تكره ذنبها. لهذا السبب، لا تحرك حتى إصبعها البنصر من أجله."

نظر جمال إلى زبونته العارفة جداً مقطباً حاجبيه: "طالما أنه لا يوجد رقائق عجين وما شابهها، فهنالك شاي فقط. مشى الحال؟ هل أستطيع الاستمرار إلى الموضوع الأساسي؟".

قالت الخليلة الزرقاء المصممة على الضغط على حدود اهتمام جمال بها: "لم يمش هذا أيضاً. يوجد ثغرة في القصة. قلت إن الطالب الساكن في القبو وكلبه سيأتيان من أجل ملء معدتيهما. إذاً عليك أن تخرجهما من اجتماع البناء."

رمق جمال لفافة الشعر الغليظة البرتقالية المسننة والمشط ذا الأسنان الطويلة الرفيعة المتراصة مقطب الحاجبين كأنه غير عارف ما يفعله بقدرهما، وقال: "حسن، أنا أستسلم." وغمز الخليلة الزرقاء. وهرع إلى المطبخ، وجلب نصف الكعكة التي اشتراها صباحاً من الطريق أثناء قدومه، ووضعها بجانب اللفافة على خلف السلة. "قصد مدير بنائنا المحترم السيد حاج محل معجنات، واشترى علبة حلويات، وأوصى على علبة كعك جاف مملح أيضاً. وصفت أصابع الكعك بالسمسم في أطباق زورقية. مشى الحال؟ هل الجميع مسرورون؟"

قالت النساء ناظرات إحداهن إلى الأخرى متضاحكات: "مشى، مشى!" ونظر الجميع إلى كاتبة المحكمة للحصول على الموافقة الأخيرة.

وبالرخصة التي حصل عليها جمال اندمج تماماً باللعبة، وبادر بصف الجيران الآخرين. رغوة الشعر الكبيرة الحجم المغذية للشعر بالفيتامين ب

الخالية من الكحول هي أستاذ الجامعة الساكن في الشقة رقم سبعة؛ مجفف الشعر ذو اللفافة هي المدام الخالة الساكنة في الشقة رقم عشرة؛ لفافة الشعر الكهربائية هي ربة المنزل الروسية التي في الشقة رقم ستة؛ فرشاة صباغ الشعر والمقص هما الزوج والزوجة أطشميزاج أوغلو، أما مبرد الأظافر فهو ابنتهم الصغيرة. بعد تردد قصير، شبه مدير البناء بفرشاة الشعر ذات المقبض العظمي. وفي النهاية أمسك بيده عبوة طلاء الأظافر اللامعة الشفافة ذات البريق. قال: "وهذه السيدة الظريفة الساكنة في الشقة رقم ثمانية". ابتسمت الخليلة الزرقاء مجاملة رداً على مجاملته، وتململت النساء الأخريات قليلا في مقاعدهن.

"آه، قبل أن ننسى. لنضع جلالاً وأنا. يجب أن نكون موجودين طبعاً." وتناول الزيت المرمم للشعر المدعم بالفيتامينات من مجموعة العناية بالشعر الموضوعة على الرف، ووضع إحداهما بجانب الأخرى. قال: "نعم، هكذا اجتمعنا بالضبط. والسيد حاج يشرح سبب اجتماعنا." وأوقف الفرشاة ذات المقبض العظمي على قدمها، وكح بشكل قصير متقطع من أجل تحقيق الهدوء: "أقول هذا إذا كان هنالك من لم ير حتى الآن، فقد وجد مزار ولي في حديقتنا. ففي هذه الحال يجب أن نعمل بعض الترتيبات الجديدة."

عارضت إحدى عبوتي الزيت المرمم للشعر المدعم بالفيتامينات قائلة: "أرجوك يا سيدي، وهل ينبت ما تقولون عنه ولياً هكذا من الأرض مثل الأزهار؟" التفت جمال إلى زبوناته، ووضع ملاحظة على قوله: "هذا أنا!"

قالت النساء بفم واحد: "فهمنا، فهمنا"

قالت الفرشاة العظمية المقبض: "يا سيدي، أنتم أحرار إذا أردتم أن تؤمنوا أم لا. ولسنا مضطرين لإقناعكم. ولكنكم إذا أردتم أن تعيش الديمقراطية في هذا البلد، فعليكم أن تحترموا عقائدنا. علماً أننا جميعاً متفقون في هذا المجال. هنالك مواد جدول أعمال علينا أن نحدده. مادة جدول أعمالنا الأولى هي: ولي من هذا الولي؟ لا يمكن القول وليّ هكذا، والخروج من الموضوع. لكل ولي فائدة للبعض. ثمة أولياء للبحارة في البحار، وآخرون يحمون الجنود في البر، ويحرسونهم. تذهب النساء اللواتي لم يحملن إلى بعضهم. ويفيد بعضهم الآخر

المصابين بالجذام. على كل شخص أن يذهب إلى الولي الذي يكون دواء لدائه. إذا ذهبت فتاة عانس إلى ولي العجزة الطريحي الفراش بالخطأ، لابد أن تبقى تنط وتقفز مراوحة مكانها مدة أطول."

قالت كاتبة محكمة الجزاء رافعة حاجبها الآخر: "ليدون أحدهم محضراً لهذه الأمور."

قال جمال: "حسنٌ" وكلف مبرد الأظافر بهذا العمل. "اكتبي يا ابنتي مادة جدول الأعمال الأولى: حضرة الولي هو أبو من؟"

قالت الخليلة الزرقاء: "من أين لنا معرفة هذا؟ لعله امرأة."

هدرت الفرشاة ذات المقبض العظمي: "هذا غير ممكن!"

عاندت الخليلة الزرقاء قائلة: "لماذا؟ ألا يمكن للنساء أن يكن وليات؟" ولم ترفع عينها عن علبة طلاء الأظافر المثلة لها. ولم تترك الطنبور فوراً طالما وقع بيدها. "ظهرت من بين النساء فقيهات كبيرات بالدين. ولنعد حضرة السيدتين عائشة وفاطمة في المقدمة. بعد ذلك توجد رابعة مثلاً. وطبعاً أم النساء مهمة جداً أيضاً. والسيدة أمطرت ثلجاً أيضاً هكذا. وهناك السيدة هوما خاتون أم السلطان محمد الفاتح. وأم مولانا مؤمنة خاتون. وهنالك السبع بنات أيضاً."

نظرت النساء اللواتي أمام المرآة ولفافات الشعر حول السلة إلى الخليلة الزرقاء مندهشات. لديها معلومات كثيرة في هذا الموضوع بالنسبة إلى خليلة. يبدو أن جمالاً من أكثر المتأثرين. نظر إليها بإعجاب كأن جارية الخليفة هارون الرشيد الفريدة عزيزة الروح التي سلبت عقل كل من كان في حضرته بسعة معرفتها بقدر ما سلبت عقلهم بجمالها قد عادت إلى الدنيا من جديد عام 2002 في بناء قصر بنبون في اسطنبول.

قال المشط العظمي المقبض لمبرد الأظافر: "اكتبي يا ابنتي إذاً! مادة جدول أعمالنا الأولى هي معرفة هذا الولي أبو أو أم من. ومن أجل القيام بالبحث الضروري في هذا الموضوع نأمل ألا يحرمنا أستاذنا الجامعي من مساعدته القيمة." تململت رغوة الشعر المغذية الكبيرة الحجم المدعمة بالفيتامين ب قليلاً. يبدو مسروراً من المهمة الموكلة إليه.

"لنأت إلى مادة جدول الأعمال الثانية. يا سيدي، طالما أن وليا موجود في حديقتنا، علينا أن ننتبه أكثر لتصرفاتنا. لهذا السبب، فإنني -محسوبكم- وضعت قائمة في هذا الموضوع. قائمة ما لا يمكن عمله بشكل أكيد. اسمحوا لي أن أقرأها. المادة الأولى: ممنوع مد الأرجل ناحية الولي ليلاً. تُعكس الأسرة التي يتجه طرف الأقدام فيها نحو الولي فوراً. المادة الثانية: ممنوع التجول في البيوت بشكل عار. المادة الثالثة: ممنوع نفض البسط وما شابه بعد الآن وهي مدلاة نحو الأسفل، ولن يُقذف أي شيء إلى الأسفل."

قال بخاخ الشعر المذهب الأطراف: "ولكن كيف يمكن هذا؟"

نطت فرشاة الشعر ذات المقبض العظمي قائلة: "أرجوكم، لا تقاطعوا كلامي! المادة الرابعة: لن يُنشر بعد الآن غسيل على النوافذ المطلة على الحديقة. المادة الخامسة: لن يُقص شعر بعد الآن ضمن حدود هذا البناء."

قالت إحدى عبوتي الزيت المرمم للشعر المدعمة بالفيتامين المتجاورتين: "أرجوك يا سيدي! ارحمونا، سنجوع إذا لم نقص الشعر. هذه لقمة عيشنا." غمز جمال من فوق كتفه للزبائن، وهمس بملاحظة ثانية: "هذا جلال."

تضاحكت النساء قائلات: "فهمنا، فهمنا."

"هذا غير ممكن قطعياً. لا تنسوا أن شقتكم أقرب شقة في البناء لمزار حضرة الولي. وعليكم أن تنتبهوا أكثر من الجميع. لم يعد ممكناً بعد الآن فتح النافذة وترديد الأغنيات والأغاني الشعبية، ونفض الشعر، وقص الأظافر، وعمل معقود السكر، ونتف الحواجب وعينكم بعين حضرة الولي. إذا كنتم مصرين على هذا، فاذهبوا وافتحوا دكانكم لتصفيف الشعر في مكان آخر. المادة السادسة: لن يدخل من الآن فصاعداً إلى البناء قطعياً لحم حصان أو حمار أو ما شابه ذلك ووبرها وريشها وزبلها. وهذا يعني أنه لن يوجد كلب هنا."

صرخ المشط ذو الأسنان الرفيعة الطويلة والمتراصة من فوق سلة لفافات الشعر: "وما سبب هذا؟"

قال مشط الفرشاة العظمي المقبض: "لأن الكلب مكروه في ديننا." ولكن جمالاً نظر إلى الخليلة الزرقاء بعينين تتوسلان المساعدة لعدم امتلاكه أي

معلومات تدعم كلامه في هذه النقطة. وهي نطت فوراً كأنها تنتظر فرصتها: "انظروا سورة الأعراف" 'كَمَثَلِ الكَلبِ إن تَحْمِل عَلَيهِ يَلهَث أَو تَترُكهُ يَلهَث'. غير هذا، يجب ألا ننسى أن مولانا جلال الدين يشبه النفس بالكلب."

قال المشط ذو الأسنان الرفيعة الطويلة والكثيفة: "هذه الأمور لا تُلزم كلبي. غابا ليس تركياً. إنه سويسري!"

نظرت النساء المصفوفات أمام المرآة إلى لفافة الشعر الغليظة المسننة والبرتقالية بإعجاب.

قالت الخليلة الزرقاء المحاولة أن تعدل: "كما تعلمون يا سيد حاج ففي الجنة كلب أهل الكهف السبعة."

قال مشط الفرشاة العظمي المقبض محاولاً تمرير الأمر: "حسن، حسن، ولكن يجب أن يُغسل ذلك الكلب كل يوم. لن يكون عليه ولو برغوث واحد. وبالطبع لا أريد قملاً. يجب أن يتخلص من تلك الحشرات فوراً. يجب أن تعالج الشقق جميعها بشكل جيد. المادة السابعة: لن يدخل بعد الآن إلى البناء قطعياً متسولٌ أو بائع متجول أو بائعة صرة أو فطائر.

قال الزوجان فرشاة الصباغ والمقص: "هذا أمر صائب يا سيدي."

"وفي النهاية، المادة الثامنة: ستجمع زبالة البناء منذ الآن بشكل منتظم. وسترسم دائرة حول الولي نصف قطرها خمسة عشر متراً، ولن يُرمى ولو وسخة واحدة ضمن هذه الدائرة. ستولى أهمية عظمى لنظافة البناء، وسيكون كل طرف منه لامعاً. وسيعمل كل ما هو ممكن من أجل التخلص من هذه الرائحة التي تلف بناء قصر بنبون. هيا فقد انهارت أعمدة أنوفنا على مدى ذلك الوقت. لئلا نكسر عمود أنف الولي على الأقل."

أثناء قول جمال هذا، انتبه إلى أنه نسي مريمَ. ووضع بجانب سلة لفافات الشعر فوراً ملقط رموش ممثلاً لها. ولحظة استعداده لجعل ملقط الرموش يتكلم، انفجر صخب في الخلف. أسقط جلال غير المتن من هذه اللعبة الجارية منذ قليل مجفف الشعر المسك له بضيق من يده. امتقع بالحمرة عندما رأى أن العيون كلها متجهة نحوه. وقبل أن يأخذ المجفف عن

الأرض، اتجـه نحـو الباب مسرعاً وهو يتمتم : "أنا خارج، سأتنفس قليلاً من الهواء."

عـندما أغلـق الـباب خلف جلال، قالت الشقراء ذات العينين الشهلاوين: "ولكـن لا تحزن يا جمال. يبدو أنه لم يُر توءمان متعاكسين بالمزاج مثلكما على كل حال. أي لو كان عندكما نقطة مشتركة واحدة حول المعالجة."

زخ قلق فوق الجميع. وتحول المثلون حول سلة القش إلى أشياء جامدة.

# الرقم 7: أنا والخليلة الزرقاء

لم أكن أنتظر الخليلة الزرقاء هذا المساء. أغلقت الأبواب والنوافذ، ورشت مبيداً للحشرات في كل مكان. سألتني إن كانت تستطيع البقاء عندي أم لا حتى تتبدد الرائحة. قلت لها إنني شاكر للحشرات. ضحكت. غطت وجهها كله ابتسامة حارة عندما رأت الجبن المخروطي وطبق السلمون.

قلت: "أبذل جهدي. عرجت عليَّ مريم هذا الصباح. أرسلتها المرأة التي في الشقة رقم تسعة. تريدني أن أعطي ابنتها دروساً باللغة الإنكليزية. لم أبال بالأمر بداية. آخر مرة أعطيت فيها دروساً كهذه عندما كنت طالباً. ولكن المرأة عرضت مبلغاً كبيراً من النقود لكل ساعة."

قالت الخليلة الزرقاء: "لأنها لا تريد أن ترسل ابنتها خارج البناء."

"حسن، ولكن بماذا سيختلف؟ سنعمل الدرس في بيتهم."

هزت كتفيها. وقالت وهي تلقي شريحة جبن قشقوان إلى فمها: "لعلها فضلت أن يكون المدرس أيضاً من داخل البناء. أو أنها هائمة بك. مثلي!"

عندما تضحك، يظهر أثر جرح في خدها. أستمتع بملامسة أثر الجرح هذا. سحبتها من يدها، وجررتها إلى الداخل. أحب طعم لسانها على لساني.

قالت لي وهي تمسك أصابعي التي أداعب بها خدها، وتأخذها إلى شفتيها: "أتعرف؟ أنا رباني جدي." أشعلت سيجارة، وأسندت ظهري. أحب ثرثرة النساء في السرير. بفضل الخليلة الزرقاء بدأت أنام من جديد على سريري الكبير أكثر من اللازم بالنسبة لي.

"كان رجلاً أنيقاً مرحاً. وكان أبي وأمي لا يتعايشان أبداً، وفي البيت شجار دائم. انفصلا عندما كنت في الرابعة من عمري. وخلال سنة تزوج الاثنان من جديد. حينئذ قال جدي لأمي: 'لنربِ هذه المسكينة نحن. أسسي أنت بيتك، وعندما تريدين تعالي وشاهدي ابنتك.' وقبلت أمي بهذا. وحسن أن حدث هذا. كنت أحب جدي كثيراً. لو أنه لم يرحل باكراً، لكنت الآن في مكان مختلف تماماً. عندما مات جدي، بقينا أنا وجدتي وحدنا. لم تكن جدتي إنسانة سيئة، فكنت أحبها أيضاً، ولكن ليس مثل حبي لجدي. عدت إلى بيت أمي. الآن يسخر الجميع من هيجين تيجين لأنها لا تخرج من بيتها أبداً ياه، أتصدق، أنا في ذلك العمر الفتي لم أخرج من البيت تقريباً على مدى سنتين. لم يكن هذا نتيجة مرض النظافة أو ما شابه. إذا أردت الحقيقة، فأنا أيضاً لا أعرف لماذا لم أخرج من البيت. لم أكن أريد أن أخطو خطوة إلى الشارع، فكيف المدرسة. لا لأنني لا أتوق لمعرفة الخارج. أتوق من ناحية التوق، ولكن الأمكنة التي أردت رؤيتها لم تكن هناك... أنجبت أمي ولدين. ربيتهما. جهدت أمي، وعمي زوجها لكي أخرج، وأتنزه. أتفكرُ في هذا؟ الشباب يريدون الخروج، والآباء لا يسمحون لهم. الوضع عندنا بالعكس تماماً. المهم، على إفطار صباح أحد الأيام كان يتكلم عمي زوج أمي مع أمي حول ضرورة دفع فاتورة الهاتف. فجأة، لا أدري كيف حصل، قلت: هاتوها، أنا أدفعها! ارتديت ثيابي، وجحظت عيناهما استغراباً. أخذتُ الفاتورة والنقود، وألقيت بنفسي إلى الخارج. مضى وقت طويل على عدم خروجي من البيت، أقسم إنني في البداية فقدت توازني كالسكارى. دخلت إلى مكتب البريد والبرق والهاتف. كان هناك دور. أنتظر، وأنتظر، المهم تقدم الدور، وبقي أمامي شخص أو شخصان. حينئذ رأيته. كان هو الذي يأخذ

الفواتير. جلس وراء الزجاج، ويختم الفواتير، ويدفع بقية النقود من دون توقف. بقيت أنظر إليه هكذا. لم يكن وسيماً مثلك. إذا قلت طول وقامة، فغير موجودة. ولكن عينيه لا تشبهان عيني أحد. هل يميل لون حدقتي العين إلى البنفسجي؟ حدقتاه هكذا. في النهاية جاء دوري. طلب الفاتورة، ومددتها له. وهو أعطاني بقية النقود، وختم الفاتورة، وأبقى جزءاً منها عنده. شكرته، ورفع رأسه قليلاً، ونظر بانتباه إلي. ارتجفت يداي، ورجلاي. قال: 'أيامك سعيدة.' لم يخرج صوته من الانفعال. عدت إلى البيت. وفي الصباح، قفزت باكراً، وإلى مكتب البريد والبرق والهاتف مباشرة. كان يوجد دور حتى في تلك الساعة. انتظرت دوري من جديد. عندما جاء دوري، مددت إليه الفاتورة التي دفعتها وقلبي يخفق، ويدق. نظر إليّ باستغراب. وأنا نظرت إن كانت حدقتاه بنفسجيتين حقيقة. كانت بنفسجية حقيقة. بدأ الذين في الخلف يتذمرون. ضحك لحالي."

فكرت بآيشن. لم تقع بحب رجل، وذهبت إليه لمجرد أن لون عينيه يميل إلى البنفسجي طوال عمرها الذي عاشته. عشق آيشن مثل عجلة البيروقراطية. تصنف مراسلاتها، وتجري حساباتها، وتمسك دفاترها، وتطرح النفقات من الدخل، وتسجل من دون توقف. عندها أرشيف هائل. لا تنسى أي نقاش، وكما لا تنسى، لا تدع الآخر ينساه. فكرت للحظة لو كنا متزوجين فهل تفعل الخليلة الزرقاء مثلها. لا أعتقد. ثمة جانب وحشي إلى أقصى الحدود، وجانب حيواني قدر الممكن في العلاقة التي أسستها هذه الفتاة مع الحياة. مع أنها في الحقيقة مازالت في الثانية والعشرين من عمرها. لعلها تتغير، ولعلها بعد أن تتزوج، تكون آيشن صورتها الأخيرة.

"بعد ذلك؟"

"بعد ذلك عفن. تنزهنا معاً. قومت أمي القيامة، ولكن من يسمع منها؟ هل كنت عاشقة؟ لا أدري، ولكنني تعلقت به بشكل سيئ. كان يريد أن يتزوج فوراً. وأنا لم أرغب بالزواج، ولكنني على ما يبدو لم أكن أمتلك الجرأة لقول هذا له. وكنا في حي صغير، وإذا سألت عن النميمة فهي إلى الركب.

وإذا كـان الأمر سـهلاً عليك فـلا تـتزوج بعـد هـذا. المهم لبسنا الخواتم. بعد الخطـبة بـدأ الـرجل يتغير. كأنه صار رجلاً آخر فجأة. كان تعيساً. لعلني أنا أيضـاً كنـت تعيسة، ولكن سبب تعاستي فيَّ أنا. ولكنه عندما يغدو هو تعيساً، يـريد أن يكـون الجمـيع تعساء. لم يكن مخرباً. والمشكلة هنا أساساً ياه. هو لا يعـرف الحقد، ولكنه يموت من أجل أن يتعلمه. صارت عبارة جيدة لا تخرج مـن فمـه. كـان يشـتكي بشـكل مسـتمر، مـن مركز البريد، والفواتير، والمدير. ولكنـنا لم ننفصـل لهـذا السـبب." ضـحكت بشكل متوتر. "سبب انفصالنا هو حصان، أتعرف؟" ضحكتْ مرة أخرى عندما ظهر استغرابي.

"كنا نتنـزه في أحد الأيام، نظرت وإذ هناك عربة خيل. سيبدو الأمر عبثياً لـك الآن. كـان جـدي رجلاً مختلفاً تماماً، لا يشبه أحداً. كان يقول: 'طالما لا يعـرف مـتى يحصـل المـوت قـبل أن يحصل، فإن العيش والموت أيضاً ضرورة فقط.' لم يكن يرغب بحوريات الجنة، ولا يخشى من لهيب جهنم. وهو أيضاً كلما رأى حيواناً في الطريق يسلم عليه. كان يقول: 'من المعيب ألا أسلم عليه، لعلـه صـديق قديـم لـي.' كـان جدي يقول: 'عندما يموت الإنسان، فلا يموت حقـيقة، يـأتي إلى الحـياة مـن جديـد. يـأتي على شكل إنسان أحياناً، وعلى شـكل حـيوان أحـياناً. يكتسـب صـورة جديـدة كلما أتى إلى الحياة. وبحسب حظـه يأتي إما حماراً وإما بجعاً وإما فراشة. ليس هنالك غضب في هذا الأمر.' ولكـي لا يحـدث غضـباً تموت الذاكرة بدل موتنا. علينا ألا نتذكر ما كنا عليه قديمـاً. عليـنا ألا نتذكر لكي لا نحزن لما وقع لنا. أتعرف أجمل ما أتذكره من طفولـتي؟ عندما كنت أتجول مع جدي في الشوارع، كنا نسلم على كل حيوان يظهـر أمامنا. كنا نصرخ للقطط، والكلاب، العصافير، والحمير، والجراد. كان جدي يصرخ قائلاً: 'إيه، كيف حالك؟' وأنا كنت أقلده: 'إيه، كيف حالك؟' كان هذا يمتعني كثيراً. كان حالي ينقطع من الضحك.

داعبتُ تكور بطنها الناعم المخبوء جيداً بالغطاء الذي تلف به نفسها بقوة.

"مـا سـتفهمه أنني حييت ذلك الحصان عندما رأيته في الشارع، لا إرادياً. عـندما بـادرت بالتكـلم مـع الحصـان عـلى هـذا الـنحو، بـدأ أمـير البنفسـج

بالسخرية مني. كان يهينني. أطلق عبارات سيئة حيث جرحت شعوري. وأطال بالأمر بقدر ما استطاع. وكلما رأى حماراً في الأيام التالية، كان يسخر مني قائلاً: 'هيا اركضي، وقبلي يد جدك!' بعد ذلك زنَّ رأسي. فهمت أنني لا أحب أمير البنفسج هذا. فهمت أن ما يكوي قلبي هو شيء تافه بالنسبة إليه. قلت لنفسي، هذا يعني أنني لن أستطيع قضاء عمر معه. قررت الانفصال عنه. لم يصدق هذا بداية، وأخذه مأخذ المزاح. قال: كم أنتِ حرون! واعتقد أن الأمر ينقضي. نظر بعد ذلك، فوجدني جدية. بدأ بالعربدة. أي تهديدات أطلق! كنا نتناول الطعام ذات مساء في البيت، والتصق بالباب، وبدأ يجرس، ويزمر. خرج زوج أمي إلى الخارج. فأمطره بالإهانات أيضاً. كيف تفوح منه رائحة المشروب؟ كأنه وقع في زجاجته. قال: 'اسمعيني، إذا تركتني سأفرم وجهك. سأطعنك من وجهك.' قال هذا بالضبط. قلت له: 'لا تتكلف عناء هذا الأمر، فأنا أفعله بنفسي.' أعرف أنك لن تصدق هذا. أنا أيضاً لم أصدق نفسي. لا أعرف لماذا حكيت هكذا، وكيف فعلته. كنت في السابعة عشرة من عمري. ولكن أموراً كهذه مازالت تحدث لي. أفعل أموراً كهذه أحياناً عندما أتألم. ضرري لنفسي. لا أفعل هذا عن قصد. أستغرب بعد أن أفعل ما أفعله، قائلة لنفسي، كيف فعلت هذا بنفسي. ولكنني لا أفكر بشيء أثناء قيامي بالأمر. هل تفهمني؟ لن أستطيع القيام به فيما لو فكرت على ما يبدو، أليس كذلك؟"

ابتسمت. أحد طرفي الظرافة يؤدي إلى الغفلة، والطرف الآخر يؤدي إلى البراءة. يمكن لجزء الغفلة أن يكون مدنَّساً، ولكن ثمة قليل من الأمور المثيرة للشهية بقدر البراءة في هذه الدنيا على ما يبدو.

"كانت أمي وزوجها يستمعان لنا من خلف الباب. كانا سيتدخلان في حال حدوث شيء. هذا يعني أنهما لم يفهما ما كنت أفعله. طبعاً لا يوجد معي سكين أو ما سكين. لا يوجد غير حبسة حديدية على شعري. إنها شيء حاد جداً. كان شعري قوياً في ذلك الوقت إلى حد أن شيئاً آخر لا يستطيع ضبطه. المهم، أخرجت الحبسة. لا أرى ما أفعله ياه. أمسكتها، وضربت ضربة لا على

التعيين في خدي الأيسر. تفقدت الجرح بيدي، فجرحت جرحاً آخراً فوقه. أنا لا أرى نفسي، ولكنني أرى وجه أمير البنفسج. أقسم إنه صار أصفر كالليمون. بدأ يصرخ من أجل إيقافي. هرعت أمي إثر الصخب، وأطلقت صرخة. حينئذ فهمت أن حالي سيئة. جرحت نفسي بشكل سيئ. لحق بنا زوج أمي، وبدأ ينهال على أمير البنفسج. اعتقد أنه هو الذي فعل هذا. أمير البنفسج لا يقول إنه لم يفعلها. مازال مصدوماً. المهم أنه أثناء ضرب زوج أمي له، قفزنا أمي وأنا والصغيران إلى سيارة أجرة، وذهبنا فوراً إلى الإسعاف. كنت مستغربة أنه لم يكن يؤلمني حتى تلك اللحظة. وإذ الألم يأتي فيما بعد. انخرطنا بهذا الوضع. كان هنالك طبيب حنون في الإسعاف. نظرت وإذ به من طينة جدي ذاتها. تكلم معي بشكل حلو. بداية اعتقد أن شخصاً آخر فعل هذا بي، فحاول أن يستدرجني بالكلام. بعد ذلك، فهم أن أحداً آخر لم يفعل هذا، بل أنا فعلت هذا بنفسي. غضب، وثار، وأطلق من لسانه كل ما أتى عليه. ولكن لسانه حلو إلى حد أنني أحببت حتى تأنيبه. أعطوني مخدراً، وعندما استيقظت كانت الخياطة قد انتهت منذ زمن طويل. عند خروجي، جاء، وأمسك بيدي. قال: 'آه يا ابنتي المجنونة. طالما أقدمت على جنون، وجرحت وجهك الجميل هذا، احذري أن تتعقلي بعد الآن. أسوأ ما في الحياة هو أن يجن الإنسان أثناء جرح وجهه، ويستجمع قدراته العقلية بعد خياطته. اسمعي، ستتألمين كثيراً حينئذ. ثم إن ذلك سيكون ألماً لا معنى له. لن يفيد بشيء أبداً. ابقي كما أنت، وابقي مجنونة بعد الخياطة. أتعدينني؟' قلت: 'أعدك!' تصافحنا. الله يرضى عليه، قام بعمل نظيف. لو أنني سقطت بين يدي آخر، لخاطه كما يخيط كيس خيش. رغم هذا بقي أثره بالطبع. لا يذهب..."

لم أعرف ما سأقوله. ما استمعت إليه ليس قصة من النوع الذي أتوقعه. حب إنسان يعني نوعاً من استخراج القصص غير الواصلة إلى الطمأنينة المكدسة كدساً من مكمن همومه، وتبييضها؛ أما العشق فهو الغوص في قصص مكمن خياله المتتالية، وعدم الرغبة بالمغادرة من هناك رغم أنك تقابل أبعد مما تصورته، وأبشع مما زخرفته. تصرفت مع الخليلة الزرقاء بشكل متسرع. إنها

ليست زرقاء. أو أنني أخطأت فيما ربطت منها بهذا اللون. الزرقة ليست نهارية بقدر ما اعتقدت. جذبتها نحوي. اندست بي. تململت مرة أو مرتين حتى وضعت رأسها جيداً على صدري. بعد ذلك أرخت نفسها بهدوء. أرخت بثقلها فوقي من دون تردد.

"أنا أحببت أمير البنفسج لأنه أمير بنفسج، ولكنه تصرف دائماً كأنه شخص آخر. احذر من الكذب علي، ممكن؟ كن كما كل شيء!"

وافقت برأسي. إذا كان الشخص الذي لا يتحمل الكذب ولو بمقدار ذرة يكذب عن غير قصد ووعي، وإذا كان يؤمن حقيقة بما يقوله، فإنه يجلب النحس لمن حوله ككسر مرآة. هذا الوضع يشبه ضرورة استخدام المسدسات عاجلاً أم آجلاً عندما تعرض في أفلام السينما. الشخص الذي يقول: لا تكذب علي أبداً، يعني أنه يتفقد نفسه بشكل سيئ. رغم هذا لم أرغب بالاعتراض عليها. أحب الفرجة عليها. نهضت. عندما لم أجد ما أضعه علي، أشعلت المصباح المجاور للسرير. انزلق الغطاء الذي على الخليلة الزرقاء، وظهر فخذها الأيمن. ولأننا مارسنا الجنس في شبه ظلمة أو شبه مرتدين ثيابنا، انتبهت فجأة إلى أنني لم أرها حتى الآن عارية بشكل كامل.

الأجزاء العليا من فخذها مشطبة، ومليئة بخطوط حمراء. تشبه مجموعات الخطوط العمودية المتجاورة الخماسية التي أحبها، وتستخدم في السجون لمعرفة الأيام المنقضية والباقية. اقتربت، ونظرت عن قرب. أغلبها لا تعد عميقة، كأنها شطبت على عجل. ولكن واحداً من بينها يبدو عميقاً جداً، وفتح في زمن قريب جداً على الأغلب. لم يجد فرصة للاندمال بعد.

* * *

نظرت إلى الساعة: الثانية واثنتان وعشرون. التفتت برفعة أنين متقطع. غطيتها، وأطفأت النور. قليل من العرق يكون جيداً الآن. فور إشعالي مصباح المطبخ، تراكضت سبعة أو ثمانية صراصير، وغابت عن عيني. الواضح أنني

يجب أن أرش مبيداً في هذا البيت أيضاً. قطّعت كثيراً من الجبن والبطيخ الأصفر. صببت فوق الجبن زيتاً من الذي جلبته الخليلة الزرقاء، ورششت زعتراً... كثيراً من الزعتر. لابد أن تاجر زيت الزيتون لا يريد معرفة أن رجلاً آخر يستهلك زيت الزيتون الذي يجلب منه زجاجات كثيرة لخليلته الصغيرة.

خرجت إلى الشرفة. قربت كرسيي إلى حديد الشرفة من دون أن أطأ على مجموعة النمل التي تجر جثة صرصور معاً بهمة عالية إلى جحرها. أشعلت سيجارة. كم جرحاً آخر يوجد في جسمها يا ترى؟ لا أدري ماذا فتح تلك الجراح. هل شفرة أم سكين فتحت تلك الجراح؟ أم حبسة شعر... علقت عيني بأكياس الزبالة المكومة في الأسفل عند جدار الحديقة. ليس ثمة ما تغير. المكان يفوح برائحة حموضة من جديد.

# الرقم 10: المدام الخالة

كانت المدام الخالة تنتظر ساعات على شاطئ البحر صابرة مع منتظري الريح الجنوبية مثلها. كانت الموجات تجلب مع كل هبة ريح جنوبية أشرعة ممزقة، ومجاديف مكسرة، وبوصلات خربة المؤشرات، ودفوفَ سفن أضاعت وجهتها، وحروفاً متساقطة من أسماء السفن، وأشياء من مخلفات مسافرين وصلوا إلى أمكنتهم منذ زمن بعيد، ومن مسافرين لم يصلوا نهائياً إلى تلك الجنة الساكنة.

عندما تتخلص فرشات النفخ وكرات المطاط التي ندع موجات البحر تأخذها منا أثناء التصييف، من هوسها باللعب مع القبعات والحصر التي تأخذها منا الريح، تستسلم كلها، ويأخذها البحر إلى شواطئ أخرى مختلفة...

كانت المدام الخالة تجمع ما يجلبه البحر مع منتظري الريح الجنوبية مثلها.

# الرقم 3: مصفف الشعر جلال

فور خروج جلال من صالون تصفيف الشعر عَبَرَ من الشوارع الفرعية بخطوات حثيثة، وخرج مباشرة إلى الشارع الرئيسي. بعد أن مشى حوالي خمس عشرة دقيقة وسط الزحام من دون معرفة اتجاهه، دخل إلى زقاق فيه خمسة مشارب جعة متجاورة أحدها يشبه الآخر. اشتهى شرب كأس من الجعة رغم أن هذه ليست عادته. اختار مشرب جعة لا على التعيين، وولج إليه. كان مزدحماً. اختار الطاولة الأقرب إلى الباب. عندما يدخل إلى مكان غريب عنه، يعمل على الجلوس في المكان الأقرب إلى الباب قدر الممكن. طلب من النادل المتهدل تحت ذقنه، والواضح من حاله أنه لا يحب عمله ولو بمقدار ذرة، وأن عقله يتجول في أمكنة أخرى كأساً من الجعة، وصحنَ بطاطا مقلية. أثناء الانتظار تعلقت عينه برجل ممتلئ الجسم، تحت عينيه ثلاثة انتفاخات بثلاث درجات للون الأزرق، يجلس على طاولة تقع مقابله. ينظر الرجل بعينين ثابتتين إلى كأس عرق أمامه. لم يكن يأخذ رشفة واحدة من كأسه، ولكن من الواضح أنه شرب كثيراً. كما لم يلمس كوم سمك السردين المقلي الذي أمامه.

قال الرجل الذي رفع رأسه فجأة، موحداً بين الأحرف كلها، ومدمجاً لها: "لماذا– تنظر– يا– ابن– البلد؟" وأثناء انكماش جلال حيث يجلس غير عارف بما سيجيب به، وصل النادل إلى عنده، وقال له: "مشٍّ الحال يا أخي الكبير، إنه لا يؤذي أحداً. اليوم متضايق قليلاً." من دون أن يسلم نظره المتابع العابرين من أمام مشرب البيرة لزبونه ولو للحظة.

كانت الجعة باردة كفاية. أما البطاطا فهي سيئة جداً. عُصر فوقها مايونيز وكتشاب على شكل ربطات فراشة. لم يكن جلال معترضاً على المايونيز، ولكنه كان يكره الكتشاب. غضب من نفسه لأنه لم ينبه النادل من البداية. غيَّر جلسته، والتفت جانباً حيث لم تعد تلك الطاولة مقابلة له، بل التي كانت على يمينه مباشرة.

أحد أربعة رجال سليمي الأجسام يجلسون حول الطاولة رفع إبهامه الأيمن في الهواء كأنه يعمل "أوتوستوب"، ويقف كما هو. كان رجل كجذع شجرة صنوبر، ضخم الأنف، رهيب المظهر. يبني باستمرار جملاً تنتهي بعبارة: "أليس كذلك؟" بعد أن أخذ رشفة كبيرة من جعته، ومسح الرغوة العالقة بشاربه بقفا يده، قال معترضاً: "ما هذا؟ لماذا سكتم؟ أيليق بنا الهروب؟ لا يليق، أليس كذلك؟" وضع السكين غير الحادة الملوثة بصلصة النقانق وسط الطاولة، وتابع: "قلتم رهاناً. إيه، تفضلوا. أنا أدخل رهاناً كهذا يا أصدقاء. هل نحن أولاد لنراهن على دحلين أو ثلاثة أغطية مياه غازية. إذا خسرت، أترك إصبعي هذه هنا على الطاولة، وأذهب. أما إذا خسرتم أنتم، فلابد أن تجرحوا أصابعكم، أليس كذلك؟ اتفقنا؟" يجب أن تكون السكين التي وضعها قبل قليل لم تعجبه، ففتح الموسى التي أخرجها من جيبه بشكل ماهر، ووضعها بجانبها. بعد ذلك رفع إبهامه إلى الهواء، ووقف. أثناء نظر الآخرين إلى الإصبع المدسوسة بأعينهم، هب جو بارد كالثلج على طاولتهم.

لو أن جلالاً في زمن آخر، لانسحب ذاهباً، لأنه يخاف من العنف، والشدة. ولكن نفسه تشتهي الشرب اليوم. استمر بالجلوس رغم مشاكسة

السكران الجالس مقابله، وكتشاب البطاطا، والإصبع العاصفة إرهاباً على الطاولة المجاورة، وشرب.

قبل وصوله إلى نصف كأس الجعة الثاني، تحولت عيناه غير المعتادتين على المشروب إلى صحني دم. أثناء تثبيت عينيه على بقع غطاء الطاولة المثقب، تنهد قلقاً. لماذا توءمه بعيد عنه إلى هذا الحد؟ ليس ثمة نقاط مشتركة بينهما أبداً. لماذا لا يشبه أحدهما الآخر ولو قليلاً؟ وطالما أن حاليهما مختلفتان إلى هذا الحد، فلماذا يعملان معاً حتى الآن؟ عندما وصل إلى نهاية كأس الجعة الثالث، قرر أن يقول لجمال إن وقت انفصالهما قد حل.

# الرقم 9: صو والمدام خالة

كانت صو ستأخذ درسها الأول باللغة الإنكليزية هذا المساء. وكان قد تقرر في الساعة السابعة مساء. نظرت إلى الساعة الفوسفورية التي أهداها لها أبوها بمناسبة عيد ميلادها: السادسة وخمس وثلاثون. ثمة وقت طويل. تجولت داخل البيت المخيم الأبيض على أرجائه كلها متضايقة. لأن أمها قضت الليل كله واقفة على قدميها مرة أخرى، فقد سقطت مغلوبة أمام النوم قبل ساعة.

فتحت النافذة، وتفرجت على الأولاد الذين يلعبون في الشارع فترة. تفرجت عليهم باهتمام، ولكنها لا تعتقد أنها ستعمل مثلهم لو كانت تستطيع الاختلاط بهم. وكالأولاد الكاملين الذين لا رفاق لهم خارج المدرسة، وليس لهم إخوة على رؤوسهم في البيت، المتلقين تربية كما أريدت، وخاتمي أطلس التهذيب شبراً شبراً أكثر مما أريد لهم، ويبحثون الآن عن عثة في الأطلس نفسه من جديد، كانت هي أيضاً تنظر باستخفاف مصحوب بحدة خفية إلى لعب الشارع الذي يلعبه أبناء جيلها. أغلقت النوافذ بضيق. بعد أن تجولت في البيت عاملة على عدم إصدار أي صوت، وواربت الباب الخارجي من دون تفكير. لم تنس القرب المتفتق برعماً بينها وبين المرأة العجوز أثناء قص شعرها

عـندما أصـيبت بـالقمل. عـلى صـعيد المعرفة بأنها يجب ألا تخرج خارج بناء قصـر بنـبون باسـتثناء الذهـاب إلى المدرسـة والإياب منها، فهي تعرف، ولكن الشقة المقابلة لم تكن تعد "خارج".

وهكذا أقدمت على فعل ما لم تقدم على فعله من قبل، ورنت جرس الشقة المقابلـة. لم يـأت صوت من الداخل أبداً. بعد أن انتظرت قليلاً، ضغطت على زر الجـرس مـدة أطـول هـذه المـرة، ولكـنها شـعرت بالندم لحظة قيامها بهذا العمل. كانت على وشك العودة لحظة وورب باب الشقة رقم عشرة.

# الرقم 3: مصفف الشعر جمال

فور توديع جمال الغاضب من عدم عودة جلال آخر زبونة، أحال فصل إغلاق الصالون لأجرائه، ورمى بنفسه إلى الشارع متضايقاً. حسنّ وضعه نسيم المساء. عَبَرَ من الشوارع الفرعية بخطوات حثيثة، وخرج مباشرة إلى الشارع الرئيسي. بعد أن مشى حوالي خمس عشرة دقيقة وسط الزحام من دون معرفة اتجاهه، دخل إلى زقاق فيه خمسة مشارب جعة متجاورة أحدها يشبه الآخر. اشتهى شرب كأس من الجعة رغم أن هذه ليست عادته. اختار مشرب جعة لا على التعيين، وولج إليه. كان مزدحماً. اختار الطاولة الأقرب إلى الباب. عندما يدخل إلى مكان غريب عنه، يعمل على الجلوس في المكان الأقرب إلى الباب قدر الممكن. طلب من النادل المتهدل تحت ذقنه، والواضح من حاله أنه لا يحب عمله ولو بمقدار ذرة، وأن عقله يتجول في أمكنة أخرى كأساً من الجعة، وصحنَ بطاطا مقلية. أثناء الانتظار، انتبه إلى أن رجلاً ممتلئ الجسم، تحت عينيه ثلاثة انتفاخات بثلاث درجات للون الأزرق، يجلس على طاولة تقع مقابله ينظر إليه بانتباه. نادى الآخر النادل من دون أن يرفع عينيه عن جمال ولو ثانية، وقال نافخاً نفسه الذي تعج منه رائحة المشروب في أذن

النادل: "اسأله- لنرى- لماذا- عاد؟" وعندما رأى أنه لم يُفهم، توترت أعصابه، وشرح ما ود قوله: "اسأله- لنرى- لماذا- ذهب- طالما- أنه- سيرجع--وطالما-أنه-سيرجع- لماذا- ذهب؟"

أثناء انكماش جمال في كرسيه وهو في منتهى القلق فاهماً أن الرجل الجالس مقابله يحكي عنه، ولكنه لم يفهم ما يحكيه، جاء النادل إلى عنده، وقال له بصوت محمل بالملل: "مشّ الحال يا أخي الكبير. إنه زبون دائم عندنا. إنه متضايق اليوم قليلاً، يتدخل في كل ما يراه. ولكن ليس عنده عيب أبداً."

كانت الجعة باردة كفاية. أما البطاطا فهي سيئة جداً. عُصر فوقها مايونيز وكتشاب على شكل ربطات فراشة. لم يكن جلال معترضاً على المايونيز، ولكنه كان يكره الكتشاب. غضب من نفسه لأنه لم ينبه النادل من البداية. غيَّر جلسته، والتفت جانباً حيث لم تعد تلك الطاولة مقابلة له، بل التي كانت على يمينه مباشرة.

أحد أربعة رجال سليمو الأجسام متحلقين حول الطاولة رفع إبهامه الأيمن الملفوف بشاش ضماد، وبقي حول الظفر بقعة دم جافة، ويجلس كصنم. تمتم أحد الآخرين: "يا أخي الكبير، اذهب إلى بيتك، لماذا تجلس مضمداً ومخيطاً هكذا؟" خرج الذي بجانبه داعماً له: " لا أعرف لماذا نحن عدنا إلى هنا أساساً. أعتقد أنه لا يوجد أحد عاد من الإسعاف إلى مشرب بيرة غيرنا."

قال الرجل الشبيه بجذع شجرة صنوبر، الضخم الأنف، الرهيب المظهر وهو يحرك رأسه إلى الجانبين بحرارة: "مستحيل! نحن تراهنا، أليس كذلك؟ وطالما خسرت، على أن أتحمل عقوبتي، أليس كذلك؟ طالما جئنا للشرب، سنشرب. وسنشرب نخب يدي أيضاً. لأن إصبعي هذه ستكون سليمة تماماً لولا أنني مستقيماً، ولولا أنني ملتزم بكلامي، أليس كذلك؟ ولكنني ماذا فعلت أنا؟ التزمت بكلامي. هذا يعني أن جرح السكين هذا هو دليل على نزاهتي، أليس كذلك؟ حين نشرب نخب إصبعي، نكون نشرب نخب نزاهتي، أليس كذلك؟" أثناء رفع الآخرين كؤوسهم من دون رغبة خيم على الطاولة جو مثلّج.

لو أن جمالاً في زمن آخر، لانسحب ذاهباً، لأنه يخاف من العنف، والشدة. ولكن نفسه تشتهي الشرب اليوم. استمر بالجلوس رغم مشاكسة السكران الجالس مقابله، وكتشاب البطاطا، والإصبع العاصفة إرهاباً على الطاولة المجاورة، وشرب.

قبل وصوله إلى نصف كأس الجعة الثاني، تحولت عيناه غير المعتادتين على المشروب إلى صحني دم. أثناء تثبيت عينيه على بقع غطاء الطاولة المثقب، تنهد قلقاً. لماذا توءمه بعيد عنه إلى هذا الحد؟ ليس ثمة نقاط مشتركة بينهما أبداً. لماذا لا يشبه أحدهما الآخر ولو قليلاً؟ وطالما أن حاليهما مختلفتان إلى هذا الحد، فلماذا يعملان معاً حتى الآن؟ عندما وصل إلى نهاية كأس الجعة الثالث، قرر أن يقول لجلال أن وقت انفصالهما قد حل.

# الرقم 10: المدام خالة وصو

عندما قُرع الجرس كانت المدام خالة مشغولة بإفراغ الأكياس التي جلبتها معها من الخارج. كان أحداً لا يقرع بابها غير مريم التي توزع الخبز صباح كل يوم، وتجمع النفقات كل شهر. توقعت بداية أن الجرس قد قرع بالخطأ من الأسفل بداية. ولكن عندما قُرع الجرس مرة أخرى بعد خمس أو عشر ثوان، وفوق هذا قرعاً مطولاً، تعرقلت يداها ورجلاها. أعادت ملء الأكياس التي أفرغتها، وأدخلتها إلى الغرفة الصغيرة. وأغلقت الباب الأبيض ذا الزجاج المغشى الذي يفصل البهو عن بقية البيت، وأقفلته بالمفتاح بحركتين تحسباً لأي احتمال. وسحبت المفتاح المتدلي من شريط مخملي بنفسجي محمرّ من القفل، وعلقته برقبتها لأنها تعرف أنها ستنساه أينما وضعته. وبعد أن مشت في البهو رواحاً ومجيئاً للمرة الأخيرة، توجهت إلى الباب الخارجي بخطوات قلقة.

قالت مرتاحة: "هذه أنت يا صو؟ كيف، هل ارتحت بالشعر القصير؟"

هزت صو، المتجاوز طولها طول المدام خالة ثلاثة سنتيمترات ونصفاً بفضل الحذاء الرياضي التي تلبسه بقدميها، رأسها وتكشيرة ابتسامتها واصلة إلى

شحمتي أذنيها. قلقت المرأة العجوز مرة أخرى من سعادة الطفلة العارمة. ولكنها عندما انتبهت إلى أنها تنتظر إدخالها إلى البيت، حل ارتباك آني محل القلق. التفتت، ونظرت إلى البهو من فوق كتفها. ثمة سنوات لم يدخل فيها هذا البيت ضيف واحد. لم تكن تُدخِل حتى أخيها الكبير الذي تكن له محبة كبيرة. عندما يشتاق أحدهما للآخر، يلتقيان في محل معجنات محاط بالزجاج المعشق، وحقق شهرة كبيرة بعمره، ويأكلان قطعتي كعك محلى بالتفاح، ويشربان كوبين من الكابتشينو وسط روائح الكريمة والقرفة. أثناء تفكير المرأة بإيجاد ذريعة لصرف الطفلة من دون أن تكسر بخاطرها، انسحبت عينا صو الواسعتان السوداوان اللتان أخذتهما عن أمها كما هما نحو الأسفل فجأة. كم تبدو هذه الطفلة تعيسة، رغم هذه الابتسامة التي رُبطت بوجهها. لم يطاوعها قلبها على ردها. من جهة أخرى أي محظور سيكون من هذا العمل بعد أن أخذت احتياطها؟

قالت وهي تنسحب جانباً لتمر الطفلة: "تعالي لنشرب قهوة بالحليب، متقابلين!"

قالت صو: "أنا لا أحب الحليب!"

قالت المدام الخالة: "لم أر طفلاً يحب الحليب، ولكنك طالما كبرت إلى حد النجاح إلى الصف الخامس، فاعتقدت أنك صرت تشربين الحليب."

خلعت صو حذاءها عندما أدركت أنها تواجه منطقاً لا يمكنها رفضه، وعندما لم تجد السلة التي بحثت عنها في المدخل، أدركت أن بإمكانها التجول بالجوارب في هذا البيت.

فور خطوها خطوة داخل البهو، قالت: "تفوح رائحة هنا أسوأ من التي تفوح من بيتنا. وبابتسامة طافحة بتأثير التباهي الذي شعرت به نتيجة التوصل إلى هذه النتيجة، تمتمت بأغنية سمعتها صباحاً بسيارة المدرسة وهي تتفقد الأطراف حولها.

# الرقم 2: سيدار وغابا

نظر سيدار إلى الأشياء المقرقعة في حقيبة ظهر الفتاة بأرق: فرشاة أسنان لونها فيروزي (وهكذا صار في البيت فرشاتا أسنان)، وكأس مقلق فيه عشرات الفتحات مغلق بعضها ومفتوح بعضها الآخر (وهكذا صار مجموع الكؤوس في البيت اثنين أيضاً)، عبوة شامبو من أجل الشعر المغسول كثيراً (وهكذا يغدو عدد عبوات الشامبو في البيت اثنتين أيضاً)، عبوة سدادات (لم يكن يوجد منها في البيت)، منشفة (وهكذا بلغ عدد المناشف في البيت اثنتين)، مجموعة من الكتب والأقراص المدمجة (وهكذا صار عدد الكتب والأقراص المدمجة كبيراً).

مع أنه لم يكن يقصد هذا عندما وافق على رغبة الفتاة بالبقاء في البيت. كان قد قال لها يمكنك أن تبقي أحياناً، وليس أن تسكني. إذا كانت هذه الفتاة الجميلة العينين والنحاسية الشعر تريد إغراق غابا بالبسكويت بالبندق، وممارسة الجنس معه، والتمدد على هذه الأريكة والفرجة على السقف، فلا اعتراض عنده على هذا. طالما بقي غابا واحداً، وسيدار واحداً، وفتاة واحدة

فليس ثمة محظور من وجودها. القضية تكمن فيما جلبته معها. كل من يريد أن يدخل حياة شخص ما، يجلب معه أشياء ما.

لأن سيدار كلما ركب الحنتور الذي تجره خيول القلويات الرمادية، أو خيول الحشيشة البنية، وانطلق بأقصى سرعته بين تلافيف مخه، يتعثر دائماً بالسؤال نفسه، وينغرز مكانه: "أي منها؟" إذا كان أمامه كأسان، فلا يعرف بأي منهما يشرب، ولا يعرف بأي منشفة سينشف وجهه، ولا يستطيع أن يحدد الكتاب الذي يقرؤه، ويضيع بين قرصين مدمجين من دون أن يعرف كيف يخرج، وبالنتيجة فإنه لا يستطيع مواجهة أي أمر يوجد منه اثنان. طالما أن العدد أكثر من واحد فإن سؤال أي شوكة، وأي كأس، وأي صحن، وأي قدر، وأي غلاية قهوة سيستخدم هو سؤال عسير مثل أسئلة حساب الآخرة. كثيراً ما وقف متصنما وبإحدى يديه قطعة بسكويت بالسمسم، وفي الأخرى بالقشطة. بعد ذلك إذا نظر إلى الساعة، ينتبه إلى أنه يبقى أربعين دقيقة على الأقل من دون أن يتحرك. وعندما يحاول الخروج من هذا المأزق، يغوص أكثر، فلو اختار أي واحدة من اثنتين، سيبقى عقله عند الأخرى. وكفراخ الطيور الصغيرة الوقحة التي لم تعد أمها بعد، وتفتح مناقيرها الصغيرة إلى أقصى حد، تبدأ الأشياء بالصراخ في الوقت نفسه: "اخترني يا سيدار! اخترني يا سيدار!".

إنه لا يريد أن يجري تفضيلاً. الجميع يعتقد أنه أجرى اختياراً بين سويسرا وتركيا. هذا ليس صحيحاً. لم يجر اختياراً وما شابه ذلك، إنه جاء فقط. ولعله غداً في يوم ما، سيذهب فقط. وكذلك الأمر في قضية الانتحار التي صار يفكر فيها أكثر خلال الفترة الأخيرة، فهي ليست قضية اختيار بين أمرين كما يعتقد كثيرون. فالانتحار مثل غابا، واحد ووحيد. سيفعله فقط.

ولكن الأمر يختلف عندما يكون أمر أشكال الانتحار. لأن الخيارات تتكوم أمامه حينئذ. ثمة طرق متنوعة للانتحار. لأن سيدار كلما ركب الحنتور الذي تجره خيول القلويات الرمادية، أو خيول الحشيشة البنية، وانطلق بأقصى سرعته، ووصل إلى عتبة الانتحار، يعلق بذلك السؤال المعقد. موقد المطبخ،

والحبل الذي يعلق على الأنبوب المخترق البهو، والحبوب التي في الزجاجات، والشفرات التي في الحمام، وجسر البوسفور بقوائمه الفيلية، تصرخ كلها معاً: "اخترني يا سيدار! اخترني يا سيدار!"

قال وهو يشيح بعينيه عن عيني الفتاة: "لا يمكنك البقاء هنا"

"ولكنني سألتك، ولم تعارض."

قال سيدار وهو ينظر إلى العنكب المتدلي من السقف، ويبلع لعابه من الضيق: "أعرف، غيرت خياري."

# الرقم 3: مصففا الشعر جمال وجلال

عندما خرج جمال من مشرب البيرة، وجد نفسه أمام بناء قصر بنبون رغم أنه نوى الذهاب إلى البيت، وهذا إما لأنه لا يتقن السير بشكل مستقيم أو أنه قرر أن طريقه قد افترقت عن طريق توءمه، وهذا يعني وداعه لمحل عمله. مد رأسه من فوق العبارة الخضراء الفستقية المبتسمة على الجدار عاملاً على عدم ملامسة أكياس الزبالة التي تفوح برائحة الحموضة، ونظر بعينيه المكدرتين إلى صالون تصفيف الشعر. ولكن ما رآه، جعله ينسى نفسه فعلياً، وسبب ارتباكاً له إلى أبعد حد. ثمة شعلة شمعة ضعيفة ترتجف في الداخل. لم يكن لديه شك بأن الأجراء أقفلوا الباب، وذهبوا قبل ساعات. قطب حاجبيه، وتعلق نظره بشرفة الشقة الخفيضة. يجب أن يكون لصاً قد دخل من هناك.

لم يكن جمال مثالاً للجرأة، ولكنه لم يشك بأن قلبه ثلاثة كؤوس كبيرة من الجعة يمكن أن تسود عينيه، وفي الوقت نفسه يمكن أن تزرق عينا آخر. التقط مقبض علاقة ألبسة من بين أكياس الزبالة لا يدري من رماها، وغاص في حديقة البناء، عبر من جانب الوردة الحريرية، وقفز إلى الشرفة بقفزة واحدة.

وكمـا توقع، فإن الباب موارب قليلاً. ولج إلى الداخل بسرعة، وخطا خطوتين نحو الرجل الواقف عند الشمعة... وفي اللحظة ذاتها سحب ذراعه.

في هـذه الأثـنـاء عـندما رأى الآخـر ظـلاً يدخـل بموقـف عدائي، التقط آلة معقـود السـكر، وقفز على قدميه. لم يكن جلال مثالاً للجرأة، ولو كان في زمن آخـر لانقطعـت مرارته من الخوف، ولكنه ترك خلفه ثلاثة كؤوس جعة فارغة قـبل أن يـأتي إلى هـنا. ولأنـه إمـا ضعيف إزاء المشروب مقارنة مع توءمه، أو أبطـأ مـنه بـردة الفعـل في هـذا المجـال، فإنـه لم ينجح بإيقاف ذراعه التي رفعهـا بكـل قوته إلى أعلى على الرغم من معرفته في اللحظة الأخيرة من يكون الظـل القـادم. عندما أدركت ذراعه اليمنى أمر "انسحب!" الصادر عن العقل، كـان الأمر قد انتهى. خلال ثانيتين نزلت آلة معقود السكر على كتف جمال، وتركت زر ضبط الحرارة هناك.

* * *

عـندما جـاء أبوهمـا بعـد سـنوات مـن ذهابـه، بعـد سـنوات طويلـة، كان الـتوءمان في العاشرة من عمرهما. استمعا له بإعجاب، وأعجبا بما حكاه. عمل كـثيراً، وكسـب نقوداً كثيرة، وهو الآن قادم لأخذ عائلته، والذهاب إلى هناك. كـان هـنالك بيت شديد الصفرة كالذرة، وفي حديقته أرجوحة من عجل سيارة يـنـتظرهم. أثـنـاء اسـتماع الـتوءمين لمـا حكـاه أبوهمـا مـن دون أن يبـتعدا عـن حضـنه، فقـد حضـرت أمهمـا الحقائب، ووزعت الأغراض التي لن يستطيعوا أخذها على الأصدقاء والأحباب، وودعت جيرانهم واحداً واحداً، وطويلاً.

قـبل يـوم مـن السـفر، وأثـناء تقلـب جمـال وجلال إلى اليمين وإلى اليسار في فراشـهما الممـدود على الأرض لعدم استطاعتهما النوم من الانفعال، اندس أبوهما إلى غرفـتهما. داعب رأسيهما، وأخرج من عبه صورة. حقيقة بدا في الصورة بيت كـبير جـداً، وشـديد الصـفرة. ولـه حديقـة كمـا شـرح تمامـاً. وثمـة أرجوحة في الحديقـة. ويوجـد عـلى الأرجوحة امرأة ممتلئة يتفتح الورد في وجـهها. وعُقصت

خصلة شعر عند رقبتها من الخلف، وصنع من شعرها الأحمر ضفيرة غليظة مرخية. سألهما أبوهما: "كيف؟ إنها جميلة، أليس كذلك؟" وهز التوءمان رأسيهما مصدقين اضطرارياً. لم تكن تشبه النساء اللواتي رأياهن حتى الآن وخاصة أمهما، فهي لا تشبهها أبداً. أثناء وضع الصورة في جيب سترته الداخلي داعب رأسيهما مرة أخرى. قال: "لننطلق نحن الثلاثة غداً، ولتبق أمكما هنا حالياً. لنذهب نحن، ونرتب أمورنا. بعد ذلك نأتي، ونأخذها."

رغم أنهما صغيرا العمر، ورغم المحبة التي يكنانها لأبيهما، فقد فهم الولدان منذ تلك اللحظة أن هذا كذب. عندما بقيا وحدهما في الغرفة، لم يناقشا هذه المسألة فيما بينهما أبداً. وتظاهر الاثنان بأنهما لم يسمعا، وإذا كانا قد سمعا، فكأنهما لم يفهما. عندما استطاعا أن يناما في النهاية تلك الليلة، خطرت لهما المرأة ذات الشعر الأحمر في حلمهما. عندما استيقظا صباحاً لم يكونا واثقين إن كانت قد أتتهما أم لا.

قال جمال وهو منهار على ركبتيه لتوءمه الناظر إلى زر ضبط الحرارة: "استمتعت بما حكاه لي أبي في ذلك الوقت، إلى حد..."

تمتم جمال شارداً: "ذلك البلد الضخم، وتلك المرأة الجميلة... أهنت أمي من أجل هذه الأمور. أنا شخص سافل على هذا النحو. بعت أمي التي ولدتني، وأرضعتني، وربتني من أجل هذه الأمور. لنقل إن الإنسان يغدو مادياً عندما يكبر، فالحياة جعلته هكذا. ولكن هل يغدو ولدٌ بقد إصبع مادياً؟"

في اليوم التالي أرسلوا أمهما بعيداً عن البيت بذريعة. عندما فُهم أنها ابتعدت بما يكفي، بدأ الثلاثة بتحميل الحقائب في مؤخرة السيارة.

قال جمال أثناء دخول أخيه تحت مقعد دوار وهو يتفرج على إخراج زر ضبط الحرارة: "ولكنك ماذا فعلت؟ أنت لم تبدل أمك بتلك الأمور! أنت لم تبع روحك. لم تبع إنسانيتك. قلت أنيك الغنى والبحبوحة. وقفزت من السيارة. عدت من أجل أمي. أردت أن تعيدني أيضاً. كيف كنت تركض من خلفنا؟ لم يغب هذا عن عيني طوال هذه السنين. كيف كنت تصرخ أيضاً؟ ركضت خلفنا حتى خروجنا من القرية."

أثناء تمخيط جمال مطولاً بالمنديل الذي أخرجه من جيبه، وطواه طيتين، وأربعاً، وثمانياً، وست عشرة طية، جاءت الكهرباء. هرع جلال، وجلب ماء من المطبخ. قبل أن يمد إليه الكأس، نقط فيه خمس قطرات من كولونيا الليمون.

قال جمال: "تسلم."

قال جلال: "كان قد انخلع حذائي."

أثناء نظر جمال إلى الشمعة المشتعلة بعينيه المطفأتين كأنه حزين على إشعالها حتى الآن للاشيء، حاول الوصول إلى نتيجة مما سمعه.

قال جلال: "كان قد انخلع حذائي." وفي الحقيقة إنه مال نحو الصمت في تلك اللحظة. ولكن فمه كان يتكلم تلقائياً من دون أخذ رأيه. لو أنه لم يشرب كأس الجعة الثالث. "لحظة ركوبي السيارة انخلعت فردة حذائي، وفقزت ذاهبة. لهذا السبب نزلت من السيارة. عدت لألبس حذائي. ولكنني قبل إنزال قدمي في الحذاء، نظرت، فوجدت أمي عند أول الطريق. دور أبي محرك السيارة فور رؤيته لها. ركضت نحوكم بفردة حذاء واحدة، ولكنكم تحركتم قبل أن ألحق بكم. صرخت بكل قوتي من خلفكم. وركضت وراءكم حتى مخرج القرية."

نظر كل من جلال الذي شعر طوال عمره بالانسحاق نتيجة ترك أبيه له، وجمال الذي شعر طوال عمره بالانسحاق نتيجة تركه أمه إلى وجه الآخر المنعكس في المرآة بمزيج من الدهشة والحزن، وبقيا هكذا فترة. ومهما كان ما رأياه على ذلك السطح اللامع، فقد استنتج كل من الاثنين بأن وضعه أصعب.

قال جلال: "ثمة أمر يجب أن تعرفه، كانت أمي امرأة جاهلة. عندما ذهبتما شحب لونها، وقهرت من الحزن. أرسلوها إلى شيخ مشهور. أخذتني معها أيضاً. ذهبنا. كانت عينا الرجل الشاب الذي قالوا إنه شيخ كالزجاج. وإذ به أعمى. تألم كثيراً لحال أمي. قال: 'أنا لم أعمل سحراً سيئاً حتى الآن. ولا يمكن لي أبداً أن أعمله. ولكن هذا الرجل يستحقه. سأساعدك. سنضع حجراً في طريق هؤلاء. سنجعل سيارتهم تنقلب عدة مرات، وسنغرق

سفينتهم إن اضطر الأمر، ولن يستطيعوا الوصول إلى هناك. هل تريدين أن نفعل هذا؟ قولي لنر إن كانت هذه رغبتك؟' وقفت أمي قليلاً. بكت، وانكمشت. لم تتحمل في النهاية، فقالت: 'نعم هذا ما أريده'."

ولأن جمالاً لم يفهم ما قاله توءمه إلا بعد عشر أو خمس عشرة ثانية، فقد أتى كشمسية ثلجية من الخلف خرجت تتغنج في أشعة الشمس. في الحقيقة إنه بحث في الوسط راغباً بقول شيء ما. ولكنه كما لم يعرف ما يقوله، فقد كان تحريك حنكه متعباً جداً في تلك اللحظة. لو أنه لم يشرب كأس الجعة الثالث.

"أمي مسكينة، كانت من دون طاقة إلى حد أنها ليست في حال تمكنها من فهم ما قيل. شرح لي الشيخ كيف سيعمل السحر. أعطاني شعر ذرة صفراء، وملأ الزجاجة بماء مقروء عليه، وكتب على ورقة من يعلم الآن ماذا. قال: 'قسّم شعر الذرة إلى خصلتين، واربطهما بقوة. وضعها في الورقة، ولفها بالطول كالسيجارة. بعد ذلك احرقها كلها. حينئذ ستسمع صوتاً. سيصدر من وسط النار صوت. عندما تسمع ذلك الصوت افهم أنك تعمل الأمر بشكل صحيح. لا تتوقف أبداً. احذر من ملامسة النار. لتحترق على هواها. عندما تُطفأ النار تماماً، إلق رمادها في الماء المقروء، ثم أفرغ الماء عند جذع شجيرة وردة حمراء. ويحصل الباقي من تلقاء نفسه'."

انقطعت الكهرباء من جديد. دبت الحيوية في لهيب الشمعة الضعيف في الظلام الذي منحها قيمة.

"فور ذهابنا إلى البيت، قالت أمي: هيا، اعمل الآن ما قاله الأفندي الشيخ! ربطتُ شعر الذرة في خصلتين، إحداهما ربطة كبيرة، والأخرى صغيرة. وضعتها في الورقة، ولففتها جيداً، ثم أشعلتها. لو رأيت أمي، فقد حملقت عينيها. يا إلهي، كان أملها هو توسل الأمل مني. اشتعلت الورقة جيداً، قلت لنفسي: لن يحدث شيء. لم أكن مؤمناً، ولكنني سمعت ذلك الصوت فجأة، وكما قال الشيخ بالضبط. كأن أحدهم يطلق صرخة. بعد ذلك صوت استغاثة آخر. كأنني سمعت صوتك. ارتبطت يداي ورجلاي، فتناولت

الماء المقروء عليه، وأفرغته فوق الورقة المشتعلة، فأطفئت مصدرة صوت جززز. شعرت بالراحة فجأة. لم أقل هذا لأمي. أفرغنا الماء المقروء مع الرماد عند جذع شجيرة الورد. ونمنا ليلاً. استيقظت مع الصباح على صوت. نهضت من الفراش، فوجدت أمي قد خرجت إلى الحديقة، وانهارت على الأرض باكية. قالت: 'يا جلال، ماذا فعلت أنا؟ كيف أؤذي صغيري؟ لم يحدث لهما شيء إن شاء الله.' قلت لها: 'الاثنان معاً؟' قالت: 'الاثنان معاً.' نظرت، وإذ إن يديها مخدشة خطوطاً. ورغبة منها بتخريب السحر، أمسكت شجيرة الورد، واقتلعتها من جذورها. قالت: 'لن يحدث شيء يا جلال، أليس كذلك؟' قلت: 'لن يحدث.' قالت: 'ألم تفعل ما قاله الشيخ بالضبط؟' قلت: 'لم أفعله بالضبط.' فرحت بشكل كبير، وقالت: 'أحسنت يا ابني الذكي.' حينئذ احتضنتني بامتنان جعلني أفهم الأمر. فهمت أنها تحبك أكثر مني. وإذ إن ابنها الذاهب هو ابنها الأحب إليها..."

شعر جمال فجأة أن جسمه يقشعر من رأسه إلى قدمه. نهض ليغلق باب الشرفة، ولكنه عندما شعر بالدوران في رأسه، انهار من جديد على الأرض حيث هو.

"أنا أخاف عند ذكر ولي أو حاج أو شيخ منذ ذلك اليوم يا جمال. ليس نتيجة إيمان أو ما شابه. إذا سألتني عن رأيي، فإنني لا أؤمن بأحد من هؤلاء. وإذا أردت الحقيقة، فإنني الآن أشك بأن صوتاً قد صدر عن شعر الذرة. يبدو أنني خفت كثيراً مما جعلني أعتقد بأنني سمعت صوتاً. ولكن شكاً ما يقف في داخلي دائماً. لولا ذلك الشك لانقلب قبر أمي عكسياً. هكذا يبدو لي."

استمر الصمت دقيقتين. عندما جاءت الكهرباء في وسطهما، صارت إحدى الدقيقتين مضاءة، والأخرى مظلمة.

"هذا هو إذن سبب غضبك مني لسخريتي من الولي وما ولي. ولكنني أعدك! ليفسخ فمي إلى نصفين إذا فتحته مرة أخرى."

تنهد جلال. لم يجب توءمه المضبوط لسانه على المبالغة أو الشح فقط.

نـط جمال بطيبة قلب خاصة بأولئك الذين كانوا يستخفون بموضوع وقرروا فجـأة أن يتسـامحوا بـه، قـائلاً: "لنغلق هذا الصالون إن أردت. أي إنك الآن قلق من قص الشعر أمام الولي... نستأجر صالوناً في مكان آخر."

قـال جـلال ضـاحكاً: "لا، يـا لمـا سـيأتي أيضـاً! أنت خلطت بيني وبين الفرشاة والمشط غالباً."

# الرقم 9: صــو

صرخت صـو وهـي تمـد رأسـها من النافذة تارة، وتسحبه تارة مثل ساعة منـبهة مشـدودة الـنابض: "لـذوات الإشـاربات السمينات، لذوات الإشاربات السـمينات!" كانـت قد جلست بجانب النافذة في مؤخرة حافلة خدمة توصيل التلامـيذ الـتي توصـلهم فـرادى ومثـنى إلى بـيوتهم، وتحـدد أهدافـاً جديـدة باستمرار. ينتظر الولدان الجالسان أمامها مستعدين بمسدسي حمّص، وينتقلان بالتبادل إلى المقعد المجاور للنافذة، ويصوبان إلى الأهداف التي تشير إليها.

النسـاء ذوات الإشـاربات اللواتـي حددتهـن صـو كـنّ في تلـك الـلحظة محصـورات في منصـف شـارع باتجـاهين، وقد وجهن انتباههن كله للسيارات العابـرة محـاولات العـبور إلى الطـرف الآخـر. وكمـا لم يلـتفتن لسـيارة خدمـة التلامـيذ التي تضج بالصخب اللاهي المصم للآذان، لم ينتبهن لحبات الحمّص الـتي تطن على يمينهن ويسارهن. أثناء تخلي الولد الهداف العابس الوجه عن موقعـه لزمـيله، كانـت صـو قد حددت هدفها الجديد: "الشخص ذو الكلب، الشخص ذو الكلب!"

دخلت إحدى حبات الحمص في سترة الرجل البرونزي البشرة المرتدي ألبسة رياضية. ولكن الكلب من جنس (تيرير) لم يكن محظوظاً مثله. فقد شعر بضرورة الدوران في المكان والنباح نحو أمكنة لا علاقة لها بمصدر هذه الأجسام الغريبة التي تمطر على رأسه وذيله قبل أن يعرف من أين تنطلق. استطاع أن ينبح على بعد رسن على الحافلة. بعد ذلك توقف بأنين مسحوق، منتظراً لحاق صاحبه به. يجب أن تكون إحدى حبات الحمص قد أصابت عينه، مما جعله يرف بها من دون توقف وهو ينظر إليهم من الخلف. أطلق الولد المصوب صيحة "واووو" مقدراً نفسه. أصبحوا يقولون: "واووو" بدل قولهم: "واخ من روحه".

ثلاث الفتيات اللواتي يجلسن دائماً في مقدمة الحافلة، ويربطن شعرهن ربطة ذيل حصان، ويتصرفن مع السائق كأنه صديق لهن منذ أربعين سنة، ويعطينه أشرطة تسجيل للأغنيات الشائعة يدورها لهن، التفتن إلى الخلف معاً، ونظرن نظرة مؤنبة لمرتكبي الحادث. لم تكترث صو أبداً. منذ سماع أنها أصيبت بالقمل، ونفيها، ومن يوم قصت شعرها قصيراً، تركت نهائياً عالم البنات الذي كانت تجد صعوبة أصلاً بإدخاله إلى محور اهتمامها. إنهن يصادفن إحداهن بجوار الأخرى في غرفة تبديل الملابس قبل درس التربية البدنية وبعده فقط. تتصرف معهن وكأنهن غير موجودات. والأمر الوحيد الذي تريده مقابل ذلك هو أن يتصرفن وكأنها غير موجودة أيضاً. ولكنهن يتصرفن مع صو على العكس من ذلك تماماً. فعندما يصطففن إحداهن بجوار الأخرى في غرفة تبديل الثياب الضيقة التي تُخنق بروائح الزهور نتيجة بخ مزيلات الرائحة بشكل كبير، يشعرنها بأنها غير محبوبة بينهن من خلال النظرات المحملة بالمعنى التي يوجهنها لها، والعبارات المشفرة التي يطلقنها أثناء ارتدائهن الجورب ذي الكيلوت. ولكن الصبيان لم يكونوا هكذا. فيعتبرون القمل، والإصابة بالقمل حدثاً عرضياً بينهم.

مدت نفسها من النافذة إلى نصف خصرها، ووضعت إبهامها على أنفها فاتحة أصابعها بحركة ساخرة من كلب (تيرير) الباقي في الخلف بعيداً.

ولكنها لحظة أرادت أن تجلس مكانها، وقعت عينها على رجل تداخلت لحيته مع شعره يحتضن براميل الزبالة على مبعدة مترين أو ثلاثة إلى الأمام. كان ذلك الرجل يملأ خرجاً وضعه على كتفه بعلب الصفيح التي يخرجها من أكياس القمامة التي بداخل البرميل بحركات سريعة، بعد ذلك ينظر إلى البرميل وهو يحك رأسه مفكراً كأن صوتاً من داخل البرميل قد طرح عليه سؤالاً إجابته صعبة، ثم ينحني عليه مرة أخرى. ارتدى بزة عمل بلون أخضر نفطي ممزقة مزقاً، وعلى رأسه قبعة بلون خمري داكن. من الممكن رؤية ركبتيه القذرتين من مزق بنطال البزة.

صرخت صو قائلة: "للمتشرد، للمتشرد!"

وضع الولد المتسلم المناوبة حبة الحمص في مكانها، ونفخ بقوته كلها في لفة الورق. ولكن الرجل الدريئة ترك العمل الذي يقوم به في اللحظة ذاتها، والتفت بشعور فطري، وفتح فمه إلى الآخر كالناظرين إلى قاتلهم قبيل أن يطلق عليهم الرصاص، والتقط حبة الحمص الطائرة نحوه في الهواء، وابتلعها من دون أن يمضغها في اللحظة ذاتها. وعندما كانت الحافلة مارة من أمامه تماماً، وضع يده على قلبه، وانحنى قليلاً كأنه يشكرهم، وفتح فمه مرة أخرى استعداداً للقذيفة الثانية. طقطق بأسنانه المصفرة من القذر نافد الصبر عندما رأى أن حبة الحمص قد تأخرت. وأثناء انسحاب الولد الجالس بجوار النافذة مخبئاً مسدسه، نظرت صو الملتصقة بالنافذة بعينين محملقتين دهشة لهذا الرجل الوهم العجيب الذي لا يشبه أبداً الناس الذين رأتهم أو عرفتهم.

# الرقم 2: سيدار وغابا

عـندما صفعت الفتاة الباب وراءها وهي خارجة، شعر سيدار أنه كالخراء. انـتظر حـتى المساء على أمل أن تعفو عنه، وتعود. نظر في النهاية، فوجد أنه ينتظر من دون جدوى. فوضع لغابا رسنه، وألقى بنفسه إلى الشوارع.

تـبعد مقـبرة الأرمن الكاثوليك مسير خمس وعشرين دقيقة. تلك المقبرة هي الأحـب إلـيه بـين مقابـر المديـنة كـلها. دفـع الباب الضخم المزخرف الذي لا يظهـر أنـه يخبئ وراءه مكاناً مضيئاً جداً إلى الآخر لكي يتمكن غابا من العبور بـراحة. عـندما رآه الحـارس المقطـب الوجه، نخر مصدراً صوت امتعاض على عادته كلما رآه. رغم أن الحارس قد اشتبه به منذ أول مجيء له، وبكل حركة من حركاته، فقد اعتاد عليه في النهاية، لهذا لم يعلق على دخول هذا الشاب النحيل الضعيف السيئ الهندام، كما لم يعترض على وضع كلبه المتململ أمانة عنده بعد أن قرر أنه مجنون غير مضر بحاله وذاته.

عـندما وصل إلى أول الطريق الحجري البالغ عرضه ثلاثة أمتار الذي يقطع عمودياً كـل دروب المقـبرة، لـوح لسـيدار رجـل مسـن يجلـس على أول مقعد

مطاول من المقاعد المصفوفة صفوفاً. تقابلا عدة مرات من قبل، وتبادلا التحية في كل مرة، ولكنهما لم يتبادلا الحديث أبداً.

قال الرجل المسن وهو يخبط على المقعد من أجل أن يجلس بجانبه: "ها قد جئت من جديد، مع أنك شاب فتي. هل ترى ضرورة للعجلة؟"

جلس سيدار على الطرف الآخر من المقعد صامتاً. التفت قبل أن يجيبه، ونظر إلى الرجل المسن بإمعان. يجب أن يكون في الخامسة والسبعين من عمره على الأقل. ولعله في الثمانين. له عينان كالخزرتان، صغيرتان، ومدورتان، ولونهما كحلي ورمادي.

عارض سيدار قائلاً: "ولكنني رأيت هنا كثيراً من قبور الأطفال."

قال الرجل المسن: "أنا لم أقل إنك فتي على الموت، بل قلت إنك فتي على التفكير بالموت."

سمع نباح غابا من بعيد. أصغى سيدار. من المحتمل أنه لا يوجد ما يقلق. يجب أن يكون ثمة غريب يقدم له الطعام في هذه الأثناء. لا ينبح هكذا إلا عندما يأخذ طعاماً من شخص غريب. إنه نباح أشكركم من أجل الكعك، **أنتم ظريفون جداً!**

قال الرجل المسن الذي يبدو أن عنده هوساً للكلام: "أنا أيضاً أفكر بالموت اليوم. أختي الكبرى اتصلت بي اليوم. رأت ليلة الأمس حلماً سيئاً جداً. رأت أننا طفلان، وفي أيدينا زجاجات حليب. ولكن ذلك الحليب غريب جداً. بدل أن يسيل يقف هكذا متجمداً كالمهلبية. خرجت منه فئران بيضاء صغيرة بقدر إصبع البنصر. أمسكتنا أمنا، وأبعدتنا. ولكن أختي عادت. شربت مرة أخرى من الحليب رغم معرفتها أنه قذر. عندما انتبهت أمي، غضبت كثيراً. صرخت بها قائلة: 'ماذا فعلت؟ ارتكبت محرماً عظيماً!' ولكن أمي لم تستطع أن تكسر بخاطرها عندما بدأت أختي الكبرى بالبكاء. قالت لها: 'لا تحزني، الرب سيغفر لك بالتأكيد.' وأنا أبكي أيضاً."

بدأ غابا بالنباح مرة أخرى. يجب أن يكون أحدهم يتحبب له. رغم معرفة الرجل المسن وسيدار أنهما لن يريا شيئاً من الزاوية التي يجلسان فيها، فقد

التفتا بشكل غير إرادي، ونظرا إلى باب المقبرة في اللحظة ذاتها. من المحتمل أنه لا توجد مشكلة. نباح إذا أعطيتموني كعكة أخرى، يمكنني أن أسمح لكم بالتحبب إلي!

"أنا لا أرى أحلاماً منذ سنوات طويلة، وإذا رأيت، فلا أتذكرها. ولكن أختي الكبرى تتذكرها. وأحلامها تتحقق دائماً. إنها امرأة مثقفة. خاصة إذا رأيتها أيام صباها... لم يكن يعجبها أحد. وكل ما لها، وما عليها هي كتبها! المسكينة أمي كانت تحزن عليها، ومنعتها من القراءة كثيراً لأنها تصاب بالرعاف. ولكن أختي الكبرى كانت تقرأ سراً. كانت تقرأ روايات على الأكثر. كانت تقرؤها بلغتها الفرنسية الأصلية. إنها أمام عيني منذ صغرها، تنحني هكذا على الكتاب الذي بيدها، وتغوص فيه، وأنا أعرف أن الدم سيسيل من أنفها بعد قليل. لو أنني أقول يا أختي، ولو أنني أنبهها... ولكنني لا أدري لماذا لا أستطيع التدخل بشأنها عندما تقرأ. كنت أتفرج عليها هكذا من دون أن أصدر صوتاً، وأنتظر لكي تسقط قطرة الدم. ثمة بقع حمراء كثيرة كهذه على صفحات الكتب التي كانت تقرؤها في ذلك الوقت. إذا أردت أن تمحوها فلا تمحى، وإذا أردت أن تمسحها فلا تُمسح، فتبقى هكذا. كان لديها دفاتر يوميات أيضاً، وهي لا تكلمنا، بل تكلم دفاتر يومياتها. بعد عودتنا —أختي وأنا— من المدرسة ذات يوم، لم نجد الكتب، ولا دفاتر اليوميات. قالت أمي: 'رميتها كلها!' شحب لون أختي، وصار كالرماد. كانت أختي الكبرى تحب أمي، تحبها، ولكنني أعتقد أنها لم تعفُ عنها أبداً.

ارتفع نباح غابا متضاعفاً، ومع ارتفاعة يغدو متوتراً. من المحتمل أن أموراً تضايقه. إنه نباح إذا كنتم لن تعطوني كعكة أخرى، فهل تذهبون من فوق رأسي لو سمحتم!

"تزوجت متأخرة جداً لأنها لم تعجب بأحد. كان زوجها طبيب عيون، عنده عيادة في حي شيشلي. كانا يتبادلان الحب كثيراً، ولكنهما لم يرزقا بأطفال. ولكن الرجل فيما بعد مات فجأة، قيل إنه كان يعبر الشارع من هذا الطرف إلى ذاك، فأعميت بصيرته على مايبدو. ضربته السيارة في وضح النهار،

وهربت. أنا رأيت من ابيض شعرهم من الحزن كثيراً في هذه الدنيا، ولكنني لم أر غير أختي الكبرى قد صغر جسمها من الحزن. صغرت، وصغرت، وبقيت هكذا. انقطعت عن الطعام والشراب. علقت صور زوجها في كل مكان من البيت. وكما كانت تتكلم مع يومياتها عندما كانت صبية، صارت حينئذ تتكلم مع صور زوجها. أنا ارتكبت خطأ عندئذ. اعتقدت أن إزالة أغراض زوج أختي من أمامها يجعلها تنساه بسهولة أكبر. ذات يوم جمعت صوره كلها، وأغراضه، ووزعتها على الأصدقاء والأحباب. كنت أعتقد أن ذكريات زوج أختي لن تبقى في البيت عندما توزع على كل مكان. ولكن أختي الكبرى لم تستطع الجلوس عندما ذهبت الذكريات. ذهبت، وانتقلت إلى مكان آخر. كم سنة مرت منذ تلك الحادثة حتى الآن، لم تدخلني إلى بيتها. لم تتزوج مرة أخرى. وهي وحيدة دائماً. عندما نريد أن نلتقي، نتقابل في محل معجنات على مدى سنوات. أحلامها تتحقق دائماً. وتعرف تفسيرها كلها."

قال سيدار: "حسن، كيف يُفسر هذا الحلم؟"

"قالت: لعلها ستموت قبل أوانها. لهذا السبب غضبت منها أمي هكذا."

قال سيدار منفعلاً: "أيعني هذا انتحاراً؟"

ولعدم تفكير الرجل المسن بكلمة كهذه من قبل، وهو بعيد عن التفكير فيها، بل غريب حتى عن معناها، فقد رجف رمشا عينيه الخرزيتين، ونظر إلى وجهه نظرة خاوية.

بدأ غابا يخرج صوت نباح بقوة أكبر. إنه نباح طالما أنك لا تغرب عن وجهي، فإنني ذاهب! قفز سيدار مرتبكاً. مع أن هنالك أسئلة أخرى يريد أن يطرحها عليه. عندما اقترب من باب المقبرة، وجد غابا وسط اهتمام ومحبة مجموعة من الفضوليين متضايقاً. قبل أن يهرع إلى جانب كلبه، توقف، ونظر إلى الخلف. كان سيلوح للرجل المسن، ولكنه مازال ملتفتاً إلى الطرف الآخر كأنه لم ينتبه لبقائه وحيداً، ويتمتم شارحاً أموراً ما.

# الرقم 9: هيجين تيجين وصو وأنا

18.54 : دلـت صـو رجلـيها الرفيعـتين كعودي ثقاب المليئتين بلدغ البعوض المتحول إلى جـراح لكـثرة حكـه، ودسـت يديهـا بجيبي بنطالها القصير، وهي تـنظر إلى عقـرب دقـائق الساعة من دون أن ترفع عينيها، وكأنها تعتقد أنها إذا فعلـت هـذا سيتسرع الزمن، وتنتظر. معلمها يأتي دائماً في وقته المحدد بالضبط. لم يحدث حتى الآن أنه تأخر ولو خمس دقائق. ولكنه ثمة ثمن لكل هذه الدقة. إنـه يـنهي الـدرس في موعده دائماً. لم يحدث أن تأخر خمس دقائق حتى الآن. فـور بدئـه الدرس، يضع ساعته ذات الحزام الجلدي على الطاولة بينهما، ورغم أنه لا يبدو عليه أنه متضايق طيلة الدرس، فإنه ينهض فور اكتمال الساعة.

18.57 : قفزت على صوت الجرس. إنه مبكر ثلاث دقائق!

كانـت هيجين تيجين في تلك الأثناء أمام المغسلة تفك الكلس الباني في قعر إبـريق الشـاي. توجهـت نحـو الـباب وهـي تجفـف يديهـا المتـنفخة رؤوس أصـابعهما نتـيجة بقائهمـا سـاعات طويلـة في المـاء الساخن بصدارتها البيضاء كالثـلج. ألقت نظرة سريعة على معلم ابنتها من فرقه إلى قدمه، إنه يبدو لطيفاً كمـا هـو علـيه دائمـاً، لطـيفاً ونظيفاً. أثناء خلع الرجل حذاءه، وارتدائه نعلاً

بيتياً اختاره من السلة البلاستيكية بقدميه المرتديين جورباً بلون بيج، تنحت الأم وابنتها جانباً، وتابعاه بظرافة محملة بالاحترام. بعد ذلك انتقل الثلاثة إلى البهو مصدرين صوت حفيف. حُضِّر طرف طاولة الطعام المستطيلة من أجل الدرس مسبقاً كما في كل مرة: صحنان من الخزف الأبيض فيهما قطعتان من الكعك المحلى بجوز الهند بالسماكة نفسها على مفرش طاولة أبيض، وضعت مناديل مائدة بيضاء، فتح دفتر عليه زهر زنبق، أقلام رصاص مدببة الرؤوس بعناية، حضرت منفضة سجائر... التدخين ممكن في هذا البيت. الدخان أو الرماد لا يدخل حدود تعريف "القذارة" عند هيجين تيجين.

"إذا تابعنا نحن في الداخل عملنا بالتنظيف وأنتم تعملون هنا، لن نكون قد ارتكبنا عيباً بحقكم، أليس كذلك؟"

كانت تسأل السؤال نفسه قبل كل درس. جددت جوابي المألوف: "أرجوك يا سيدة تيجين. لطفاً تابعي عملك."

في تلك الأثناء ظهرت الخادمة المياومة خارجة من الحمام حاملة دلواً فيه ماء ذا رغوة بيد، وممسحة متداخلة البروزات باليد الأخرى. وظهرت خلفها مريم ببطنها المدبب، ويتدلى عن كتفها منشفة بيضاء طويلة مثل مدرب الملاكمة أو مكيِّس الحمام. وتمشي المرأتين متمايلتين لعدم الراحة من وضع ثقلهما كله على النعال البيتية التي تلبسانها.

"أما زلت تعملين حتى الآن؟"

نطت هيجين تيجين قائلة: "لا، لا، تركت مريم عملها في الأسبوع الماضي. ولكنني أقع في وضع صعب جداً عندما تذهب. ووجدنا حلاً كهذا. الآن تقول لها مريم ما الذي سيُعمل، وكيف. والسيدة أسما تعمل، الله يسلمها."

أسما البادي عليها عدم الامتنان من تقسيم العمل هذا، أدارت عينيها المرتخيتين بنظرتها المليئة بالملل عندما سمعت اسمها، وحيت من دون رغبة. بعد ذلك تفرقت النساء الثلاث في ثلاثة اتجاهات من البيت مصدرات حفيفاً وتاركات المعلم مع تلميذته وحدهما.

19.00: أثناء تقريب صو كرسيها من الطاولة نظرت إلى ساعة اليد ذات الحزام الجلدي الخارجة من حيث يجب أن تكون داخلة بينهما.

# الرقم 7: أنا والخليلة الزرقاء

لم تكن الخليلة الزرقاء قد ذهبت بعد عندما عدت إلى البيت بعد الدرس. وكما لم تذهب، فقد رتبت عدة طرود تنتظر فتحها منذ انتقلت إلى هنا، ومنحت المكان نظاماً. مع أنها كانت ستذهب إلى بيتها لتعد الطعام لتاجر زيت الزيتون. لم أبحث معها هذا الموضوع. أنا منتبه إلى أن العلاقة بينهما في الفترة الأخيرة غير جيدة.

"قل لنرى، أي طعام تريد؟"

قلت: "معكرونة". بداية بدت كأنها ستعارض. ولكن بعد هذا وجدت هذه الفكرة تسهل عليها الأمر. أثناء قيامي بسلق المعكرونة كانت تحضر صلصة بالبندورة والزعتر ضمن محدودية المواد المتوفرة في البيت. أعتقد أنها تحبني لهذا السبب. أنا على عكس الرجال الذين دخلوا حياتها، أطلب منها أقل ما تستطيع تقديمه. وبالمقابل أحصل على أكثر مما طلبت بكثير.

لحظة جلوسنا على الطاولة قرع الباب. كم هي طفلة عجيبة صو هذه؟ حملت كتابها، وقالت إنني نسيت أن أعطيها وظيفة من أجل نهاية الأسبوع.

دعـتها الخلـيلة الـزرقاء إلى المائدة. لم ترغب بالمجيء. أثناء حديثهما اخترت أربعـة أو خمسة تمارين أعلى من مستواها بكثير. طالما أنها تبحث عن متاعب نهاية الأسبوع، فليكن هذا على مايرام.

عـندما عـدت مـن جديـد للجلوس إلى المائدة، قالت الخليلة الزرقاء: "هذا يعني أنني لست الوحيدة بين جيرانكم القريبين جداً منكم."

"لا تتحدثي هراء، هذه مازالت طفلة."

"ومـاذا في الأمـر؟ ألا يُعشـق الأطفـال؟ أنا أعرف أنني عشقت بقوة في ذلك العمر. أم أنك لم تعشق أحداهن أبداً عندما كنت طفلاً؟"

استغربت فجأة. إذا كانت الخليلة الزرقاء قد تحدثت عن ماض بعيد، فإن ما بينها وبين تلك السنوات التي ذكرتها لا يتجاوز عشراً أو اثنتي عشرة سنة. لم يكن الفرق بين الخليلة الزرقاء وصو غير إحدى عشرة سنة.

قالت غير مسرورة من صمتي: "أين الجواب؟ هل عشقت أم لا؟"

مـن ناحـية العشق، فقد عشقت، ولكن الأمر لم يبق ببالي كذكرى تستحق الاهتمام. كانت ثمة فتاة نمشة الوجه لاذعة اللسان متكبرة، نذهب إلى المدرسة معـاً، ونعـود معـاً. أتذكـر أنـني تأثـرت بها. لم أعرف حتى اليوم أحداً عنده انحـراف للسـرقة مـنذ الولادة مثلها. ليس ثمة ما لا يمنحها سرقته متعة طالما أنـه لآخـر. تقطـف فواكـه من حديقة الجيران، وتسرق النعال البيتية من أمام الأبـواب، وتضـع يدهـا على أقلام ومحايات زملائها، وتتقاسمها معي. كانت تـلج دكـان مصلح الأحذية المدمن على لاصق (بالي)، القبيح الوجه الذي تفوح مـن دكانـه رائحـة نفوذ، وأثناء محاولتي الخوض بحديث معه، تملأ جيوبها بالمسـامير. ولا أدري ماذا كنا نستفيد من دق تلك المسامير سراً في كل ما يظهر أمامـنا مـن سـياج، وتربـيعات خشـب، ومقـاعد، وصـناديق، وأبـواب بـيوت الـناس. بعـد ذلـك عملـت الفتاة قذارة، فوشت بي فجأة لجماعتي. لم يتوقف أبـي عـند الأمـر، أما أمي التي أخذت على عاتقها جزء التأنيب، حولت هذا الأمـر إلى قضـية، وفـارت غضـباً. بعـد عشرة أيام مات والدي، وهكذا سقطت سابقتي الأولى بالسرقة تلقائياً.

قالت الخليلة الزرقاء وهي تهز المملحة فوق صحنها وكأنها عاهدت نفسها على إفراغها: "ما اسمها؟"

لم أستطع تذكره. أصلاً لا أستطيع تذكر اسم أحد من أصدقاء الطفولة تقريباً. اعترفت بأنني أجد صعوبة بحفظ الأسماء منذ وعيي بالحياة، وسرعان ما أنسى ما أحفظه منها. ولكنني لم أعترف كيف كان طبعي هذا يجنن آيشن. أصلاً لم تطرح علي الخليلة الزرقاء أي سؤال حوال زواجي. ولعل هذا بسبب مللها من الاستماع حول زواج تاجر زيت الزيتون. ولعل السبب أنها ليست من الناس الذين يسألون عن الماضي القريب، بل عن طفولة لم تمض. قلت لها إن البحث عن الألقاب أفضل من البحث عن الأسماء. لا أنسى الألقاب بسهولة.

عندما استطاعت ترك المملحة التي دار رأسها من كثرة نفضه: "جد لي لقباً إذا كان الأمر هكذا!"

قلت: "موجود أصلاً. أنت الخليلة الزرقاء."

لم تقل شيئاً. لم تقل، ولكنني شعرت أنها ذهبت نحو الفراغ.

* * *

عندما استيقظت لم أجدها بجانبي. نظرت إلى الساعة: 03.33.

كانت على الشرفة. تبدو شاحبة. كأنها استيقظت وسط كابوس فظيع، ولم تجرؤ على النوم مرة أخرى. جلستُ على الكرسي المجاور لها، وأشعلت سيجارة. كان تحت الطاولة الصغيرة التي بيننا عشرات النمل تطوف بقطعة بطيخ أصفر بدأت تتفسخ حيث سقطت. بينما كانت هي تعمل بلا توقف، جلسنا من دون حركة، وتفرجنا على الشارع القفر تماماً.

قالت شاردة: "أنا لا أعتقد أن تلك الفتاة قد وشت بك. أعتقد أن هذا الأمر قد وصل إلى أذن أمك عن طريق أخرى. لماذا تشي بك؟ كنتما شريكين بالذنب."

دخلتُ، وحضرت كأسين مزدوجين من العرق لنا. أخذته مبتسمة، ولكنها اكتفت بملامسته لشفتيها. لا تحب المشروب. ولكنها لم تكن تريد إظهار هذا لأنها وقعت دائماً مع رجال يغبّون كالإسفنج. نظرت إلى وجهها لعلني مخطئ. خداع الآخرين لا يناسبها. من المحتمل عدم معرفتها أيضاً أنها لا تحب المشروب.

قلت: "لعل الأمر عكس هذا تماماً." عندما أنهي كأسي، أشرب كأسها أيضاً. يكفي ألا تترك أثر حمرة شفاه على حافة الكأس. "الشراكة بالذنب تجبر الناس على بعضهم، ولكن هذا لا يمكن إلا أن يكون وضعاً انتقالياً. عندما ترتكبين ذنباً مع أحدهم، تعملين للتخلص منه في أقرب فرصة. إما أن يذهب هو، وإما تذهبين أنت. من المؤكد أن الإنسان يعود إلى موقع الجريمة، ولكنني لا أعتقد أنه يعود إلى شريكه بالذنب."

"واخ، ما شاء الله، لسانك يتكلم جيداً يا معلمي." وتركت الكأس الذي تنقله بين يديها منذ قليل. حسنٌ، لم يكن عليه بقعة حمرة شفاه. "هل يحب طلابك الاستماع لك؟"

"تعالي معي إلى صفي ذات يوم، واجلسي بين الطلاب. وقرري بنفسك."

"ماذا لو ظهر سائل: من هذه؟ ماذا ستقول؟"

قلت لها وأنا أداعب وجهها، ولا يظهر أي أثر للجرح في هذا الضوء الخافت: "تغدين طالبة جاءت للاستماع للدرس من الخارج. عمرك صغير جداً. ولكنني أقول إنك صديقتي إن أردت."

قالت مشاكسة بشكل مفاجئ: "تغدو كذاباً! هل يمكن أن أكون صديقتك؟ إذا تحدثوا معي دقيقتين ستظهر كذبتك مثل الشمس. أنا لا أعرف ما تتحدثون به. لم أدرس في الجامعة. ومن الواضح تماماً أنني لن أدرس بعد هذه الساعة!"

أي ساعة؟ أحياناً أعتقد أنها غير منتبهة لعمرها. عندما رأت أنني أجهز نفسي لمعارضتها، استمرت بالحديث بسرعة: "الصداقة أمر متوازن. يمكن للإنسان أن يعشق من لا يوازنه، ولكنه لا يستطيع أن يقيم صداقة من لا

يوازنـه. عندما تتكلم، سيفهمك الصديق فوراً. يجب أن تكونا من سوية ثقافية واحـدة. أنا وأنت لا يمكن أن نكون أصدقاء في هذه الحياة. ولا يمكن أن نكون متزوجين، ولا عشاقاً. قلنا لنكن جيران، وهذه خربناها."

"لماذا لا نستطيع أن نكون عاشقين؟"

ولكـن حبيبتي الصغيرة القلقة التي من دون حمرة شفاه أخذت رشفة كبيرة مـن الكـأس الـذي اعـتقدت أنهـا تركته على الطاولة الصغيرة بدل أن تجيبني عـلى سؤالي. قطبت وجهها في اللحظة ذاتها. لماذا تضغط على نفسها؟ ها هي لا تحبه.

بينما كانت تمد نفسها للموالح البائتة من أجل أن تتخلص من الطعم الذي في فمهـا، تمتمـت: "أنا أرى أننا مهما كنا، مهما كنا، لن نكون غير شريكين بالذنب."

مـرت مـن الشـارع سيارة بيضاء وزجاجها أسود، وقد فتحت مسجلتها إلى أعـلى درجـة. مـدت الخلـيلة الزرقاء رأسـها من فوق حامية النافذة الحديدية، وشتمت ملء فمها. جذبتها نحوي بشكل خفيف، وقبلتها. الموسيقى الصاخبة المنتشـرة مـن السـيارة تـنخفض إلى النصـف مـع كـل ثانـية، حتى غدت غير مسـموعة في الـنهاية. طنت بعوضة مستعجلة في ذلك الصمت، وانقضت بشكل ماكـر. توقفـت الـريح. رائحـة حموضـة الـزبالة ملأت أنوفنا. لم تجد الخليلة الـزرقاء حـبة فسـتق حلـبي واحدة في الزبدية. أنا أنهيت كأسـي، وانتقلت إلى كأسـها. هجـوم البعوضـة الـثاني جعل صفقتي تصدح في الفراغ. فتحت يدي، ونظرت إليهما. لم أستطع القبض عليها.

# الرقم 10: المدام الخالة

"هل أنت متضايقة يا صو؟"

عارضت صو قائلة: "أنا جيدة" وهي تضغط على كتاب اللغة الإنكليزية الذي لفته على شكل أسطوانة.

قالت المدام الخالة مفكرة بأنه من الأفضل عدم الضغط على الضيف القادم من دون دعوة: "لأعد قهوة بالحليب جيدة، وليدفأ داخلنا. وأنت اخرجي فنجانين من الخزانة الزجاجية." وفي الحقيقة إنها قررت بينها وبين نفسها أن تردها عن باب البيت بذريعة مناسبة عندما تأتي في المرة القادمة من أجل قطع رجلها عن هذا البيت. ولكنها لم تستطع أن تفعل هذا مرة أخرى.

تنهدت صو من خلف المرأة العجوز المتجهة إلى المطبخ. القهوة بالحليب آخر ما ترغب أن تشربه في هذا الحر. ولكن بماذا سيختلف الأمر؟ أكثر عبارة تستخدمها هذه الأيام هي "أسوأ من الخراء". إذا شربت كولا أسوأ من الخراء، أو قهوة بالحليب أسوأ من الخراء فما الفرق؟ نهضت عن الأريكة وهي تحك ساقيها الرفيعتين كعودي الكبريت. فتحت الخزانة الزجاجية التي في طرف البهو، ونظرت إلى داخلها غامة بعينيها. يا لكثرة الأشياء هنا. ثمة فناجين

خزفية مقلوبة، كؤوس عنبرية، كؤوس شمبانيا، أباريق زجاجية، إطارات مزخرفة، معالق فضية، وأنواعٍ عديدة من علب محفورة صغيرة جداً لم تفهم بماذا تستخدم مصفوفة صفوفاً على رفوف زجاجية. بعد أن ألقت نظرة عامة، اختارت فنجانين بلون أرجواني ممسكهما على شكل أغصان متداخلة. قبل أن تأخذ الفنجانين، امتدت يدها إلى صينية مدورة ذات رسم مطلي بمادة لامعة موجودة خلف الفناجين مباشرة. ثمة رجل مقطب الوجه على رأسه قبعة، وله شاربان، احتضن امرأة يطول ثوبها إلى كعبي قدميها ونازلين من سلم خشبي. أسندت المرأة الملفوفة بالأقمشة الغربولية رأسها على كتف الرجل، ووجهت عينيها إلى البعيد حالمة كأنها تقف على قمة تتفرج على ما حولها، وليس على درج يمكن أن يسقطا عنه في أي لحظة. كأنهما يهربان من حكاية ينتميان إليها. خلفهما بيوت متفرقة، وتظهر خلف تلك البيوت غابة بين الأخضر الفاتح والداكن. قلبت صو الصينية إلى خلفها بفضول، وكأنها تستطيع رؤية ما حل بهذين الزوجين الوقورين فيما بعد. ولكنه لم يكن ثمة صورة أخرى على الخلف، فقد كتب بأحرف فخمة فيشنياكوف على أحد أطرافها.

وضعت الفنجانين على الصينية، وأغلقت درفة الخزانة برجلها. لحظة محاولتها العودة، تعلقت عينها بنقطة. كان باب البهو المفتوح على الممر مواربأ إلى نصفه، وفي داخله... داخله غريب.

اقتربت بهدوء، وفتحت الباب إلى آخره. فتحته، وتجمدت من دون أن تعرف شعورها بما وجدته أمامها. ومن دون أن تفكر بترك الصينية من يدها تقدمت عبر ممر المدام الخالة خطوة خطوة. والقشعريرة التي شعرت بها مع الدهشة أزدادت مع كل خطوة تخطوها إلى الأمام.

نادت المرأة العجوز من المطبخ: "كم قطعة سكر أضع لك؟" وعندما لم تتلق جواباً على سؤالها للمرة الثانية، غمت النار تحت الحليب، وعادت إلى الضيفة. عندما وجدت البهو فارغاً، اعتقدت بداية أن الطفلة قد ذهبت. ولكنها انتبهت فجأة إلى أن باب الممر مفتوح إلى آخره. مدت يدها إلى رقبتها بشكل لا إرادي. لم يكن موجوداً. تعلقت عيناها الخرزيتان البنفسجيتان

الرماديتان اللتان مشطت بهما البهو بقلق عند المفتاح المربوط بشريط بنفسجي الموضوع فوق الطاولة الصغيرة. اصفر لون بشرتها. انزلقت إلى ذلك الطرف بخطوات مفتوحة بقدر ما تستطيع، وقلبها يقفز إلى حلقها، ودخلت إلى الممر خلف الطفلة.

# الرقم 5: الحاج حاج وكنته وأحفاده

صرخت الكنة: "امشوا! امشوا وإلا سأكسر سيقانكم!"

بدأ الولدان اللذان تمسكهما من يديهما، وتسحبهما ببكاء أشد عندما سمعا هذه العبارة. الذي في السابعة والنصف من عمره قادم من الخلف بهدوء. من ناحية الاستمتاع، فقد استمتع، ولكن هذا اليوم من ناحية أمه كان يوماً عسيراً جداً. محتملٌ أن شكاية عاملة قطع التذاكر الأخرى هي التي أدت إلى مداهمة رب العمل الكبير الذي لا يُري وجهه كل دهر مرة للسينما فجأة قريب الظهر. أثناء هديره قائلاً: "وهل هذه حضانة؟" التفت ناظراً بحدة إلى الذي في الخامسة والنصف من عمره والتي في الرابعة والنصف من عمرها اللذين لم يرفعا نظرهما عن الجني البدين الجالس متربعاً بجانب علاء الدين على إعلان الفيلم المتدلي من السقف بطول متر × مترين. ومنذ تلك اللحظة يبكيان من دون توقف.

قالت الكنة منكمشة على نفسها: "لو مشيّتم الأمور عدة أيام، سأجد حلا خلال هذه الفترة." ولكنه هو أيضاً يعرف أن هذا غير صحيح.

بدأ بكاء الصغيرين يهدأ مع اقترابهما من بناء قصر بنبون. تحول صوتاهما إلى طنين غير واضح تماماً على الدرج. ولكنهما هرعا إلى حضن جدهما باكيين

صراخاً فور ولوجهما باب الشقة رقم 5 وكأن نابضهما قد فرغ تماماً. كان الحاج حاج في تلك الأثناء يغفو غفوة القيلولة على الأريكة وقد انزلق من يده كتاب يوسف وزليخا وهو الثالث من كتبه الأربعة التي لم يزد عددها منذ سنوات طويلة. ارتبك لما تعرض له من سيل صراخ ومحبة مفاجئ. أثناء محاولته النهوض ممسكاً بخصره كان يرف برمشيه من دون توقف.

قالت الكنة من دون أن تجعل عينيها تلتقيان بعيني حميها: "الأولاد بأمانتك يا أبي. علي أن أعود إلى عملي."

أثناء ضغط الحاج حاج بلحيته على رأسي الصبي والبنت الصغيرة، بدأ الصغيران بجولة جديدة من البكاء مستمدين الجرأة منه. انتصبت الكنة خمساً إلى عشر ثوان صامتة، وبعد أن تفرجت على هذه اللوحة بألم، تمتمت من دون أن تؤمن بما تقوله:

"ولكنني أرجوكم كثيراً، وأرجوا أن تعدلوا في هذا، لا تسمموا عقولهم الفتيَّة هذه بحكاياتكم."

أُغلق الباب. بقي الأولاد الصغار الثلاثة مع جدهم وحدهم. تنهد الصغار بعمق في نهاية هذا البكاء كله، وأثناء استجماع الجد شعر لحيته المتساقط، سقط بينهم صمت مؤقت. كأنهم لا يعرفون ماذا سيفعلون. قبل مرور زمن طويل رفع الذي في السابعة والنصف من عمره رأسه الضخم إلى الوراء، وابتسم قادحاً بعينيه اللتين بخضرة الطحالب. في الحقيقة إن العودة إلى البيت قد أمتعته أيضاً. على صعيد المتعة، فقد أمتعه الخروج من البيت، ولكنه شعر بنفسه صغيراً بقدر قملة وسط كل هؤلاء الناس الذين ينظرون إليه نظرة شفقة، وبالقدر نفسه شعر نفسه غريباً. أما في البيت فهو صاحب مملكته الوحيد، والحاكم المطلق لعمره البالغ عمر الفراشة.

قال: "هيا يا جدي، لم يعد هناك ضرورة لترددك، يمكنك أن تحكي براحة تامة!"

# الرقم 10: المدام الخالة وصو

أثناء تلفت صو إلى هذا الطرف وذاك مغمورة بالدهشة، صرخت قائلة: "ما أكثر الأغراض عندكم يا مدام خالة؟"

عندما تمكنت المرأة العجوز من اللحاق بالفتاة كانت قد وصلت إلى نهاية الممر. وصلت، ورأت منذ زمن ما في الغرف الثلاث المفتوحة على الممر.

قالت المدام خالة من دون أن ترفع عينيها عن الصينية التي تحمل الفنجانين الأرجوانيي اللون: "لأناس آخرين. أنا أضعها أمانة." ولكن وضعها انقلب رأساً على عقب نتيجة هذه الحادثة غير المتوقعة، إلى حد أنها لم تستطع القيام بأي مبادرة من أجل التقاط لوحة النبيل وعشيقته التي بيد الطفلة.

ولكن الدهشة الكبرى الأساسية عاشتها صو في تلك اللحظة. كأن الطفلة المترعرعة في بيت يسيطر عليه اللون الأبيض، ويمسح ويُلمع، ويُكنس ويُنقى دائماً، ولا يغدو نقياً أبداً رغم هذا، قد سقطت الآن في حديقة سحرية لم يخطر ببالها مجرد خاطر أن تكون موجودة على سطح الأرض. يوجد هنا فيض من كل الألوان عدا الأبيض. طُبقت الأغراض أحدها فوق الآخر،

وتداخلت فيما بينها، واندست في كل الفراغات، وملأت الغرف الثلاث حتى السقف. ليس ممكناً فهم أيها قيّم، وأيها زائد. كل شيء تداخل مع كل شيء. فجأة سيطر على صو شعور بأن هذا المكان أكبر من بيتهم. كان بيت المدام خالة أكبر من بيوت البناء الأخرى، وحتى من البيوت التي رأتها كلها. لم تكن الشقة ذات الرقم عشرة، بل آلة لها مئات القطع، وآلاف الأزرار، وهي أداة معقدة إلى أبعد الحدود، وإذا سحبت منها قطعة واحدة ستخرب، ولن تعد تعمل.

توجد أقلام مستهلكة في كل طرف. وهنالك مصابيح محروقة، وبطاريات فارغة، وأقمشة غربولية ممزقة، وبالونات متفجرة، وأدوية مضت صلاحيتها، وألبسة مستخدمة، وأزرار لا يشبه أحدها الآخر، ولصاقات فقدت صمغها، وعبوات أقلام حبر فارغة، وقداحات فارغة، ونظارات محطمة الزجاج، وأغطية مطربانات كثيرة جداً. ونقود ألغيت من التداول، وأقمشة ممزقة، وتماثيل صغيرة متشققة، وصور مصفرّة، ولوحات لم يعد لها إطارات، وأقراص مسح مساحيق تجميل منفصلة الطبقات، وشعر مستعار مقطع، وحمالات مفاتيح فقدت مفاتيحها، وكؤوس مكسورة آذانها، ورضّاعات فقدت مصاصاتها، ومصابيح طاولات خربة، وكتب تالفة، وصناديق من المقوى والبلاستيك والخشب والصدف والميكا مختلفة الأحجام، وزجاجات حليب فارغة، وأعواد مصاص التفاح، وأعواد مثلجات، وعبوات طعام، ودمى ليس لبعضها رؤوس وليس لأخرى أذرع أو أرجل، وشماسي مخلوعة أسلاكها، وصفايات مسودة، وأجراس لم تعد حتى هي تذكر أي الأبواب قد قرعت، وجوارب نسائية طقت خيوطها وثبتت بطلاء الأظافر، وأوراق تغليف، وممسكات أبواب، وأدوات منزلية خربة، ودفاتر مملوءة بالكتابة، ومجلات مصفرة، وزجاجات عطر منتهية، وأحذية معلوكة، وأجهزة تحكم عن بعد، ومعادن صدئة، وسكاكر مضى عليها زمن، وخواتم سقطت أحجارها، وأزهار مكرميات، وألسن أحذية، ومطاطات طرود، وأقفاص طيور، ولوحات مفاتيح لا تطبع بعض حروفها، وعلب صفيح تعفن شايها، وعلب تبغ، وأساور

ملونـة، وربطـات شـعر الواحـدة منها أجمل من الأخرى، وعدسات مناظير...
أثـناء تلفـت صـو فـيما حولهـا مندهشـة تعـثرت بشـبكة مـدلاة فـوق كـوم من الأغراض على مبعدة منها.

قالت المدام الخالة: "جلبها البحر." وكأن صوتها مفعم بالاعتزاز.

"هل جلبها البحر؟"

"عندما تهب الرياح الجنوبية، يغدو البحر كريماً. فيترك أشياء كثيرة على الشـاطئ. وكمـا يلعب الأولاد بالكرة، فإن الموج يلعب بهذه الأشياء. وكل منها ترمـيها للأخـرى حـتى توصـلها إلى الشـاطئ. بعـد ذلـك تتركهـا، وتذهـب. الموجـات كالـناس. تـترك بسـرعة. أنا لا أقف وحدي هناك. الفضوليون للبحر كثيرون."

ولكـن صـو لم تعـد تسـتمع إلـيها. كانـت تـنظر إلى قـبعة طفـل من مخمل بنفسجي. كانت القبعة جميلة جداً، وتبدو جديدة.

قالـت وهـي تـدس الصينية بيد صاحبة البيت، وتقفز لملامسة سطح القبعة الناعم: "من أين أخذتموها يا مدام خالة؟"

ترددت المرأة العجوز لحظة. ولكنه حصل ما حصل. ما الذي يمكن لها أن تخبئه عن صديقتها الصغيرة المتجاوزة حدودها، وإلى متى.

تمتمت قائلة: "كانت في الزبالة. لا أدري لماذا رموا قبعة جميلة كهذه."

داعبـت صـو القـبعة شاردة. ضحك المتشرد المتصدي لقذائفها بقذارة ملوحاً بكـيس مـن الحمـص المحمـص أخـرجه مـن الـزبالة مـن بعـيد. برزت أسنانه الصفراء.

"حسن، ولكن ماذا عن هذه؟ لماذا أخذت هذه؟"

قالـت المـرأة العجـوز موجهـة نظـرها إلى علـب الدواء الفارغة التي أشارت إلـيها الطفلة بسرعة: "وهل هذه سيئة؟ الزجاجة تلزم الإنسان دائماً. ليس من الصواب أن ترمى.

نظرت صو إلى زجاجات المرأة العجوز. إنها بيضاء ونظيفة. كالتي لأمها.

"إذا كنت قد أحببت تلك القبعة، فخذيها. إنها تناسبك تماماً."

"حقاً؟" بارقة عينيها الواسعتين عندما سقط بريق القبعة المخملية البنفسجية على وجهها. مدت نفسها باندفاع إلى مرآة بين علب معلبات مكومة عند أسفل الجدار. أطلقت قهقهة فور النظر إليها. وإذا بها مرآة مكبرة.

صرخت المدام خالة في اللحظة ذاتها: "واخ، نسينا الحليب. اركضي، اركضي سنتسمم."

ركضت صو في المقدمة والمرأة العجوز وراءها نحو المطبخ وهي تقرقع بالفناجين. كان الحليب الذي في الغلاية قد فار منذ زمن. وامتلأت أطراف رأس الموقد بالرغوة، كما انطفأت ناره منذ زمن.

بعد أن نُظف الموقد، وعادتا إلى البهو، ألقت صو نظرة أخرى عبر باب البهو المفتوح على الممر، وقالت: "واخ من روحه!" هازة برأسها هزة العارف. صاروا يقولون: "واخ من روحه!" بدل "واووو". جلست على أقرب أريكة، وهزت رجليها بسرعة. "هذا قصر زبالة. سيدوخ الصبيان إعجابا إذا رأوه!"

ولكن المرأة العجوز اعترضت على هذا وهي تقدم لصو قهوتها بالحليب: "ولكن الصبيان يجب أن لا يدروا بهذا المكان. ويجب ألا يعلم أحد..." وقدمت لها بعد ذلك شوكولا بيضاء من سكرية كريستالية على الطاولة الصغيرة. ألقت صو واحدة إلى فمها من دون أن تفكر أبداً. ولكنها في اللحظة ذاتها قلقت. ماذا لو كانت هذه الشوكولا قد خرجت من الزبالة أيضاً؟ نظرت قلقة إلى جبين المرأة المقابلة لها وكأن الجواب مكتوب عليه. وأثناء ذوبان الشوكولا في فمها، علق في شبكة ذهنها سؤال آخر.

قالت خافضة صوتها: "يا مدام خالة، أ لهذا السبب تفوح من البناء رائحة كريهة؟"

# الرقم 3: مصففا الشعر جمال وجلال

قالت الشقراء التي تأتي كل أسبوع لتصبغ شعرها، وغير المقتنعة أبداً بعدم ضرورة القيام بهذا العمل بكل هذه الكثافة: "يا هذا، ماذا جرى لك؟ صوتك ونفسك لا يخرجان اليوم أبداً. أخشى أن تكون قد ابتلعت لسانك."

لم يبال جمال أبداً، واستمر بفصل خصلات الشعر المصبوغ. من ناحية التصميم على عدم رد الإجابات لزبائنه، فهو مصمم، ولكنه أثناء تكديس ضغط كل كلمة لم يستطع إخراجها منذ الصباح في فمه، فقد التفت إلى الأجير المحبحب الوجه، وأنبه تأنيباً شديداً. امتقع الأجير المنحوس بالعمل لدى مصفف شعر نسائي في هذه المرحلة الحرجة من مراحل عمره بالحمرة حتى شحمتي أذنيه لتأنيبه أمام كل هذا العدد من النساء كطفل. امتقع وجهه بالحمرة ضعف ما كان عليه عندما التقى نظره بنظر الخليلة الزرقاء أثناء تلوي نظراته متخبطة بالعذاب. عندما تحولت خلفية لون الوجه إلى الأحمر إلى هذا الحد، فقدت الاندفاعات الجلدية وضوحها ولو للحظة.

همست الخليلة الزرقاء لفتاة طلاء الأظافر الواقفة بحذائها تماماً قائلة: "ما له؟" لم تطلب طلاء أظافرها من قبل. ولكنها ستلتقي هذا المساء بتاجر زيت

الزيـتون بعـد مـرور زمـن طويل. وصلتها على هاتفها الجوال رسالة قصيرة منه بعـد ظهـر هـذا الـيوم. كتب أنه يريد أن يمر مساء من أجل أن يفضي بهمومه لهـا. وكما أنه ليس للرجل تعلق خاص باليدين المطلية أظافرها، فمن المشكوك فـيما إذا كان سيدرك الفرق بين المطلية وغير المطلية. ولكن الخليلة الزرقاء رغم هـذا كانت تفكر بأنها فعلت حسناً بطلب طلاء أظافرها أثناء خدر يدها اللذيذ وسـط المـاء الفاتـر ذي الـرغوة. عـدم الانتـباه للقـيام بتحضـير النفس من أجل شخص لا ينتبه لهذا التحضير لغز خاص بالنساء فقط.

مـدت فـتاة طـلاء الأظافـر لسـانها قليلاً معطية انتباهها كله في تلك الأثناء لعـرق مـلح. أجابـت بصـوت مبحـوح من دون أن ترفع عينيها عن العمل الذي تقـوم بـه: "واللّه نحـن أيضـاً لم نفهـم مـا حـدث. إنه مثل برميل البارود منذ الصـباح حـتى الآن. لا ينـبس بكلمة واحدة مع الزبائن، ويكبسنا بتأنيب بين فـترة وأخـرى. كأنـه مدمـن على السجائر منذ أربعين سنة، وتركها اليوم. إنه عصبي على هذا النحو. تعتقدين أنه في يومه المحدد.

نظـر جمـال بحـدة إلى فـتاة طـلاء الأظافـر الـتي تـثرثر هامسة مع الخليلة الـزرقاء بجانـبه. ولكـي لا يسـمع الأجـير المحبحب الوجه تأنيباً جديداً، مد نحـوه أربـع لفـات ورق ألمنـيوم دفعـة واحـدة. ولكنه عندما وجد الذريعة التي يبحـث عـنها قـد تدحرجـت إلى عـند قدميه، هدر قائلاً: "يا ابني، أعطنيها واحدة واحدةً." شعر في اللحظة ذاتها بيد تمتد إلى كتفه.

قال جلال عاملاً على عدم إسماع الزبائن: "تعال قليلاً إلى المطبخ!"

وقفـا في المطـبخ جاعلين سماور الشاي الذي يغلي دائماً بينهما. نظر جلال إلى الـرجل الذي يقف محتداً وسط قميص الكاكي والذي يشبهه أكثر مما يشبه توءمه بمحبة:

قـال مبتسـماً: "أنـا تراجعـت. افعـل مـا تشـاء كـرما للّه. كن كما كنت في الماضي. كم تصبح لا تطاق عندما تغدو جدياً."

عـندما رأى أن جمـالاً يكـاد يغضـب، وضـع يـده على كتفه، وضغط على أخيه الأكبر. "والصالون يغدو لا يطاق عندما لا تتكلم وتضحك الناس طبعاً."

بعـد عـدة دقـائق، أمسـك الـتوءمان الستارة التي تفصل المطبخ الصغير عن الـبهو مـن طرفـيها، وفـتحاها. وفي الـلحظة ذاتهـا التفتت الرؤوس المربوط من رقابهـا نـايلون برسـوم جلـد الـنمر جاعليـنه يطقطق. دفع جلال أخاه بظرافة واضـعاً يـده عـلى ظهره كأنه يشجع ممثلاً يخشى الظهور على خشبة المسرح. بعـد ذلـك غمز الأجير غير المحبحب الوجه مبتسماً: "يا ابني، اعمل لنا كلنا قهوة، لنشربها متلمظين ونحن مطلون على الولي!"

التفـت جمـال إلى الخلف، ورمق توءمه مندهشاً. وأطلق ببطء ضحكته التي حرم الجميع منها منذ الصباح متراخياً.

# الرقم 7: أنا وصو

بداية اعتقدت أنها تكذب. الأولاد يلفقون أموراً ما دائماً. نظرت إلى ساعتي. مضت خمس عشرة دقيقة على نهاية الدرس. لحظة هممت بالنهوض، قالت: "سأشرح لكم شيئاً" كانت السيدة أسما ومريم وهيجين تيجين قد دخلن إلى الغرفة الصغيرة في الداخل، وهن يركبن الستائر التي غسلنها حديثاً. يُفهم من حديثهن أن السيدة أسما في مكان مرتفع، سلم على الأغلب، وأن هيجين تيجين تمسكه من الأسفل. والأوامر تصدر عن مريم. أما نحن فقد كنا نتكلم في البهو هامسين لكي لا نُسمِعَهن.

قالت صو منتبهة لشكي: "والله أقول الحقيقة؟"

بدوت أنني صدقت. ولكنها بدأت هذه المرة بالشك بي. طلبت مني ألا أحكي عن هذا الأمر مهما حصل، ولأي كان. لم يكف. فوق هذا جعلتني أقسم أيماناً مغلظة، ومرات عديدة. بداية بشرفي، وبعد ذلك بمن أحب، واحداً واحداً، واسماً اسماً. ولبيت مطالبها كلها من دون اعتراض من أجل أن يهدأ القلق في عينيها الواسعتين السوداوين فقط. ولكن كل وعد وعدتها به، دع

جانباً أنه أراح قلبها، بل ضاعف من قلقها. ذات لحظة، وأثناء جلوسي على الكرسي متضايقاً، دخلت وهي تحف بنعليها البيتيين إلى داخل البيت. نظرتُ عندما عادت، فوجدت بيدها مصحفاً صغيراً غلافه أخضر، من ذاك الذي يُحمل في الحقائب والمَحَافظ. ومن أجل أن أرضيها فقط، وضعت المصحف على راحة يدي، وأقسمت عليه بهذه الوضعية. عندما أتممت عبارتي، فهمتْ أنه لم يعد من الممكن عمل شيء آخر، وصار يجب عليها أن تثق بي، فتنهدتْ بقلق أخير. لم أكن أستطيع أن أغضب أيضاً. العشق يجعل كل شخص مسكيناً، حتى الولد أيضاً.

قلت: "ولكن هيا... لنغلق هذا الموضوع. لا تقلقي. ختمت فمي. لن أخبر أحداً بهذا."

تلوت شفتاها بابتسامة غير تامة. سعدتُ لحالها، فقلت: "الله يجعلني حماراً إذا حكيت."

اعترضت بصوتها الأكثر دلالاً: "الحمار غير ممكن، الحمار غير ممكن!"

"حسن، ماذا أكون إذاً؟"

بنفضة واحدة انسلت من المخاوف، وعادت إلى حالتها السعيدة المتوجسة. الآن تتكلم مظهرة المعرفة وهي تدور من حولي، وتعدد كل الأحياء المزعجة محاولة إيجاد أسوأ مخلوق على سطح الأرض. البوم نحس، ولكنه ليس ملعوناً بما يكفي. الجرذان قذرة، ولكنها ليست مقرفة كفاية. الصراصير مقززة، والعناكب مقشعرة، التماسيح قبيحة، وقناديل البحر مكروهة؛ العقارب سامة، والقرّاد خطيرة. الخنازير تأكل القذر، النسور تتغذى على الجيف، والدببة يمكن أن تأكل صغارها، والخفافيش تمص الدم. قنافذ البحر تثقب أقدامنا، والضفادع تصيب أيدينا بالطفح، وأم أربع وأربعين تهرب إلى آذاننا. ديدان الأرض التي تخرج بعد المطر، والديدان الناعمة التي تتلوى في السلطة، والجراد الذي يخرب الحقول، والعظاءات التي تتخلى عن ذيلها هاربة، والذباب الذي لا يدعنا براحتنا على المائدة، والبعوض الماص للدم... كلها عندها جانب مكروه، ولكن أياً منها ليس سيئاً كفاية. حتى إن العلقة التي

تُقرف أكثر منها جميعها، يمكن أن تفيد بني الإنسان أحياناً. ما بحثتْ عنه هو أسوأ من هذه بكثير. مخلوق لا يمكن أن يكون فيه خير لنفسه أو لآخرين، المتنافر تماماً مع الجودة، ولا يُفهم حقيقة سبب وجوده، وقد خلق الرب أنواعه زيادة عن الحاجة لمجرد أن طيناً زاد عنده، وسيئا حيث لا يمكن أن يقارن بمخلوق غير مؤذ. وإذا نكصت بقسمي، فإنها ستخوفني بالتحول إلى حيوان كهذا.

"إذا كنت تبحثين عن أسوأ المخلوقات، فعليك أن تنتبهي إلى العيون. ما تستطيعين رؤيته في عينيه، ليس أسوأ مما لا تستطيعين رؤيته في داخل عينيه."

أعجبها هذا الاقتراح. نزعت ورقة من دفترها ذي الزنبق فوراً، وبدأت باستخراج قائمة المخلوقات التي لا تستطيع رؤيتها بالعين. كانت تأخذ العمل الذي تقوم به على محمل الجد إلى حد أن تغييرَ الموضوعِ أو النهوضَ والذهاب صار غير ممكناً. وعملت على مساعدتها بقدر ما أستطيع أثناء بحثها عن عقوبة بين العقوبات التي سأعاقب بها في حال خيانتي.

قلت عاضاً على لساني بين أسناني: "لأكون أفعى ذات أجراس"

"غير ممكن!"

قلت فاتحاً فمي إلى آخره، ومطقطقاً بأسناني بقوة: "لأكون حيزبوناً."

"ياااا، غير ممكن!"

قلتُ مظهراً زعلاً مزوراً: "لا أستطيع جعلك تعجبين بشيء."

كنت ألهو حتى تلك اللحظة. ولكن ضيقاً مفاجئاً حل على قلبي. نظرت إلى ساعتي. طالت هذه اللعبة السخيفة أكثر من اللازم، ولسبب أجهله بدأت تقلقني. هممت بالنهوض. ولكنها في اللحظة ذاتها قفزت منفعلة، وقالت: "وجدتها، وجدتها. لم يكن ثمة ضرورة للبحث عنها كل هذا."

قالت موقفة التشنج الناجم عن الحديث بصيغة الجمع للاحترام، ورافعة الكلفة بكلامها مستخدمة مفرد المخاطب: "الآن ستردد ورائي ما أقوله، حسنٌ؟" فهززت رأسي باستسلام كامل. وانتقلت إلى مقابلي تماماً، ونظرت بعيني.

"أنا رجل كبير..."

"أنا رجل كبير..."

"ولكنني إذا بحت بسرنا إلى الآخرين..."

قلت غاماً عيني، ومحاولاً إعطاء صوتي جواً من السحر: "ولكنني إذا بحت بسرنا إلى الآخرين..." ولكنها لم تعد تضحك. وانزلقت من ظلمة عينيها أفعيان مائيتان حالكتا السواد ناثرتين بريقاً فضياً أثناء تلويهما.

قالت صو ضاغطة على الكلمات واحدة واحدة: "... فليجعلني الله قملة! من النوع الأكبر!"

قلت ضاغطاً على الكلمات واحدة واحدة: "... فليجعلني الله قملة! من النوع الأكبر!"

قفزت من مكاني. حورت عيني، وضغطت بأسناني العلوية على شفتي السفلى كمصاصي الدماء، وأبرزت ذقني إلى الأمام، ونصبت شعري، وجعّدت جبيني، وفتحت منخري كثيراً، ولعّبت حاجبي أحدهما إلى الأعلى والآخر إلى الأسفل، وجعلت وجهي مخيفاً قدر الممكن. لم أحاول من قبل أن أقلد القملة. كم هي صعبة إذاً! لم أكن أستطيع أن أتخيل كيف تكون وجوه القمل. إحدى أفكاري النادرة عن القمل أنها لا تميز إلا من بعيد، ومن بعيد فقط، ولا تعرف كثيراً كيف تكون عن قرب. ثمة أمر آخر: أعرف أن القملة صغيرة إلى حد عدم التمكن من رؤيتها بالعين المجردة، وعيناها سيئة إلى حد عدم استطاعتها إظهارها لأحد.

كلما أمعنا بالتفكير، نتوصل إلى نتائج أخرى معاً. لعل ما يجعل القمل سيئاً إلى هذا الحد هو موهبتها الفريدة بالتوحد مع ضحيتها. القمل ليس عدوا يترصد الإنسان من خارجه لكي يهاجمه، بل هو داء يقرضه من داخله دون تنبيه أحد. البعوض يمص دمنا أيضاً، ولكنه بعد أن ينهي شغله، ويأخذ ما يأخذه، ينسحب ذاهباً، وتاركاً ضحيته براحتها. فالبعوضة لا تبقى لنا، أي في داخلنا، بل تستمر بحياتها باعتبارها تنتمي إلى الخارج حتى في لحظة التقاطها عرقنا. حتى إن الإنسان إذا التقط بعوضة قد مصت دمه قبل قليل،

وسحقها، فلا يفكر بوجود رابط بينه وبينها، ولا يرى أن الدم الذي التاثت به يداه هو دمه، ويشمئز منه معتبراً أنه دم البعوضة. ولكن الوضع بالنسبة إلى القملة على العكس من هذا تماماً. فالمخلوقة المدعوة قملة لا تنتمي إلى الخارج، بل إلى الداخل، إلينا بالذات.

أنا أيضاً نزعت ورقة من دفترها الزنبقي، وبدأت أرسم. طالما أننا لا نعرف ما إن كان للقملة وجه أم لا، ولا نستطيع معرفة تفاصيله إن وجد، وطالما أننا نفهم من كلمة قمل أنها أسوأ السيئ، يمكن لنا أن نبدع مخلوقاً عجيباً باستعارة جزء من كل مخلوق سيئ على وجه الأرض، وبعد ذلك نلبس ذلك الجسم الخيالي الذي أوجدناه لبوس القمل. عندما انتهيت من الرسم ظهر لدي خلقة غريبة تماماً. ولأنها أخذت كل عضو من أعضائها من مخلوق آخر، فإنها تشبه كثيراً من الأحياء من جهة، ولا تشبه أي شيء منها من جهة أخرى. عينان أحداهما بجوار الأخرى استعرت إحداهما من الضفدع، والأخرى من البوم بدتا غريبتين وكأن رأسها نزلت فوقه مطرقة مهدة، وفقد توازنه. كتبت في أسفل الصفحة بحروف صغيرة: "قملة سكيرة".

ضحكت صو مصدرة صوتاً فور رؤيتها الرسم. "رائع! هكذا تماماً. إذا لم تمسك لسانك، سيعملك الله هكذا بالضبط!". أردت أن أتظاهر بأنني خفت، ولكنني لم أستطع التحمل، فضحكتُ. أرادت أن تتظاهر بأنها غضبت مني، ولكنها لم تستطع التحمل، فضحكتْ.

بعد ذلك صمتت فجأة بضيق وكأنها تلقت تأنيباً من شخص غير مرئي. غطى وجهها تعبير عجز الانتباه إلى أنها قالت كلمات لا يمكن لها سحبها. حينئذ، وفي تلك اللحظة فقط، خطر ببالي أن ما حكته لي يمكن أن يكون صحيحاً.

# الرقم 6: متين تنشتين وكارسي ناديا

قالت الأم المرضعة للمرأة الشابة التي تلقت بشارة أنها ستتخرج من المستشفى: "قلت لك لا تقطعي أملك بالرب. طالما أنك استرجعت ذاكرتك، فعليك أن تكوني سعيدة يا ابنتي. إنك تستحقين كثيراً أن تكوني سعيدة."

ابتسمت الأخرى فاتحة عينيها الخضراوين الواسعتين البارزتين بضوء يبرق بلون أخضر كاشف: "كم هذا غريب! كانت رغبتي الوحيدة سابقاً هي تمكني من تذكر ماضي. ولكنني الآن أريد أن أتخلص من ماضيّ. أصبحت راغبة بالبدء بحياة جديدة يا أمي المرضعة. لن أترككم بعد الآن أبداً."

قالت كارسي ناديا للحشرة التي في المطربان الزجاجي الذي تقلبه بين يديها: "انظري، أرأيتِ؟ لن تتركنا لوريتا بعد الآن. ولكنك يا **Blattella Germanica** ستتركينا، أليس كذلك؟"

شهد أحد العلماء في أحد الأيام الخفيفة الضباب القاسية من نهايات القرن الذي عبرناه، وسط زقاق طيني قذر، نزوحاً جماعياً لهذا النوع من الصراصير الذي أسماه **Blattella Germanica**، ودوّن منفعلاً ما رآه في تقرير. كان القطيع كله تقريباً مؤنثاً، وعندما صادفها الدكتور هوارد كانت تحضر نفسها

للعبور من هذا الطرف إلى ذاك مغادرة المطعم الذي عاشت فيه. استغرق نزوح الصراصير حوالي ثلاث ساعات. بعد ثلاث ساعات وصلت إلى المكان الجديد الذي حددته، وسكنت فيه بسرعة كبيرة. عندما بدأ الدكتور هوارد بالتحقيق بسبب مغادرة إناث الصراصير المطعم، لم يجد إجابة مقنعة كثيراً. ظاهرياً، لم يحدث أمرٌ غير عادي في ذلك المطعم يومئذ. كذلك الأمر لم يُعمل تنظيف على نطاق واسع أو يُرش مبيد. يبقى لديه عامل مؤثر واحد: الزحام! إن تلك الصراصير لم تجد متعة بالعيش مزدحمة لضرورة مزاجها وحاجاتها، وبما أنها أخذت بعين الاعتبار ترك ذكورها وبيوتها رغم عدم حلول أي كارثة على رؤوسها، يجب أن تكون مزدحمة جداً في ذلك المطعم. وبما أن مئات منها انطلقت في الطرق، فإن الباقي منها يجب أن يبلغ الآلاف.

قربت كارسي ناديا المطربان من أنفها، ونظرت إلى ما في داخله بعينين حوراوين. وبما أن **Blattella Germanica** تكره ضوء النهار كرهها لذنوبها، فإن هجرة كل هذا العدد منها في ضوء النهار يعني أنها في مكان ما من قاع الخزانة التي تخبئ فيها مصابيح البطاطا؟ وإذا كان الأمر على هذا النحو، فإنه يمكن أن يكون هنالك في مكان قريب مئات منها، ولعلها آلاف.

# الرقم 7: أنا والخليلة الزرقاء

أثناء تسخيني المعكرونة الباقية من الأمس في المطبخ، قرع جرس الباب بقوة. فتحت. لم أرها على هذا النحو أبداً.

قالت وهي تئن: "وجدت بليتي!" تجمعت تحت عينيها انتفاخات يميل لونها إلى حمرة اللحم النيئ، وضاع بريق وجهها الشاب مع بريق عينيها وحيوية بشرتها. تقشر طرفا أنفها مخدوشين لكثرة مسحه. هذا وجه آخر. وقد غدت الخليلة الزرقاء شخصية أخرى لأنها كلها تكمن في وجهها، وهي موجودة عبر وجهها. مددت لها كأس المشروب الذي كنت أرتشف منه قليلاً قليلاً أثناء انتظار تسخين المعكرونة. قطبت وجهها اشمئزازاً. لم تشرب رشفة واحدة من كأس العرق، ولكنها انتظرتني أشرب نصفه حتى بدأت بالكلام.

قالت بسرعة: "كان سيأتي مساء. أرسل إلي خبراً من هاتفه المحمول. حضرت متبل الباذنجان. كنت سأعد له فروجاً شركسياً أساساً، ولكن لم يكن لدي رغبة. كنت غاضبة منه قليلاً. لم يعرج علي منذ عشرة أيام. لهذا السبب أعددت متبل الباذنجان. إنه يحبه أيضاً، ولكنه لا يحبه بقدر الفروج الشركسي. شويت باذنجاناً طوال اليوم."

نظرت إلى وجهها مستغرباً، ولكنها لم تنتبه إلى استغرابي لكلماتها. كوّمت أمامي عشرات التفاصيل منقبة فيها، وكل منها خاوية المعنى أكثر من الأخرى، وبسرعة كأن أحدهم سيخرج لها في أي لحظة، ويقول لها انتهت المدة المخصصة لك. لم أتدخل.

عندما استطاعت أن تنهي شرح تفاصيل المائدة، قالت: "أصيب بنوبة قلبية. في طريقه إلى هنا أصيب بنوبة قلبية. اتصلوا بي من المستشفى. لأن آخر رقم ظهر على هاتفه النقال هو رقم هاتفي، يبدو أنهم اعتقدوا أنني زوجته."

"حزنت..."

عندما قلت هذا، ضاعفت بكاءها، وكأنها تلقت جواباً سلبياً بدل الجواب الذي انتظرته مدة طويلة. ولعلها اعتقدت أنني لم أقلها من قلبي بالدرجة المطلوبة. ولا تعد غير محقة. تاجر زيت الزيتون الذي لم ألتقه وجهاً لوجه أبداً، وقيّمته من مجرد رؤيتي له مرتين على الأكثر، لا يشكل بالنسبة إلي غير شخصية غرائبية مضحكة، وهو مسودة منافس مكدس الشحم ومشعر ومتدلي البطن من فوق البنطال. ولكنني حزنت لحال حبيبتي الصغيرة، ودُهشت أيضاً. لم أضع احتمال أن تكون متعلقة بشخص فظ وغليظ كهذا طيلة هذا الوقت. ما الذي يغير بالأمر إعجابها الشديد بتعداد مساوئه، وعدم نبسها عند الحديث طالعاً ونازلاً عنه، واستمتاعها بسماع عباراتي المهينة له؟ إنها متعلقة بذلك الرجل. وهي متعلقة به أكثر مما أعتقد بكثير. داعبت شعرها. دفعت يدي بحدة.

قالت بصوت مشاكس: "إنك لا تفهمني. هذا ذنبي. إذا لم يصبح الصباح على المسكين فهذا سيكون بسببي" وبلعت ريقها بصعوبة كأن حزقة في بلعومها لا تستطيع التخلص منها بأي شكل. "أنا ذهبت إلى الولي."

"ماذا فعلت، ماذا فعلت؟"

"في الحقيقة لا يسمى هذا ذهاباً. مريم أدخلت هذا في عقلي. بقي في البيت كثير من عنبرية الموز. أعطيتها لها قبل مدة. أنا لا أشرب العنبرية، وهي تحبها كثيراً. كنا نتحدث حول ما إن كان يضر بالجنين. المهم أنها لا تعاني

في حملها هذا كما عانت في حمل محمد. قبل محمد فقدت مريم ثلاثة صبيان. اثنان منهما وُلدا ميتين، والثالث مات بعمر ستة أشهر. عندما ولد محمد أطالت له شعره كالبنات. كانت هذه العادة موجودة عندنا في مناطقنا أيضاً. يتجول الولد كالبنات حتى يذهب إلى المدرسة..."

أشعر بفضول لمعرفة إن كان في آلية بنية المرأة ما يمنعها من التعبير عن قصدها مباشرة. كل هذه التفاصيل، وكل هذا السخف، وكل هذه الحكايات المتضيقة تدريجياً كدوائر متداخلة بينها، ولا تصل إلى الهدف بأي شكل... جددت كأسي العرق. نظرت إلى رفوف الثلاجة الضخمة الفارغة. لم يبق صودا. يمكن لي أن أخرج، وأشتري.

"قالت مريم إن محمداً يُضرب دائماً في المدرسة. ولكنه في الفترة الأخيرة تغير كثيراً. فقد ذهب ذلك الولد الذليل، وجاء مكانه واحد جديد مختلف تماماً. لم يعد يأكل ضرباً من زملائه. كأن الأمر معجزة."

يجب أن يكون البقال المتدين المقابل لم يغلق دكانه بعد. إنه لا يبيع مشروب الجين، ولكنه يبيع التونيك. لا يبيع العنبرية، ولكنه يبيع الشوكولا بالعنبرية. ولا يبيع عرقاً. ولكنه يبيع صودا.

"كنا نتكلم كيف تغير هذا الولد. قالت مريم: أنا ندرت للولي. سألتها: أي ولي؟ قالت: لا تتدخلي في هذا الأمر. إذا كانت لك أمنية معينة، فتمني. إذا تحققت، فسأخبرك أي ولي. طلبت مني إشارباً نظيفاً. وكتبتُ بداخله أمنيتي. وطويته كرسالة الخضر وإلياس، وأعطيته لها."

تراجعت. عندما تنتهي هذه القصة، يكون البقال المتدين قد أغلق دكانه منذ زمن، وغاص في نومته السابعة. سنتدبر الأمر بالماء اضطرارياً.

"قالت: 'ما أفضل أن تتحقق أمنيتك. ستكون هذه هدية مني إليك. أعطيتني كل تلك الكمية من عنبرية الموز. وإذا لم تتحقق، فإن أحداً لن يتألم. نبقى عند حدود ما علقنا عليه الأمل'. هكذا قالت بالضبط. أو إنها لم تقل هذا، بل هذا ما اعتقدته على الأغلب. أنا لا أتذكر الآن."

لم يشبه هذا المشروب شيئاً. يغدو هذا العاطل كريهاً بالماء بعد الصودا.

"طويته كرسالة الخضر وإلياس. كتبت: 'لأتخلص من هذا الوضع'. أم أنني كتبت: 'لأتخلص من هذا الرجل'. لو أنني أتذكر. تداخل كل شيء. ماذا قلت أنا، وماذا فهم الولي؟ راح الرجل بسببي."

ما سمعته كان هراء إلى حد أنني لم أصدق بأنها من المحتمل أن تكون مؤمنة بما تقوله. أما إذا كانت مؤمنة، فإنني في الحقيقة لا أهتم كثيراً للألم الذي ستشعر به نتيجة هذا. لأن الأمر هكذا. فلكي نستطيع مشاركة شخص ما بآلامه من كل قلوبنا، يجب قبل كل شيء أن نشاركه الحقيقة ذاتها. يمكن أن نقف بجانب طفل يبكي لكسر لعبته التافهة، أو امرأة تدخل نوبة ألم لاعتقادها أنها بدينة رغم بروز عظامها مقسمين لها أنها ليست بدينة، وتحملنا على مضض هذيان صديق حميم لنا قاطع العالم لمجرد أن امرأة لا تساوي شيئاً تركته بعد مدة قضاها معها لا تتجاوز أسبوعين في أحسن الأحوال، وسلواننا لمريض عقلي طلت من نافذته المفتوحة ذات صباح حمامة فاعتقد أنها سلبته روحه وراح يمسك بالحمامات التي في الساحة وينظر إلى داخل مناقيرها ريثما يأتي طبيب الأمراض النفسية... ولكننا ننظر إلى آلامهم من مسافة تبعد أميالاً. يمكن لطفل يبكي من أجل شيء بسيط كهذا، ومريضة نصبت مخيمها على مسافة كبيرة من الحقيقة، وصديق منحوس لا يرى ضرورة للحزن من أجل شيء تافه كهذا، ومجنون عاجز عن إدراك أن الحمام تتطاير نحو حبات قمح محسوسة وليس أرواحاً مجردة... أن يتوقع منا اهتماماً أو رحمة، سلواناً أو تضامناً. ومن المحتمل أن يتلقى هذا. يمكننا أن نفعل هذه الأمور من دون اعتراض. يمكننا أن نشعر بقرب صادق منهم حين نراهم كيف يهذون لتألمهم، ويتألمون لأنهم لا يهذون. يمكنهم أن يتوقعوا منها كل شيء بما في ذلك المحبة. ولكن يكفي ألا ينتظروا منا أن نقاسمهم آلامهم.

# الرقم 10: المدام الخالة

في درجة حرارة غرفة تبلغ 27 درجة، و رطوبة نسبتها 65٪، فإن بيض ذباب المنزل يبقى يوماً أو يومين، ويمضي ثمانية أو عشرة أيام يرقة، وتسعة أو عشرة أيام ذؤابة. وفي التجارب المخبرية المشابهة لوحظ أن 50٪ من الذباب المذكر يموت خلال الأربعة عشر يوماً الأولى، وأن 50٪ من الذباب المؤنث يموت خلال الأربعة عشر يوماً الأولى.

أما الصراصير فتبدي مقاومة أكبر من الذباب في غرفة درجة حرارتها 27 درجة، ورطوبة تتراوح نسبتها بين 36٪ و40٪. يمكن لها في وسط كهذا أن تتحمل من دون طعام أو شراب مدة عشرين يوماً. ويمكنها أن تبقى على قيد الحياة خمسة وثلاثين يوماً على شرب الماء فقط. والبيض الذي تتركه في الرطوبة والحرارة ذاتها يفقس خلال 27– 30 يوماً. وبعد أن تبدل صغارها جلودها خمساً إلى عشر مرات تصل إلى مرحلة البلوغ. ويمكن للبالغة منها أن تعيش من ستة إلى اثني عشر شهراً. بعد ذلك تموت هذه أيضاً. تتفسخ وتتفتت، وتتقسم، وتتفرق، وتخرج من كونها صراصير، وتذوب في أمور مختلفة تماماً.

وللأغذيـة أيضـاً عمـر كما الذباب والصراصير. فيعيش الحليب المبستر سنة في مكـان جاف وبارد، والحلاوة الطحينية بالفستق سنتين، وبسكويت الحمية بالقـرفة سـنتين، والعلكـة المنكهة من عشرة إلى عشرين شـهراً، الشوكولا بالأرز المحمص والحليب سنة، ومعلبات سمك التونا أربع سنوات، علبة الكولا ستة أشـهر، والـذرة الصـفراء المحمصـة بنكهة الجبن ستة أشهر. ويبقى سمك القد المقطـع أسـبوعاً ونصـف، واللـبن الرائب في العلب سبعة أيام، وجبن أوزوريلا الإيطـالي شهراً ونصفاً، أما الفروج المغلف فيبقى مدة اثني عشر يوماً إلى أربعة عشـر يومـاً إذا وضـع في ثلاجـة. وهذه أيضاً تموت في نـهاية هذه الفترة. تتفسخ وتتفتـت، وتتقسم، وتتفرق، وتخرج من كونها أغذية، وتذوب في أمور مختلفة تمامـاً. إذا انتهـت صـلاحية الشـاي أو التـبغ، القمح أو الجبن، فتبدأ بإنتاج الحشـرات أو القمـل أو الديـدان في الأوعية التي توجد فيها. وتتعرض الألبسة لسـيطرة العـث، والمفروشات للديدان، والأعلاف للسوس. والصراصير تأتي إلى أمكنة كهذه. وهي أصلاً في كل مكان.

الأشـياء أيضـاً مـثل الذبـاب، والصراصـير، والأغذية لها دورة حياة. وعندما نتـناول المتوسـط فـإن عمـر بـنطال بصـدارة لمولـود صغير يبلغ شهراً أو شهرين، والقطـار بالمدخـرات الـتي يتم الحصول عليه في عهد الطفولة من ساعة إلى سنة، اليومـيات الـتي تكتـب في مرحلة البلوغ من ثلاثين إلى ستين يوماً، كنـزة أهداها قريـب مـنحط الذائقـة عشـر ثـوان، الغلـيون الـذي يشترى بهوس ترك السجائر تدخـين مـرتين إلى سـتة مـرات بعـد معرفة صعوبة تنظيفه، عبوة حبر كتابة من خمسـة عشر يوماً إلى ثلاثة أشهر، تذكرة قطار من ساعة إلى عشرين ساعة، أداة زيـنة بـراقة اشـتريت بحب لحظة سكر، ولم يظهر أنها محببة بعد الصحو ليلة طويلة. وفجأة تموت هذه أيضاً. تموت، وترمى: إما جانباً وإما إلى الزبالة.

يقضـي الذين يعيشون في المدن يومهم منذ استيقاظهم إلى نومهم برمي أشياء مـا. وعـندما نضـرب هـذه الأشياء بالأسابيع والأشهر والسنوات، فيتراكم وراء كـل مـنا تـل مـن الزبالة لا يستهان به. وللناس أيضاً فترة صلاحية كالذباب، والصراصـير، والأغذية، والأشياء. متوسط عمر الرجال خمسة وستون عاماً، أما

النساء فهو سبعون عاماً. بعد ذلك تأتي النهاية المعلومة، ويموت هؤلاء. تتفسخ وتتفتت، وتتقسم، وتتفرق، وتخرج من كونها أناساً، وتذوب في أمور مختلفة تماماً. ولكن لو مر ما رميناه في حياتنا حتى تلك اللحظة من أمام أعيننا كشريط سينمائي قبيل الموت مباشرة فيمكننا أن نطيل عمرنا.

* * *

عندما مات زوج المدام الخالة قبل عشر سنوات نتيجة حادث، وانتقلت إلى الشقة رقم عشرة من بناء قصر بنبون وجدت هنا أغراض آخرين. إنها مئة وواحد وثمانون غرضاً فقدت أصحابها، وأمضت آخر تاريخ لاستخدامها... ورغم قول صاحبة هذه الأغراض التي في فرنسا بأنها يمكن أن تستخدمها كما تريد، وتتخلص منها بالشكل المناسب لها، إلا أن نفسها لم تطاوعها لرمي ولو غرض واحد منها أو التخلص منه. لم تغضب عندما قرأت الرسالة. مع أنها كانت قد غضبت قبل ذلك... وقبل ذلك بكثير... تذكرت الظلم الذي تعرضت له عندما رمت لها أمها رواياتها ويومياتها عندما كانت صبية، وعندما وزع أخوها صور زوجها الذي فقدته فجأة على الأصحاب والأحباب، تذكرت الظلم الذي تعرضت له والغضب الذي غضبته. لم تعد تغضب. لعلها لم تستطع المحافظة على أغراضها في الماضي، ولكنها بعد الآن ستغدو آذاناً صاغية، وعيوناً مفتوحة كأمينة مواظبة على حفظ أغراض الآخرين. لأنها لم تعد تؤمن بأن الأغراض التي فقدتها هي لها، ولا أن الأغراض التي بين يديها الآن هي لآخرين.

...حمل الأشياء، ورميها، ومحاولة تملكها أيضاً، أمر خاص بالذين يعتقدون بأن هذه الأغراض تعود لهم. ولكن الأغراض ليس لها صاحب، بل حكايات فقط. وأحياناً تغدو تلك الحكايات للناس الذين تواصلوا مع تلك الأغراض بشكل ما...

# الرقم 7: أنـــا

بعـد الدرس أتت إثل لاصطحابي بسيارة شيروكة عسلية اللون. تركت سيارتي في مـرآب الجامعـة، وتابعـنا طريقـنا بدميتها الجديدة. كأنها لا ترغب بالحديث. ولكـن لسـانها انطلق عندما علقنا بزحمة المواصلات. كنت أفضل أن تبقى تنظر إلى أمامهـا. تسـوء قـيادتها للسـيارة مـع مـرور الأيـام. أثـناء شـرحها المرحلة الأخيرة لمشـروع الجامعـة الـتي وصـلوا إلـيها، انتبهـت إلى أنهـا لم تكن منفعلة كما كانت مـن قـبل. إمـا أن يكـون ذلـك الأمـر قـد نـام تمامـاً، وإمـا أنهـا انسحبت منه. لم أسألها. مهما يكن ستحكي كل شيء، وإن لم يكن هذا اليوم فغداً.

بعـد خمسـين دقـيقة مـن بذلها الجهد على طرق المواصلات، وجلوسها في الـنهاية إلى الطاولة التي حجزتها مسبقاً، قالت: "إيه، قل لنرى. كيف تسير الأمـور في بـناء المجـانين." المكان كما أريد تماماً. في عمق المكان الأبعد، وأمام الـنافذة. أنـا جلسـت مديـراً ظهـري لـلمطعم، وإثل مديرة وجهها. من الواضح أنها تريد رؤية القادمين والذاهبين. لتر، وننظر.

"لا تسألي، داهمت الصراصير كل مكان."

"هيا ياه، هذا يعني أن الصراصير تأتي إلى اللهو أيضاً. كم أنت رجل محظوظ! ولكنك سقطت في مكان سيئ. إنه ليس بناء، بل مستشفى مجانين."

قلت: "لا تبالغي. لعل البناء الذي سكنته قبل ذلك لم يكن مختلفاً عن هذا، ولكن روحي لم تشعر بهذا، والله أعلم. الفرق الوحيد هو أنني لا أستطيع أن أكون لا مبالياً إزاء سكان بناء قصر بنبون."

قالت وهي تضع أولى سجائرها في المشرب الياسميني، وتأخذ أول سحبة منها مطلقة ثلاث حلقات من الدخان نحوي: "ياه، نعم. وخاصة إحداهن."

تظاهرت بعدم السمع. لا أنوي الشجار مع إثل هذا المساء. ولكن صممي إزاءها استفزها بشكل أسوأ.

"أنت لا تستطيع أن تعمل شيئاً مع تلك المرأة يا حلو. أتعرف لماذا؟ ليس لسبب أخلاقي، بل بسبب الواجهة. لا توجد مشكلة الآن. الآن تغلقان على نفسيكما الباب، وتأكلان، كما أن متعتكما على ما يرام. ولكن ماذا سيحدث بعد ذلك؟ هل ستتمكن من الخروج معها أمام الآخرين. إنها في الثانية والعشرين من عمرها، تركت المدرسة قبل أن تنهي الثانوية، ذات عقيدة وإيمان، ولكنها بالقدر نفسه عديمة الأخلاق، فاشلة، فهل يمكنك أن تتأبط ذراع حبيبتك الصغيرة التي لا تستطيع تحديد خيارك نحوها، وتتجول بين الناس؟ هل تعتقد أن رجلاً صافي العقل مثلك، يمكنه أن يقيم علاقة مع سيدة صغيرة ملخبطة العقل مثلها؟

لم أرد عليها. ضحكت متجاوزاً ما قالته. بعد فترة تضايقت من محاولة التدخل معي. لا طعم لكلينا هذا المساء. أثناء انتظار طبق الفواكه المشكلة طرحنا تخمينات حول الجالسين على الطاولة المجاورة، مخفضين الضرر الذي سيلحقه كل منا بالآخر إلى الحد الأدنى. ولكن إثل على ما يبدو تخبئ مفاجآتها الأساسية إلى النهاية.

"انظر يا حلو، لم أكن راغبة بسماعك هذا مني. ولعل سماعك له مني أفضل. فإذا لم تفرغ سمَّك فيَّ، فبمن ستفرغه؟ مهما يكن، لنترك التفسيرات المجردة إلى النهاية. المعطيات الملموسة أولاً! الخبر القنبلة هو: آيشن تتزوج!"

خطأ النادل المبقع البشرة بالأبيض والأبله الوجه والذي يخدم طاولتنا منذ فترة بمعاملة الابن بالتبني، هو محاولته تغيير الطبق غير المنتهي في الوقت الأكثر خطأ. لست من الأشخاص الذين يحدثون مشاكل في هذا النوع من الأمكنة، ويتحرش بهذا وذاك. ولكنني أكره تغيير طبقي من دون أن أطلب هذا. تشهد هذه المدينة وجود من يحب العبث ببقايا ما أكله، وإن لم يضع النادلون هذا بمجرد الاحتمال. لا أستطيع احتمال رفع ذيل السمكة التي تناولتها بسرعة، وكأنني فعلت شيئاً سيئاً يُخجل منه. لو كان الأمر لي، فإنني لا أنفصل عن طبقي حتى أنهض. أحرك الأنواع الساخنة بأعواد ما أتى في البداية، وأعبث بها حتى نهاية المساء. وكما أنني لا أشعر بأدنى قلق من وجود دهون الطبق الذي أكلته، وصلصته وملحه وبهاراته مع قطع الفواكه التي تناولتها في الطبق ذاته، حتى إنني أجلس لتحضير تشكيلات حلوة وحامضة منها أحياناً. إذا أعجبني آكله، وإذا لم تعجبني، أخرب ذلك الخليط النهائي. إثل تعرف طبعي هذا. لا تتدخل. ولكن النادلين لا يعرفون، فيتدخلون.

قالت إثل للنادل المنتصب خلف كتفي حاملاً طبقاً أبيض مخططاً من دون أن يفهم لماذا يؤنب: "لا تؤاخذونا. انفصل عن زوجته حديثاً." وافرد الرجل شفتيه الشاحبتين نحو الجانبين من أجل أن يشعر بالسخرية الكامنة في تلك العبارة، ويبتسم. ولشعوره بضرورة أن يكون محتاطاً في ذات اللحظة، فقد بقي فوق رأسي معلقاً كقناع نصفه ضاحك، ونصفه الآخر باك ضاغطاً على حركات شفتيه.

قالت إثل مكشرة بابتسامة: "تفضل، يمكنك أن تغير طبقي. أنا طبيعية." وابتسم النادل مكشراً وهو يأخذ طبقها من أمامها مغلوباً أمام عرضها بتبادل الأسرار.

عندما عدنا وحدنا، هزت إثل كتفيها وهي تقول: "بالنسبة إلي فإن الرجل مجرد فأس." في اللحظة التي اعتقدت أنها تتحدث عن النادل. ولكنها كانت تتابع من حيث توقفت. "إنه فأس طيب النية إلى أبعد الحدود، وحتى إنه أبله قليلاً. ولكنه بحسب التحليل الأخير فهو فأس. إنه مطيع، ومدجن،

وطبعاً بيتي. حدوده واضحة إلى أبعد الحدود. إنها حدود أربع زوايا. إذا خطوت خطوتين، تصطدم بالجدار. فمن أجل إيجاد لمعة حياة عند الرجل، يجب عليك أن تحفر في حياته إلى الطابق السابع. أي إلى طفولته أو تلك الأثناء. لابد أنه عاش طفولة أيضاً. وعندما تصل إلى ذلك العمق، فلا تبحث عن بترول أو ما شابه، فإما أن يظهر في العمق قطرتان من ميول، أو لا تظهران. الآن سيدفعك الفضول لمعرفة شخصيته!" أمسكت يدي، وقالت: "لأعرفه لك على النحو التالي: يبدو بجانبك كالخلد."

هذا يعني أن آيشن ستتزوج من رجل كالخلد. وضعتُ قطعة من البطيخ الأصفر في طرف طبقي المسفوح فيه صوص الثوم.

قالت إثل: "هل البارز الأسنان هو القنفذ أم الخلد؟" وسحبت يدها تاركة أظافرها المطلية باللون الأزرق اللامع آثارها على رسغي. "أنا لا أعرف الخلد وما خلد، ولكن ذلك الرجل المسكين قبيح فعلاً. احترق فمها مرة ياه، فهي تبتعد عن الشبان الوسيمين."

عند الخروج جلست بجانبها بثقة أكبر. إنها تقود السيارة ثملة بشكل أفضل مما تقودها وهي صاحية. أوصلتني إلى بناء قصر بنبون من دون حادث أو بلية. وفي الزقاق المظلم أبرق اللون العسلي ذاهباً.

* * *

عندما وصلت إلى الطابق الثالث، تنصّتُ من باب الشقة المقابلة. لم يكن ثمة صوت ينبعث من الداخل. رغم أنه لم يخطر ببالي أن أراها أثناء ولوجي البناء، فقد قرعت الجرس من دون تفكير. كانت قد منعت علي القدوم من دون علم. ولكنني يمكن أن أخرق هذا المنع لهذه الليلة. لابد أن تاجر زيت الزيتون لم يحاول المبيت هنا في الليلة التالية لإصابته بنوبة قلبية.

سُمِع وقع أقدام بداية. عتم الضوء الأصفر المنساب من ثقب الرؤية في الباب أولاً. لعلنا قضينا دقيقة طويلة على هذا النحو على طرفي الباب. في النهاية،

سمعت صوت سحب مزلاج الباب. فُتح الباب ببطء غير محبب. كانت الخليلة الزرقاء مقابلي. نظرت عيناها الكستنائيتان الخامدتا النور، والفاقدتي الإحساس والحب إلى وجهي. التفتت إلى الخلف من دون أن تنبس بكلمة واحدة جيدة كانت أم سيئة، وقصدت البهو وهي تجر قدميها. لم أبال. بقدر ما كانت تصرفاتها غريبة، بقدر ما كان رأسي جيداً. فتحت التلفزيون. بدأنا نتفرج من دون أن ننبس بأي كلمة. كان ثمة نجمة غناء فني ترتدي ثوباً خمرياً مطرزاً بالأحجار اللامعة، ودهنت ما يبرز من جسمها بالبرق، تعبر عما تعيشه للاقط الصوت. لقد كسرت رجلها أثناء عطلة تزلج، ولكنها لم ترض إلغاء بطاقات الحجز للحفل الموسيقي، فخرجت أمام المعجبين بها برجلها المجبرة بالجبس. يتدخل بالكلام طبيبها الواقف بجانبها أحياناً، ويرد على أسئلة الصحفيين في الكواليس مكانها.

قالت الخليلة الزرقاء: "مات."

نظرت بخواء إلى وجهها. لم أدرك فوراً عمن تتكلم. انزلقت عيناي تلقائياً نحو الشاشة. المغنية التي تبدو عيناها أكثر شحوباً قبلت رؤوس أصابعها، ونفختها نحو عدسة الكاميرا. أغلقتُ التلفزيون. جلست بجانب الخليلة الزرقاء من دون أن أعرف ما سأقوله. أمسكت يدها. لم تمسك يدي. ذهبتْ للاضطجاع. كانت هادئة جداً. هادئة أكثر من الحد.

جلست وحدي عدة دقائق في البهو، وحاولت أن أستجمع أفكاري. كنت أعتقد أنني لم أشرب كثيراً هذا المساء. ولكنني شربت. حل خدر ثقيل على حركتي. لا أستطيع التفكير سريعاً، ولا أستطيع التحرك سريعاً. وكما أنني لا أعرف كيف أعزي حبيبتي الصغيرة، لم أكن أشعر بحزن أو دهشة أو أي شيء. الأمر الوحيد الذي أردته هو الذهاب إلى بيتي، والنوم، وترك كل ما يمكن لي أن أفعله إلى ما بعد نوم طويل.

ولكنني عندما نجحت بالنهوض على قدمي، لم أتوجه نحو الباب، بل نحو غرفة النوم. ولكي أدرك إن كانت قد نامت أم لا في الظلام، أصغيت تماماً للأصوات كلها، وتمددت بجانبها. كانت مستيقظة. قالت هامسة: "لم

يستطع تجاوز الأزمة. مات نحو الساعة الثالثة صباحاً." لامستُ وجنتيها: جافتان. لم تكن تبكي. اندسست بجانبها. لم تدفعني أو تستجب لي. كانت مستمرة بالاضطجاع ككيس خيش فارغ. كان السرير دافئاً. تعانقنا. نمت.

استيقظت ليلاً متحرقاً بالعطش. شربت نصف زجاجة الماء المعدني الموجودة على الطاولة، وذهبت إلى الحمام تحت وطأة ثمل النوم. وأثناء تبولي تفرجت إلى الصابون المعطر الموضوع في وعاء زجاجي له قوائم، وشامبو باباي الموضوع عند حافة حوض الحمام، وزجاجات العطر اللامعة أمام المرآة، وإسفنجات الحمام الفيروزية اللون، ودهون الجسد المعطرة، وأدوات الزينة وتفرعاتها العجيبة والغريبة. سحبت السيفون. تعلقت عيناي بالشفرات التي ترمقني بدقة منذ البداية من وسط كل تلك الأغراض. إحداها سقطت على الأرض، والأخرى داخل المغسلة.

صحوت. عدتُ إلى غرفة النوم بسرعة. أشعلت النور، وسحبت الغطاء من فوقها. رفعت ثوبها النوم الأزرق المخضر الممتد إلى ركبتيها وهي تحاول النهوض من النوم. لم يكن ثمة شيء في رجلها اليسرى. ليس ثمة شيء جديد. ولكن فخذها الأيمن لف بمنشفة مغطاة ببقع حمراء قرميدية. كانت تلك اللغة المعوجة بارزة إلى حد أنني لم أفهم كيف لم ألاحظها من قبل. أثناء فتحي المنشفة الطويلة والرفيعة العرض لم تعارضني.

انقطع نفسي. ظهرت من تحت المنشفة خمسة جروح حمراء يكاد يكون طول الواحد منها شبراً. ثلاثة منها لا تبدو عميقة كثيراً. كأنها جرحت بتردد أو نتيجة حدث عرضي. كأنها تجربة من أجل الجرحين الآخرين. لأن الاثنين الآخرين كانا مفجعين. شعرت بخفق قوي في قلبي. هرعت إلى الحمام من جديد. عندما لم أجد في خزائن الحمام شيئاً، هرعت إلى بيتي. طار تأثير الكحول الذي أخذته مساء عندما كنت أهرع من طرف إلى طرف في الطابق الثالث من بناء بنبون حاملاً الماء الأوكسجيني والضماد المعقم.

لم تنبس بكلمة أثناء تنظيفي جراحها، وتضميدها، وتفرجت علي. بعد ذلك شكرتني بشبه خجل وشبه لا مبالاة، وسحبت ثوبها الأزرق المخضر

الذي لم يلتث حتى الآن بشكل عجيب، وعادت كأنها لم تصب بشيء. أطفأت الضوء. وانتظرتها لكي تبكي، لكي تحكي، لكي تتكلم، لكي تندس بي، لكي تلجأ إلي.

عندما انطوت على نفسها في الظلام، وتركتني وحيداً بجانبها اضطررت للقبول بأنني لم أعرفها أبداً. أي خبل هو اعتقادنا أننا نغوص إلى داخل المرأة التي نمارس معها الحب ونحن نرفع ثوبها، ونرى كل نقطة من نقاط جسدها...

# الرقم 10: المدام الخالة وزبالتها

بـدأت أولى عـربات الـزبالة وتشـكيلات الزبالين بالعمل في اسطنبول أول مرة عـام 1868. قبل هذا كان المسؤولون عن هذا العمل مهنيي البحث العاملين تحت إشـراف مدير أمـن المديـنة في ذات الوقت. باحثو ذلك الزمان القديم مثل زبالي الـزمان الجديـد، كـانوا مكلفين بتخلـيص المديـنة ولـو جزئـياً مما يريد سكانها الـتخلص مـنه. ولكنـنا عـندما نأتي إلى كيفية تخلصهم منه، فثمة فرق بارز بين زبالي اليوم وسلفهم. غير هذا فإن هدف المهنيين من جمع ما يجب أن يُرمى هو إيجـاد مـا لـن يُـرمى وسـط مـا يجدونـه. فالفضلات والزبالة التي يجمعونها من الشـوارع، يحملونهـا بزنابيل إلى شاطئ البحر قبل رميها إلى المزابل، ويفرغونها هـناك، وينقـبون فـيها، ويغسـلونها، ويدققـون فـيها عـدة مـرات. ويجـد هؤلاء لوحـات نحاسـية، وقضـباناً حديديـة، ومسـامير لم تلـتو، وأقمشـة لم تـتملص خـيوطها، وفضـيات لم تسود، وهدايا لم تُعرف قيمتها، وعندما يحالفهم الحظ، يحدث أن يجدوا مجوهرات خف حملها، وارتفعت قيمتها.

وكـانوا كـثيراً ما يذهبون إلى الأمكنة المحروقة. كلما تحول بناء إلى رماد في مديـنة الحـرائق اسـطنبول، يرفع مهنيو البحث بقايا الحطام بعد فترة معينة.

ويجمع هؤلاء ما يخرج من الرماد كما يخرجون ما يخرج من الزبالة تماماً. الباحثون يجمعونها، وينخبونها. أما الزبالون فيجمعون الزبالة، ويرمونها. بدأت حداثة المدينة بإدراك ضرورة جمع الزبالة لرميها، وليس بإدراك ضرورة جمع الزبالة المرمية.

أما بالنسبة إلى المدام الخالة فهي من الباحثين. كانت تبحث في الزبالة عما لن يرمى. ولم يحدث أنها لم تجد.

# الرقم 8: الخليلة الزرقاء وأنا

نهضتُ باكراً هذا الصباح رغم نومي المقطع. أثناء قيامي برفع شعرات الخليلة الزرقاء الملتصقة بجبهتها، تحركت بشكل خفيف. تركتها تنام. أشعلت سيجارة، وذهبت إلى المطبخ. ملئت ثلاجتها بالأطعمة إلى آخرها كالعادة. وكانت الأطعمة كلها من الأنواع التي يحبها تاجر زيت الزيتون. انهمكتُ بتحضير الإفطار. اعتدت تماماً في أيامنا الجيدة مع آيشن على التأخر بالاستيقاظ أيام نهاية الأسبوع، وتناول وجبات إفطار تطول بقدر ما يمكنها أن تطول. ولابد أنها تعوَّد ذلك الخلد المسن على إيقاعها الذاتي الآن. لابد لي من مقابلة ذلك الرجل إذا كان كما وصفته إثل. ليس لأنني آمل حدوث شيء ما. ولكنني رغم هذا أريده أن يراني. يمكنني أن أشعل فتيل عقدة الشعور بالدونية الذي يشعر به في داخله عبر شخصيتي. حتى إنني يمكن أن أنجح بإسقاط قملة الشك في ذهنه بشكل دقيق جداً. بعد ذلك لتتخمر في رأسه احتمالات إمكانية عودة المرأة التي سيتزوج منها إلى زوجها السابق.

نظرت، وإذا بالخليلة الزرقاء قد استيقظت على قرقعتي. أثناء وقوفها في باب المطبخ ملتفة بشال يضج بالألوان، كانت بشرتها لا تزال شاحبة،

وتحت عينيها منتفخة بعدة انتفاخات، ولكنها تبدو في حال أفضل نسبة إلى الأمس.

قلت أثناء ملئي كأس شاي لها: "أتمنى ألا تكونين لائمة لنفسك حتى الآن"

تلوم. وأنا أيضاً ألوم. ألومها، وألوم كل من يشمر ذراعيه لمعرفة كائناته القزمة. لا أستطيع تفهم اتهام أحدهم لنفسه عند رغبته بكل جوارحه بإيذاء أحد ما، وعدم قيامه بأي شيء من أجل هذا، وظهور أنه لن يستطيع القيام بأي شيء، عندما يحدث أن تتحقق أمنياته بمشيئة القدر. لا أستطيع تحمل الظلم الناجم عن القضايا المصابة بالغرغرينا منذ زمن طويل، وعدم استطاعة الخروج منها أوغرز الأسنان فيها أو تحريك حتى الأصابع من أجل تغييرها، وتحويل المساوئ كلها إلى أمر أخروي تنقى فيه النفس من أنوع المساوئ كلها من جهة، ومحاولة اقتطاع أجزاء ومساوئ من تلك الأخروية ذاتها في الوقت نفسه من جهة أخرى. أغضب من أحدهم رغب بموت أخيه الصغير الذي لا يستطيع تحمله، وعندما رأى ذات صباح أن أمنيته الخفية المخفية هذه قد تحققت، فلا يستطيع التخلص طوال عمره من عذاب الضمير، ليس لأنه يقدس السوء إلى هذا الحد، بل لأنه يرى السوء بسيطاً إلى هذا الحد. العالم مليء بالذين يشعرون بالغيرة من بعضهم بعضاً بشكل سري أو يشحذون أسنانهم من بعيد لبعضهم بعضاً أو يدعون على بعضهم بعضاً بشكل علني أحدهم بوجه الآخر، وعندما يقعون مصادفة في مأزق، يعتقدون أن هذا لم يحدث مصادفة، بل تحقيقاً لما يمر في أذهانهم. ولا أريد للخليلة الزرقاء أن تنضم إلى هؤلاء. لا أريد أن أفقدها. أريد أن أحمي أَمَةَ الله الجميلة التي تعتقد أنها ربة الكائنات التي تقول للشيء: "كن" فيكون أو تقول لعدوها: "مت" فيموت، وليس أن أفقدها.

قلت وأنا أزلق نصف البيض غير الناضج تماماً الأنجح بين الذي حضرته كثيراً حتى الآن: "اخرجي قصة هذا الولي من عقلك. لا أصل لها، ولا مستند. من المحتمل أن الولي الذي ذكرته لك مريم من النوع الذي كتب عنه على جدار الحديقة. ولكنني أنا الذي كتبت تلك العبارة."

لو أستطيع فهم ما تفكر به في تلك اللحظة. ولو أنني أستطيع الوثوق من أنني فعلت جيداً بهذا الشرح كله.

"اسمعي، أنا حزنت من أجل تاجر زيت الزيتون. ولا تغضبي لأنني أقول دائماً تاجر زيت الزيتون." قطبت حاجبيها. بدت أنها ستقول شيئاً، ولكنها تراجعت فوراً. "أتمنى أن تكوني منتبهة. لن تتغير النتيجة حتى لو كان ثمة ولي صارت عظامه رماداً تحت جدار الحديقة." وأضفت ضاغطاً على مخارج الأحرف: "لأن الرجل لم يذهب لأنك أردت أن تتخلصي منه يا صغيرتي، بل بسبب نوبة قلبية."

ها هي قد بدأت. سقطت الظلال على نظراتها. ها أنا أشهد للمرة الثانية في حياتي على لحظة الاحمرار تلك التي بدأت تكرهني فيها امرأة كانت قد بدأت تحبني، واعتدت أيضاً على نظرتها إلي بحب.

"أي إنني لن أستطيع منعك يا حبيبتي من الاستمرار بتقطيع جسدك كلما شعرت بالذنب، ودخلت نوبة قلق. ولكنك إذا كنت تنوين التخلص من عادتك تلك، فإنني سأقدم لك ما باستطاعتي من أجل مساعدتك على هذا. إذا قبلت الآن أن تنظري إلي باعتباري صديقاً، وليس عدواً، فلنجلس معاً، ولنتحدث فيما سيحدث بعد الآن. لأن حياتك بعد الآن لن تستمر كما كانت عليه في السابق. ولكن لعلها ستكون أجمل."

قالت نظراتها المتحرقة بإيجاد كفارة متجاوزة الجسور التي حاولت بناءها: "لماذا كذبت؟"

"إذا كنت تقصدين قضية الولي، فإنني لا أعتبر نفسي قد كذبت. الأمر الوحيد الذي أردته هو تخليص البناء من هذه الرائحة السيئة. أردت إقلاق الذين يرمون الزبالة هنا، وهذا كل شيء. ولم يخطر ببالي مجرد خاطر أن يظهر أحد، ويأخذ هذه العبارة مأخذ الجد."

تعكر وجهها. مرة أخرى تُدفن في ذلك الصمت الشوكي. أقدمت على مناورة أخيرة لكسبها من جديد.

"كتبت تلك العبارة لعلها تفيد إذا كانت الرائحة تنبعث حقيقة من الخارج. ولكننا بحثنا عن الزبالة في المكان الخاطئ على مدى كل هذا الوقت. وإذ بالرائحة تنبعث من هنا، من داخل البناء."

أفاد هذا. إنها تنظر إلي الآن بكره أقل، ومحبة أكثر. دفعت طبق الإفطار الذي لم تلمسه حتى الآن إلى أمامها. تناولها الشوكة رش الماء على قلبي منعشاً له. شعرت فجأة بفرح غريب. ستتذوق البيض غير الناضج الذي أعددته. وستبادلني ممارسة الحب من جديد.

قلت لها: "سأعلن اسم كبير الزبالين، تماسكي!" الفرح المنثور عبر صوتي داعب أذني لحظة. لم أبال. "إنها جارتنا الأرملة المحترمة الساكنة في الشقة رقم عشرة."

همست الخليلة الزرقاء: "هل هي المدام الخالة؟ لا أصدّق هذا أبداً. لابد أنك مخطئ. لا يمكن أن تفعل شيئاً كهذا."

"فعلته يا جميلتي. ملأت بيتها حتى فمه بالزبالة."

قالت وهي تغم عينيها الكستنائيتين: "من أين تعرف؟"

"لا تهتمي لمصدر معرفتي. أنا أقول الصدق. ويعلم الله أن هذا هو سبب مداهمة الصراصير لبيتها." لم أفكر بهذا من قبل. ولكن الحوادث المقطعة، والمنفصلة ترابطت في ذهني فجأة.

قالت مقطبة حاجبيها: "لا أصدقك. لم أعد أصدق أياً مما تقوله."

قلت من دون رؤية ضرورة لإخفاء غضبي: "هكذا إذن؟ ماذا لو أثبت لك هذا؟"

# الرقم 6: ناديا

صرخت لوريتا وهي تصبب دموع الفرح غزيرة عند باب المستشفى، وتنسل من بين يدي العجوز الوفية: "لنعمل حفلة كبيرة يا أمي بالرضاعة. ولندعُ الجميع، حتى أعداءنا." كان بجانبها أيضاً زوجها الشاب الذي بذل جهداً خلال فترة طويلة من أجل معالجتها، وذكرها في النهاية من يكون. وقبل صعودهما إلى السيارة التي تنتظرهما، لوحت بيدها لأمها المرضعة التي تبكي من دون انقطاع، وعناصر المستشفى المبتسمون من دون انقطاع في الوقت نفسه.

ألقت نظرة أخيرة على حقيبة الكهرمان الكريهة الرائحة، وسحبت سحابها. أغلقت التلفزيون. نظرت دمى خيال الظل التي رمتها جانباً عند تفريغ الحقيبة نظرة حاقدة من الزاوية المرمية فيها. كان يمكنها أن تأخذ حقيبة أخرى في الحقيقة، ولكنها لسبب ما لم ترغب بهذا. كانت ذاهبة. انتهى السكون.

للإنسان درجة تحمل بيئية كما للحشرات تماماً: أي حدود للتحمل. ويمكن له أن يبدي ردة فعل نحو الظروف البيئية الجديدة السيئة المستجدة بتحديد آلية العيش. وهكذا تعمل آليات الجسم بشكل أخفض أو مختلف عن المعتاد، وتضبط المتغيرات الحيوية بحسب الوضع الجديد الذي تعرضت إليه. وكما

يمكن أن تظهر حال السكون الترابطي في أي وقت ومرحلة داخل حلقة حياة معينة، يمكن أن تتكرر مرات عديدة. بعض أنواع الحشرات مثلاً تمضي فصل الشتاء عابرة مختلف مراحل حالات اليرقة وهي داخل البيضة. تبطئ تحولها المادي أو تخفضه إلى الصفر بإيقاف تحولاتها حتى يتبدد البرد. ولكنها يجب أن تنهي مرحلة التوقف هذه قبل مرور وقت طويل من أجل أن تستمر بتطورها على المدى الطويل. لأن استمرار الظروف البيئية غير المناسبة أكثر من الحد، يمكن أن يظهر أضراراً لا يمكن العودة عنها في الآليات الحيوية للحشرات.

أحياناً لابد لنا من انتظار علامة من أجل معرفة ما نعرفه أصلاً أو رسول يمسكنا من كتفنا، ويهزنا كما يهز شجرة التوت، أو شخصاً قادماً من بعيد إن أمكن. ولكن المرسل لا يكون دائماً بالشكل والأبعاد التي نريدها. القضية ليست قضية شكل العلامة، وهيئة الرسول، بل باستطاعة فك معناها. أثناء نظر ناديا أونيسيموفنا إلى الحشرات المداهمة خزانة مصابيح البطاطا سيطرت عليها فكرة أن كونها كارسي ناديا هي حال من السكون الترابطي. فقد حددت لفترة طويلة آلية عيشها، وأنزلتها إلى ما تحت إمكانيتها، وجمدت تحولها المادي. وإذا لم تتخلص من هذه الصفحة السطحية في أسرع وقت ممكن فستظهر أضرار لا يمكن تلافيها في شخصيتها.

كانت عائدة. وأخذت معها **Blattella Germanica** القادمة إلى عند قدمها لتذكرها بأنها تائهة تبحث عن اختلاف وسط التشابهات/ وغريبة لم تستطع التماشي مع المدينة الموجودة فيها/ وزوجة تخان بشكل سافر/ وربة بيت غير ماهرة لم تستطع إيجاد قوام العاشوراء بأي شكل/ وضحية ضرب تتعرض لنكس سكير متكرر لا يستطيع عنب "الحكيم ليون" أن يسد حاجته للمشروب/ ومتشائمة إلى درجة استمدادها المدد من رسائل على نسق واحد من امرأة متصوفة تسمع صوت الرب من بقبقة مراجل الطعام/ ويائسة كل يوم من أيامها يشبه الذي سبقه/ وعمياء تحاول التنور بمصابيح البطاطا/ وأبعد من هذا كله، وخارجه أنها كانت في زمن ما، وفي الحقيقة إنها مازالت عالمة حشرات تحب عالم الحشرات أكثر من عالم الإنسان بكثير.

# الرقم 88: بناء قصر بنبون

في الساعة 14:04 من يوم الأربعاء المصادف الأول من أيار عام 2002 وقفت شاحنة صغيرة بيضاء قذرة عليها رسم فأرة حادة الأسنان في جهة، وعنكبوت داكنة السواد كثيفة الشعر في الجهة الأخرى، ومليئة من أمامها وخلفها، ويمينها ويسارها، وكل طرف من أطرافها بكتابات ذات أحرف كبيرة وصغيرة أمام بناء قصر بنبون. مد سائق الشاحنة الصغيرة البرتقالي الشعر، والشراعي الأذنين، والمضحك الوجه، وغير المبدي عمره رأسه من نافذتها. اسمه ظلم أوزتورك. وهو يكافح الحشرات منذ ثلاثين عاماً، ولم يكره عمله كما كرهه اليوم. اقترب من الرصيف، وبعد أن صحا قليلاً، قليلاً جداً، نظر بشك إلى مجموعة الأشخاص البالغ عددهم من خمسة عشر إلى عشرين شخصاً الواقفين عند مدخل البناء. وعندما أدرك أن الزمرة غير مضرة حتى لو لم يعرف سبب اجتماعها، دقق بالعنوان الذي دسته بيده سكرتيرته الثرثارة أكثر من اللازم دائماً في ذلك الصباح: "زقاق جرنال، الرقم 88، (بناء قصر بنبون)." وقد كتبت سكرتيرته الثرثارة ملاحظة تحت العنوان: "يوجد في

حديقة البناء شجيرة ورد حريري". أثناء مسح "ظلم أوزتورك" قطرات العرق المتجمعة على جبهته، نظر بإمعان إلى أغصان عليها أزهار مائلة إلى البنفسجي، وأخرى إلى الزهري سامقة من حديقة البناء الواقف أمامه. لابد أن هذه ما يسمونها الوردة الحريرية.

ولعدم ثقته ولو بمقدار ذرة بسكرتيرته التي يفكر باستبدالها في أقرب وقت ممكن، أراد أن يرى بنفسه، وبواسطة نظارته المقربة جداً لوحة البناء. كان يمكنه في الحقيقة أن يسأل الناس المتجمعين أمام البناء. ولكن هذا لم يخطر بباله لأنه عود نفسه على القيام بكل عمل له بنفسه، وعدم الثقة بأحد. ترك شاحنته واقفة بشكل مائل وسط الزقاق، وقفز منها إلى الأسفل. وما إن خطا خطوة، صرخت طفلة من ثلاثة أطفال يقفون إلى الأمام قليلاً بأعلى صوتها: "آآ، انظروا إلى هذا! جاء جني! يا جدي، انظر يا جدي، جاء جني!" التفت الرجل الطاعن بالسن، الأشيب اللحية، العريض الجبهة، والمعمم الرأس، وتشده الفتاة من بنطاله ناظراً بامتعاض إلى الشاحنة الواقفة وسط الزقاق بداية، ثم إلى سائقها. لابد أنه لم يُسر مما رأى، فقطب وجهه أكثر مما هو مقطب، وجذب أحفاده الثلاثة معاً نحوه.

حاول ظلم أوزتورك ألا يبدي اهتماماً، فمشى بخطوات واثقة شاقاً جمع الناس. وعندما نجح بالاقتراب من البناء دافعاً الناس، وقراءة اللوحة رأى أنه جاء إلى العنوان الصحيح. وبعد أن نزع بطاقة تعريف مدسوسة بين صف الأجراس المتعامدة، ووضع مكانها بطاقته، قفز إلى مقعد السائق، وركب ذراع سرعة الشاحنة الصغيرة للمسير الخلفي. وفي اللحظة نفسها امتد رأس من الداخل.

قالت امرأة شقراء ربطت مريلة نايلونية مخططة كنمر من رقبتها إلى الأسفل، ناظرة إليه بعينين حوراوين: "أتيتم بهذه فقط؟ لا تكفي. أما كانوا سيرسلون شاحنتين؟ بصعوبة كبيرة يمكن لشاحنتين حمل كل هذه الزبالة."

وبينما كان ظلم أوزتورك يحاول فك معنى ما قالته المرأة، ويحاول التملص من بين الشاحنتين الداخلتين إلى الزقاق من طرفيه، فقد سيطرته على المقود.

* * *

في ذلك اليوم جاء إلى أمام بناء قصر بنبون شاحنتان حمراوان، وسيارة تلفزيون خاص واحدة خلف الأخرى غير شاحنة ظلم أوزتورك. في نهاية اليوم غادرت الشاحنتان بناء قصر بنبون ممتلئتين بالزبالة، وسيارة التلفزيون الخاص بالتصوير الذي صورته. أراد الإعلاميون التلفزيونيون أن يجعلوا المرأة الساكنة في بيت الزبالة تتحدث أكثر من الجيران البادين متشوقين للتعبير عن دهشتهم. ولكنها لم تفتح باب الشقة رقم عشرة مجدداً بعد أن أفرغت الزبالة منها، ورشت المبيدات فيها رغم الإلحاح الشديد كله.

# الرقم 4: آل أطشميزاج أوغلو

أغلقت على نفسها زليش أطشميزاج أوغلو باب غرفتها وهي متلاحقة الأنفاس، ورمت الحقيبة الصغيرة التي تحملها على السرير. أثناء تمسكها بطرف السرير لمحافظتها على توازنها، انتظرت عودة دقات قلبها إلى وضعها الطبيعي. اختارت يوماً خاطئاً من أجل هربها من البيت. ما إن خطت خطوة خارج الباب حتى وجدت نفسها شاحبة البشرة وسط هرج ومرج مجنون، وحوصرت وسط شاحنتين حمراوين قدمتا من طرفي الزقاق. كان الخارج أحمر إلى حد عدم استطاعتها التحمل. كانت الأزقة أقرب إلى الأحمر من الألوان الأخرى كلها.

**لماذا أحزن، كيفما كان فلن أستطيع الخروج من هنا في أي وقت.**

تناولت المرآة، ونظرت إلى وجهها. غطت البثور كل مكان منها. كانت البثور حمراء أيضاً. بدأت تبكي بهدوء بداية، ثم بحدة وشهشهة بعد ذلك. فجأة سمعت صوتاً ذا بريق. أحدهم يجيبها من الداخل. رغم أن رأسها مازال يدور، وعينيها زائغتان، فقد تقدمت بخطوات مهزوزة متعقبة الصوت. كانت

طائر الكناري يغرد في قفصه أمام نافذة البهو.

**لماذا تفرح، كيفما كان فلن تستطيع الخروج من هنا في أي وقت.**

# الرقم 7: أنا

أفكر كثيراً بكل شيء تكلمنا به، وأتذكر كل كلمة من الكلمات التي تكلمنا بها. وعندما أصل إلى ما حصل بعد ذلك، أفضل أن أخرجها كلها من عقلي بشكل تام، أو أن أتذكرها بشكل نادر على الأقل. ولكن دعوة صو يجب أن تكون قد تحققت ولو جزئياً. مع مرور الزمن، تتحول ذاكرتي إلى قملة إن لم يكن جسمي. كأن ذاكرتي قملة كبيرة تمسكت بقوة برأسي، وتتجول وسط أفكاري. وبينما أصارع الاحتمال المريع نفسه، تكسب هي قوة إضافية قليلاً، وتسمن يوماً بعد يوم. أتخيل بأن ذاكرتي تصدر أصواتاً قوية، وتسير مرة من فوق، وأخرى داخله تاركة بيضها في كل ثلم من ثلمه. آلاف المخلوقات الصغيرة الملعونة الوقحة تتغذى معي رغماً عني. وتتضاعف شهيتها مع تضاعف عددها. وعندما تجوع في مختلف ساعات اليوم، وتغرز أسنانها بلحمي، يتخدر رأسي ألماً كأن آلاف الدبابيس تُغرز فيه. لا أحكي عن هذا لأحد. ولأنني لا أستطيع تحمل الإنسان الذي أنا عليه عندما أكون وسط أناس آخرين، أحاول أن أكون وحيداً، وأبحث دائماً عن أجوبة للأسئلة المأزومة نفسها.

ترى هل كان سيحدث هذا لو أنني لم أكتب تلك العبارة العبثية على الجدار، ولو أنني أمسكت لساني، ولو أنني استخدمت ذكائي الذي أعجب به كثيراً لرؤية أن الخطوة التي أخطوها من أجل منفعتي كم ستضر بالآخرين؟ لو أنني لم آتِ إلى بناء قصر بنبون وأتواصل مع هؤلاء الناس أو لا أتعرف على أسرارهم، ولو أنني نجحت ولو مرة واحدة في حياتي بأن أكون شخصاً مختلفاً ولست أنا الذي أنا عليه دائماً، فهل كنت سأنعطف من المنعطفات نفسها تلك، منساباً نحو النتيجة الملعونة لتلك القصة؟ لدي جوابان مختلفان. أحدهما يهمس لي به عقلي، والآخر قلبي. يقول عقلي: "لا تقلق! كانت ستعاش تلك الكارثة عاجلاً أم آجلاً حتى ولو لم تكن موجوداً. أنت لست مهماً بقدر ما تعتقد، ولست فاسداً بقدر ما تخشى. ولكن ما الفرق إن حدث بسببك أو بسبب آخر... ما الذي يختلف طالما أن النتيجة لا تختلف؟ إذا أردت أن تريح نفسك، يمكنك أن تسمي هذا حظاً. ثم بماذا يمكن تفسير وقوع السر بيد من يتحين فرصته غير الحظ؟"

أسلي نفسي. أريد أن أصدق كون عقلي على حق تماماً وبسرعة. يستمر بالحديث مرتاحاً بمعرفته أنني أؤيده: "القضية ليست قضية نقاط الضعف التي تستمر ولا تنتهي، ولا قضية الإرادة المثقبة. استمتعت بهذا أم لم تستمتع به، فإن الذي جعل المستحيل ممكناً ليس أنت. يقول: " ثمة قضية الظهور بمظهر الحق فيما يقوله عقلنا. "المخلوق المدعو إنساناً بسيطٌ إلى أبعد الحدود، وعاجز بجانب من جوانبه. والسبب هو دمغه الحياة بدمغة المصادفات أكثر من النتائج." ويبرئ نفسه منحنياً إلى أسفل: "تعتبرني بشراً عندما تكون مأزوماً هكذا، وإلى أي مدى يمكن أن يتهم بالذنب مما فعله؟"

يعترض عقلي مباشرة. "إذا كان هنالك شيء يدعى الحظ، ألم يكن العهر موضع شك؟ ألم نعتد على تبني نقاط الضعف كلها، ونحمل المساوئ الواقعة لنا كلها لعهر قدرة أنثوية فوق عادية؟ ألم يكن الإنسان قابلاً بشكل مسبق بأنه الفاعل الوحيد في حياته بدل تمسكه بالخرافات؟" محملاً قلبي اتهامات مفعمة بالمدائح، وقائلاً: "المخلوق المدعو إنساناً، هو بجانب من جوانبه معقد

وموهـوب إلى أبعـد حـد. مـا نعـتقد أنها مصادفات هي عبارة عن محاولة محو النـتائج الـتي نكـون نحـن سبباً لها فقط. إلى أي مدى يمكن أن يعتبر الإنسان أشـرف المخلوقـات المقـتدر إلى هـذا الحـد معـذوراً بمـا يقـوم بـه." وأدنسُ مع تقديسي.

لم أكـن أشـرب قديمـاً أكـثر مـن هـذا. ولكنني أنام أكثر من السابق في هذه الأثناء. ألجأ إلى النوم مع ارتفاع قلقي، وأستيقظ أكثر قلقاً نتيجة الأحلام التي لا أعـرف نتائجها. لم يعد ثمة فرق بين ذهابي أو عودتي. ومهما ابتعدت فلن أستطيع الخروج من مدى الرائحة المنبعثة من الشقة رقم عشرة. كلما استيقظت تغـدو الرائحة أقوى قليلاً، وأكثر حموضة. لا توجد رائحة في العالم أكثر نتانة من هذه الرائحة، حتى في المزابل.

أسـتمع لأحاديـث الجـيران. سيكسـرون بابها. لا أريد أن أكون هنا عندما يكسرون بابها.

# النبيل وعشيقته

اندس النبيل وعشيقته أحدهما بالآخر قلقين وهما يقفان على سلم خشبي مسنود إلى الجدار منذ قرن. كان البيت يفوح برائحة مريعة، وبموت طافح مما يجعلهما لم يعودا يتجرأان على التنفس. يهرب أحدهما بعينيه عن الآخر، وينظران إلى الغابة الظليلة التي نصفها أخضر فاتح، ونصفها الآخر داكن.

عندما كُسر الباب، دخل ثلاثة رجال يضعون أقنعة، ويرتدون البياض من رؤوسهم إلى أقدامهم. مددوا جسد الأرملة العجوز التي تفوح منها رائحة أسوأ من رائحة الزبالة فوق نقالة جلبوها معهم بعد أن سافرت نحو الموت رافضة تناول الطعام والشراب، وأخذ أدوية السكر. لم تكن المدام الخالة متحملة للجوع والعطش بقدر الصراصير.

رشت الشقة رقم عشرة بالمبيدات مرة أخرى فور ذهاب الرجال. وكالصراصير فإن الإغراض البالغ عددها مئة وإحدى وثمانين قطعة بقيت تحت رذاذ المبيد. ولكن شيئاً لم يحدث للنبيل وعشيقته. فقد استطاعا الهرب في اللحظة الأخيرة. بعد قرن، نزلا عن السلم الخشبي، وخرجا من الصينية الجميلة المدورة المدهونة بالطلاء اللامع.

بقـي عـلى الصينية غابة نصفها أخضر فاتح، ونصفها الآخر داكن. لم تكن تفـوح مـن الغابـة رائحـة موت أو زبالة، بل تفوح منها رائحة الكريمة والقرفة فقط.

# الرقم 2: سيدار وغابا

عـندما دخـل إلى البيـت رمـى نفسـه عـلى ظهره فوق الأريكة، وأخذ نفساً عميقاً في الـلحظة ذاتهـا. فقد فكر طويلاً جداً كم الانتحار أمر مفعم بالأسرار، وتكـلم بهـذا كثيراً، ولكن المرأة العجوز فعلته بسرعة أكبر، ومن المحتمل أنها لم تخطـط له بقـدره، ولعـلها لم تفكـر بـه مجرد تفكير حتى اللحظة الأخيرة. عـندما نهـض من جديد، كتب النتائج التسع التي حصل عليها بعد ما شهده الـيوم عـلى ورقـات صـغيرة، وألصـقها في الفـراغات الـتي استطاع إيجادها في السـقف. عـندما وجـد مكانـاً للورقـة التاسـعة، قلّب هذا الموضوع في ذهنه مرة أخرى، وقرر قراراً قطعياً بعدم التحدث بالانتحار. لهذه الأسباب:

1) لأنه يوجد للانتحار شرق وغرب كما للحضارات تماماً.

2) الذهنـية التقدمـية التي يجب أن تمنح الحياة معنى عقلياً، وتركز على جعـل كـل يـوم أفضـل مـن السـابق، لابد لها أن توزن الانتحار بشكل دقيق، وتشـعر بضرورة إنكاره على أسس منتظمة. وأصحابها ينتحرون في الغرب أينما كانوا يعيشون.

3) الذيـن بعمـر متوسـط مـبكر، ومتوسـط، ومتوسـط مـتأخر عمومـاً يقـع انتحارهم في هذه الجغرافية على الأغلب.

4) ولأن أقـرباء الذيـن ينـتحرون في الغرب لا يمكن أن يصلوا إلى الطمأنينة مـن دون إيجـاد تفسـير منطقي لإقدامهم على هذا الأمر، فهم يشعرون بضرورة القيام بتحليل الأسباب والنتائج متبعين المنطق ذاته بصورة معكوسة.

5) غـير هـذا ثمـة منتحرون في اللحظة الأخيرة، وفي الزمن غير المناسب لا يفصلون الأمر بشكل مسبق، ولا يفسرونه بشكل كبير. أمثال هؤلاء ينتحرون في الشرق أينما كانوا يعيشون.

6) ينتحر المسنون والأطفال على الأكثر في الشرق.

7) لـيس ثمـة مـا يلخـبط العقل بقدر انتحار المسنين القريبين من الموت إلى هذا الحد، والأطفال البعيدين من الموت إلى هذا الحد.

8) حـالات الانـتحار في الشـرق هـي سر في جوهرها، على العكس مما هي عليه في الغرب.

9) يجب أن لا يعطى معنى للسر.

# الرقم 7: أنــا

بدايــة كنت أرسم دوائر صغيرة حول بناء قصر بنبون، ومسيرات قصيرة لا تؤدي إلى أي مكان. بعد ذلك بدأت الدوائر تتسع. مع الوقت بدأت أعرّج على أحياء لم أعرج عليها من قبل مشياً في أغلب الأحيان، وبالسيارة أحياناً. كنت أبحث عن الكتابات. وعندما أبدأ البحث، فلم يحدث ألا أجد ضالتي.

لم أعـارض إثـل عـندما أبدت رغبتها بالذهاب معي. أثناء ترقيمي الكتابات، وتسـجيل المكـان الـذي نجدهـا فـيه، كانـت هـي تصـورها واحـدة تلـو أخـرى بآلـة تصـويرها الرقمـية. سـيارة الشـيروكية العسلية تنساب بين أزقة أحياء غنية بصـخبها، فقيرة بطمأنينتها، ونتجول في أحياء الطبقات المتوسطة على هوانا ليلاً عـندما تشـعل المصـابيح بوجهـين مخبولين تلمع عيونهما بحرص الفرص السابقة الـتي فـرت من أيدينا، وندور حول الدور، ونلج المقاسم، ونصعد الطلعات. كانت الكـتابات في السـاحات، والفسحات، وعلى أسفل الجدران، وعند رأس الزوايا، وعـلى الأبنية التاريخية، والإنشاءات غير المكتملة، والمحلات المهجورة، وأمكنة العـبادة... وكـل مكـان. أغلـبها كتبت بالدهان على الجدران، ولكن هنالك بينها مـا هـو مكـتوب باسـتخدام الطباشـير والأقـلام والفحـم والقرمـيد عـلى الأبواب،

والأوراق، وقطع المقوى، واللوحات، كما يوجد بينها أوراق مسحوبة على الحاسوب. وكتابات الزبالة منثورة في كل مكان كما الزبالة تماماً.

كنا نلفت النظر فوراً في كل مكان نذهب إليه. كان يلحق بنا الأطفال. عيون النساء الشكاكة ترمق كل حركة من حركاتنا من أسفل النوافذ، وأمام الأبواب. يتحلق حولنا الرجال المارون من الأزقة والفضوليون من المهنيين، ويمطروننا في كل مرة بالأسئلة. وعندما نضطر للإجابة، نقول إنه مشروع دراسي للجامعة. كانوا يهزون رؤوسهم بتفهم عندما يسمعون كلمة الجامعة، رغم اقترابهم منا بابتسامة ساخرة من عبثية العمل الذي نقوم به. لم يكن يلفت نظرهم أنني وإثل متقدمان بالسن إلى حد أننا لا يمكن أن نكون طلاباً. المدرسة بنظر الأبوين هي المكان المباح لكل نوع من أنواع الخبل طالما أن التوجيهات قادمة من المعلمين.

إيجاد من يكتب العبارات ليس سهلاً بقدر إيجاد العبارات نفسها. أغلب الكتابات كانت إنتاجاً عاماً. مرتكبوها مفقودون. ولكنني تمكنت من معرفة كاتب العبارة التي على جدار بيت بلون رماد الشحار. انهار سقفه، والغرفتان اللتان يتألف منهما البيت خرجا إلى العلن بكل ما لهما. كان مكتوباً على جداره: "**سأشتم من يرمي الزبالة، فلئلا يوسخوا فمي. من يرمي بقايا الجص هنا ليأت، ويأخذ ما سيناله، وإذا لم يرم فلا يوسخ فمي.**"

أولاد الحارة يعرفون كاتب تلك العبارة. وإذا كان أحد منهم لم يتذكر اسمه، فقد كانوا يتذكرون مهنته. كان آذناً في إحدى الجامعات، وبقي يسكن هنا مع زوجته المريضة طريحة الفراش، وحماته حتى الخريف الماضي. لأنه كان غاضباً من قدوم العمال بين فترة وأخرى أثناء استمرار إنشاء البناء المجاور، ورميهم بقايا الجص أمام بيته، خرج ليكتب تلك العبارة بنفسه. مات الرجل ذات خريف، وبعد ذلك انتهت عمليات البناء، وبقيت العبارة على الجدار على مدى كل هذا الزمن.

قلت لإثل عندما كنا مبتعدين عن حي الآذن: "إننا نلفت النظر بما يكفي أساساً. ألا يمكن أن ترتدي بشكل أفضل؟"

قالت وهي تُحرك ذراع علبة السرعة: "لا تتوجه نحوي. موضوعنا ليس هذا بل أنت. هذا مشروع م ت ض س س م العائد لك، وليس مشروعي. نحن انطلقنا في الطرقات من أجل مشروع تبرئة ضمير سيد اعتاد السوء لا مبالياً! طوال عمرك رأيت نفسك فوق الناس من حولك، ومختلفاً عنهم في الوقت ذاته. ولكنك نظرت، فوجدت نفسك قد أسأت بشكل كبير جداً، فتريد الآن أن تثبت أنك كالجميع لأجل التخلص من عذاب الضمير. بقدر ما نجمع عبارات عن الزبالة، بقدر ما ستعتقد أنك بريء. يا إلهي! إذا لم تكن يداي ملتاثتان بدم امرأة عجوز، فهما ملتاثتين بآهها. دفعت غالياً ثمن الاستخفاف بالناس. في النهاية رأيت إبليساً، بعيني المجردتين. رأيته، ولكنني آمنت بك وحدك يا إلهي. أنا أيضاً كالجميع. انظروا، فعباد الله الآخرون يكتبون على الجدران عبارات مثلي. اكتشفت بأنني قمت بعمل عادي إلى أبعد الحدود. اكتشفت بأنني إنسان لست مختلفاً بقدر ما اعتقدت. أشكر الله على كوني عادياً! إذا كنت تحبهم، فاغفر لي أيضاً... ستغفر لي يا إلهي، أليس كذلك؟ اصحُ بعد كل هذا! لا يمكنك الوصول إلى أي مكان بآمال خاوية كهذه. ألا تفهم هذا يا حلو؟ من تطهر في المزابل لتتطهر أنت..."

* * *

بعد فترة بدأنا بفصل العبارات بحسب أنواعها. وكانت إثل تنقل الصور التي التقطتها إلى الحاسوب في اليوم ذاته، وتجمعها في ملفات مختلفة. البند الأكثر ازدحاماً هو بند العبارات المتضمنة الإهانات والشتائم. أكثر العبارات رواجاً هي عبارة: "يكون حماراً من يرمي الزبالة هنا" وبحروف بقدر النعال كتب في زقاق المصرف القديم في حي غلاطة: "من يرمي الزبالة تكون أمه". وشطبت تتمة الجملة بعناية. وفي زاوية زقاق أصطورومجو من منطقة الفاتح كتب على واجهتي بيت تساقط طلاؤه الإسمنتي مئات المرات، كأنها خرجت من يد تلميذ أخذ عقوبة من معلمه لكتابة الجملة نفسها مئات المرات: "من

يـرمي الزبالة قحبة". كما كان يُقرأ في زقاق قرقطولومبا من الحي نفسه عبارة: "حمـار ابـن حمـار من يرمي زبالة هنا". وإذا كانت الشتائم منتشرة في كتابات الزبالة، فإن أنواع الشتائم محدودة. كان يُكتب على لوحة معلقة بواسطة خيط بشجرة توت في حي دولاب درة: "من يرمي الزبالة هنا قحبة إذا كانت امرأة، وقـواد إذا كـان رجـلاً". وعلى مبعدة متر تلفت النظر عبارة أخرى على واجهة بيـت أمامـية: "من يرمي زبالة هنا فهو لائق بكل أنواع الشتائم". ثمة عشرات العـبارات المكـتوبة إحداها فوق الأخرى على جدار مهدم بواسطة دهان أسود. أضـيفت العـبارات إحداها إلى الأخرى بحروف وأسطر متعرجة وكأنها مكتوبة تهريـباً، وكل قادم يمحو العبارة السابقة. ثمة واحدة كأنها كتبت بدهان أزرق بـتاريخ أحـدث مـنها كلها: "من يكون إنساناً يفهم أن من يرمي الزبالة هنا هو ابـن قحـبة" ولكـن عـبارة الـزبالة الـتي تحمـل أقذع الشتائم في ملف الشتائم- الإهانـات تلـك الـتي في زقـاق كرسـتجي رجب من حي دولاب درة هي: "من يرمي الزبالة هنا فإن أمه وعرضه وأخته وماضيه ومستقبله..."

بقـدر مـا تؤسـس العـبارات المحملـة بالشـتائم عـلى الفصـل بـين الإنسان والحـيوان بقـدر مـا تنتشر. كان يُكتب على إحدى اللوحات في زقاق جاميكان مـن حـي غلاطـة: "إذا كنت إنساناً فلا ترم زبالة، وإذا كنت دباً فارم". وكتب بـالفحم على جدار جانبي لمصرف في زقاق الخندق الصغير: "لـيرم زبالة من لم يكـن إنسـاناً"، وبالطباشـير عـلى جـدار مـن أولـه إلى آخـره في دولاب درة: "الإنسـان لا يـرمي زبالة هنا". والعبارات التي غطت واجهتي كنيسة السريان هـي: "لا تـرم زبالـة، وكـن إنسـاناً"، "من يـرم زبالـة هـنا، فهـو دنـيء بقدر الزبالة"...

في التصـنيف الثالث للعبارات، جاءت تلك التي تحاول بث وعي المواطنة. فقد كان يكتب في قوشتبة: "من اعتاد على توسيخ البيئة عنده عقل، ولكن ليس عـنده إحسـاس". وفي الحـي نفسـه كتـب عـلى لوحة صفيح مثبتة بمسمار عند تقـاطع طريقين عبارة: "لا تستهينوا باحترام الناس برميكم الزبالة في البيئة". وهـذه كتبـت بأحـرف معتـنى بها كاللؤلؤ على عكس كتابات الزبالة الأخرى.

وكـان قد كُتب على طرف بئرٍ قديمة وسط سوق بلاط: **"عديم الشرف من يرمي الـزبالة هـنا. المكـان لنا جميعاً"**، أما على جدار مهلهل من الواضح أنه سينهار بزلـزال خفـيف في حـي أورنـك تـبة فقد كتب: **"من يرم زبالة هنا فهو يسيء لجيرانـه"**. ثمة عبارة زبالة تقابل زوار بطركية الفنار من بعيد: **"من يرم زبالة هنا يكون إنساناً عديم الشرف"**.

ثمـة جـزء هـام مـن العبارات المتروكة من دون إكمال. بعضها تساقط بفعل الـزمن، وبعضـها الآخـر تـرك ناقصـاً مـنذ البداية. هنا كتبت كلمة زبالة على مخـتلف أنـواع الـزوايا، ولا يوجـد تـتمة لهـا. عـلى الجـدار المقـابل للمدرسة الابتدائـية في زقـاق الـبابا رونجـاللي في حي حربية كتبت عبارة محيت بعض حروفها: **"من يرمِ زبالة هنا فهـ حما..."**.

عـدد العـبارات المحملـة بالتهديد المباشر ضخم جداً. أكثر العبارات بينها تكـراراً هـي القائلة: "من يرمِ زبالة هنا فسيجد بلاءه". طرفا السبيل التاريخي المجاور لجامع أوتش باش في حي الفاتح مليئان بالعبارات المحملة بالتهديد: **"لا تـرم زبالـة هـنا/ سـيقع عـلى رأسـك البلاء"**. أكثر عبارات التهديد المتضمنة دعـاء شـؤماً هـي تلـك المكـتوبة بقـلم لباد على قطعة ورق مقوى، ومعلقة على الجدار في أكثر أمكنة الحي ازدحاماً: **"ليمت ابن من يرمي زبالة هنا"**.

إلى جانـب العـبارات المحملـة بالـتهديد أو الإهانـات، ثمة عبارات كتبت بأسـلوب في منـتهى الـرقي: **"لطفاً، لا ترموا زبالة"** أو **"يرجى ألا ترمى زبالة هنا"**. ثمـة لوحـتان ظهـر إحداهمـا للأخـرى في مدخـل مدرسـة قـبطان باشـا الابتدائـية، إحداهمـا كتبـت مخاطـبة التلامـيذ الذيـن في الداخل، أما الثانية فتـتوجه لـلمارة مـن الـزقاق: **"لطفـا، لا تـرموا زبالـة إلى حديقـة مدرسـتنا مـن الخـارج"**. وثمـة واحدة مشابهة مكتوبة على الخشب المحيط بالإنشاءات التي تبنى في مدخل زقاق الجامع المعلق: **"ممـنوع رمي الزبالة Please"**، أو في زقاق مايمنت: **"يرجى ممن يحب ربه ألا يرمي زبالة هنا"**.

أكـثر الكـلمات المسـتخدمة في عـبارات الـزبالة هـي كـلمة ممنوع. بحروف ضخمة جـداً حُفِرَ عـلى الجـدار المحـيط بقصـر أولاه: **"ممنوع رمي الزبالة"**.

وكذلك الأمر على الجبهة الجانبية للخياط المشهور في الحربية، فقد كتب بمضمون مختصر جداً: "**الزبالة ممنوعة هنا**". والكلمة المنتشرة الأخرى هي *قطعياً*. فقد كتب على الجدار الضخم جداً لعيادات المستشفى التعليمي في أوقميدانِ التابع لمؤسسة الضمان الاجتماعي لكي ترى من الطريق ببساطة: "**ممنوع رمي الزبالة قطعياً**". وإلى الأمام مباشرة: "**ممنوع رمي الزبالة ومخلفات البناء قطعيا**".

لا يوجد تحت أي كتابة من الكتابات تقريباً اسم أو مرجعية.. ولكن لا يخلو الأمر من بعض الاستثناءات. في الحالات التي يُشعر بضرورة تقوية بعض العبارات بسلطة ما، يمكن ملاحظة اسم المختار على الأكثر. فقد كتب في زقاق المثنوي خانة: "**يرجى عدم رمي الزبالة. إذا ضبط أحد ما سيكتب مخالفة. المختار**". وتدخل البلديات أيضاً بهذا الأمر في هذا النوع من العبارات: "**ستقوم البلدية باتخاذ الإجراءات العقابية بمن يرمي الزبالة هنا**". وأحياناً يتبنى العبارة سكان الحي كما يشاهد في حي زيرك: "**الله يبعث البلاء لمن يرمي زبالته، أو يصف سيارته هنا. سكان الحي**".

بعد هذا تأتي العبارات المتعلقة بالدين والإيمان. يكتب حول القصر الذي أعاد بناءه أمير مولدافيا دميتري كانتمير بين عامي 1688– 1710 ولم يبق منه الآن إلا أنقاض: "**لا ترموا زبالة كرما لله**". محيط المساجد كلها ممتلئ إلى نهايته بكتابات مشابهة لما كتب على جدار ثانوية الروم الخاصة في الفنار: "**من عنده دين أو إيمان لا يرمي زبالة هنا**". وعلى مبعدة مئة متر إلى الأمام في زقاق ضومانلي من حي كاغتهانة كتب على ورق مطبوع على الحاسوب عبارة: "**ليُمسخ من يرمي زبالة هنا**". وفي أحد الأزقة الفرعية المفتوحة على ساحة قاضي كوي، كتبت عبارة: "**يبعث الله البلاء لمن يرمي الزبالة هنا**". وكتب على جدار حديقة عبارة مغطاة بملصقات انتخابات المختار في حي الفاتح: "**لطفاً لا ترموا زبالة هنا. إنهم يدعون عليكم**". ونالت مقبرة قديمة محشورة بين بنائين في المنطقة ذاتها نصيبها من كتابات الزبالة. كانت واجهة أحد البناءين مغطاة من أولها إلى آخرها بعبارة مكتوبة بحروف كبيرة: "**لا**

ترموا زبالة كرما لله". وظهرت أمامنا عبارة معروفة لنا على سبيل ماء تاريخي في حي جيهانغير: "يوجد هنا ولي. لا ترموا زبالة".

كانت العبارات تظهر أمامنا في منعطف غير متوقع، وطلعة قفر يتشاور فيها الجان، وعلى بناء تاريخي ابتسامته مكبوتة وخزانه متشقق، وعلى حواف عربة فقدت طزاجتها لم يبق منها سوى سجل يشير إلى أنها كانت تعود إلى إحدى الدور الكبيرة، وفي أزقة مسدودة لها فم وليس لها لسان، وفي ساحات الأسواق الأسبوعية التي لا يمكن عبورها من تراكم الزبالة، وعلى واجهات الأبنية التي تضج بالحياة، والدوائر الرسمية الذاوية، والمستشفيات التي يمرض منظرها الإنسان، ومدارس الأطعمة الباردة، وأمكنة العبادة التي لا يمر اسمها في خرائط الله المصفرّة، وفي كل مكان يتداخل فيه القديم والجديد، وتصل إليه رائحة اسطنبول. إنها عشرات آلاف العبارات حتى الآن، وتتكاثر باستمرار من الليل حتى الصباح. والصور التي بيدي تزداد متضاعفة أيضاً.

شعرت إثل بالضيق قبل مرور وقت طويل. ابتعدت منزلقة عن الزبالة وعني. وبقيت مشروعاً غير مكتمل في مستودع العشاق الباقين عبارة عن مشاريع منتهية من دون أن تكتمل.

# الرقم 7 و8: الخليلة الزرقاء وأنا

قالت الخليلة الزرقاء معترضة وهي تنظر إلى بيتي المتحول إلى ما يشبه المستودع أكثر مما يشبه البيت: "ماذا ستفعل بكل هذه الصور؟ بماذا ستفيد عملك؟".

"أنا لا أجمعها لكي تفيدني بعملي."

"حسن، لماذا تفعل هذا؟"

أنا لا أفعل شيئاً في الحقيقة. ولا أشعر أنني أفعل شيئاً. يُظهر آخر تحليل لحركاتي كلها أن هنالك ظواهر عدم القيام بشيء أكثر من عمل شيء. عدم العمل أكثر من العمل... لا أستطيع الإمساك بنفسي عن البحث. غير هذا فإنني أجد أشياء ما، وأجمع ما أجده، وأحتفظ بما أجمعه، ولا أستطيع التضحية بالمحتفظ به.

قالت الخليلة الزرقاء ملحة: "ماذا سيحدث فيما بعد؟"

# ماذا بعد...

يُرمز لكل عصر جيولوجي بمجموعة حيوانية. والعصر الذي نعيش فيه هو عصر الحشرات. وقد أسست الحشرات تفوقاً معيناً بالنسبة إلى مجموعات الحيوانات الأخرى.

**الأستاذ الدكتور علي دميرصوي**

**القواعد الأساسية للحياة– علم الحشرات– المجلد الثاني**

قالت رفيقة زنزانتي ملحة: "ماذا بعد، ماذا حدث؟"

"لا يوجد بعد ذلك. ها هو الرجل يجمع كتابات الزبالة التي لن تفيد بأي شيء في أي وقت."

قالت إنها وجدتها هراء. لم أحزن. هذا هو الطريق المكتشف الأكثر فظاظة لقول: "قوة خيالك واسعة." يمكن أن تكون على حق. عندما أبدأ بالقلق، وعندما أقابل بضرورة ما أقول وأين ومتى، وعندما أخاف من نظرات الآخرين، وعندما أحاول عدم إظهار أنني أخاف من نظرات الآخرين، وعندما أريد أن أعرف بنفسي لشخص أريد أن أتعرف عليه، وفي الحقيقة أنني أتجاهل مقدار قلة معرفتي بنفسي، وعندما يحرق الماضي روحي، وعندما لا أستطيع قبول بأن المستقبل لن يكون أفضل من اليوم، وعندما أهضم أن أكون في المكان الذي أكون فيه أو الإنسان الذي أنا عليه... أبدأ بالهراء. بقدر ما الهراء بعيد عن الحقيقة، بقدر ما هو بعيد عن الكذب. الكذب يقلب الحقيقة. أما الهراء فهو يلحم الكذب بالحقيقة حيث لا يمكن التمييز بينهما. يبدو الأمر معقداً، ولكنه في الحقيقة بسيط جداً. إنه بسيط إلى حد إمكانية التعبير عنه بخط واحد.

الحقيقة خط أفقي. ويمكن أن يكون هذا ممراً في فندق أو مهجع في مستشفى أو مركز تأهيل مرضى، أو يمكن أن يكون مقطورة قطار. فهذه أفقية. في أمكنة من هذا النوع يكون جيرانكم كلهم معكم جنباً إلى جنب بالمستوى الأفقي نفسه. لا يمكنكم أن تضربوا جذوراً هنا. لأن الأفقي هو ملجأ المرحلي المؤقت. وأنا أعيش فوق خط أفقي منذ ستة وستين يوماً بالضبط. في الزنزانة السابعة من عشر زنزانات تصطف إحداها بجانب الأخرى على ممر طويل.

---

الكذب خط عمودي. يمكن أن يكون هذا ناطحة سحاب. أو يتشكل من بيوت بني أحدها فوق الآخر على طول خط عمودي، بناء أسفله طابقا مقبرة، وأعلاه سبعة طبقات سماء. ويمكننا هنا أن نضرب جذوراً كما نرغب، ونطلق أغصاناً وفروعاً. لأن العمود هو كهف البقاء، ونظير الخلود.

|

قصر بنبون بناء أنشئ فوق مقابر. إنه خط عمودي صعد طابقاً تلو الآخر. هذه كذبتي. لأنني لا أروي كل هذا من هناك، بل من السجن.

كنت ضمن مجموعة صغيرة اتخذت قراراً بخرق متراس الشرطة بتاريخ الأول من أيار عام 2002. عندما قبض علي، وركبت في حافلة الشرطة على عجل، وقعت إلى جانب رجل برتقالي الشعر، وشراعي الأذنين، ومضحك الوجه، لا يبدي عمره الحقيقي أبداً. كنت شاكرة له لأنه أنساني خوفي بسبب حملقة عينيه كأحجار الفأل. عند أخذنا إلى مديرية الأمن، قال معيداً مرات عديدة بأنه لا علاقة له بالسياسة أبداً، وأن لا عمل له سوى مكافحة الحشرات. كان يقول الحقيقة. إنه مكافح حشرات حقيقة، ومن المحتمل أنه يقوم بعمله هذا منذ ثلاثة وثلاثين عاماً، ولم يكره عمله كما كرهه اليوم. لم يكن اسمه "ظلم" أنا لفقت هذا الاسم. ولكنه لا يعتبر تلفيقاً بالكامل، لأنه يبدو قد تعرض لكثير من الظلم طوال حياته. غير هذا فإن كنيته صحيحة. ولا

أعتبر نفسي كذبت عندما قلت إنه لم يعتقل. كيفما كان فقد أطلق سراحه مساء ذلك اليوم. أطلقوه، ولكنني اعتقلت.

لم يمض علي يوم واحد لم أفكر فيه بظلم أوزتورك. وهذا بسبب هذه الصراصير. أنا أقلق من الصراصير منذ عهدي بالحياة. أنا ثورية تخاف من الحشرات. ومع الأسف يوجد كثير من الحشرات هنا، وخاصة الصراصير. تتجول على هواها في بيوت الخلاء، وأغطية التهوية، وحفرات الجدران، وفي الطقطقة التي أسمعها... وتتكاثر مستمدة الجرأة من الظلام. ولكن صدقوني فإن القمل هو الأسوأ.

ولكنكم من أجل أن تلاحظوا كل هذا، لابد لكم أن تأتوا إلى زيارتي هنا طبعاً، وقضاء بعض الوقت معي. وإذا لم يكن لديكم الوقت، فليس أمامكم سوى الاكتفاء بالاستماع لقصتي من لساني. ولكنني بالنتيجة أتحدث بلساني: ليس بإدخال نفسي أكثر من اللازم بما يحدث، أي ليس على هذا النحو بالضبط. وعلى الأكثر عاملة على الابتعاد قدر الممكن عن السكون الممل للمكان الذي أنا فيه حيث يلتحم خط الحقيقة الأفقي مع خط الكذب العمودي. لأنني كنت أتضايق. لعلني كنت سأشعر بملل أقل لو وجد من يبشرني بأن يوماً ما من الغد سيكون أقل مللاً. ولكن الغد سيكون كما اليوم بالضبط، وكاليوم الذي بعده تماماً. ولكن ليست حياتي فقط هي التي تكرر ذاتها بإصرار. في الحقيقة إن الخط العمودي الذي يحاول التظاهر بالاختلاف قدر استطاعته، ملتزم باستمرارية لا تقل عن استمرارية الخط الأفقي. فالحقيقة عكس ما يُعتقد بأن ما يُسمى "التكرار اللانهائي" خاص بالخطوط، بل بالدوائر.

تخيلت هذه القصة في ذهني من أجل التغلب على عقدة خوفي من الحشرات. في إحدى الزنزانات المصطفة إحداها بجانب الأخرى على خط أفقي، فكرت بامرأة عجوز أرملة تجمع الزبالة وتخبئها، وتخيلتها. لا أعد أنني كذبت تماما بهذا الأمر. يمكن أن توجه إلي تهمة أنني لحمت الحقيقة مع الكذب. وبالعودة إلى البداية لحظة وصولي إلى النهاية.

هـل أنـا؟ لـن أبقـى كثيراً هنا. العقوبة التي فصلوها لي هي سنة وشهران. وهـا قد أكمل ستة وستين يوماً منها. مضى الأسبوع الأول من هذه الأيام الستة والسـتين باسـتغراب مكاني، والخوف من الحشرات. وما تبقى منها بتلفيق ما قـرأتموه لأنسـى مخـاوفي. وبمـا أن الغطـاء الصـفيحي الدائـري المائل إلى اللون الـرمادي قـد توقـف بعـد أن برم، ودار، لا أعرف كيف سأمضي هنا الثلاثمئة والستين يوماً الباقية.

ولكـنني أريد أن يكون أول عمل لي بعد خروجي من هنا هو الذهاب لرؤية ظـلم أوزتـورك. إنه مكافح الحشرات الأول الذي يعتقل بسبب الثورية. الحياة عبثـية... والحـظ أمـر ممـل إلى حـد أنه لا يمكن تمضيته بالإجابة على أسئلة لعبة: "لمن، متى، ماذا سيكون؟"

Metis Yayınları
İpek Sokak 9, 34433 Beyoğlu, İstanbul
Tel: 212 2454696 Faks: 212 2454519
e-posta: info@metiskitap.com
www.metiskitap.com

Metis Edebiyat
BİT PALAS
Elif Şafak



İlk Basım: Mart 2002
Beşinci Basım: Mayıs 2005

Yayın Yönetmeni:
Müge Gürsoy Sökmen

Kapak Tasarımı: Emine Bora
Dizgi ve Baskı Öncesi Hazırlık: Metis Yayıncılık Ltd.
Baskı ve Cilt: Yaylacık Matbaacılık Ltd.

ISBN 975-342-354-3

ELİF ŞAFAK

# BİT PALAS





METİS YAYINLARI

إليف شفق ولدت في مدينة شتراسبوغ الفرنسية في عام 1971، وقضت بداية عمرها في إسبانيا قبل العودة إلى بلادها تركيا حيث درّست في جامعة بلغيل في اسطنبول. تعيش حاليًا في الولايات المتحدة حيث تعمل مساعدة برفسور وتدرِّس في جامعة أريزونا مواد تضم "الأدب والمهجر، سياسة الذاكرة، الجنس والجنوسة في العالم الإسلامي".

فضاء هذه الرواية الجديدة للأديبة التركية إليف شفق عمارة فخمة، كانت في الأصل قصرًا بناه مهاجر روسي لزوجه في نهاية العهد القيصري، تحوي العديد من الشقق، تحولت خرابًا وابتليت بالقمل. أما أبطالها فهم عشرة أشخاص ذوي شخصيات متباينة يعيشون فيها مع عائلاتهم.

كتبت إليف شفق روايتها هذه بأسلوب "ألف ليلة وليلة" لبناء قصة في داخل قصة، حيث يتم التعامل مع نفايات العمارة المسروقة من زوايا ومنظورات مختلفة. فثمة، ضمن آخرين، راوٍ، وزير نساء، وأكاديمي، ومغنية عشيقة تحمل معها أسرار كثير من ساكني البناء.

الرواية تتنقل بين الكوميديا والتراجيديا، دافعها الإحساس بالحاجة إلى العدالة الاجتماعية، وأدبها ضمن لها مكانة رفيعة في عالم الأدب حيث نالت جوائز تركية وعالمية.

إليف شفق كتبت العديد من الروايات أحدثها "The Bastard of Istanbul"، إضافة إلى مجموعة من الأعمال البحثية ذات العلاقة بنضالات المرأة من أجل المساواة.